

لؤييس الحجاج

الجنس الفرنسي

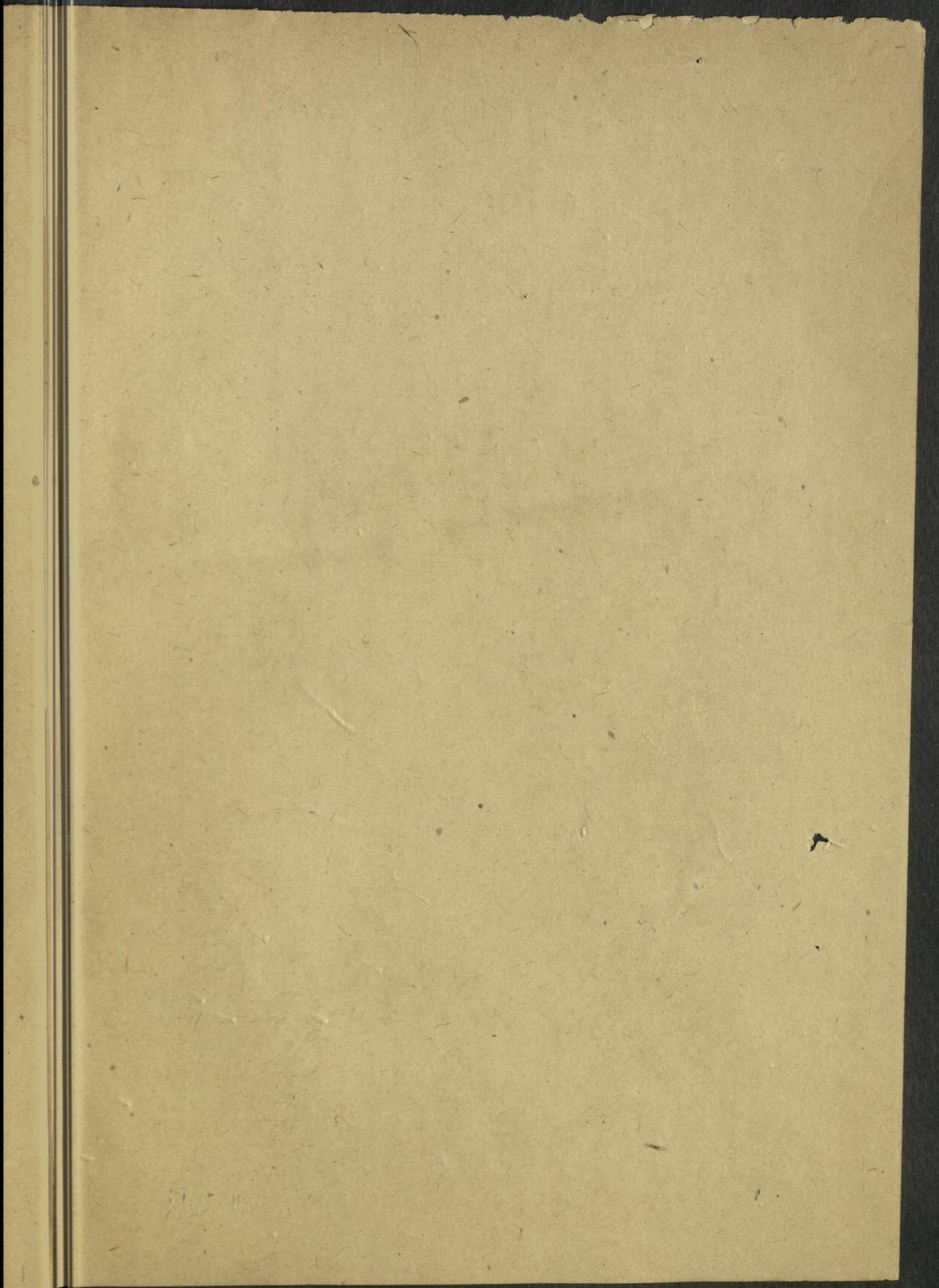
دار المكشوف ، بيروت

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B. LIBRARY

الجيش الفرنسي



لؤييس الحجاج

940.541
H154jA

الخيال الفني

منشورات دار المكشوف

طبع من هذا الكتاب خمسة الاف نسخة على ورق اعتيادي ، وخمسون
نسخة على ورق جيد غير معروضة للبيع .

الطبعة الاولى ، ١٩٤٥

جميع الحقوق محفوظة

المقدمة

لم يحتل جيش في تاريخ امة المكانة التي احتلها ويحتلها الجيش الفرنسي في تاريخ الامة الفرنسية . فقد كانت المؤسسات العسكرية وما تزال دعامة الوطن الفرنسي وسيواجه ، ساهمت في انشائه وحالت دائماً دون تصدعه تحت ضربات تنهال عليه من داخل او تسدد اليه من خارج .

بالجيش استطاعت الملكية الفرنسية ان تفرض نفسها وان تحقق الوحدة الوطنية في بلد ضم خليطاً من العناصر ، متعددة الميول والاهواء . ذلك بان اخوة السلاح اوجدت الذكريات المشتركة بين اقوام كانت الارض الواحدة قد شدتهم بعضهم الى بعض .

وبالجيش فرضت فرنسا الموحدة نفسها على اوزوبا دولة عظمى . وبه حال فرنسوا الاول وهنري الرابع ولويس الثالث عشر و« الملك الشمس » دون سيطرة الامبراطورية الجرمانية على القارة وحفظوا لفرنسا حدودها الطبيعية .

ولولا الجيش لما آتت الثورة ثمارها . ففي « فالمي » انقذ جيش الشعب فرنسا الجديدة واستخلص حقوق الانسان . وما انفك منذ ذلك سباج الوطن وحارس السلم وحامي الحضارة . ذلك بان موقع فرنسا الجغرافي يحتم عليها التدخل في كل نزاع ينشب في القارة الاوروبية . وهي اذ تتدخل انما تنهد لاداء رسالة سامية : احقاق الحق ورفع المظالم . ومن هنا كانت تسميتها « جندي الحق والعدالة » ، ما يجعل لها هذا الاشعاع المعنوي في العالم .

من الخطأ الاعتقاد ان تنظيم الجيش الفرنسي وتطوره وابعاده وليدة الصدفة ، او انها عمل رجال لم يكونوا اكثر من آلات في يد القدر . فقد خضع تنظيمه وتطوره لقواعد وقوانين ما يزال اكثرها نافذاً . واجتاز منذ نشأته الى اليوم مراحل ذاق خلالها حلاوة الظفر في مئات المواقع وذاق مرارة الهزيمة في عشرات منها . فكان في كلا الحالين جديراً بتقاليده اميناً لرسالته . وهي تقاليد ورسالة قلما نجد مثلها في جيوش البلدان الاخرى .

ان لويس الحاج ، الذي سبق له ان نقل الى العربية « نحو الجيش المحترف » لمؤلفه الجنرال شارل ده غول ، والذي اتاحت له مطالعته واشغاله القلمية مراقبة تطور المؤسسات العسكرية في

العالم عامة وفي فرنسا على الاخص ، يقدم الى قراء العربية تاريخ
الجيش الفرنسي ، مدفوعاً بالرغبة المخلصة في تعريف هذه المؤسسة
اليهم ، في الوقت الذي يمنح الشرق العربي الى انشاء القوى المسلحة
ليجعل منها سياج الاستقلال ودعامة البنيان القومي .

ولا ريب عندي في ان المهمة التي اضطلع بها لويس الحاج
تمهر المكتبة العربية بكتاب نفيس وتضع في متناول محبي
الاطلاع ، ولا سيما الذين يعنون بالشؤون العسكرية من الناطقين
بالضاد ، سفيراً يوفر عليهم تقليد بطون التواريخ لاستخلاص ما
يتوقون الى معرفته من نشأة الجيش الفرنسي وتطوره خلال
العصور .

الفريق **هيبانو**

القائد الاعلى للقوات الفرنسية في الشرق

نوطة

يحلو للفرنسيين ان يصفوا انفسهم بانهم شعب عسكري وان يعترف لهم الناس بهذه الصفة . وهم بعملهم هذا لا يدعون ميزة ليست لهم . « ففرنسا مدينة للسيف بوجودها واستمرارها . » امتشقت الحسام منذ نشأتها وما انفكت منذ ذلك تناضل في سبيل البقاء . لهذا كان تاريخ الجيش الفرنسي هو نفسه تاريخ الامة الفرنسية . « استطاعت فرنسا ان تتوحد وان تستقل بجهاد ابنائها ، ولم يذكر التاريخ ان فرنسياً واحداً وقف حسامه على خدمة دولة اجنية لان الوطن كان دائماً في حاجة الى سواعد ابنائه جميعاً . »

قوت الطبيعة نفسها رسم الاطار الارضي للدولة الفرنسية . ونظمت بلاد الغول الرومانية نفسها ضمن هذا الاطار . وقبض لكلوفيس في وقت ما ان يجمع فيه العناصر التي تألفت منها الامة الفرنسية فيما بعد . وقد تأضلت هذه الامة دون هوادة لتجيا حياة حرة داخل حدود طبيعية ليست كلها واضحة وقوية : فقد كانت الحدود الشمالية الشرقية وما تزال تشكل نقطة الضعف في كيان فرنسا بل تشكل مأساة رائعة في تاريخها .

استطاع الفرنسيون ، بعد جهاد طويل وشاق ، تطهير المناطق التي استولى عليها الفاتحون والغزاة في الجنوب والشمال والشرق . ومد ذلك قام بحر المانش وجبال الالب والجورا والبيرينه حدوداً طبيعية بين فرنسا واعداء الامس . وبقيت قيد التصفية الحدود الشمالية الشرقية وسهما اذا شئت مسألة الرين .

طرحت هذه المسألة في عهد الامبراطور شارلمان . وعولجت في عهد فيليب
الجميل وشارل السابع ولويس الرابع عشر . ولم تغفل شأنها الثورة والامبراطورية .
وفي نزاع ١٩١٤ - ١٩١٨ اثبت بشكل جدي ولكنها لم تحل ، مع الاسف ،
في مصلحة السلامة الفرنسية . وهكذا ظلت فرنسا مكشوفة من الشمال الشرقي
لان الرين ، غطاءها الطبيعي الوحيد من هذه الناحية ، ظل يجري في المانيا .
فما دامت فرنسا قائمة ومن حولها جيران اقرباء يطمعون بما تملك او
يسعون الى ازالتها من الوجود ، ينبغي للامة الفرنسية ان تظل هي اياها :
امة قوية متحلية بالفضائل العسكرية .

الفصل الاول

اقدم الجيوش الفرنسية

١ - الغوليون

في القرن التاسع قبل الميلاد عبر السلتيون نهر الرين ولكنهم لم يتوغلوا جنوباً الا في القرن السادس . وما ان تمت لهم الغلبة على قبائل الليغوريين حتى اجتاز الايبيريون (سكان اسبانيا والبرتغال) ممرات الپيرينه واحتلوا سفوحها الشمالية . وهكذا اضحت بلاد الغول تضم خليطاً من الغزاة : السلتيون والايبيريون والليغوريون . ومن هذا الخليط تكونت امة ذات بأس ما عتمت ان اندفعت في مضار الفتح .

كان الليغوريون سمر البشرة ، نحاف البنية ، لا يزيد طول الواحد منهم على باعين . واشتهروا بشدة البأس وبالصبر على المكاره . وبرعوا في الصيد والقنص . ولكنهم كانوا قليلي الميل الى الحرب ، لا يرحون ارضهم في طلب الرزق ولا يسعون الى التوسع على حساب الجيران . وصفهم المؤرخون بانهم قبائل مسالمة تؤثر الارض والقنص على الغزو . وكان المقلاع سلاحهم الوحيد . لهذا لم يقووا على صد السلتين .

كان هؤلاء عمالقة شعورهم شقراء وعيونهم زرقاء . اشتهروا بالتزوع الى السيطرة وتحلوا بشجاعة ليس بينها وبين التهور كبير فرق . وقد عبروا الرين

مسلحين بالمقاليع وبآلات قاطعة من البرونز . وما لبثوا ان سخروا الحديد
لخدمة مارس (اله الحرب) فصنعوا منه السيوف الطويلة .
اما الايبيريون فقد هبطوا بلاد الغول مجهزين بسيوف قصيرة ذات حدين .
وكانوا يغيرون افواجاً يتقدم كل فوج فارس اتصف بالشجاعة والاقدام .
كانت هذه الاقوام تتبع في الحقلين السياسي والعسكري نظام القبائل
المعروف ، فجتمع امر معينة تحت سلطة رئيس ، يعاونه في مهمته مجلس القبيلة
المؤلف من رؤساء الاسر ، وكان يتعين على كل رجل خال من العاهات ان
يخرج الى الحرب اذا كانت القبيلة غازية ، اما اذا كانت هدفاً للغزو فالرجال
والنساء يهون لدفع الخطر دون ما استثناء .
وكان مجلس القبيلة يصرف شؤون الرعية وينظر في الظلامات ويفضل في
المنازعات في اجتماعات خاصة تعقد برئاسة الزعيم او من يقوم مقامه .
فتوحات الغوليين . - في القرن الرابع قبل الميلاد تبرمت قبائل السلتيين
بضيق المدى الحيوي في بلاد الغول ، وكان تكتلها قد جعل منها شبه امه ،
فزادها هذا طموحاً الى السيطرة ورغبة في التوسع . فبدأت الغزوات الخارجية
بسلوك وادي الرون والتفاز الى ايطاليا . وقدر المؤرخون الجماعات التي نهبت
لفتح الامصار بثلاثمائة الف رجل تتبعهم عيالهم . وقد صادفت الحملة مقاومة
ضعيفة عند جبال « الاينان » لان روما استهانت بقوة هؤلاء البرابرة الذين
« وضعوا حقمهم على رؤوس الحراب » ولم تحاول وقفهم الا عندما شرعوا
في زحفهم اليها تملأ جمعهم وجيادهم السهل والجبل . فنشبت بين الفريقين
معركة حامية الوطيس عند ملتقى نهري تير وآليا (على بضعة اميال من
روما) فهزم الغزاة اعداءهم بفضل مناورة بارعة لجأ اليها قائدهم برونوس ،
واندفعوا شطر روما ودخلوها وهم مدهوشون لما احرزوا من نصر وما بلغوا

من سؤدد .

وافقت روما على وقع حوافر الجياد وصيل السيوف ، افاقت من سباتها لتلقى الغزاة بعزيمة ماضية . وكان ان صمد الرومانيون في الكابيتول ذلك الصود العجيب ، فأثر برونوس الانسحاب بعد ان اعياء النفاذ الى الكابيتول وهلك من جيشه خلق كثير بالطاعون والكوليرا وشتى الامراض والابوة ، وقد فرض على روما قبل انسحابه غرامة كبيرة فدفعها صاغرة .

في هذه الاثناء كانت جحافل اخرى من السلتيين قد ظهرت في اوربا الوسطى وسلكت طريق المشرق . بيد ان شهرة اسكندر المقدوني كبحت جماهم فلم يتجاوزوا كورثيا . وبعد مدة اجتاحوا البلقان واليونان وهما بطروادة نفسها ولكنهم صرفوا النظر عنها في اللحظة الاخيرة ليعودوا ادراجهم يسوقون امامهم قوافل السبي وذهب البلقان .

وقد اشترك في هذه الغزوات ستة قادة غوليين . ويرد المؤرخون انتصاراتهم الى عوامل عدة منها تفوقهم العددي الساحق . فقد كان عدد سكان الغول في القرن الرابع قبل الميلاد يراوح بين ٢٠ و ٢٥ مليوناً . ومنها نظامهم العسكري الممتاز نسبياً . فقد كان المتخلفون عن القرعة العسكرية دون سبب مشروع يحرقون احياء بعد محاكمة علنية . وكان للجحافل قيادة عامة ولكل جحفل قائد خاص به . وقد امتاز الغوليون من اعدائهم بالشجاعة والاقدام ونكران الذات .

الجيش الغولي الاول . - اجتاح برونوس ايطاليا بجيش يضم ٢٢٠ الف مقاتل ، منهم عشرون الف فارس يؤلفون النخبة في الجيش الغولي . وقد ابرزت معركة نهر التيبر اهمية الحيلة في حرب الحركات ، فتعاضم شأنها منذ

ذاك وصار الانخراط فيها خاضعاً لشروط معينة ، كأن يكون الفارس من الخاصة او ممن برهنوا في القتال عن شجاعة نادرة .

وكان السيف الحديدي سلاح الغوليين المفضل . طوله متر وعرضه اربعة سنتيمترات . اما الرمح فقد كان استعماله شائعاً قبل الفتوحات الكبيرة ومثله القوس والنشاب . ذلك بان الغوليين ، في اندفاعهم وحماسهم ، تجاهلوا قواعد الهجوم المدرسية التي كانت وما زالت تقضي بنهك العدو والعمل على بعثرة صفوفه قبل السعي الى الالتحام واياه . وكانت الرماح والنبال تقوم بالمهمة الموكولة في ايامنا الى المدفعية والطيران .

كذلك كان الغوليون في اندفاعهم وحماسهم وفي اعتمادهم على قوتهم الجسدية ، يستهينون بالاسلحة الدفاعية استهانتهم بالخطر نفسه . كانت تروسهم رقيقة تغطي حاملها من قمة الرأس حتى اخص القدمين . ولكنها كانت تعوق حركات المقاتل الراجل . اما الفارس فقد كان يجد غضاضة في حمل الجنب ويبرز الى الميدان مكشوف الصدر والظهر .

ولم تكن دروع الغوليين وخوذهم احسن حالا من التروس ، كانوا يصنعونها من البروتز ويحفرون عليها شارات ورموزاً وتعاويز ترمي الى القاء الرعب في قلب العدو .

التكتيك . - يذكر المؤرخ « تيت ليف » ان الغوليين كانوا يخرجون للقاء العدو جحافل متراصة ، سواء في ذلك الفرسان والمشاة . وكان هؤلاء يسيرون الكتف على الكتف فتؤلف تروسهم المتلاصقة قناعاً لا نهاية له . ولم يتخذ الغوليون وجهة عسكرية معينة اساساً لتنظيم الجيش ، بل كانت جحافلهم تؤلف في القتال وحدة كبرى تصعب قيادتها وتوجيهها . ويقول المؤرخ « تيت ليف » ان الفرسان كانوا ينقضون على العدو

أولاً ، فإذا انفرط عقده قبل الصدام ، طارده الحياالة واعملت فيه سيوفها .
 أما إذا صد حيث هو فيدعى المشاة الى الالتحام وایاه ، ويتفرغ الفرسان
 لضرب جناحيه . وقد استعانت الجحافل الغولية بالكلاب الضخمة على
 سحق مقاومة العدو . وهي كلاب روضت ودربت على القتال تدريباً خاصاً .
 من تقاليد الحرب التي حملها السلتيون الى بلاد الغول الفتك بالعدو ولو
 القى السلاح . وكانت حجبتهم ان اسرى الحرب يعوقون عمليات الفتح والغزو
 لان فرزهم وسوقهم الى المؤخرة وحرصتهم تقتضي تجميد عدد كبير من المقاتلين
 يعهد اليهم الرؤساء بهذه المهام . ومن تقاليد السلتيين ان يعود الفارس من
 الساحة وقد وضع في عنق فرسه عقداً من رؤوس الاعداء .

هذه التقاليد البربرية مضافة الى شجاعة الغوليين وتفوقهم العددي هي التي
 امنت لهم السيطرة على اوروبا رغم آلتهم الحربية الهزيلة . وبديهي ان تعجز
 هذه الآلة عن اثبات وجودها وان يمسي التفوق العددي عديم النفع والقيمة
 امام روما الواعية ، ذات الجيش المنظم والوسائل الهجومية المتفوقة والموارد
 التي لا تنضب .

شرعت روما تشد سلاحها وتنبها للاخذ بالثأر منذ ان بدأت جحافل
 السلتيين تجلو عن ايطاليا . الا ان جحافلها لم تطأ ارض الغول الا بعد مرور
 مئة وخمسين عاماً على انتهاء الفتوحات الغولية . وقد تعاضم شأن روما خلال
 هذه المدة بقدر ما تضاعل شأن الغوليين الذين ابطروهم الثراء فتعاموا عن مرأى
 الخطر ولم يعنوا بمؤسساتهم العسكرية فظلت هي اياها : جحافل اشبه ما
 تكون بقطعان الماشية ، وسلاح اضعف من ان تواجه به وسائل هجومية
 مستحدثة كالاسلحة الرومانية .

لهذا لم يلق الرومانيون صعوبة في اخراج الغوليين من شمال ايطاليا وفي اخضاع القبائل الضاربة في سفوح جبال الالب . وقد سهل مهمة الغزاة الخلاف الذي ذر قرنه بين زعماء القبائل الغولية وحال دون قيام سكان الغول الجنوبية والوسطى لنجدة اخوانهم المهدين بالزحف الروماني .

وقبل ان تتوغل الكتائب الرومانية ما وراء الالب جاز هنيبعل بمرات هذه الجبال (سنة ٢١٨ قبل الميلاد) بجيش عرمرم يضم كتائب غولية وضعت نفسها في خدمة الفاتح القرطجني بعد ان اجلاها الرومانيون عن شمال ايطاليا وسفوح الالب .

هزم هنيبعل كتائب روما في معارك ثلاث اشهرها معركة « كان » ولكنه دفع ثمن انتصاراته غالياً ، وكان ثلثا القتلى في صفوف المنتصرين من المحاربين الغوليين لان الفاتح القرطجني كان يحتقرهم ويزج بهم حيث يكمن الحظر . اما الكتائب الاسبانية والقرطجنية فكان يعهد اليها بالمناورات ولا يدفع بها الى وسط الساحة الا عند الضرورة القصوى .

وقد حاول هنيبعل ، وحاول بعده اسدروبال واميلكار ، حمل الغوليين كافة على محاربة روما ، فلم تثمر هذه المحاولات . الا ان هذا الموقف لم يشفع ببلاد الغول لدى الرومانيين الذين احتلوا اسبانيا بعد ان تم لهم سحق قرطجنة ، ثم هرعوا الى نجدة مرسيلىا التي اجتاحتها جحافل التوتون والقبائل السويسرية وتوغلت في وادي الرون وحوض الغارون . وقد تم للرومانيين سحق الغزاة بسرعة بفضل نظامهم العسكري الدقيق وقيام جيشهم على الفوج كوحدة اساسية . كان المشاة العنصر الرئيسي في الجيوش الرومانية ، وكانت الكتيبة وحدة القتال ، وتحت لواؤها انخرط الغوليون بعد ان قبض لروما اخضاعهم وضم بلادهم الى الامبراطورية .

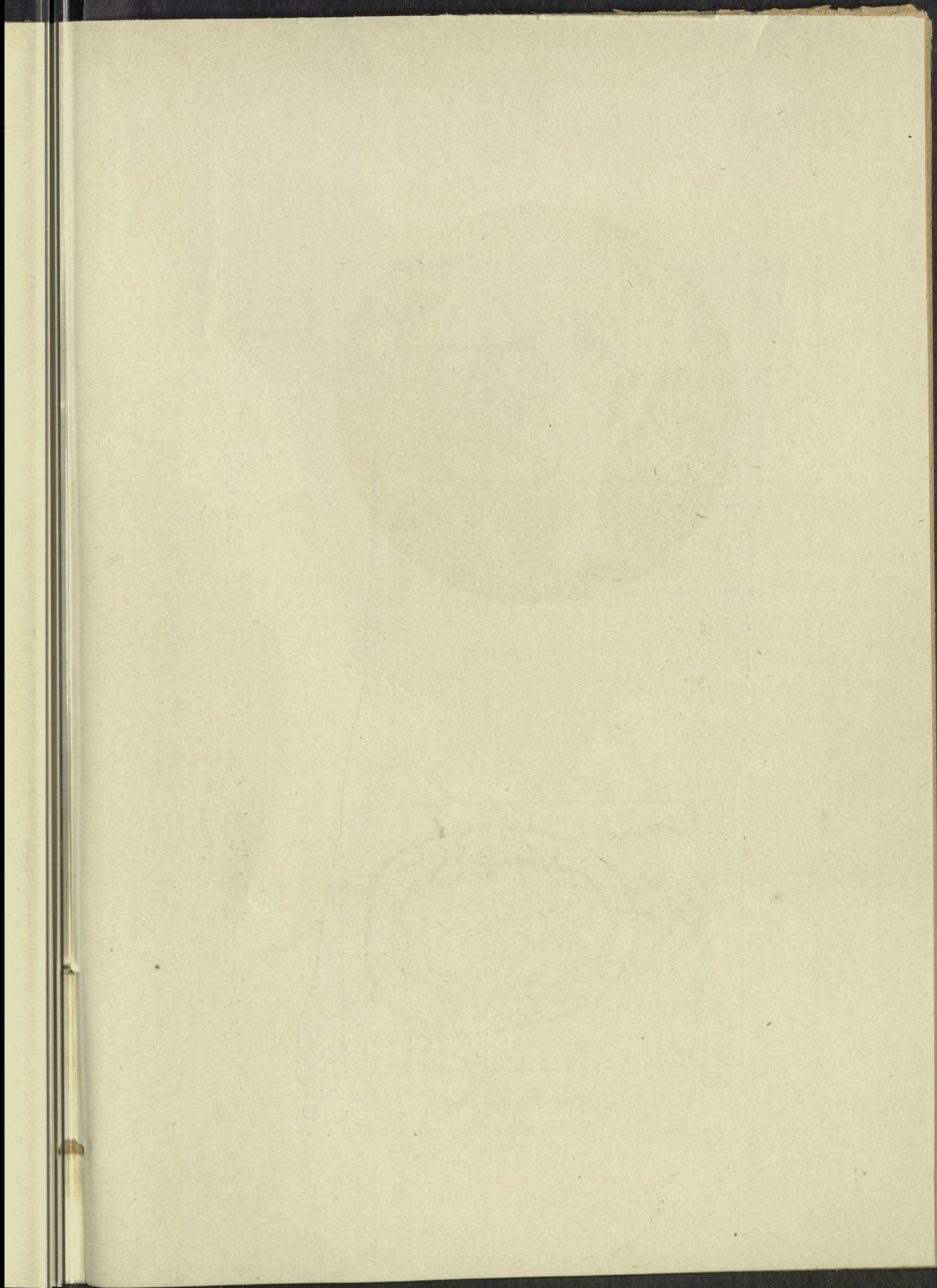
ضمت الكتيبة الرومانية في اول عهدا ٤٥٠٠ مقاتل . وفي عهد بوليوس قيصر ارتفع هذا الرقم الى ستة آلاف موزعة على عشرة كراديس . وكان الشباب يقوم بحرب الطليعة ، سلاحه المزراق والرمح . ويتلوه الامراء ، سلاحهم السيف . اما الحظ الثالث فكان يحمله المتقدمون في السن وهم محاربون قداماء مجربون ، ومن هؤلاء يتألف الاحتياط الذي لا يزوج في المعركة الا عند الضرورة القصوى .

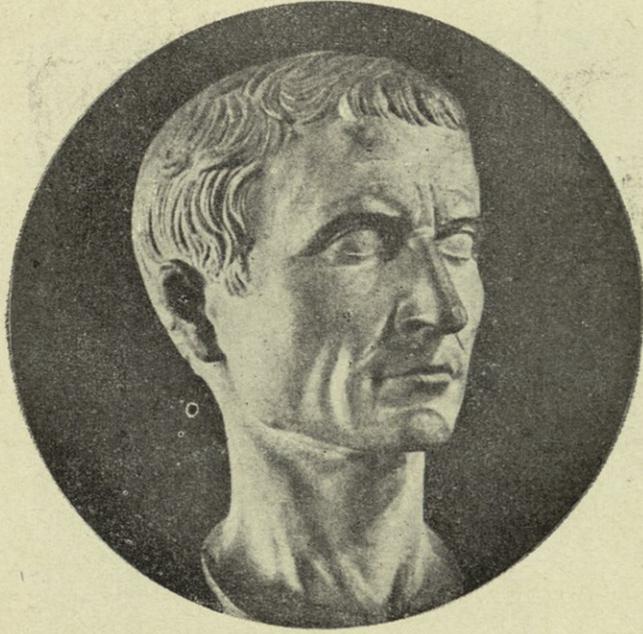
وقد استعان الرومانيون بعناصر غريبة تتقن استعمال القوس والمنجنيق ، وبالفرسان من جرمانيين وغوليين ، لان الحيلة الرومانية لم تكن بذات قيمة . اما ابرز مزايا الكتيبة فكانت مرونتها وسرعة انتشارها واسلحتها المتنوعة التي منها السيف القصير والفأس والرمح والسهام والحجارة . وقد واجه الغوليون كتاب روما المنظمة بجحافل تسود صفوفها الفوضى ، اسلحتها قديمة ومثلها اساليبها في القتال . وكان سكان الجبال والاحراج اقوى المحاربين الغوليين شكيمة واصليهم عوداً . اما ابناء المدن فقد قضت حياة الترف على فضائلهم الحربية وفي رأسها الشجاعة البالغة حد التهور ونكران الذات .

ولكن اذا كانت مؤسسات الغوليين العسكرية لم تتطور مع الزمن ، فقد طرأ على منشآتهم الدفاعية تحول المحال الآهله تغييرات جوهرية ، فاقاموا على انقاض المدن التي بناها اجدادهم فوق البحيرات وعلى ضفاف الانهر ، مدناً محصنة ذات ابواب ، تحوطها الاسوار والقلاع : اورليان وبورج واليزيا للخ . . . وكانت قيمتها الدفاعية في موقعها وفي السور الذي اقيم حولها . اما الموقع فكان في الغالب منحدرًا او هضبة او ضفة مجرى ماء . ولم يكن ارتفاع السور ليزيد على خمسة امتار . اما سماكته فحدها الاذنى اثنا عشر متراً .

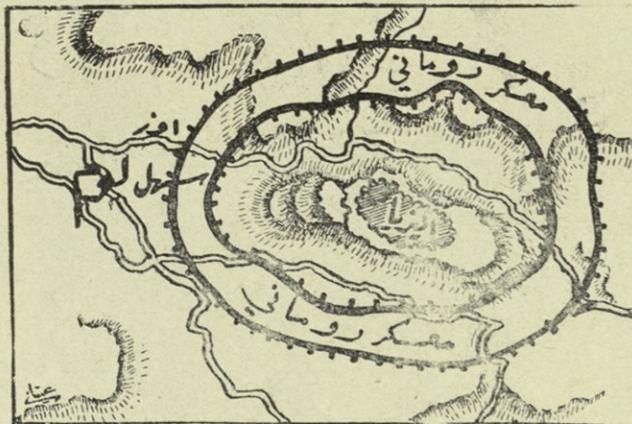


جنود الكتاب الرومانية ، بعضهم يسير والبعض الآخر يحمل الى قائدهم رؤوس جنود من الاعداء ، كما يمثلها حفر على عمود الامبراطور تراجان .

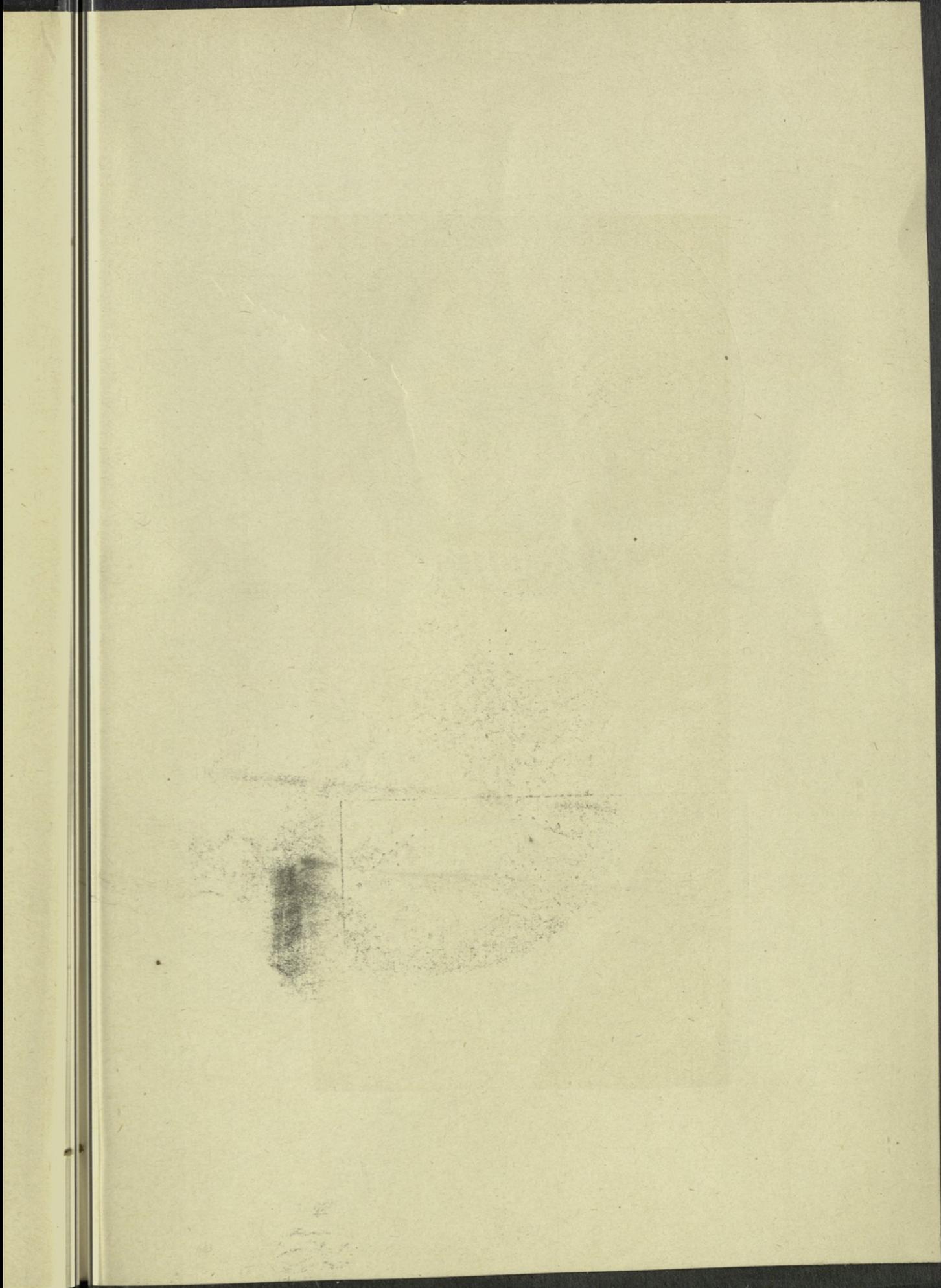


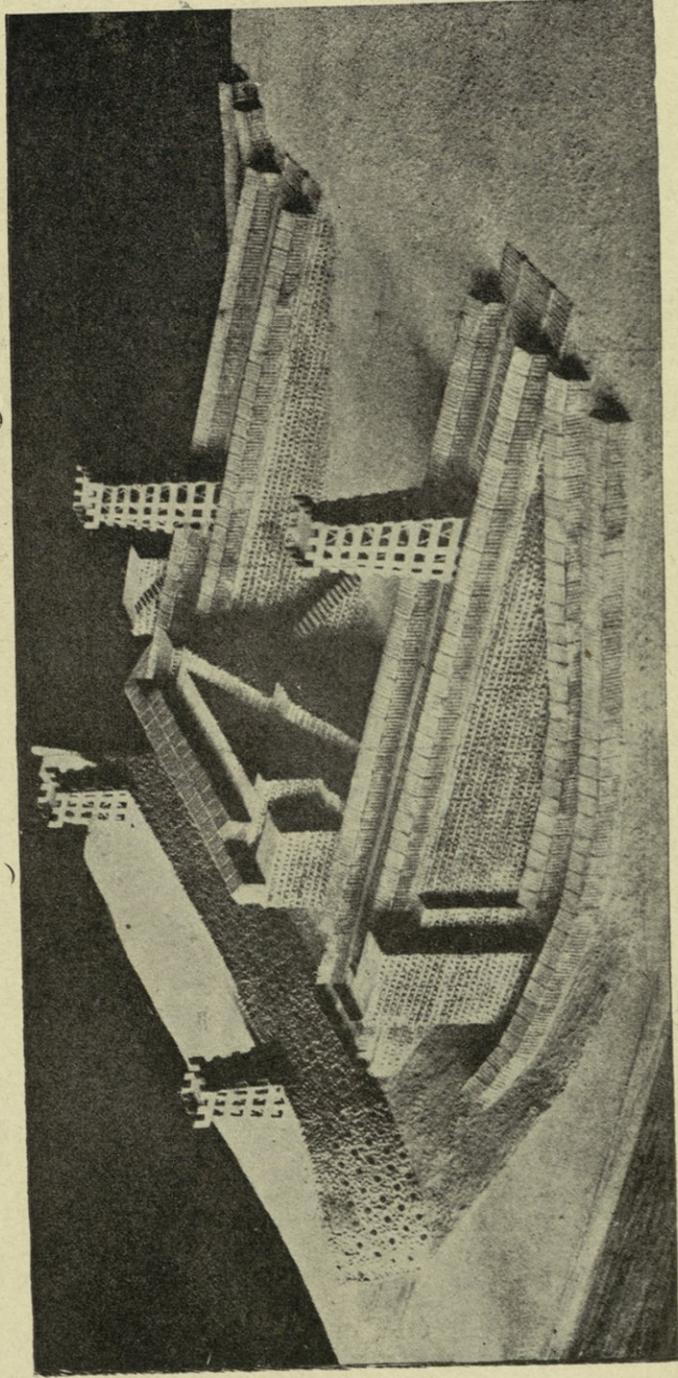


بوليوس قيصر

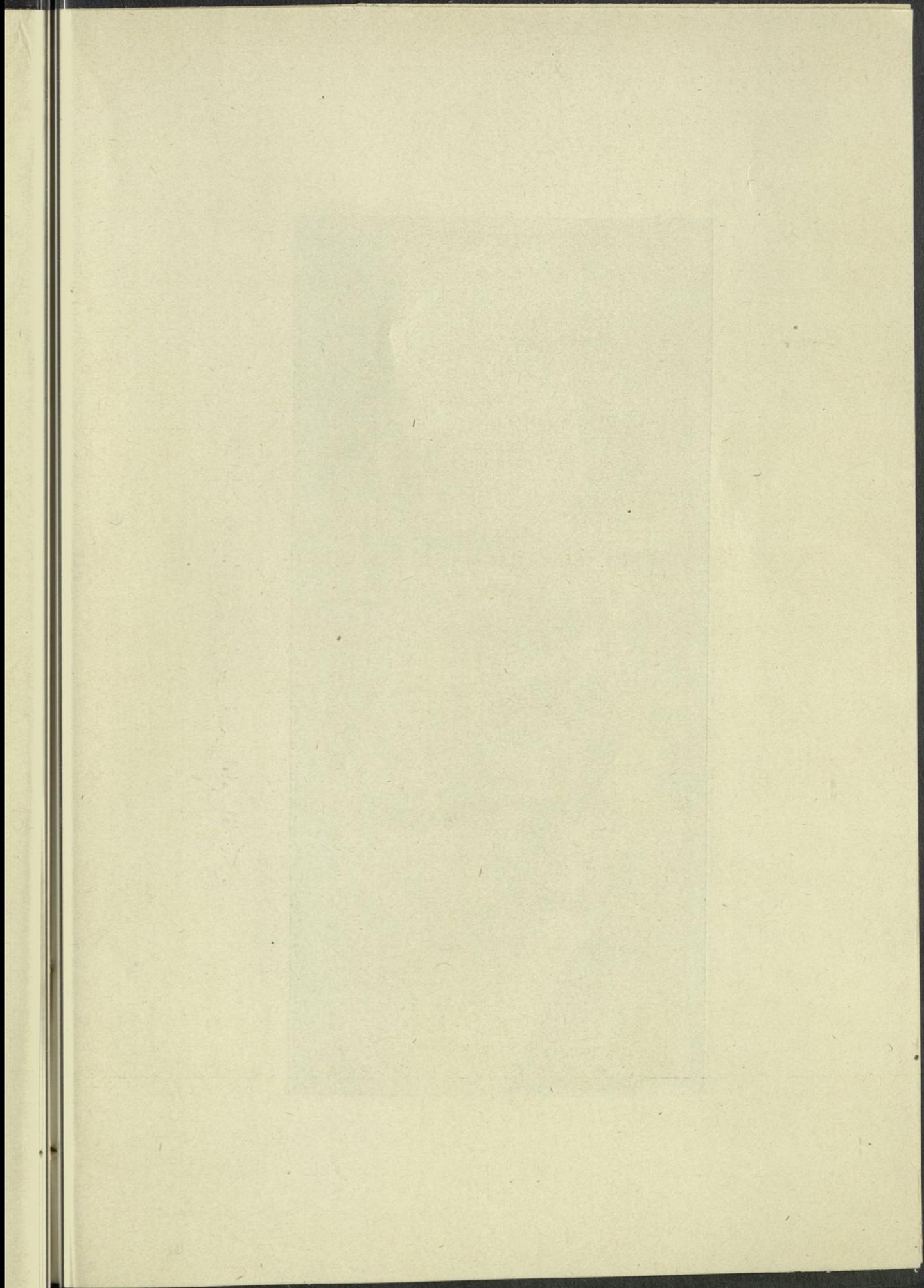


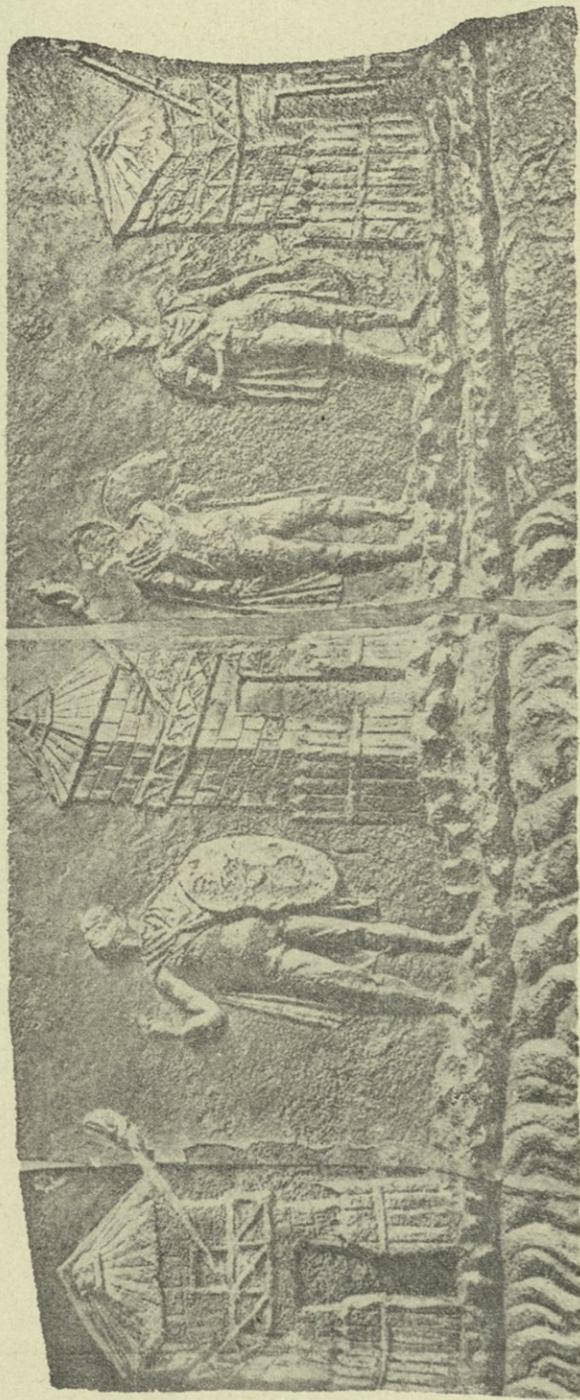
خريطة مصغرة لحصار اليزيا .



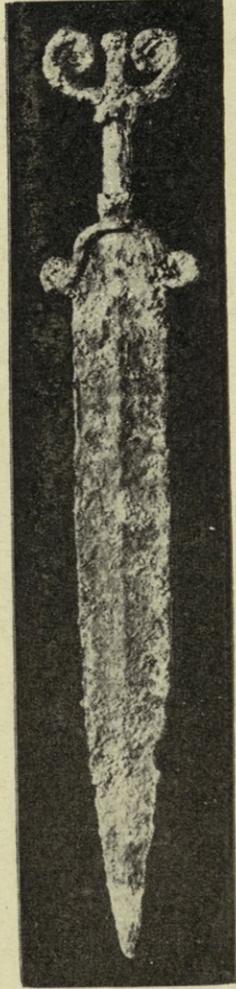


انشاءات دفاعية اقامها يوليوس قيصر امام افاريكوم .





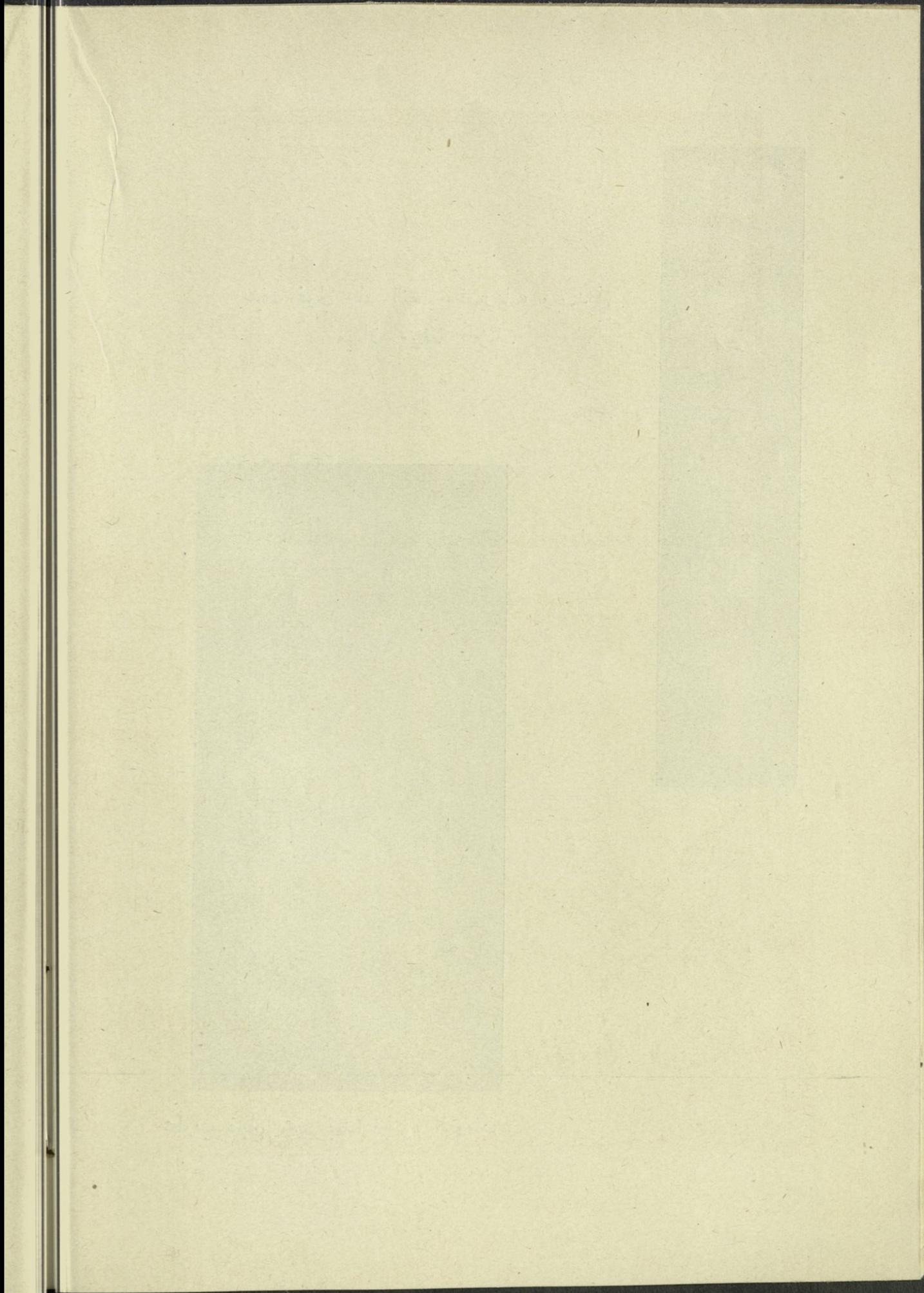
حصون رومانية على نهر الرين يخترها جنود رومانيون يمثلها حفر نائيء على عمود الامبراطور تراجان .



سيف غولي حاد النصلة ، قصيرها ، وجد في
ميدان موقعة أليزيا .

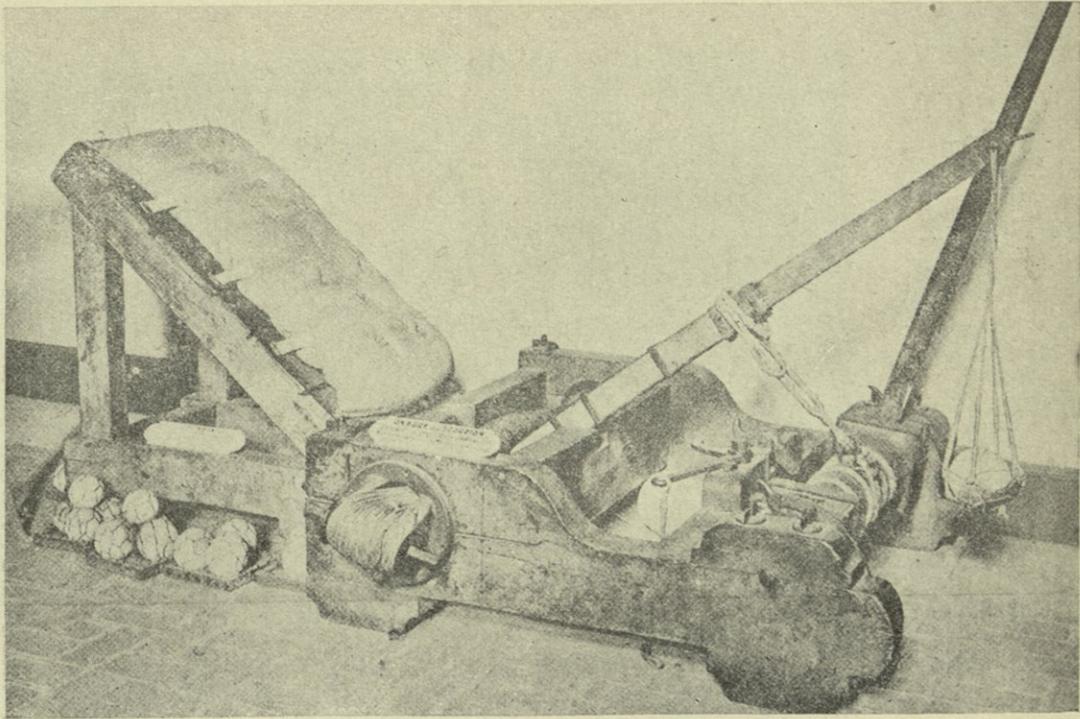


محارب غولي مجهز بعدة الجنود الرومان .

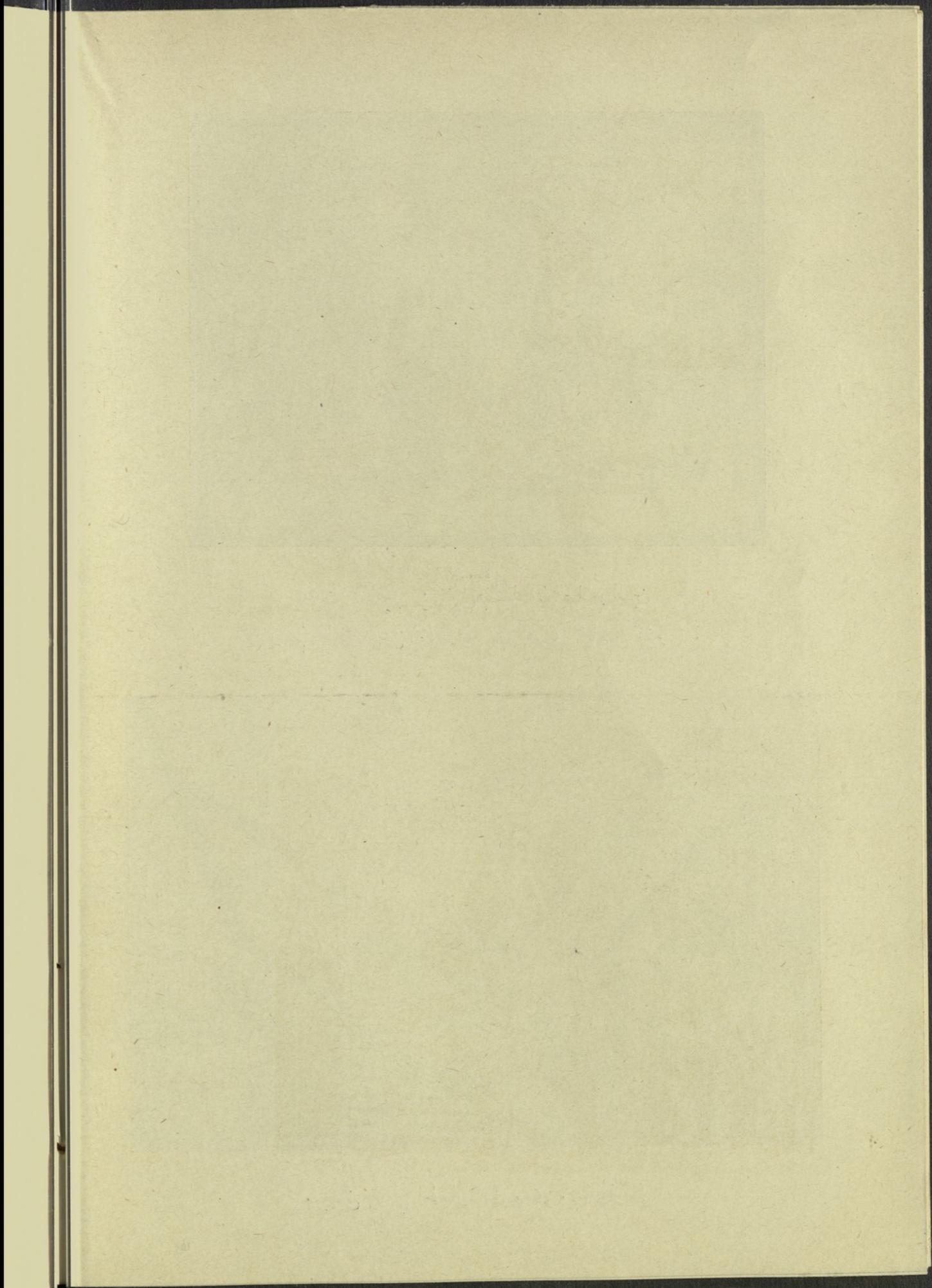




بيت المقدس يستقبل السلطان صلاح الدين
(رسم مأخوذ عن مخطوطة في القرن الخامس عشر).

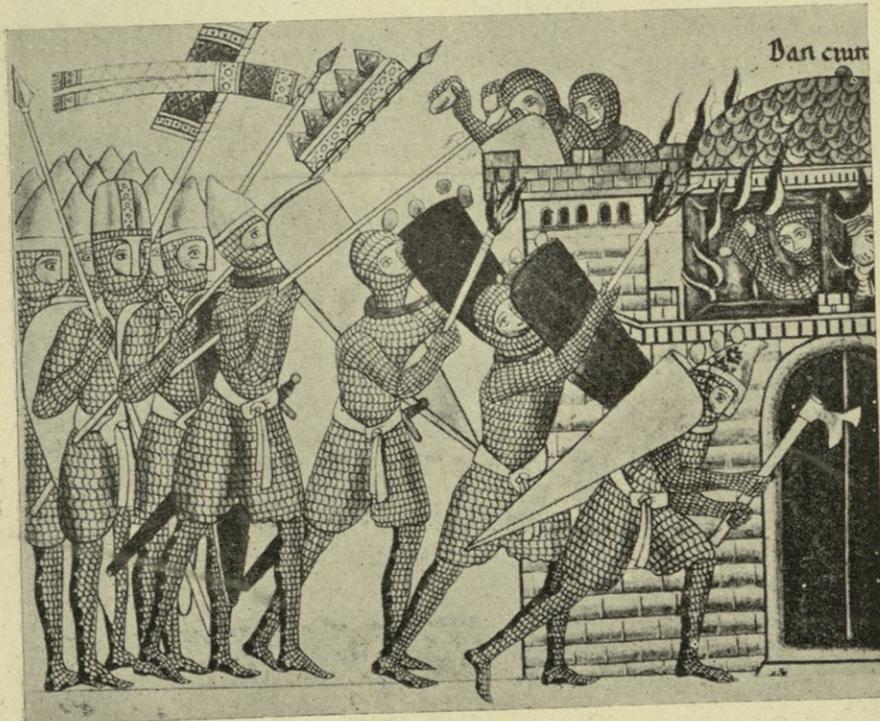


منجنيق يرمي الحجارة الى مدى ١٦٠ متراً .

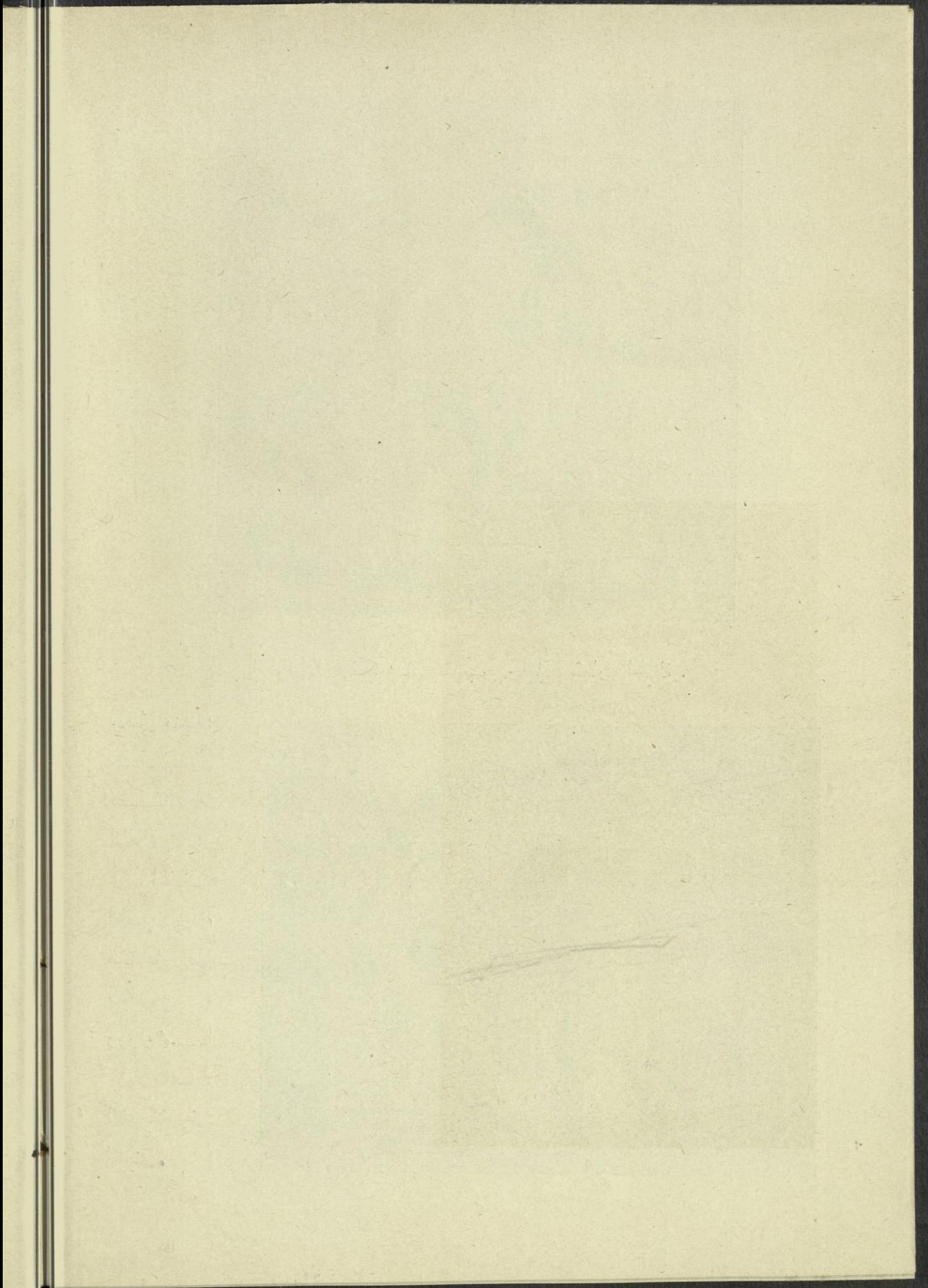




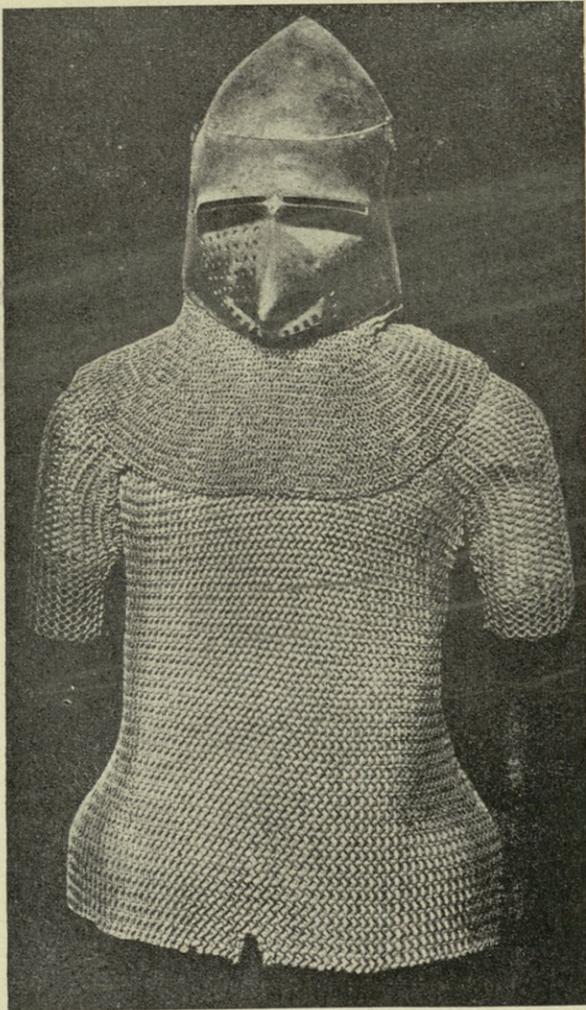
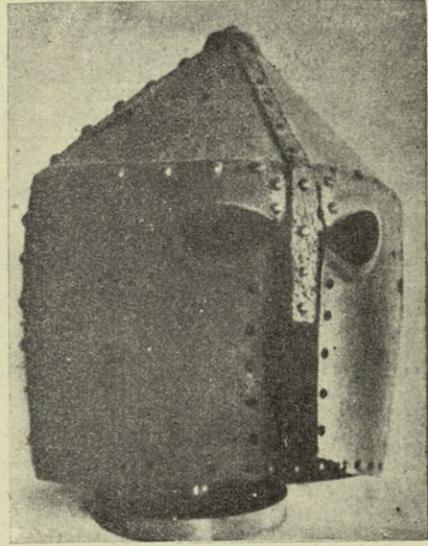
فرسان فرنكيون يتقدمهم حامل شعار الخيالة .



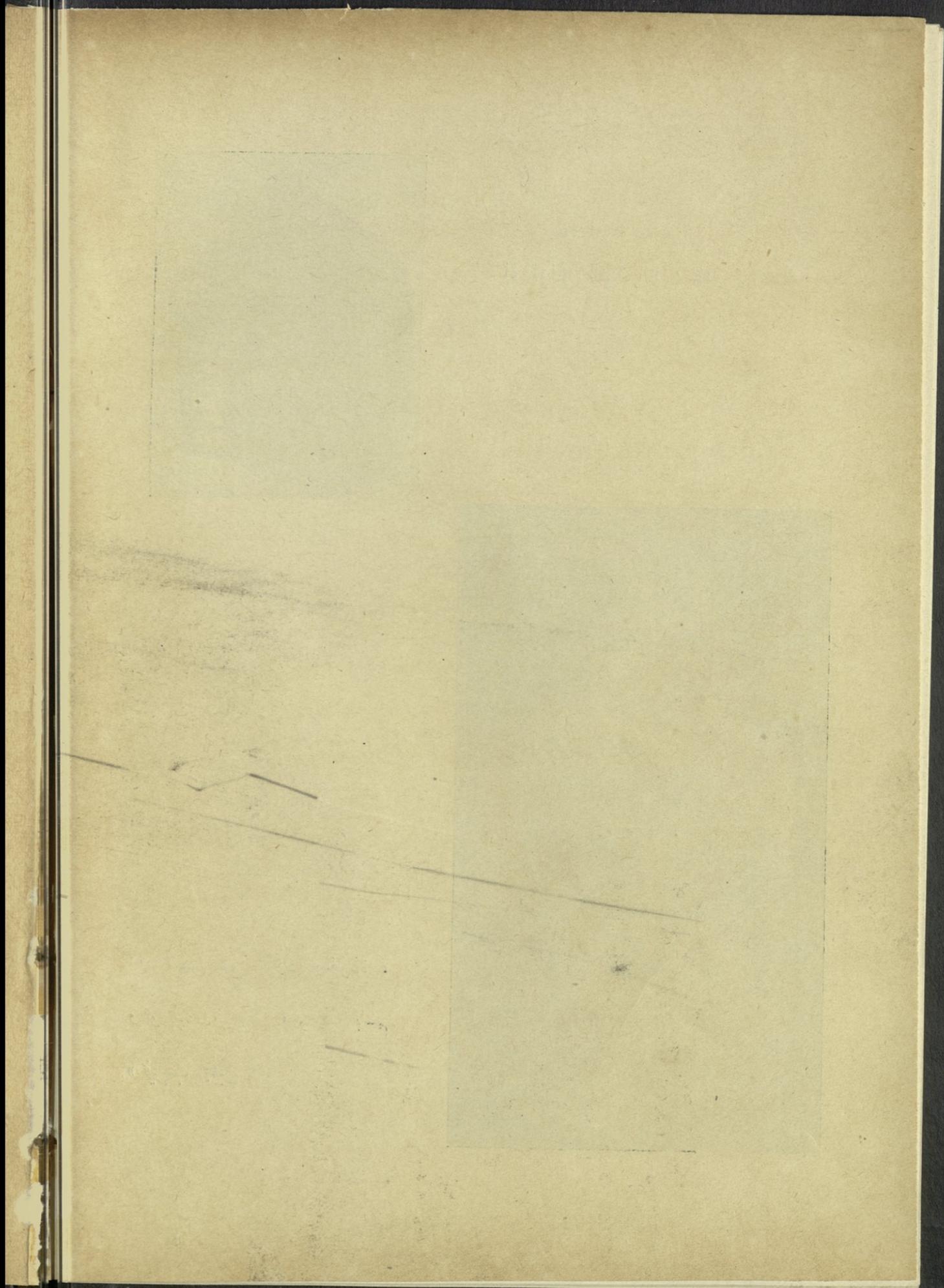
حصار مدينة:
يحاول
مقاتلان
اشعال النار
في احد
الحصون بالقاء
مشاعل الى
الداخل ،
ووراءهما
جنود يتأهبون
للاستيلاء على
المدينة .



غطاء وجه يرقى
الى اوائل القرن الثالث عشر .



قميص من الزرد وخوذة ،
وهو لباس حربي معروف باسم
« فيليب الجميل » .



وجدير بالذكر ان المدن المحصنة لم تكن بالنسبة الى الغوليين نقاطاً استراتيجية ، بل كانت ملاجئ ، يأوون اليها اذا هاجمهم عدو قوي . وكان بعض هذه المدن ذا مساحة كبيرة جداً ، فمدينة « اليزيا » كانت تشغل ارضاً مساحتها مئة هكتار .

يوليوس قيصر وفرسنيكتور كس . - خرجت روما من نضالها في سيلب تحرير ايطاليا الشمالية ومنقلب جبال الالب مقتنعة بضرورة اخضاع الغول كلها من قبيل التحوط للمستقبل . وقد اتاحت لها السيطرة على اسبانيا ومنطقة البروفنس تطويق القسم الجنوبي من بلاد الغول ، ولم يبق الا اكتساحه مقدمة للاستيلاء على البلاد كلها .

عهدت روما بهذه المهمة الى يوليوس قيصر العضو في حكومة الثلاثة والقنصل سابقاً . ووقع الاختيار عليه دون سواه لانه كان وكيل قنصل في الالب الغربية ومقاطعة ناربون وحكم اسبانيا مدة غير قصيرة ، فهو والحالة هذه خير بالارض ، محيط بحالة السكان ، يعرف مواطن القوة والضعف عند الاقوام المنوي اخضاعها .

اصطدم جيش يوليوس قيصر ، في زحفه داخل الاراضي الغولية ، والقبائل السويسرية التي كانت تسيطر على المناطق الشرقية ، فهزمها في معركة « بيراكت » (سنة ٥٨ قبل الميلاد) . وفي العام التالي طرد الجرمانين الى ما وراء نهر الرين واخضع سكان البلجيك وشمال الغول . وخشي الفاتح الروماني ان يغدر به الاعداء الاقوياء ، فسير حملة لاخضاع الجرمانين ما وراء الرين ، وقام بمحاولة جديده لغزو بريطانيا العظمى ، فبرهنت الكتاب الرومانية في الحملتين على انها خير اداة لابراز عبقرية قيصر العسكرية ، ولم تدق مرارة الهزيمة الا مرة واحدة ، عندما استدريج الجرمانيون بضع كتائب الى كمين

وابادوا منها خلقاً كثيراً . وقد انتقم قيصر من الجرمانيين شر انتقام سنة ٥٣ قبل الميلاد . ثم انتقل الى « رافين » لقضاء فصل الشتاء ، بعد ان عهد بقيادة جيشه الى معاونه لاينوس . وكان هذا الجيش يضم عشر كتائب (قوام الكتيبة ستة الاف رجل) ، فحشد لاينوس اثنتين منها على انهر « الرين » و « الموز » و « الموزيل » لتحول دون تسال الجرمانيين الى بلاد الغول ، وحشد ستاً في منطقة « سانس » والاثنتين الباقيتين بين « لانغر » و « ديجون » .

بعث الاحتلال العسكري روح التضامن السلي ، وشجعت هزيمة لاينوس ما وراء الرين العناصر المتبرمة بالسيطرة الاجنبية على التكتل والعمل بدأ واحدة ضد الغاصب ؛ وسرعان ما شاع روح التذمر في الغول ، وعمت الشكوى من تصرفات الولاة الرومانيين وعمالهم من رؤساء الاقوام الذين والوا الفاتح فولام على بعض المقاطعات الصغيرة مكافأة لهم .

وبحث الغوليون المتبرمون بحكم روما عن رئيس قوي يتوعم حركة النضال فوجدوا خالهم في فرسنجيتوركس ، وهو فتى توافرت فيه شروط الزعامة ، جمع الى الشجاعة نبل المحند والذكاء الحاد . كان ابوه « ستيل » ملكاً من ملوك الغول الشمالية ، ودانت لاجداده قبائل بلجيكا وقبائل الغول السلتية . ألهم فرسنجيتوركس حماسة قومه باعمال بطولية خارقة ، فلم يبق لها قبل ان تناصب الغول روما العدا جهاراً . لهذا كانت المناداة به زعيماً تديبياً موفقاً ، قضى على تردد المترددين ، فانضموا الى الحركة التحريرية مطمئنين الى كفاءة الربان ، على حدائقه سنة وقلة تجاربه .

وقد كان البطل الغولي حكيماً ، فلم يحاول ارتجال قوة فيينة بجباية الجيش الروماني المنظم ، بل آثر ان يتفادى للقتال ويعمل على نهك قوى

الحصم ونجويته باستدراجه الى نقاط بعيدة عن مراكز تمويهه . وقبل ان ينهد الى الكفاح جمع اشبات الجحافل الغولية وسمى القادة ، وجهاز المشاة بأسلحة الرماية القديمة كالتقوس والمنجنيق والرمح ، واختار الفرسان بين سكان المناطق الجبلية المشهود لهم بالرشاقة وبطول الباع في استعمال الاسلحة القاطعة . ثار الغوليون في الربيع واستهلوا نشاطهم بمهاجمة « ناربون » . فهرع يوليوس قيصر الى المدينة المهددة وكسر النطاق المضروب حولها . ثم طارد العدو متوغلاً في حوض نهر « الصون » غير حافل بالقر الشديد وبالثلوج المتراكمة ، واستطاع ان يؤمن الاتصال بينه وبين القائد لاينوس . وبهذا احتشدت كتابه العشر حول « سانس » .

وفي هذه الاثناء لم يكن فرسنجيتور كس اقل نشاطاً من خصمه ، فاجتاح منطقة بورغونيه .

ضرب قيصر الحصار حول « افاريكوم » (بورج اليوم) ، ولكن تكتيك خصمه نهك قواه فأمر كتابه برفع الحصار ، فلم تفعل ، بل بنت جداراً اكثر ارتفاعاً من اسوار المدينة وتمكنت من الاستيلاء على « افاريكوم » عنوة (نيسان سنة ٥٢ قبل الميلاد) . وقد شجع هذا النجاح القائد الروماني على مهاجمة « جرجوفيا » معقل السلتيين الحصين ، فمشى اليها على رأس ست من كتابه ، وترك للاينوس الاربعة الباقية ليكبح بها جماح شمال الغول . وقد قاومت « جرجوفيا » بنجاح العدو المهاجم ، ولم يؤثر فيها الحصار لانها كانت مستعدة له . وفي هذه الاثناء كان لاينوس يلحق بالغوليين هزائم شتعا على ضفاف السين .

تأثرت القبائل الموالية لروما بتكتيك فرسنجيتور كس الناجح وبيطولة « جرجوفيا » وصمودها العجيب ، فانضم الى الحركة التحريرية اقوام « الادوين » .

الا ان فرسنجيتوركس لم يفتح ذراعيه للثاثرين الجدد الا بعد ان اخذ منهم رهائن لانهم عرفوا بالتقلب .

استد ساعد الغوليين بانضمام « الادوين » الى صفوفهم ، ومع هذا لم يبدل قائدهم الشاب تكتيكه ، فثابر على نهك الرومانيين متفادياً القتال على ارض مكشوفة ، تاركاً لمشاته اجتياح « البروفنس » كلما افلح هو في استدراج قيصر الى خارج المقاطعة . فتضايق القائد الروماني من هذه الحالة ، فهو مضطر لتأمين الاتصال بينه وبين لاينوس دون ان يتعد عن « بروفس » ولم يتح له الامران معاً الا بفضل المرتزقة من الجرمانيين الذين كان يتألف منهم معظم خياله .

اختلف المؤرخون في تعليل تخلي فرسنجيتوركس بغتة عن تكتيكه الناجح ليسعى الى لقاء خصمه على ارض مكشوفة ، فرد فريق عمل القائد البطولي الى رغبته في تحطيم قوى خصم بعد عن قواعد توينه ، ورد مؤرخون آخرون تديره الى رغبته في خوض غمار المعركة الحاسمة قبل ان يتقلب عليه « الادوين » .

ومهما يكن من امر فقد اعترض الغوليون كتاب قيصر على نهر « سيرين » وعهد فرسنجيتوركس الى خياله بالانقضاض على قلب العدو وجناحيه . اما المشاة فقد حشدتهم على الضفة المقابلة للنهر . وحشد القائد الروماني كتابه بشكل مربع متوسطه المركبات ، ولم يقيم بأي مجهود هجومي ، مكتفياً بصد هجمات الفرسان الغوليين ، حتى اذا لاح له التفكك في صفوف العدو سلط عليه خياله الجرمانية تدفع به الى النهر ، فبادر فرسنجيتوركس الى الانكفاء ، ولم يقف الا في « اليزيا » المدينة الحصينة ، وكان قد اعدّها للحصار الطويل الامد ولجبرها بمؤن تكفي قواته شهراً كاملاً .

يقول المؤرخون ان القائد الغولي لجأ الى « اليزيا » على رأس المشاة .

أما الخيالة فقد ظلت خارج المدينة لتتولى حماية النجيدات الغولية وتهدد طرق
تكوين العدو .

لم يكن لاليزيا مناعة « جرجوفيا » ، ومع هذا لم يحاول قيصر الاستيلاء
عليها بهجوم جبهي ، بل ضرب حولها نطاقاً وراح يعالج مغالقتها الواحد تلو
الأخر ، دون ان يغفل طريقة عين عن مؤخرات جيشه وجناحيه ، لعلمه ان
خيالة خصمه تربص بهل الدوائر .

طال أمد الحصار ، فنفتت المؤن في « اليزيا » وتفتت الاوبئة ، وتعال
اصوات تناشد القائد الغولي مفاوضة العدو ، وكاد دعاة التسليم يعلنون العصيان
لو لم تلح طلائع جيش النجدة على المضارب المطلة على المدينة المحاصرة . وقبل
ان يتخذ قيصر التدبير المناسب لمواجهة الحالة الجديدة ، قامت حامية « اليزيا »
وجيش النجدة بعملية مشتركة ، فاقترحم هذا التحصينات التي انشأها الرومانيون
لتغطية مؤخراتهم وجناحيهم ، وخرج فرسنجيتور كس ومشاته من المدينة ليضعوا
العدو بين نارين . ولامر ما غير القائد الغولي اتجاه دفعته ، فتحول من اليمين
الى اليسار ليضرب جناح خصمه ، وكان مؤلفاً من الخيالة الجرمانية الشديدة
المراس ، فترك قيصر للفرسان صد المهاجمين وارتد هو بقواته الرئيسية على
جيش النجدة وارغمه على الانكفاء ، ثم سلط عليه الخيالة تطارده وتقطع
اوصاله .

لم تحمل مغنويات الغوليين هذه الصدمة ، فضجت صفوفهم بصيحات تنذر
بشق عصا الطاعة . وادرك فرسنجيتور كس انه خسر المعركة ، وان قيصر احرز
نصراً حاسماً في « اليزيا » ، فسلم نفسه وسلاحه الى العدو المنتصر . وأبى
قيصر الا إذلاله على مرأى من سكان روما ، فحملة اليها وعرضه على الناس
في الساحات العامة ، ولم يدفع به الى الجلاد الا بعد ان اذل به الغول طيلة

ست سنوات .

وبسقوط « اليزيا » ووقوع فرسنجيتور كس في الاسر ، انتهت حملة فيصر في الغول عملياً ، فقد انهارت المقاومة المنظمة وتداعى الاتحاد الغولي ، وتضاءل شأن الحركة التحريرية فانحصرت في انتفاضات محلية متقطعة .

٢ - الغوليون الرومانيون

وجدت الغول تحت السيطرة الرومانية التنظيم الذي كانت تقتصر اليه
 فقد حملت اليها عبقرية الفاتحين ومؤسساتهم خلال عدة قرون ، الحضارة والطمانية ، فقطعت شوطاً بعيداً في طريق الفلاح ، لان روما طبعتها بطابعها ونفخت فيها من روحها . وقد احتفظ الغوليون بهذا الطابع بعد تقلص ظل الرومانيين ، فما برحت ثقافتهم لاتينية رغم تعدد الاقوام التي اخضعهم لسيطرتها منذ ذلك .

وقد عنيت روما عناية خاصة بتوفير اسباب الطمانية للغول ، لعلمها ان خطراً يستهدف هذه المملكة المطموح بها ، يستهدف روما نفسها ، سواء اطل من البحر او من الشرق او من الشمال الشرقي . فاهتمام ممثلها بتحصين منطقة الرين وشرقي الغول انما كان اهتماماً باقامة خط دفاعي خارجي يتيح لروما الوقت الكافي للتأهب وحماية الوطن الام .

وما ان اطمان الرومانيون الى غطاء البلاد على الحدود التي تهب عليها ربيع المطامع ، حتى انصرفوا الى العمل الانشائي . وكانت الغول الرومانية منطقتين كبيرتين : البروفنس ويحكمها نائب قنصل ، والغول المستقلة وتشتمل على البلجيك والاكتين ، والغول السلتيية (منطقة ليون) ويحكمها معتمد امبراطوري .

شمل التنظيم المؤسسات الغولية جميعاً ، وكان عمل روما في المملكة يخضع

لتيارات مصدرها الوطن الام . ضي العهد الجمهوري كان الغوليون يتطوعون في الجيش الروماني كقوات مساعدة ، وكانت روما ترحب بهذا التطوع لتسد بالعناصر الغريبة نقصاً في الصفوف او في الاسلحة او في الاختصاص . وفي اواخر عهدها ذهبت الى ابعد من هذا ، فشجعت على قيام جيوش منظمة على غرار الجيش الروماني في البلدان الخاضعة لسيطرتها ، لتشارك هذه الجيوش في الدفاع عن اوطانها .

وفي العهد الامبراطوري سمح للغوليين بان ينخرطوا في وحدات رومانية على ان يحتفظوا بأسلحتهم وتقاليدهم وقادتهم ، وتتحصر مهمتهم بتغطية الجناحين اذا كانوا فرساناً ، وبمساندة المشاة اذا كانوا من الرماة . وقد افاد الغوليون من هذا التماس فقبسوا من الكتاب الرومانية ما اهلهم في القرن الاول لان ينخرطوا فيها على قدم المساواة مع الرومانيين .

كانت الكتاب المحتشدة على « الرين » في مستهل القرن الاول تضم ايطاليين واسبانيين وبضع مئات من الغوليين ، فما ان فتح الجيش الروماني ذراعيه لابناء الفول دون قيد ولا شرط ، حتى انعكست الاية واستبدلت روما من العناصر الايطالية عناصر محلية . وقد نمت هذه العناصر مع الزمن فتألف منها ، بعد مرور مئة وخمسين سنة على الاحتلال ، جيش قوي ، روماني النظام والسلاح ، غولي الروح ، جيش مهمته الاساسية حماية حدود بلاده ، بعد ان كان يتولى حمايتها من قبل قوات اجنبية تضم خليطاً من العناصر والاقوام بقيادة رومانيين .

اما المدن المحصنة ، ولا سيما ما كانت منها في اواسط البلاد ، فقد فقدت قيمتها الدفاعية ، لان الكتاب النظامية سحبت منها الى مناطق الحدود ، وعهد بالدفاع عنها الى ميليشيا محلية مدربة على حرب الحصون ، ولكنها لا تستطيع

شيئاً خارج الاسوار والقلاع .

جيش الرين . - في العام العاشر للميلاد حصن الرومانيون منطقة الرين تحت اشراف اغسطس قيصر وقسموها منطقتين دفاعيتين : جرمانيا العليا وجرمانيا السفلى ، وحشدوا في كل منطقة اربع كتاب (٢٥ الف مقاتل) يدعمها خمسة وسبعون كردوساً مساعداً . وعني الاباطرة اللاحقون بهذا الغطاء بحمي شمال الغول الشرقي ، فكانوا يهرون خط الرين بكتائبهم المختارة وينفقون في تعزيزه دون ما حساب .

وفي مستهل القرن الثاني للميلاد ، صارت كتاب الرين تقوم بمناورات سنوية وتدريب على الرماية والمشي مسافات طويلة . وحرص الرؤساء على الافادة من اختصاص القطعات ، فاطوا بكل قطعة المهمة التي يمكنها اداؤها على الوجه الاكمل بما تملك من وسائل ، وما تتقن من اساليب . وجعلوا السيوف سلاح الحظ الاول ، الحظ الاقرب الى جرمانيا الكبرى ، لان السيف هو سلاح الالتحام الامثل . وجهزوا الحظ الثاني بالسيوف والرماح وسائر اسلحة الرماية ، وألحقوا بكل كردوس مئة مقاتل مدرعين بالزرد ، مهمتهم تلقي الطلائع المعادية والالتحام بها اذا استطاعت اختراق الحظ الاول . واشتملت كل كتيبة على فوج من الآلات يتألف من خمس وخمسين مركبة تنقل مجانيق زنة مقدوفتها ٢٥٠ ليبرا ، الى مسافة مئة وستين متراً ، وعدداً من المجانيق الخفيفة . واشتملت الكتيبة الى هذا ، على مئة وعشرين فارساً مجهزين بما يتيح لهم مد جسور يعبرون عليها الانهر والمهاوى .

وفي عهد الامبراطور كلود حشدت القيادة الرومانية الكراديس الغولية بين الرين والدانوب ، وعززت العقبات والحواجز الطبيعية بسلسلة خنادق وانشاءات تمتد من حوض الرين الشمالي حتى مدينة راتيسبون جنوباً ، وحمل بعض هذه

الإفشاءات أسماء الإباطرة الذين أمروا بأحداثه ، فجدار « تراجان » انشئ في عهد الإمبراطور صاحب الاسم ، ومثله جدار هدریان . وقد ذكر المؤرخون المعاصرون أن الجدار الروماني شمالي الغول الشرقي كان طوله مئة وخمسة وعشرين فرسخاً ، إلا أنه لم يكن متمسكاً ، بل كانت تكمله الخنادق حيث تحول طبيعة الأرض دون تماسكه . وانشأ الرومانيون مراكز للمراقبة يزيد ارتفاعها على ارتفاع الجدار الدفاعي ، وجعلوا الفاصل بينها خمسمئة متر ، كما انشأوا وراء الجدار مئة ملجأ حصين لايواء الاحتياط المحلي جاعلين من المنطقة الفاصلة بين الملاجئ والخط الدفاعي ميداناً حراً للمناورة تتخلله شبكة طرق تنتهي شرقاً بجسور عبر الرين .

كانت الكتابب تقضي الشتاء في معسكراتها ، وفي الربيع والصيف يخرج بعضها لمقاتلة الجرمانين الذين كانت اغاراتهم متواصلة . بيد أن هذا النشاط الدفاعي الهجومي كان يخف كلما ازداد الخط الدفاعي مناعة ، إلى أن جاء يوم خيل فيه للإمبراطور هدریان أن الجدار الروماني قيم بصد كل محاولة هجومية ، فكفت الكتابب عن مقاتلة الجرمانين على أرضهم .

أثر هذا الانكماش في معنويات الجنود ، وفقدوا مع الزمن المزايا التي كانت تجعل منهم وحدة متمسكة في الهجوم والدفاع والمناورة . وبلغ الانحطاط حده الأقصى في القرن الثالث . فتفاقت حوادث التمرد في جيش الرين لأن المواطنين الرومانيين انصرفوا عن الجندية إلى الملاذ ، فصارت الكتابب تضم خليطاً من المرتقة لا سبيل إلى استبقائهم تحت العلم إلا بزيادة أجورهم ، وبتخفيف القيود التي جعلت من جندي الإمبراطورية في عهد اغسطس مضرب المثل في الرصانة والتقيّد بالنظام . وحدث في عهد « كاركالا » أن عجزت الخزنة عن دفع أجور المرتقة فتأثر هؤلاء وقتلوا قائدهم ، فاقتص الرؤساء من المحرضين

بان زجورهم في اتون . فما كان من رفاق هؤلاء الا ان حطموا سيوفهم
ورماحهم وهجروا المعسكرات .
ولم تكن هذه الحوادث الا لتزيد الجرمانيين جرأة على تحدي الجدار
الغربي ، فكررت غزواتهم مستهدفة سهول الشمال . وفي منتصف القرن
الثالث عبرت جحافلهم نهر الرين واجتاحت الغول معلة السيوف في رقاب
السكان ، ناهية القرى والساكنر دون ان تقوى كتاب روما على وقف
التيار . حدث هذا سنة ٢٦٦ للميلاد واستمرت الغزوة الجرمانية عشر سنين
كاملة . وكاد الفاتحون الجدد يسيطون سيطرتهم على البلاد من اقصاها الى
اقصاها لو لم تهب القوات الغولية الرومانية بقيادة بروبوس لانقاذ الموقف .
وما ان جلا الجرمانيون عن الغول حتى عهد بروبوس الى تنظيم الدفاع بتقوية
القلع والحصون وبتعزيز القطعات الخفيفة كالفرسان والمشاة غير المدرعين .
وادخل تحسينات جمة على ملاكات الكتائب وجهز الجيش بأسلحة جديدة
انتجتها ثمانية مصانع غولية حديثة النشأة . وعمد الى المدن الكبيرة فاحاطها
بأسوار عالية ذات كثافة تراوح بين ٢٠ و ٢٥ متراً ، وعني بتحصين المدن
المتوسطة والصغيرة .

وجعل القائد الروماني الاعلى اكيثوم غالوروم مدينة « تريف » مقراً له
يحيط به الاشراف وحكام الولايات والقادة العسكريون . وفي عهده ، اي
في الثلث الاول من القرن الرابع ، تسلل الجرمانيون مجدداً الى الغول
فطاردهم جيوش الامبراطور قسطنطين الى ما وراء الرين ، ولكن النجاح
نفسه لم يكن حليف الامبراطورين جوليان وفالنتينيان . ففي عهد اولهما
تمركز الفرنكيون قبائل مسلحة على ضفاف نهر الايسكو باذن من روما ، وعجز
الاخر عن منع جحافل « الهون » من اقتحام الخط الدفاعي عند منبع الرين .

وفي مستهل القرن الخامس بدأت الغزوات الكبرى ، فاحتل جيش « الفيزيغوت » مدينة روما (سنة ٤١٠) . وفي منتصف القرن المذكور طرق ابواب الغول قبائل « الهون » بعد ان اخضعت اوروبا الوسطى وزرعت فيها الهول والدمار . فعقد الغوليون الحناصر حول قضية الوطن المهدد وهبوا للدفع الخطر بقيادة « اتيوس » ، وقد تمكن « الهون » بقيادة اتيلا من بلوغ ضواحي باريس ، ولكن المدينة صدته عن ابوابها بينما كان جيش اتيوس يهدده بحركة لف في جوار اورليان ويرغمه على التقهقر حتى سهول « تروا » حيث تألقت اقوام رومانية وملتية وجرمانية ضد العدو المشترك ، ومن هذه الاقوام تألقت فيما بعد الامة الفرنسية .

قاوم الغوليون الرومانيون غزوات الفرنكيين والبروتون والفيزيغوت حتى العام ٤٧٥ دون ان ينجحوا في تحرير بلادهم لانهم تكبروا لما كانت روما تحرز به انتصاراتها الباهرة : قوة الكتبية ومرونتها والسير الى القتال على اساس الفوج كوحدة سلاح ، فقد خاضوا غمرات المعارك الحاسمة جحافل متراصة واستندوا الى الفرسان دوراً ثانوياً في الحرب ، وكانت اللحمة مفقودة بين الرماة والعناصر المدرعة .

وقد كان هذا الانحطاط العسكري في جملة العوامل التي سببت سقوط روما ، ولكنه كان عاملاً ثانوياً . فقد سقطت روما لانها قصرت في ميدان التضحية واهملت تقاليدھا العسكرية المجيدة .

٣ - جيوش الفرنكيين

اجتاح الغول في اواخر القرن الخامس اقوام من الفيزيغوت والفرنكيين والبروتون كانت قد حالفت الغوليين الرومانيين سنة ٤٥١ ضد اتيلا وجحافل الهون . الا ان الفاتحين الجدد ما لبثوا ان تنازعوا الغنمية ، فانضمت الى

الفرنكيين الكتاب الرومانية المختلفة في البلاد لان القوط والبورغونديين يقومون حاجزاً بينها وبين روما. فقد آثرت محالفة كلوفيس ملك الفرنكيين على وضع سيوفها في خدمة القوط ، اعداء الامبراطورية الالقاء ، وتنازلت لكلوفيس عن الاراضي الغنية التي كانت روما قد وكلت اليها الدفاع عنها . وقد ذكر المؤرخ اليوناني « بروكوب » ان القوات الغولية الرومانية احتفظت ، بعد انضمامها الى الفرنكيين ، بشاراتها وتقاليدها واسلحتها ، كما احتفظت باللباس العسكري الروماني .

واستطاع كلوفيس ، بمآزره الكتاب الغولية الرومانية ، ان يتغلب على مزاحمه الواحد تلو الاخر وان يعلن نفسه ملكاً تدين له البلاد بالطاعة . وزاد مركزه مناعة زواجه العام ٤٩٣ من كلوتيلد النصرانية ، فامن له هذا الزواج تأييد الاساقفة والمؤمنين وكان عددهم يتزايد يوماً فيوماً . وبعد انتصاره في موقعة « توليياك » عمده اسقف مدينة ريمس في حفلة فضحة وعمد بعده ثلاثة آلاف مقاتل . وبهذا اصبحت الغول النصرانية كلها في قبضة ملك الفرنكيين الشاب ، فانصرف الى تطهير البلاد من البورغونديين والفيزيغوت ، فطرد هؤلاء من مناطق زراعية واسعة بعد ان قتل ملكهم « الاربيك » وهزم اولئك شر هزيمة .

وكانت روما تتببع نشاط الفرنكيين بعطف ، فسرها عمل كلوفيس وانعم الامبراطور اناستاس عليه بلقب قنصل وصاحب جلالة .

وظل ملوك الفرنكة والفيزيغوت يحكمون باسم روما ذات السلطة الاسمية الى ان تغلب كلوفيس على منافسيه جميعاً فتحرر من الرقابة الرومانية وقام في الغول عرش موطن الدعائم لمملكة مستقلة حملت في القرن السادس اسم فرنسا .

جيش الميروفنجيين . - سرح كلوفيس ومن خلفه على العرش من الميروفنجيين القوات النظامية والمرتبقة ليعودوا الى الطريقة البربرية في تعبئة المقاتلين تبعاً للحاجة وللظروف الزمانية والمكانية . فاذا عن الملك ان يغزو جاراً له يدعى الى حمل السلاح سكان المنطقة المتاخمة للمملكة المنوي اجتياحها ، ويتطوع حكام المنطقة كالقوق والكونت والاسقف لتعبئة الرجال القادرين على حمل السلاح . اما اذا كانت فرنسا هدفاً لغزوة معادية فالتعبئة تشمل البلاد كلها وينفذ مرسوم الملك الاوامر الصادرة بهذا الشأن ، على ان يمشي كل مفوض في رأس المقاتلين الذين استطاع حشدهم ليشهدوا بايام اجتماعاً عاماً يعقد في « ميدان مارس » .

كان حمل السلاح واجباً على كل فرنسي حر اذا نادى المنادي ان الوطن في خطر . وكان الارقاء والعقلاء يسرون في ركاب اسياهم . اما الفقراء والمتسولون فكانوا يؤلفون كردوساً خاصاً . وكان كل مقاتل يتسلح على نفقته .

ولم يكن ثمة تشكيلات تكتيكية وتنظيمات عسكرية مستقلة عن التنظيمات الادارية . فالقوق ، وهو حاكم المدينة ، او الكونت ، وهو حاكم البلدة باسم القوق ، يقومان بالادارة المدنية ويتوليان قيادة الجماعات المسلحة دون ان يكون لهما المام بفرن القيادة . ولم يكن ثمة وحدات او قطعات تضم عندها معيماً من المقاتلين . وكان المشاة العنصر الرئيسي في جيش هذه حالة ، سلاحهم الدفاعي زرد خشبي يعاوه جلد . اما سلاحهم الهجومي ففأس وخنجر طويل وسيف ذو حدين ، ورمح ينتهي رأسه بعقافتين ، فاذا رمى به العدو من بعيد امكنه استرداده لانه مشدود بجبل دقيق عند مقبضه ، والحبل نفسه يشد وسط المقاتل . فاذا كان الخصم مدرعاً بالزرد اخترقت العقافتان الدرع ، فيشد صاحب

الرمح الجبل فيعود رجه اليه حاملاً واياه زرد العدو . وهكذا لا يجد هذا
منحاً من مواجهة خصه مكشوف الصدر .

وكان المقاتلون الفقراء يخرجون الى الحرب سلاحهم القسي والمجانيق
الخفيفة . وقد زعم بعض المؤرخين ان المقاتلين منهم بالقوس والنشاب
استعملوا سهاماً مسمومة في بعض حروبهم . وروى المؤرخ « غريغوار دوتور »
ان انعدام النظام واللحمة في جيش الميروفنجيين كان ابرز عيوبه . فاذا دب
الذعر في الصفوف تتفرق الجماعات ايدي سبا ويعجز الملك والرؤساء عن اعادة
النظام وجمع الشمل . وقد اخفقت كل المحاولات الاصلاحية لان الجندية لم
تكن في نظر الرؤساء والمرؤسين خدمة وطنية ، بل كانت وسيلة لجر المغنم .
وفي منتصف القرن السادس صار الملوك يغرون رعاياهم بالمال ليحملهم على
الخروج الى الحرب ، وكان الدوق او الكونت يبيع خدماته من صاحب
العرش ولا يقدم اليه المقاتلين الا لقاء امتياز او لقب . وفي القرن السابع
اقلت زمام الامر من ايدي الملوك فعهدوا الى وزراءهم بقيادة الجيوش ، وقد
سخر فريق من هؤلاء مركزه لخدمة مطامعه فاستمال المقاتلين ، واغرامهم بالملك
ليترجع هو على العرش مكانه . وثمة وزراء رفعتهم الى الاريكة الملكية
بطولتهم وانتصاراتهم كشارل مارتل الذي دحر العرب في موقعة بواتيه وكان
اول الملوك الكارولنجيين .

جيش الكارولنجيين . - كان بيان ديرستال وزيراً لملك اوسترازيا ،
وامتطاع ان يقمع حركات التمرد ، وكبح جماح حكام المقاطعات الذين تجاهلوا
سلطة صاحب العرش واعلنوا انفسهم ملوكاً . وبعد موت بيان (٧١٤)
تجددت الحركات الانفصالية فقمعها ابنه شارل مارتل ، وتمكن من توحيد فرنسا
بجيش يضم عناصر محترفة وقطعات مختارة من البافاريين وابناء اوسترازيا ونوستريا .

وبهذا الجيش القوي استطاع شارل مارتل ان يدحر العرب في بواتيه في السابع عشر من تشرين الاول سنة ٧٣٢ ، فرفعه بطولته في عبون موطنه ، وعلى جهوده قام عرش الكارولنجيين .

لم يطرأ في العهد الجديد تبدل جوهرى على المؤسسات العسكرية . فالتقوات المعاة لحملة ما تسرح حالما تنتهي الحملة ، ويستثنى فريق من الجنود المحترفين ، يستقيهم الملك ليؤلفوا حرسه الخاص ، ويجري عليهم رواتب كبيرة . ولم يكن لجيش الكارولنجيين قادة ذوو اختصاص ، فحملة الالقياب هم القادة في الحرب ورجال القضاء والادارة في السلم .

والملك ببيان القصير هو اول من مهد لاصلاح المؤسسات العسكرية ، واقامة جهاز اداري موحد . ولكن المؤرخين لا يقفون طويلاً عند اصلاحات ببيان ويبرزون ما حققه ابنه شارلمان في هذا الحقل . سن هذا الملك سلسلة قوانين اضحى معها الجيش خاضعاً لقيود ثقيلة ولنظم دقيقة نسيئاً . وقد حتم احد هذه القوانين على كل مواطن حر تلبية نداء الوطن ، وخول حكم المقاطعات فرض غرامة كبيرة (٦٠ فلساً ذهبياً) على كل من يهرب من حمل السلاح . وادرك شارلمان ان سلفاه غمطوا الحيلة حقها بعد ما رأى من مآتي

للفرسان العرب ، فشجع رجاله على اقتناء الجياد بما خص به مقتنيا من ايتار . وفي عهده ظلت الخدمة العسكرية واجباً وطنياً يقوم به المواطن الحر دون مقابل . وقبل الشروع في الحملة كان الملك يوعز الى المقاتلين بان يعدوا العدة للحرب ويجهزوا انفسهم بما يكفيهم ثلاثة اشهر على الاقل . وكان على المقاتل المتيسر ان يذهب الى ميدان الحشد ومعه اسلحته وجياده وزاده . فاليسر شرط لاحراز شرف الانضواء تحت لواء الملك . وقد ذكر المؤرخون ان كبار الزراع كانوا اسبق الناس الى تلبية نداء صاحب العرش لان الحصول على السلاح

والجياذ والمركبات ما كان ليكلفهم كبير غناء . اما صغار الملاكين ومتوسطو الحال فقد كانوا يتعاونون فيما بينهم على تدبير عدة الحرب ، وظلت هذه حالهم الى ان وضع شارلمان اساساً لتعبية الرجال ، فجعل ملكية عقار ومساحة محددة من الارض ، شرطاً لقبول الرجل الحر في عداد المحاربين . اما من كان عقاره غير مستوف الشروط المفروضة فيحق له ان يتقدم من مركز التعبئة باسمه واسم جاره له . على ان يذهب احدهما الى الحرب ويعني الاخر بعقاره وعقار جاره .

ومن هنا نشأت الارستوقراطية العسكرية التي انبثقت منها الاقطاعية فيما بعد . فكبار الملاكين يذهبون الى الحرب في الطليعة . اما الذين لا تتيح لهم ثروتهم اقتناء الاسلحة والجياذ فانهم يكلفون جر المركبات واصلاح الطرق .

وكان على كل اسقف او رئيس دير ان يضع في خدمة الملك عدداً معيناً من الرجال الذين يديرون ممتلكاته ، ويؤمن لهؤلاء زاداً لثلاثة اشهر ويجهزهم بالعدة الكاملة ، ولم يكن تدبير هذه العدة بالامر اليسير ، فقد عثر في دير « سان اكتان » ، خلال القرن الخامس عشر ، على امر ملكي وجهه شارلمان الى رئيس الدير فولراد ، وهاك نصه :

« نحيطك علماً باننا حددنا اليوم الرابع عشر من تموز موعداً للاجتماع العام في القسم الشرقي من مقاطعة ساكس ، على مسيرة ست ساعات من نهر « بودا » وجنوب بلدة استراسفور . وانا لنا أمرك بموافقتنا الى المكاتب المعين في اليوم المذكور يصحبك رجالك مجهزين بكل ما يحتاجون اليه ، اي ينبغي لهم ان يحملوا واياهم اسلحتهم وملابسهم وزادهم وسائر معدات القتال . فليأت الفارس الى الاجتماع مسلحاً بالرمح والسيف الطويل والسيف القصير وبقوس وسهام لا

يقبل عددها عن اثني عشر سهماً ، وحملوا مركباتهم فؤوساً ومعاول ورفوشاً وموناً تكفي رجالكم ثلاثة اشهر ، وذخائر تكفي ستة اشهر . تدبروا هذا كله بالسرعة اللازمة اذا كنتم محرضون على رضى الملك .

يضاف الى هذا السلاح الفردي اسلحة اجماعية يمكن استخدامها في حرب الحصار . الا ان الكارولنجيين لم يأتوا بمجديد في هذا الباب ، بل نسجوا على منوال الرومانيين ، فاستعملوا المجانيق الثقيلة والخفيفة لقذف الحجارة والكرات الرصاصية ، كما استعملوا المقلاع العادي . وكانوا يبنون اسواراً متحركة تدور على نفسها ويجعلونها اكثر ارتفاعاً من استحكامات العدو . وكانت الثيران تجر هذه الاسوار .

واخذ الكارولنجيون عن الرومانيين اساليب الحصار وقلدهم في تمويه اسلحة الرماية الاجماعية ، وتبنوا تكتيكهم الهجومى : يبدأ الهجوم بوابل من السهام يطلقها المشاة ثم يندفعون الى امام شاهري الحراب او الرماح ، ثم تتدخل الحيلة لتبدد شمل العدو بعد ان يكون هجوم المشاة قد اشاع الفوضى في صفوفه .

ولم يضم جيش شارلمان ، في وقت ما ، اكثر من عشرة آلاف مقاتل كان ثلثهم ينصرف الى جمع الاسلاب والمعركة محتدمة . فيكون شارلمان قد خاض غمرات حروبه بجيش لا يربي عدد رجاله على عدد المقاتلين في الكتيبة الرومانية الواحدة . ومع هذا كانت مؤسسات الكارولنجيين العسكرية شيئاً جديداً في نظر المعاصرين . اما انتصارات شارلمان فلم تكن ثمرة مجهود فني فريد . وكل ما في الامر ان الرجل كان يتقن المناورة ويعرف كيف يستثمر مصاعب خصمه .

ففي الحملة الايطالية حشد جيشه في جنيف ، ثم عبر ممرى سان برنار وسان

دنيس في جبال الالب ، فارتد العدو الى « بافي » واعتم فيها ، فحاصرها شارلمان بالقي مقاتل طوال سنة كاملة . وفي هذه الاثناء كانت قواته الرئيسية تحتل مدن لومبارديا ونيس الواحدة تلو الاخرى .

نجا شارلمان النحو نفسه في اخضاع باقاريا ، وقلد الرومانيين في تغطية مؤخراته بتعيين كبار معاونيه حكاماً للمقاطعات المحتلة . الا ان حالة جيشه ما كانت لتساعد على الاستمرار في الفتح ، او تتيح للملك ومن ارتقى العرش بعده الحفاظ على الامبراطورية .

الفصل الثاني

مبوتس العهد القطاعية

١ - المؤسسات العسكرية

النظام الاقطاعي . - نشأت الاقطاعية من الفوضى الشاملة التي رافقت الغزوات الجرمانية ، وساعد على تأصلها ونموها انعدام السلطة العسكرية وجنوح الاقوياء الى السيطرة على الضعفاء ، واضطرار هؤلاء لطلب حماية الاقربين من ذوي النفوذ دفعاً لازى الابعدين .

ومن هذه الحالة الشاذة نشأت جماعات وكتل خاضعة لافراد قامت زعامتهم على القوة والبطش . وقد تألف من كبار الاقطاعيين ممالك مستقلة في المقاطعات راحت تراحم الملكية الحقيقية مزاحمة حملت آل كاييت (البيت المالك) على توطيد سلطتهم بحروب طويلة شبروها على مزاحمتهم .

كانت سلطة الملك اسمية خارج نطاق مقاطعته . فالامير الاقطاعي ، اياً كان شأنه ، يتفرد في مقاطعته بفرض الضرائب وتسوية المنازعات وتعبئة المقاتلين . وكانت الحرب تنشب بين امير وآخر اذا كانت مصالحها محور الخلاف . اما اذا كان الخلاف بين الاثباع ، فالامراء يقفون موقف المتفرج ولا يتدخلون الا اذا ترتب على تطور الحرب مساس بمصالحهم . ولم يكن للقضاء الاقطاعي قانون مكتوب يتقيد باحكامه ، بل كان

يستشد بما يقضي به العرف والعادة . وكثيراً ما كان المتنازعون يحتمكون الى السلاح ، فيعد الظافر محقاً ولو توافرت الادلة على العكس .
 في الحرب كان الامراء يسيرون الى ميدان القتال يتبعهم البارونات ، وبواكب هؤلاء ، وهم اسياذ من الدرجة الثانية ، الفرسان حملة الرايات ، فقطعة من المشاة ، فرتل من المركبات يحمل المون . من هذا كله كانت تتألف الوحدة التكتيكية في الجيش الاقطاعي . وكان المحارب يؤلف فيها الخلية الاساسية كما هي الحال اليوم مع حامل البندقية الرشاشة في حضيرة القتال .

على ان تأليف الوحدة العسكرية لم يكن واحداً في كل الامارات والدوقيات ، ومثله اسلوب التعمية وتجهيز القوى . وكان على المتبوع الاعظم Suzerain ، وهو يأتي في الدرجة الثانية بعد الملك ، ان يطلب مساعدة تابعيه من اسياذ الدرجة الوسطى كلما عن له ان يخوض غمرات القتال ، فيفقد هؤلاء الى « ميدان ايار » على رأس تابعيهم من فرسان ومشاة ومغامرين لا يحجمون عن تحدي الخطر ، طمعاً بالاجر السخي او تقرباً من الزعيم . وكانت التقاليد الاقطاعية تجعل من المتبوع الادنى حليفاً للمتبوع الاعظم . بيد ان فريقاً من صغار المتبوعين تجاهل التقاليد وشق عصا الطاعة . وهذا ما حدا بالامراء ان ينظموا العلاقات بينهم وبين تابعيهم النبلاء على اسس معينة ، فالنيل يقسم بين يدي الامير بين اولاء والاخلاص ويتعهد بمجاربة اعداء متبوعه . ومقابل هذا يأخذ الامير على عاتقه حماية تابعه ويقطعه ارضاً يكون التابع السيد المطلق عليها دون ان تصبح ملكاً له .

وقد كانت الخدمة العسكرية اول موجبات النظام الاقطاعي ، مدتها اربعون يوماً اذا كان على التابع ورجاله ان يجاروا تحت راية الامير على

ارض غير بعيدة . وجعلت مدة الخدمة غير محدودة في الاحوال التي تكون فيها الحرب طويلة الامد ويكون ميدانها بعيداً ، على ان يقطع المتبوع تابعه ارضاً اضافية ، او يحorre من بعض القيود او يعفيه من بعض الموجبات . وكان بعض التابعين الاقوياء يشترطون على متبوعيهم شروطاً معينة كأن تسيرو وحداتهم في الطليعة او ان يعفى رجالهم من الاشغال الشاقة كشق الطرق وجر المركبات وحفر الخنادق .

في الجيش الاقطاعي كان الفرسان يؤلفون العنصر الرئيسي ، لان الفارس متبوع صغير يسير في ركبته من هم دونه حسباً ونسباً . الا ان سلطته كانت اسمية خارج حدود ارضه ، فرجاله يأتمرون اوامره في السلم ولكنهم ينزعون الى التمرد في الحرب . لهذا كانت طبقة الفرسان تخرج الى القتال مدرعة بما يرد عنها الاذى ، مجهزة باسلحة تضمن لها الغلبة ولو ظلت وحدها في الميدان .

كانت درع الفارس قطعة معدنية تغطي جسده من العنق حتى الكاحل . وكان غطاء الرأس خوذة ثقيلة . اما الترس فكان استعماله شائعاً في بعض الاقطاعات دون الاخر . وروى بعض المؤرخين ان عدة الفارس الدفاعية كانت تزن مئة ليبره ، وهو حمل يجعل صاحبه في مأمن من الطعنات ولكنه يسحقه سحقاً تحت ثقله .

وتسكر فرسان الجيش الاقطاعي للاسلحة الغولية والرومانية لانها اثبتت عجزها عن اختراق الدروع الكثيفة ، فاستبدلوا من السيف القصير سيفاً طويلاً ذا حدين يمسك به الفارس بكلتا يديه ، وجعلوا للرمح رأساً محدداً ذا زوايا ثلاث ، وربطوه بسلسلة طويلة مشدودة الى مقدم الجواد او الى وسط الفارس . وكانت المدقة والفأس والمطرقة الاسلحة الفضلى في الالتحامات .

ويأتي بعد طبقة الحياطة القطعات المساعدة ، وهي تضم اقطاعيين صغاراً مرتبطين بالفرسان ارتباط هؤلاء بالتبلاء والامراء . وتنحصر مهمة المساعدين بنقل اسلحة متبوعهم والعناية بالخياد ، وبمساعدة الفارس في اعتلاء صهوة جواده ، وباعادته الى الصهوة اذا رمى به خصمه ارضاً .

اما المشاة الحقيقيون ، المشاة الذين يقع على عواتقهم احراز النتيجة الحاسمة ، فقد كان الاسياد ينتزعونهم من حقولهم ويرتجلون منهم مقاتلين ، سلاحهم القوس والسيف والمنجل واحياناً المقلع ، ودروعهم جلود بغطيا معدن رقيق . كانت الملحمة معدومة بين هذه القوات ، فالقيادة غير موحدة والنظام مفقود . وكيف يطلب من جيش هذه حاله ان يقاتل بحماسة ، ومن قادة لا رأس لهم ان يرسموا خططاً ناجحة ويسهروا على تنفيذها ؟

عالج بعض الملوك والرؤساء هذه الفوضى وهذا الجمول بتشجيع المقاتلين المبرزين ، فالقن الذي يأتي عملاً بطولياً يجرى ، والحر يفوز بارض اضافية وبلقب ، والمتبوع الصغير يقفز الى مرتبة المتبوعين العظام بما يجرى عليه من نعم وما يحاط به من اكرام .

قلما خاضت الجيوش الاقطاعية غمار معارك عنيفة ، فقد كان الحُصم يجتهد في الحاق الاذى بعوده بتخريب بلاده وبالاغارة على مؤخراته وجناحيه . اما معركة تراس فيها الصفوف فقد كانوا يتحاشونها جهد الطاقة ، واذا الجئوا الى خوض غمارها لا يطول بهم الامر حتى يكلوا الى ابطال منخويين من المعسكرين ان يصفوا حساب النزاع بيراز تجبس في اثنائه الانفاس وتبلغ الحماسة الذروة . اما اذا اصر الفريق المنتصر في الساحة على ملاحقة خصمه ، فلا يبقى امام هذا الا واحد من امرين : اما التسليم دون قيد او شرط ، او الاعتصام في المدن

المحصنة او داخل القصور المشيدة خصوصاً لحرب الحصار . وكثيراً ما كان الظافر يتهيب اقتحام القلاع فيرتد قانعاً بما احرز على الارض المكشوفة ، ذلك بان اخضاع حاميات المدن والمراكز الحصينة كان يتطلب وسائل هجومية قوية وثباتاً لم يكن من مميزات الجيوش الاقطاعية .

وقد تطور فن القتال شيئاً فشيئاً تبعاً لتطور النظام الاقطاعي ونامت الوحدة الفرنسية . واستطاع الملوك الاول من آل « كاييت » ان يخضعوا الجماعات في الحرب لقيادة موحدة يعاونها الامراء والنبلاء . الا ان الجيوش ظلت جاهلة فن المناورة وظل نظامها مختلفاً . وقد وصف مؤرخ معاصر معارك ذلك العهد قال :

تبدأ افواج المشاة التحرش بالعدو ، فيطلق حملة الاقواس سهامهم يغطيهم حملة السيوف والرماح والقوس ، لانهم مدرعون . فاذا صمد العدو اندفع المشاة الى امام كتلة متراصة ، واعملوا بالصفوف الامامية سيوفهم ومطارقهم وفؤوسهم . الا ان هذا النشاط الهجومي ليس سوى عملية محدودة ، فالعمل الحاسم تقوم به الخيالة .

ينقض الفرسان على العدو وقد تجلببوا بالدروع واعتمروا بالحدود الفولاذية ، ولكنهم لا يتبعون في الهجوم قاعدة معينة ، كأن يضربوا الجناحين او القلب او يحاولوا اللف حول الميمنة او الميسرة ، بل ينقضون على اعدائهم شاهري السيوف ، فيتبدد شمل المشاة قبل الالتحام او ابانه ، فيتعقبهم حملة الاقواس والمقاليع . اما الفرسان فتشغلهم عن مطاردة مولي الادبار خيالة العدو التي تتلقى الضربات بادىء ذي بدء دون ان تردها على امل ان تنه عزائم المهاجمين الفارقين في الفولاذ وتكل منهم السواعد ففكر عليهم وتحرز الظفر دون كبير عناء . على ان التحامات من هذا النوع لا يترتب عليها سقوط عدد كبير من

الضحايا ، فالدائرة انما تدور على الجياد غير المدرعة ، وعلى الفرسان الذين تتفلق دروعهم او خوذهم بضربة قوية . وكان المقاتلون يلاحقون الرؤساء والمقدمين في جيش العدو ، لان وقوعهم في الاسر او مصرعهم يشيع الفوضى في صفوف رجالهم ، ويحمل تابعيهم على القاء السلاح . لهذا كان المحاربون الاشداء من فرسان ومشاة يقاتلون ضمن دائرة بتوسطها القائد او الامير او الملك .

٢ - غزو انكلترا

استطاع خلفاء الملك « هونغ كاييت » ان يوسعوا نطاق المملكة ويدعموا سلطتهم بمخالفة الجيران الاقوياء ، وبالقضاء على نفوذ صغار المتبوعين . وكان دوق نورمنديا اقوى الامراء المستقلين ، فكان آل « كاييت » يدارونه ويتوددون اليه ويستعدونه على خصومهم .

وفي عهد فيليب الاول ، آخر ملوك الكاييتيين ، اشتد ساعد النورمنديين وازدادوا ميلاً الى المغامرة . وحفل القرن الحادي عشر بآتيهم في ميدان الفتح ، فقاتلوا على الارض الاسبانية ، وانشأوا مملكة صقلية ، وغزوا انكلترا ، فكانت معركة « هستنغس » اعظم حدث عسكري في ذلك العهد .

اعد غليوم الملقب بالنغيل (ابن الزنا) حملة قوية لغزو انكلترا ، وشجعه على ركوب هذا المركب ملك فرنسا فيليب الاول ، لا كرهاً بالانكليز بل رغبة منه في الهاء منافسه العنيد دوق نورمنديا بعمليات خطيرة على الضفة الاخرى من القناة .

حشد غليوم سبعة سفينة : مراكب صيد واخرى تجارية ، وسفن كبيرة لنقل الجند توأكبها قطع حربية . ولم يكن جيشه اقطاعياً كله . فقد تألب تحت رايته المرتزقة وعشاق المغامرة من الفرنسيين والاسبان والرينانيين . وفي بضعة اشهر جهز غليوم جيشاً من ثمانية عشر الف مقاتل ثلثهم من الفرسان .

ابحرت الحملة في تشرين الاول من العام ١٠٦٦ ونزلت على الارض الانكليزية دون كبير عناء . وكان هارولد ، ملك انكلترا ، ينتظر عدوه على رأس جيش من المشاة سلاحه الرئيسي الفأس الدائرية التي لا يمكن الضرب بها بيد واحدة .

قسم غليوم الجيش النورمندي ، وقل اذا شئت الجيش الفرنسي ، ثلاثة فيالق ، وجعل كل فيلق ثلاثة صفوف : الصف الاول ويتألف من حملة الاقواس ، ويليه صف المشاة ، فصف الحياالة ، وقد جرى وحدات صغيرة تضم كل منها عشرة فرسان بقيادة نبيل . بدأ الصف الاول الاعمال العدائية ثم اندفع الفرسان محاولين بعثرة صفوف السكسونيين . فصد هؤلاء ثم شنوا هجوماً مضاداً مستهدفين مينة النورمنديين ، فانكفأت المينة مستدرجة العدو الى اللحاق بها . ففعل دون ان يحتلظ لمناورات غليوم او ينتبه الى لعبته . فانتهاز القائد النورمندي الفرصة واطبق بجيشه على جناح السكسونيين ومؤخرتهم فاضطر هؤلاء للكف عن ملاحقة الفرسان المتراجعين ، وتلقوا الجيش النورمندي بفؤوسهم ومطارقهم . فوضعهم فرسان غليوم ومشاته بين شقي الرحى واعملوا فيهم سيوفهم الماضية . فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وكان الملك هارولد في عداد القتلى . ولكن مصرعه لم يفت في عضد رجاله فتابروا على النضال حتى هلك ثلاثهم . وتم لغليوم فتح انكلترا كلها في بضعة اشهر لان موقعة هستنغس كانت حاسمة . وقد اجمع المؤرخون المعاصرون على اطراء مواهب الفاتح النورمندي واظهروا مقدرته على استثمار اخطاء خصمه . وحشره مؤرخو القرن التاسع عشر في عداد الفاتحين العظام الذين تلمذ عليهم نابوليون واستوحى خطتهم .

٣ - تطور الجيش الاقطاعي

استطاع الكايبتيون الاول ان يدعموا السلطة الملكية ولكنهم عجزوا عن

كبح جماح النبلاء الذين كان الاقوياء منهم يتجاهلون وجود الملك . اما الضعفاء فقد كان خضوعهم لصاحب العرش عبئاً ثقيلاً عليه لانه كان ملزماً بحمايتهم . وما كان النبلاء الاقوياء ليتورعوا عن ارسال رجالهم الى المزارع الملكية ينهاونها . وظلت الحال على هذا المنوال الى ان تربع على العرش الملك لويس السادس الملقب بـ « الملك الضخم » ، فوضع حداً لاعمال النبلاء العدائية بمحلات تأديبية موفقة كان هو دائماً على رأسها . وابد الشعب ملكه وشد ازره لانه توسم في السياسة الجديدة ، سياسة الحزم والضرب على ايدي المتطاولين ، الخير للبلاد وعهداً تحف فيه وطأة الاسياد . وقد قربت النعمة على هؤلاء الثقة بين لويس السادس وصعاليك المملكة فقام بين الفريقين تحالف ضمني وطد سلطة الملك وهيئته . وامتحن هذا التحالف سنة ١١٢٤ عندما اجتاحت فرنسا قوات امبراطور المانيا وفي نيتها ان تهدم كاتدرائية ريمس . فاتحد الفرنسيون امام الخطر وتسبقوا الى الانضواء تحت راية الملك ، وكان ابناء الشعب وصفار الملاكين ورجال الكنيسة في طليعة المتطوعين . فتألف منهم جيش عدد رجاله مئتا الف ، فتأثر النبلاء بوطنية الصعاليك وما لبثوا ان حذوا حذوهم . فعرض الملك في « ميدان ايار » جيشاً يتألف من ٣٠٠ الف رجل موزعين على خمسة فيالق ، ضم اولها متطوعي اسقفتي ريمس وشالون ، وثانيها متطوعي لون وسواسون ، وضم ثالثها الميليشيا الباريسية ومتطوعي اورليان وسان دنيس ، وقد تولى الملك قيادة هذا الفيلق بنفسه . وقاد الفيلق الرابع دوق مقاطعة شامبانيه ، والفيلق الخامس دوق مقاطعة بورغونيه ، وعهد لويس السادس الى دوق مقاطعة الفلاندر بحماية المؤخرة وامرته على عشرة آلاف فارس . وقبل ان يتحرك هذا الجيش العظيم انتهى الى امبراطور المانيا خبره فتهيب الموقف وعاد من حيث اتى .

وهكذا تطور الجيش الاقطاعي من قوات قوامها الخاصة من الناس الى جيش يضم الخاصة والعامة على قدم المساواة من حيث الواجب الوطني . ادى اقبال الشعب على الانخراط في الميليشيا الاقليمية المستقلة عن قوات النبلاء الى تعاظم الجيش الملكي ، وساعد على نموه قيام العامة او المجالس العامة في القرى والداكر وتفردتها بحق دعوة الرجال الى حمل السلاح وسوقهم الى ساحة القتال ، وقد كان هذا الحق محصوراً بالنبلاء .

كانت العامة جمعية يدير شؤونها المجلس البلدي باسم الملك ، وكان الاعضاء يقسمون بين الطاعة للرؤساء والولاء للجالس على العرش . ومنح الملك العامة حق اعلان الحرب لاغراض دفاعية وتعهد بمساعدتها عند الاقتضاء . ومقابل هذا تعهدت العاميات بوضع الميليشيا في خدمة التاج .

وما لبث رؤساء المؤسسات الجديدة ان نحووا في الحرب منحى النبلاء ، فصاروا يمتطون صهوات الجياد ويسيروا الى القتال يحوطهم الخدم والمساعدون . وما مضى طويل وقت حتى قامت في فرنسا بورجوازية اقطاعية . الا انها ظلت خاضعة للملك ولم تتعد عن اوساط الشعب لانها كانت في حاجة الى تأييده . ولم تتبع العاميات نظاماً موحداً ، انما كان لكل واحدة منها نظام خاص . بيد انها اتفقت جميعاً على ضرورة اعفاء المرضى ورب العيلة التي لا معيل لها سواء من الخدمة العسكرية ، وجعلت الحد الادنى لسن الخدمة ست عشرة سنة والحد الاعلى ستين . واستثنى الصناع والحجازون والطحانون والبنائون والتجارون لان بقاءهم في عملهم ضروري لتأمين الحاجات العامة .

وغني عن القول ان ميليشيا العاميات كانت تجهل فن المناورة . لهذا كان الملوك يكلون اليها الدفاع عن المدن الحصينة ولا يستخدمونها في القتال على ارض مكشوفة . وقد رأينا الملك لويس الملقب بالضحيم يحجم عن مطاردة امبراطور

المانيا بجيشه اللجب لعله ان هذا الجيش المرجل لا يستطيع العمل خارج فرنسا .

٤ - الحروب الصليبية

ادخلت الحملات الصليبية تعديلاً جوهرياً على فن الحرب لهذا ثبت من تاريخ هذه الحملات الحوادث ذات الاثر العسكري في التنظيم والسلاح والاساليب .
الحملة الاولى (١٠٩٦ - ١٠٩٩) . - قام الفرنجة بالحملة الصليبية الاولى بتحريض من البابا اوربانوس الثاني . وقد وجد هذا التحريض ارضاً مهيبة في بلاد حديثة العهد بالنصرانية ، ضاق نبلاؤها ذرعاً بالسلطة الكليزية المتزايدة فنقروا الى الخارج ينشدون مسرحاً حراً لتزعيمهم العسكرية . وسار في ركبهم جموع استفزتها للحرب عوامل شتى ، فكان هناك المؤمن الذي اثرت به تحريضات البابا ومناشداته ، والمغامر الذي شاقه التعرف الى الشرق ، والمعلم الذي امل بالعود الى الوطن غانماً .

وقد تقدم الحملة العسكرية جماعات المتطوعة والمرتقة والحجاج بقيادة بطرس الناسك (بيير ليرميت) . اما الحملة النظامية فقد تألفت من جيوش اربعة :
١ - جيش الشمال بقيادة « غودفروا دوبريون » وقد انخرطت تحت لوائه قوات اللورين والفلاتندر وهينو والرين وهولندا ، وكان يضم عشرة آلاف فارس وسبعين الف راجل . سلك هذا الجيش طريق بافاريا ماراً بالنمسا فالبحر فبلغاريا ، وبلغ ضواحي القسطنطينية في ٢٧ كانون الاول سنة ١٠٩٦ .
٢ - جيش الجنوب بقيادة « ريمون دو سان جيل » كونت تولوز وقد ضم قوات غسكونيا واوفرنيه ولانغدوك وبروفنس . وقد سلك هذا الجيش طريق لومبارديا ماراً بدلماسيا فاليونان .

٣ - جيش الوسط بقيادة دوق نورمنديا وكونت « بلوا » فسلك طريق ايطاليا حيث انضم اليه جيش رابع يتألف من عشرة آلاف فارس وعشرين

الف راجل بين ايطالي ونورمندي بقيادة « بوهيمون » .
 كان حصار « نيقيا » اولى العمليات الحربية التي قام بها الصليبيون ، واستمر
 الحصار شهرين (نيسان وايار سنة ١٠٩٧) استعان الفرنجة خلالها بمواهب
 المهندسين اليونانيين وبآلاتهم . وفي « اسكي شهر » حصل الاشتباك الاول بين
 الفرنجة والأتراك (اول تموز ١٠٩٧) فتلقى فرسان القائد التركي ألب ارسلان
 رجال « بوهيمون » بتكتيك اشاع الفوضى في صفوف هؤلاء . ذلك بان
 الأتراك عهدوا الى الفرسان مهمة رمي اعدائهم بالنبال ، فكان كل صف من
 الخيالة يتقدم من الفرنجة ويفرغ جعابه ثم يعود الى مكانه فاسحاً المجال امام
 صف آخر . وفي هذه الاثناء كان الرماة في صفوف الفرنجة يعملون كتلة
 واحدة فاخذ منهم التعب جميعاً في وقت واحد ، عندئذ انقض عليهم الأتراك
 واعملوا فيهم السيوف والخنجر . فارتدت قوات بوهيمون متخذة من
 مركباتها حاجزاً يقبها ضربات العدو . وكان قائدها قد ارسل الى الجيوش
 المتخلفة يطلب اليها ان تستحث الخطى ، فوصلت في الوقت المناسب واستطاع
 المقدم « دي مونتيل » ان يقوم بجرعة لف مسترة لم يشعر بها الأتراك الا
 وهم مطوقون ، فركزوا مجهودهم ضد اضعف النقاط في صفوف اعدائهم
 واستطاعوا ان يشقوا لانفسهم طريقاً مولين الادبار ، متخليين عن مركباتهم
 ومؤنهم .

وقد اجمع المؤرخون على القول ان معركة « اسكي شهر » جعلت الأتراك
 يتهيئون الفرنجة ويقدرّون مزاياهم العسكرية . وذهب فريق منهم الى ابعد من
 هذا فزعم ان انتصار الفرنجة في « اسكي شهر » اخّر استيلاء الأتراك على
 القسطنطينية زهاء ثلاثة قرون .

كان الزحف الى انطاكية عبر الهضاب الجرداء امتحاناً قاسياً لمعنويات

الحملة . فقد مات خلق كثير جوعاً وعطشاً وهلك معظم الجياد قتالاً من فرسانها قطعاً راجلة فحاقدة في تنظيمها منحى اليونانيين ، واضطرم نشاط العدو ويقظته لتغطية الطليعة والمؤخرة والجناحين .

ولم تكن انطاكية بالمدينة السهلة المثال ، فقد جعل منها الفن البيزنطي حصناً منيعاً جداً بتشييده حولها اربعمائة سور ترتكز على العاصي وعلى منحدرات جبل سيلبوس . وقد حاصرها الاتراك قبل عشر سنين ولولا خيانة فريق من ابنائها لما اتيح لهم الاستيلاء عليها .

استمر حصار المدينة زهاء سبعة اشهر تخللتها اشتباكات عنيفة ومواقع وقف عندها مؤرخو العصر لاهميتها من الناحية الفنية . ومن هذه المواقع موقعة بحيرة انطاكية التي انتصر فيها الصليبيون بفضل براعة القائد بوهيمون .

ترامى الى القائد ان مدداً عظيماً يزحف الى انطاكية من حلب فخفف لملاقاة خصمه على رأس سبعمئة فارس مخلفاً المشاة حول المدينة المحاصرة ليحموا المسكر والمؤن . وقد اختار بوهيمون لمقاتلة جيش النجدة الممر الضيق الذي يفصل بين العاصي وبحيرة انطاكية ، لعلمه ان معركة تدور رجاها على رقعة بمثل هذا الضيق لا يكون فيها اي تأثير للتفوق العددي ولا يتسع المجال لحرب الحركات والمناورة ضد الجناحين .

وقد انتصر فرسان بوهيمون بفضل شجاعتهم ورشاقة حركاتهم وولى جيش النجدة الادبار متخلياً عن عتاده الثقيل . واتصل خبر الهزيمة بحامية انطاكية فدب الحور الى عزائمها وساموم واحد من المكلفين حماية احد الاسوار الخارجية القائد بوهيمون على التسليم فتمت الصفقة وكانت من العوامل التي عجلت بسقوط المدينة ، فدخلها الفرنجة في الثالث من تموز ١٠٩٨ .

وبعد سقوط انطاكية بدأ الزحف الى بيت المقدس فبلغت الحملة اسوار

المدينة في السابع من حزيران سنة ١٠٩٩ ، فأقام روبر دوق نورمنديا معسكره في القطاع الشمالي ، وعسكر جيش غودفروا دوبيون الى الغرب امام « باب داود » ، واحتشدت قوات الكونت دوتولوز جنوباً على جبل صهيون . وصيحة ١٣ حزيران شن الفرنجة هجوماً على المدينة فأخفق لان الاسلحة التي استخدمت في الحصار لم تكن متكافئة مع قوة الجهاز الدفاعي ومناعته . وزاد المحاولة صعوبة اشتداد القيظ وندرة الماء . على ان اخفاق الهجوم الاول لم يفت في عضد الفرنجة لانهم كانوا يرتقبون وصول اعتدة جديدة . وقد وصلت هذه الاعتدة الى يافا في ١٥ حزيران وتولى مئة فارس نقلها الى ضواحي بيت المقدس بعد ان احبطوا محاولة تركية كانت تهدف الى اغراق القافلة البحرية قبل ان تفرغ السفن شحناتها . فضحى الفرسان بالسفن ولكنهم انقذوا الاعتدة الحربية والاشباب والجمال والمؤن والبحارة . وكان بين هؤلاء مهندسون يتقنون صنع آلات يمكنها ذلك الاسوار المنيعة ، فافادت الحملة من اختصاصهم . وما هي الا بضعة عشر يوماً حتى توفر لدى الفرنجة اسوار نقالة وجانيق ضخمة . وفي ليل ٩ - ١٠ تموز اقيم سور خشبي امام اسوار المدينة الشمالية الشرقية وسور خشبي ثانٍ على جبل صهيون واقام الثالث امام « باب اليعازر » . وفي ليل ١٣ - ١٤ تموز شن الفرنجة هجوماً عاماً ، فجاءت النتائج الاولى محيبة للامال لان الحامية غطت الاسوار باكياس ملئت قطناً وتبناً ، فلم تؤثر في الجدران مقذوفات الجانيق وكانت معظمها يقذف حجارة ضخمة . ولجأت الحامية الى اسلحة دفاعية متنوعة منها الزيت المحروق والنار اليونانية والسهم المسمومة والكبريت السائل . وفي اليوم الثالث كسا القائد غودفروا سوره الخشبي النقال (يسميه بعض المؤرخين القصر الخشبي النقال) جلود حيوانات طريئة ليدفع عنه خطر النار ، فأعطى هذا السلاح المضاد

النتيجة المتوخاة . وفي ١٥ تموز اصبح بيت المقدس في قبضة الفرنجة .
 الحملة الثانية . - قام بالحملة الصليبية الثانية جيشان كبيران احدهما الماني
 بقيادة الامبراطور كونراد والآخر فرنسي بقيادة لويس السابع . وقد هزم
 الالماني في موقعة اذرولية Dorylée وتفرقوا ايدي سبا . اما الفرنسيون
 فقد قامت في طريقهم عقبات كأداء واضطرتهم دسائس الترك واليونانيين
 لتعديل خططهم اكثر من مرة . وكانت الحملة الفرنسية تهدف في الدرجة الاولى
 الى دفع الخطر عن بيت المقدس بعمليات الهاء واسعة النطاق . واقر الملك
 على هذه الخطة قادة الجيوش الصليبية التي لحقت بالجيش الفرنسي . بيد ان
 الخلاف ما لبث ان دب الى صفوف الصليبيين فاستثمر السلطان صلاح الدين
 تخاذلهم سياسياً وعسكرياً واسترد مدينة القدس سنة ١١٨٧ .

الحملة الثالثة . - حاصر غي دولوزينيان مدينة عكا سنة ١١٨٨ واحتل جزءاً
 منها . ولكن الحامية المسلحة استطاعت حصر الفرنجة في نطاق ضيق فتناهى
 الملكان فيليب اوغست وريشار قلب الاسد منازعاتها وخفا لتجدة غي
 دولوزينيان فحاصر جيشاهما المدينة الحصينة واستخدما في ذلك اسوارها وقلاعها
 اسلحة جديدة منها الحراقات . وما ان سقطت عكا حتى عاد فيليب اوغست
 الى اوروبا تاركاً عشرة آلاف فارس تحت امره ريشار قلب الاسد .

اما الحملات الصليبية التي تعاقبت منذ ذلك فقد كان استراك الفرنسيين فيها
 ثانوياً ولم يتخلها من الاحداث العسكرية ما يستحق الوقوف عنده .

نتائج الحملات الصليبية . - اتيح للفرنجة في الشرق ان يجددوا فئهم
 العسكري وينظموا جيوشهم تنظيماً جديداً . اقتبسوا من اليونان اساليب
 تكتيكية اعتمدها في مهاجمة المدن الحصينة وفي الدفاع عنها . وتعلموا من
 خصومهم العرب فن المناورة واللف والتمويه ، وقبسوا منهم فن التغطية

والتراجع المنظم . واثبت مشاتهم سنة ١١٤٦ ، وهم يتراجعون عن بصرى ، انهم لا يقاومون عن العرب صبراً وشجاعة ومقدرة على تغطية الاهداف الحيوية .
اما الحياة الصليبية فقد ظلت العنصر الرئيسي في معارك الارض المكشوفة .
ولاحظ القادة ، بعد حصار انطاكية ، ان الفرسان عاجزون عن مجارة العدو في المناورة ، لان اسلحتهم الثقيلة تبهظ كواهلهم ، فجهزوهم بأسلحة خفيفة من صنع معامل دمشق . وافاد الصليبيون من براعة الصانع الدمشقيين فاستصنعوا سيوفاً حدها من الفولاذ ، وآلات خفيفة لقتل العدو بالنار اليونانية .

وبعد انشاء المملكة الصليبية ازداد عدد المحاربين المرتقة ، لان المملكة الجديدة اضطرت لابقاء جيش كبير تحت السلاح عهدت اليه بالدفاع عن المراكز الاستراتيجية الهامة . ويذكر المؤرخون ان الوفاً من ابناء البلاد جندوا في مناطقهم للدفاع المحلي .

وانشأ الفرنجة في الشرق قصوراً حصينة وقلاعاً على غرار القصور التي شيدها اجدادهم في فرنسا . بني معظم هذه الانشآت على هضاب تشرف على طرق المواصلات الرئيسية ، « كقلعة الحصن » التي تحمي الثغرة بين حصن وطرابلس ، وقلعة الشقيف وغيرها .

ورافق قيام المملكة الصليبية انشاء المؤسسة المعروفة بـ « فرسان الهيكل » .
فبدأت دينية بحتاً ثم تحولت الى منظمة عسكرية ، ووضعت سيوفها في خدمة الملك والدين . وبعد انهيار المملكة انسحب الفرسان الى رودس ، فحصنوا الجزيرة لتكون حاجزاً بين الشرق الناهض المتحفز للوثوب ، وبين الغرب المتفسخ المنقسم على نفسه .

• - فيليب اوغست وموقعة بوفين

فاشد البابا الملك فيليب اوغست سنة ١٢٠٨ ان يعود الى المشرق على الجيش الفرنسي

رأس حملة صليبية جديدة ، فكان جواب الملك انه لا يستطيع براح فرنسا « لان
 أسدين هصورين يتهددان جناحيه . فالامبراطور اوتون وملك انكلترا بيدلان
 ما في وسعها لاشاعة الفوضى والاضطراب في المملكة الفرنسية » .
 لم يعد فيليب اوغست الحقيقة في جوابه على مناشدات البابا : خلف له
 والده لويس السابع مملكة واسعة ، لان زواجه باليونور ابنة دوق « الاكيتين »
 ووارثته الوحيدة ألحق بفرنسا دوقيات « غين » و « غاسكونيا » ومقاطعات
 « سانت » و « بواتيه » و « بوردو » . بيد ان طلاقها وزواج اليونور من
 « هنري دو بلاتاجينه » دوق نورمانديا وسيد بريتانيه بسط ممتلكات هذا الامير
 القوي حتى باتت تشمل خمسي الاراضي الفرنسية . وبعد زواج هنري بيضعة
 عشر شهراً آمن لنفسه عرش انكلترا ، فاعتلاه باسم هنري الثاني وصار تابعاً
 لملك فرنسا في ممتلكاته عبر المانش . غير ان هنري لما لبث ان طمع الى
 بسط سيطرته على فرنسا كلها ، فقام بينه وبين « آل كابيت » نضال عنيف
 واستمر العداء بين البيتين المالكين ، وظلت المسألة المختلف عليها معلقة الى ان
 ارتقى العرش الفرنسي فيليب اوغست ، فقرر الفصل فيها وتوحيد المملكة
 توحيداً نهائياً .

وكان وجود ريشار قلب الاسد ملك انكلترا على رأس قواته في فلسطين
 المناسبة التي طالما تحينها الملك الفرنسي لطرد خصومه من الارض الفرنسية . فتروك
 ريشار حول اسوار عكا ، وقفل راجعاً الى فرنسا حيث شرع يهاجم
 الممتلكات الانكليزية . واتصل الخبر بريشار فحف لل دفاع عن اراضيه ، فقتل في
 موقعة « سالو » . وعلى الاثر اعتلى العرش الانكليزي شقيقه « جان سان تير »
 بعد ان فتنك بولي العهد الامير ارثر . واستثمر اوتون امبراطور المانيا الوضع
 الجديد فمد يده الى « جان سان تير » ودوق الفلاندر وعقد ثلاثهم الحناصر

استعداداً لضرب جناحي فيليب اوغست .

لم يفاجأ ملك فرنسا بهذا الحلف القوي ، فهو لم يسقط من حسابه تألب الالمان والانكليز عليه عندما اخذ على عاتقه تحقيق الوحدة الفرنسية ، فاعزز الى النبلاء في مقاطعة « شامبانيا » بان يحضنوا قصورهم وينشئوا تحصينات قوية لتغطية المراكز الحيوية . وعمد هو الى اسوار مدينتي ريمس وشالون فدعما بجدران سميكة ، وحفر امامها خنادق عميقة . ولم ينس باريس فاتم سنة ١٢١٠ بناء السور الذي كان قد شرع في بنائه قبل الحملة الصليبية .

وفي سنة ١٢١٢ حشد فيليب ١٥٠٠ مراكب لغزو انكلترا . ولكنه استغتم هذه « الارمادا » في غزو سواحل الفلاندر ، لان البابا صرفه عن مهاجمة انكلترا . بيد ان حملة الفلاندر لم تتجح ، وزادت سكان البلاد تشبثاً بالحلف الثلاثي . فقرر الحلفاء القضاء على فرنسا كدولة عظيمة ورسوموا خطة الهجوم التالية : يزحف الالمان والفلامان والانكليز من الشمال ، وفي الوقت نفسه ينزل الملك جان على رأس حملة في ميناء « لاروشيل » ويسعى الى اثارة تابعيه السابقين ويجتهد في استدراج ملك فرنسا بعيداً عن باريس ، ليتسنى لجيش الشمال ان يتقدم دون مشقة .

جيش فيليب اوغست . - آلى فيليب اوغست على نفسه حماية المملكة الفرنسية ضد كل طامع فرنسياً كان او اجنياً ، واعد لهذا الغرض جيشاً قوياً نحا في تنظيمه وتجهيزه منحى جديداً ، دون ان يغفل القواعد الاساسية التي وضعها سلفاؤه من آل « كاييت » . من ذلك انه عمل على توثيق العلاقات بينه وبين متبوعيه ، وعنى عناية خاصة بالميليشيا الشعبية ، وسن قوانين تميز اعطاء ذوي العاهات والمرضى وارباب العيال من الخدمة العسكرية ، لقاء قيامهم بدفع اجور الجنود المرتزقة .

وادرك فيليب اوغست اهمية الانسجام في صفوف المحاربين ، فوزعهم على قطعات تضم كل واحدة منها رجالا تشابهت اسلحتهم وطريقتهم في القتال . فالفرسان الخفاف انتظموا في قطعة على حدة ، واسندت اليهم مهمة مطاردة العدو المتراجع ، وجعلت الخيالة المدرعة قوة الطليعة ووزعت على وحدات تضم الواحدة منها مئة فارس .

ولم يتوصل فيليب اوغست الى حل معضلة الجيش الدائم . فلم يتجمع لديه في اوائل القرن الثالث عشر اكثر من اربعة آلاف مقاتل ، معظمهم من المرتزقة الذين كانوا يضعون سواعدهم في خدمة الملك او الزعيم الاكثر بدلا . وكانوا في السلم يعيشون في البلاد فساداً ، فيسلبون الناس ويسطون على الدور الآمنة دون ان تجرؤ السلطات على مناقشتهم الحساب . بيد ان فيليب اوغست عرف كيف يكبح النزعة الشريرة في نفوس المرتزقة ، فجعل منهم اداة صالحة ، وكفاهم مؤونة السلب والنهب بان اجرى عليهم المنح والهبات .

وادخل الملك فيليب اوغست تعديلات جوهرية على القيادة . فعهد الى النبلاء الصغار بقيادة الميليشيا الشعبية ، وبال دفاع عن القلاع والحصون . وناط بوزيره الاول مهمة اعداد الخطط الحربية والاشراف على تنفيذها . وجعل من المارشالية واسطة العقد بينه وبين الدوقات والكونتية والبارونات .

التحصينات . - اجمع المؤرخون على ان الملك فيليب اوغست كان مهندساً بارعاً . ففي عهده تقدم فن الهندسة العسكرية تقدماً عظيماً . فحلت القلاع المشيدة بالحجارة محل الصروح الخشبية . كان الصرح يبنى على منحدر وعر المسالك ليكون مسكن النبل او السيد والركن الدفاعي المنيع . كانت الصروح قبل فيليب اوغست ذات شكل مثلث يحيط بها سوران

يلامس احدهما جدران الصرح حتى شرفات الطابق الاعلى ، مغطياً الطابقين الارضي والاول حيث كانت تتراكم المون والاعتدة والذخائر . اما السور الآخر فيحيط بالصرح ، يفصل بينهما فناء عريض قامت عليه الاسطبلات وابنية اخرى لاىواء الحامية .

امر فيليب اوغست بتشييد قلاع وصروح مسددة الزوايا ، واخرى ذات زوايا متعددة ، وجعل الفاصل بين السور الخارجي والسور الداخلي فناء تتقاطعها الخنادق والحفر . وفتح في كلا السورين ثغرات لاىواء الرماة متصلة بالفناء بسلام حلزونية .

وحسن الملك « المهندس » وسائل الهجوم فامر بصنع بجانبى بجهزة برقاصات يمكنها ان تطلق قذيفة او حجراً تراوح زنته بين عشرة و ١٥٠ كيلوغراماً ، وبصنع اسوار وصروح نقالة يختبئ المهاجمون في داخلها . وانشأ وحدة من النجارين اطلق عليها اسم « حملة الهندسة » وناط بها صنع المجانيق والاسوار في ميدان المعركة .

التكتيك . - استعان فيليب اوغست بقيادة من الرهايين والنبلاء ضربوا من الفن العسكري بقسط وافر . وكان المتوفرون على التعمق في هذا الفن يعنون عناية خاصة بحرب الحركات ويوجهون اهتمامهم الى القتال على الارض المكشوفة ، وينصحون بالاقلاع عن قتل الوقت في محاصرة القلاع لان الحملة الناجحة تضع في متناول المهاجم مفاتيح الحصون المنيعه والمدن المحصنة .

ورضع اساتذة الفن العسكري قواعد معينة للتكتيك الهجومى والدفاعى . ففي الهجوم يمكن احراز النصر بحملة جبهة قوية ، او بعملية لف سريعة تباغت العدو . وفي الدفاع تظل الصفوف متراصة اذا ارتكزت العمليات الدفاعية على جهاز عميق ، ويمكن تجنب حركات اللف المعادية يجعل الجهة

الدفاعية موازية لجهة الحُصم من حيث الاتساع .
 معركة بوفين . - قلنا ان ملك انكلترا « جان سان تير » اخذ على
 عاتقه استدراج فيليب اوغست الى « لاروشيل » ، فيخلو الجو للجيش الحليفة
 الزاحفة من المانيا والفلاندر . وقد وصل جان الى « لاروشيل » في شباط
 سنة ١٢١٤ ، وكفاه الذهب الذي نثره بسخاء مؤونة القتال ، فلم اليه ستة
 وعشرون سيداً مفاتيح ستة وعشرين صرحاً وقلعة . وانتهى خبر الغزو
 الى فيليب اوغست فخف لتدارك الموقف بعد ان استوثق من ارتداد جيوش
 الامبراطور اوتون الى منطقة الحدود ، ليعيد القادة النظر في تنظيمها . فاسرع
 الملك جان الى الاعتصام ما وراء نهر « الغارون » غير مكترث لمصير الاسياد
 الذين ألهم ضد ملكهم . فاقتص منهم فيليب اوغست دون ما شفقة . ثم
 قفل عائداً الى الشمال ملقياً على عاتق ولي عهده الامير لويس احباط محاولات
 « جان سان تير » فاعتصم الامير في القلاع والصورح والمدن المستردة .
 ما ان اتصل بملك انكلترا خبر رحيل فيليب اوغست حتى زحف على
 محاذة نهر « اللوار » وحاصر قلعة « روش » القائمة حاجزاً منيعاً في طريقه .
 وقد استخدم الانكليز في ذلك الاسوار المقذوفات الثقيلة والعتل الضخمة
 والالغام . وكان الرماة يغطون عمليات الحفر بسهام مسمومة يرشقون بها
 المدافعين ليرغمهم على التواري . ولكن الحامية استبسلت في القتال وظلت
 تكافح خمسة عشر يوماً . وفي اليوم السادس عشر وصل الامير لويس على رأس
 جيشه الصغير المؤلف من الف فارس وسبعة آلاف راجل ، فولى رجال الملك
 جان الادبار قبل ان يلتقي الجيشان تحت اسوار القلعة العظيمة .
 في هذه الاثناء كان جيش فيليب اوغست وجيوش الحلفاء قد احتلت
 مراكزها . فاحتشد ثلاثون الف فرنسي في « بيرون » على نهر « السوم »

وخمسة وسبعون ألفاً من الالمان والفلامان حول « فالنسين » . وكانت الخيالة في جيوش الحلفاء ضعفي ما كان منها في جيش الملك فيليب اوغست . قرر الملك الفرنسي مفاجأة العدو باللف حوله من الشمال . وقد بلغ بلدة « نورنه » صباح السادس والعشرين من تموز . بيد ان الحلفاء تقادوا هذه الحركة بالانتشار على طول نهر « الايسكو » ، فعدل فيليب عن خطته واعتمد عكسها ، فقرر نشر جيشه على الضفة الغربية لنهر « مارك » ، وكان جسر « بوفين » الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها الانتقال من الضفة الشرقية الى الضفة الغربية .

شرع الجيش الفرنسي يتجه شطر الغرب صباح الاحد الموافق ٢٧ تموز تحمي مؤخراته فصائل من البورغونيين والشامبانيين . وكان الملك قد عقد مجلساً قبل تحرك الجيش ، فقال فريق من القادة ان اوتون لن يهاجم في يوم مقدس كيوم الاحد ، وخالفه فريق آخر على رأسه الراهب « غيران » رئيس اركان الحرب .

وبعد سير بضعة فراسخ قام الراهب بعملية استطلاعية ، فشهد الجيوش المتحالفة تجدد في السير شمالاً مجتازة ارضاً تتخلها المزالق ، فنصح بباغته العدو ، ولكن الملك لم يستمع للنصيحة فعبرت القوات الرئيسية نهر مارك تحمي مؤخراتها فصائل تحلفت على الضفة الشرقية للنهر . وقد فوجئت هذه الفصائل بهجوم شنه عليها الفلامان فقاومتهم واستطاعت ان تتقهر بنظام . واتصل الخبر بفيليب فحشد جيشه قبل وصول الجيوش المتحالفة . وعند الظهر كان الحصان وجهاً لوجه .

كانت خطة الامبراطور اوتون ترمي الى فتح ثغرة في قلب الجيش الفرنسي . وقد شغل هو قلب الجيوش المتحالفة تحوطه خيالة « الساكس »

واللورين ولبورغ ونامور . واحتشد امامها المشاة الجرمانيون وميليشيا الفلاندر
وشغل الجناح الايمن الجيش الانكليزي بقيادة ساليسبوري وقوات « هوغ
دوبوف » و « رينو دودامرتان » وهو فارس فرنسي انشق على ملكه . اما
المسيرة فقد ضمت خيالة البلدان المنخفضة بقيادة الكونت « فران » .

تولى الراهب « غيران » نشر الجيش الفرنسي . وعني عناية خاصة بتعزيز
الجناح الايمن اقتناعاً منه بان المعركة الحاسمة ستدور على الرقعة الشرقية من
ساحة القتال . فحشد مقابل خيالة الكونت فران نجبة القوات الفرنسية .
واحتشد في الوسط ميليشيا العاميات الاقطاعية حول الملك فيليب الذي احاط
به فرسان حرسه ، وشغل الجناح الايسر الف فارس بقيادة ابناء عمومة الملك
تغطيتهم ميليشيا قوية ، وعهد فيليب بحماية جسر بوفين الى فصائل من فرسان
الحرس .

تقابل الجيشان على جبهة طولها ثلاثة كيلومترات . وكان الخط الفرنسي
قليل العمق لان الراهب « غيران » اجتهد في جعل الجبهة الفرنسية موازية للجبهة
المعادية رغم رجحان كفة الالمان من حيث العدد . وقد اعترض فيليب
اوغست على الطريقة التي نشر بها الراهب قواته . فتشبث « غيران » بها لانها
الطريقة المثلى لتفادي حركات اللف .

بدأت المعركة الساعة الثانية بعد الظهر بهجوم شنه مئة وخمسون فارساً
فرنسياً كانوا يؤلفون اقصى الجناح الايمن . وعلى الاثر تحرك مشاة الامبراطور
اوتون في الوسط بعد ان مهدت لهجومهم النبال المسمومة . فاندفع عشرون الفاً
في صفوف متراسة ومخطى ثابتة واستطاعوا ان يدفعوا بالميليشيا الفرنسية الى
الوراء . وما لبث القتال ان امتد الى الغرب شاملاً الجبهة كلها .

وبعد ساعة من الزمن تغلب فن المناورة الفرنسي في القطاع الشرقي على

شجاعة فرسان الفلاندر وتفوقهم العددي ، فراح الكونت « دوسان بول » وفرسانه الخفاف يتقضون على جناحي الخيالة المعادية في حملات خاطفة ، حتى اضطر « فران » كونت دوفلاندر لتقوية الجناحين على حساب القلب . فادى هذا التدبير الى اضعاف ميسرة العدو كلها فلم تعان خيالة الكونت « دوسان بول » مشقة كبيرة في استئثار نجاحها المبدي ، وعجل في انهيار ميسرة الجيوش المتعالفة وقوع « فران » في الاسر .

وفي هذه الاثناء كان القتال على اشده في الغرب من اجل جسر بوفين ، فقام ساليسبوري ورينودو دامرتان بسلسلة محاولات جريئة ضد الميسرة الفرنسية . ولكن قواتهما لم تنجح في بلوغ اهدافها ، لان الفرنسيين كانوا يسارعون الى سد الفجوات المفتوحة وتمكنوا الى النهاية من العمل صفوفاً مترابطة .

تلقى قلب الجيش الفرنسي الصدمة القوية كما تقدم معنا ، فادى تقهقر الميليشيا الى كشف موقع الملك فيليب ، فحمل عليه العدو حملة قوية قبل ان يلتمس مخرجاً من الورطة . وكان يحيط به قبضة من الفرسان الاوفياء فنازلوا واحداً ضد عشرين وجندلوا ستين المانياً قبل ان تكسر الحلقة حول الملك . ولما تبين فيليب الخطر الداهم انقض على اعدائه محاولاً ان يشق الصفوف الى حيث كان الامبراطور اوتون يراقب سير المعركة . ولكن فارساً غارقاً بالحديد استطاع ان يقلب الملك الفرنسي عن جواده ، فاحاط المشاة بالفريسة يهون عليها بقؤوسهم وخناجرهم وحرايمهم فتحطمت اسلحتهم على زرد فيليب وخودته . فقرروا بعد ان اعيام الطعن ان يحملوه اسيراً الى امبراطورهم . الا ان الميليشيا حزمت امرها في الوقت المناسب ، وكرت بقوة اعادت طلائعها الى نقطة الابتداء فانقذت الملك ، ومشت في اثره تشق صفوف العدو الذي اذهلته المفاجأة فانهمز كاشفاً موقع الامبراطور . ولم يتمكن ملك

فرنسا من منازل خصمه لان اوتون ولى الادبار مخلصاً ثلث جيشه تحت رحمة
سيوف الفرنسيين ، فقتل هؤلاء منهم خلقاً كثيراً وغنموا مغانم عظيمة .
وقد اجمع المؤرخون على ان معركة بوفين خطوة واسعة نحو تحقيق
الوحدة الفرنسية وخلق نواة الجيش الفرنسي . فقد برح فرسان الاقطاعية
وميليشيا العاميات والجنود المرتقة ، ساحة المعركة التاريخية يشدهم بعضهم الى
بعض اخوة السلاح تحت راية ملك انتزع الاعجاب العام بشجاعته وبعد نظره .
بيد ان انتصار بوفين ومعاهدة « شينون » التي كرسته لم يفضا حداً للنزاع
لان ملك انكلترا احتفظ باقطاع كبيرة في فرنسا الغربية ، فكانت هذه
الاقطاع جرثومة منازعات دامية .

الفصل الثالث

حرب المئة سنة

١ - فيليب الجميل والمؤسسات العسكرية

لم تكن موقعة بوفين انتصاراً للميليشيا على الحيلة . انما كانت معركة اقطاعية كسبها الفرسان ومثل فيها المشاة دوراً ثانوياً رغم كثرة عددهم ، لان اسلحتهم وتدريبهم لم تكن كافية .

انقضى بين وفاة فيليب اوغست وجوس فيليب دوفالوا على العرش الفرنسي زهاء مئة عام لم يطرأ خلالها تبدل يستحق الذكر على المؤسسات العسكرية . فقد بدأت حرب المئة سنة باسلحة اقطاعية . على ان المؤرخين يبرزون اثر الملك « فيليب الجميل » في الفن العسكري الذي تجلى في مواقع هذه الحرب الطويلة الامد . و « فيليب الجميل » هو حفيد القديس لويس واول ملك « عصري » في فرنسا الاقطاعية . بدأ عمله الاصلاحى بتقوية سلطة البرلمان على حساب سلطة النبلاء فاتاح لممثلي الامة الجوالصالح للعمل في سبيل المصلحة العامة . وكانت باكورة اعمال البرلمان في عهده الجديد مطالبته بتعديل قانون التعبئة وتقوية الوسائل الدفاعية .

ورأى الملك ان الخدمة العسكرية العامة تسليخ الشعب عن ارضه ومصانعه فقرر ان يعفى من الخدمة من يغذي خزانة المملكة بمبلغ معين من المال . وكان

يرجو ان تعمر الخزانة بفضل هذا التدبير . الا ان المبالغ التي تجمعت فيها من هذا الطريق لم تكف لدفع اجور المرتقة من الجنود الاجانب كالالمان والايطاليين والاسبان ، فالغى « فيليب الجميل » قانون البدل العسكري بعد مضي عام واحد على وضعه موضع التنفيذ واعتمد اصلاحات مالية شتى ليؤمن للخزانة المال اللازم . فبدأ بفرض ضرائب معينة على الاكليروس وايد البرلمان عمل الملك رغم احتجاجات البابا بونيفاس الثامن .

وقد اتاحت المنازعات الدولية للبابا ان يقتص من « فيليب الجميل » بتأييد اعدائه في ميادين السياسة والحرب . ولكن الملك ظل سادراً في عمله الاصلاحى ولم تصرفه مشاغل الحرب عن تنظيم الادارة والقضاء تنظيمياً ابتعد بهما عن الاقطاعية وروحها .

ودعى الجيش الفرنسي في عهد الملك المصلح الى منازلة الانكليز اكثر من مرة . وكان محور النزاع في الغالب دوقية « غوين » . احتل فيليب الدوقية مدة خمس سنوات ثم ردها الى ادوار الاول بموجب معاهدة « مونتروي » ووعده ولي عهد انكلترا بيد ابنته ايزابيل . بيد ان سياسة التقرب هذه لم تقض على بواعت الحلاف ، فقد اوجس ادوار الاول وابنه من بعده خيفة من نمو الاسطول الفرنسي ، ومن ارتباط فيليب وايكوسيا بمعاهدة تحالف وصداقة لا يمكن ان تكون موجهة ضد دول القارة . لهذا راح البلاط الانكليزي ينشد الاصدقاء والحلفاء في الفلاندر ومانيا ، وانبرى رسله يبنرون بذور الشقاق بين الدوقيات الفرنسية سعياً منهم الى اضعاف الجبهة الداخلية .

وتخلل فترة السلم بين فرنسا وانكلترا او بين فيليب وادوار حرب الفلاندر سنة ١٣٠٢ ، فذاق الفرسان الفرنسيون مرارة الهزيمة في موقعة « كورتوه » لان قائدهم « روير دارتوا » لم يحسن ادارة العمليات الهجومية .

التقى الجيشان في منطقة «غرونانجه» المليئة بالمستنقعات. وكان جيش
الفلاندر يتألف من عشرين ألف مقاتل راجل، يقابلهم اربعون ألف فرنسي
نصفهم من الفرسان. وكان الفلامان والفلمنكيون قد حفروا خندقاً عميقاً
وغطوه بالحشائش فانتشروا على مقربة منه. وبدأ الرماة الفرنسيون يقذفون
العدو بالنبال فتراجع. وعلى الاثر تدخل رويبر دارتوا على رأس فرسانه
ولكنه بدلا من ان ينقض على الجناحين تاركاً للرماة مهمة تغطية الخيالة،
اندفع نحو القلب قبل ان يستطلع حالة الارض، فسقطت الطلائع في الخندق
واستطاع رويبر دارتوا والفا فارز ان يتحاشوه، ولكنهم ابيدوا جميعاً
جنوب بلدة «كورتز».

٢ - حرب المئة سنة

تعاقب على العرش الفرنسي بعد موت فيليب الجميل اولاده الثلاثة، وتواروا
الواحد بعد الآخر دون عقب ذكر. ولما كان نظام الوراثة يحظر تولية
النساء فقد ارتقى العرش سنة ١٣٢٨ فيليب دوفالوا احد حفدة القديس
لويس. (فيليب دوفالوا هو ابن شقيق فيليب الجميل والقديس لويس جده
لايه) . وفي الوقت نفسه ارتقى العرش الانكليزي ادوار الثالث، وهو ابن
ايزابيل دوفرانس حفيدة القديس لويس وابنة فيليب الجميل .
وفي آب من العام ١٣٣٧ اعلن ادوار الثالث نفسه ملكاً لانكلترا
وفرنسا، فقام بين الدولتين نزاع استمر مئة سنة ويزيد (١٣٣٧ - ١٤٥٣) .
وقد خاض الفرنسيون غمرات هذه الحرب بجيش اقطاعي السلاح والتنظيم .
وضع النزاع في كفتي الميزان ملكين وشعبين وجيشين قامت بينها فروق
عميقة . الملك فيليب في منتصف العقد الخامس ، شجاع ، عادي الذكاء ،
ضعيف الارادة . والملك ادوار في الخامسة والعشرين ذو شخصية قوية وعقل

راجع وطموح لا حد له . وقد شجع الملك الشاب على تحدي خصمه القوي عوامل منها الخارجي ومنها الداخلي . ففي الخارج ارتبط البلاط الانكليزي بعلاقات مع دوقية الفلاندر والامارات الالمانية . وفي الداخل التف حول العرش النبلاء الصعاليك ، تحذوهم جميعاً رغبة مشتركة في التوسع على حساب فرنسا ذات التربة الحضية والحضارة اللامعة ، فرنسا المنقسمة شيعاً واحزاباً وطبقات . الشعب مع الملك ضد النبلاء ، وهؤلاء مع الملك ضد الشعب ومع الكنيسة ضد الملك .

وكانت حالة الجيشين بمثابة حالة الشعبين . ففي انكلترا كانت التعبئة مؤمنة بالخدمة العسكرية الاجبارية . فكل انكليزي حر تراوح سنه بين السادسة عشرة والستين ملزم بتلبية النداء الا في احوال استثنائية ، كالمرض والعاهة . وكان الرؤساء يتفقدون حالة الجيش مرة كل شهر في اثناء المناورات وحفلات العرض ، فتتيح لهم هذه المناسبات امتحان الاسلحة والتثبت من كفاية التدريب . وافاد الانكليز من حملاتهم ضد ايكوسيا فدخلوا على ضوء نتائجها تحسينات فنية على القوى المسلحة . من ذلك انهم دربوا خيالتهم على القتال راجلة ، وخصوصا المشاة بعناية كبيرة فحصروا الانخراط في وحدة الرماة برجال منخوبين دربوا تدريباً طويلاً وامتازوا برشاقة الحركة واحكام الضربات .

اما في فرنسا فقد ابعث الترف ابناء الطبقة الوسطى عن حرفة السلاح الحشوة ، وكان الانسجام واللحمة مفقودين في جيش يتبادل فيه النبلاء والسوقة الحذر والبغض ويتألف ثلثه من اجانب مرتزقة . وكان الانحطاط في الحياة الفرنسية قد بدأ في عهد فيليب اوغست ، فعني فيليب السادس برفع مستواها وانسكته اغفل العناية باسلحتها الهجومية والدفاعية فضاخت غمرات المعارك

بدروع ثقيلة ، وبجراب وسيوف طويلة وفؤوس ضخمة ، وبأسلحة رمالية قصيرة المدى كالتى استعملها الصليبيون في الشرق .

اما المشاة فلم يكن منهم في الجيش الفرنسي قطعات قادرة على الهجوم او على الصمود . فالقوات المساعدة ما كانت تتدخل في القتال الا اذا فسحت الميليشيا والفرسان امامها مجال التدخل . اما الميليشيا الشعبية (ميليشيا العاميات) فقد مثلت دورها ايام كان القتال فوضى والاسلحة واحدة في كل المعسكرات . فلما اصطلح في الهجوم والدفاع والكر والفر على قواعد معينة وتوعدت الاسلحة والوسائل الدفاعية ، فقدت الميليشيا الشعبية اهميتها كعنصر من فضائله العسكرية الاندفاع والشجاعة والثبات . ولم تكن ميليشيا المدن والمرتبة احسن حالا . كانت اكثر تقيداً بالنظام تتلقى التعليمات من الرؤساء وتتفدها ، الا ان التعاون كان معدوماً بين صفوفها واللحمة مفقودة . اما القادة فكانوا يتقنون فن المناورة على ارض مكشوفة لا يتخلها تنوء او حصن او خندق ، ويفهمون المعركة انها مبارزة في ميدان واضح الحدود خال من المزالق . ولم يكن هذا حال زملائهم الانكليز ، فقد راحوا يبحثون عن الحواجز الطبيعية ليستخدموها في اغراضهم الهجومية والدفاعية ، وعمدوا الى الحصون فجعلوا منها نقاط ارتكاز .

معركتا كريسى وبواتيه . — كان تفوق فرنسا البحري كابوساً يجثم على صدر ادوار الثالث لعله ان الاسطول الفرنسي انما بني لاغراض هجومية اقربها الى التحقيق غزو انكلترا . وقد رفع الكابوس عن صدره في موقعة « ايكلووز » البحرية اذ دمر الاسطول الانكليزي اسطول فيليب السادس (فيليب دوقالوا) . وبعد زوال هذا الحاجز لم يلق الانكليز صعوبة في النزول على الارض الفرنسية والتوغل في نورمانديا وبريتانيا وغويين . وبعد ست سنوات

قضاها الفريقان في كر وفر في المناطق الثلاث ، فوجت باريس ذات مساء
بالسنة الهيب تدلع من ضاحية « سان كلو » لان الطلائع الانكليزية
وصلت اليها . فاستنجد الملك فيليب تابعيه وحلفاءه القريين والبعيدن وهب
على رأس جيشه لدفع الخطر عن العاصمة . فالتقى الجيشان في ٢٨ آب سنة
١٣٤٦ في بقعة مجاورة لغابة كريسي .

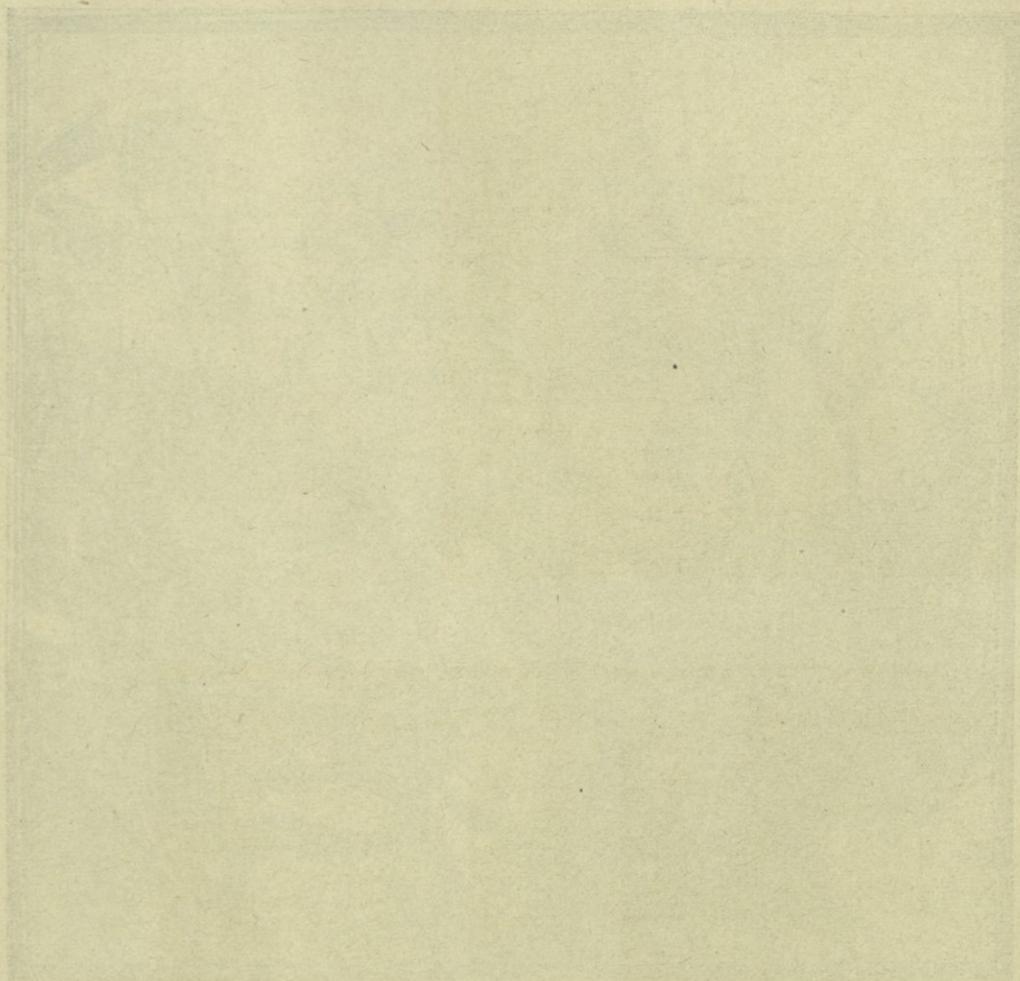
احتل الجيش الانكليزي واقعه في اليوم السابق وتمركز الرماة من حملة
الاقواس خلف هضبة ، بينا انتشر الفرسان وكانوا يؤلفون الجناحين
تحميهم تروسهم وتغطيهم نبال المشاة ورماحهم الخفيفة . واقبل الجيش
الفرنسي يتقدمه الفرسان وعلى رأسهم النبلاء ، فكان يسير دون نظام . اما
عدد المحاربين تحت راية الملك فيليب فكان ضعفي المحاربين الانكليز .

ابى فيليب على الفرسان مباشرة القتال ، وناظ المهمة بالقطعات الاجنبية
ولاسيا متطوعي جنوى . فقبل المهاجمون بوابل من النبال وفوجئوا بقصف
شديد مصدره ثلاثة مدافع صغيرة لا عهد لهم بمثلها . فارتبكوا ثم دب الدعر
الى صفوفهم فولوا الانكليز ظهورهم متمسكين سبل النجاة . فامر الملك فيليب
فرسانه بانقاذ الموقف . ولكن جهودهم ذهبت سدى في فوضى الالتحام . وما
غربت شمس ذلك اليوم حتى فقد الملك الفرنسي زهرة جيشه فانسحب تحت
جنح الظلام يجر اذيال الحيبة .

التقى الجيشان مرة اخرى بعد عشر سنين في « بواتيه » وكانت على رأس
الجيش الفرنسي الملك جان دوفالوا ابن فيليب ، وقد حاول استدراج الجيش
الانكليزي الى القتال على ارض مكشوفة ليسحقه تحت ثقل خمسة واربعين الف
رجل . ولكن ولي عهد انكلترا تفادى الاشتباك ، لان عدد رجاله ما كان ليزيد
على ثمانية آلاف ، فانسحب الى « غوين » واختار للصمود ارضاً ضيقة تتقاطعها



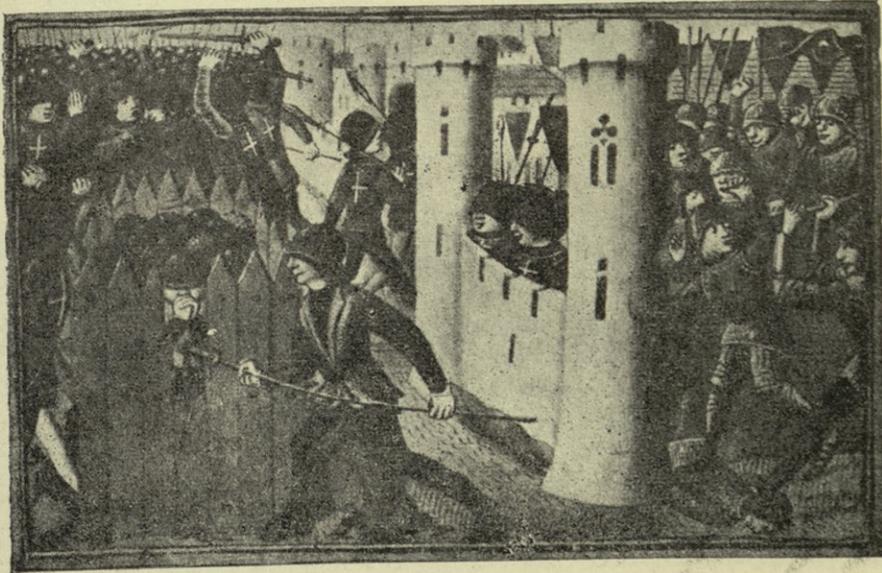
معركة روزبك



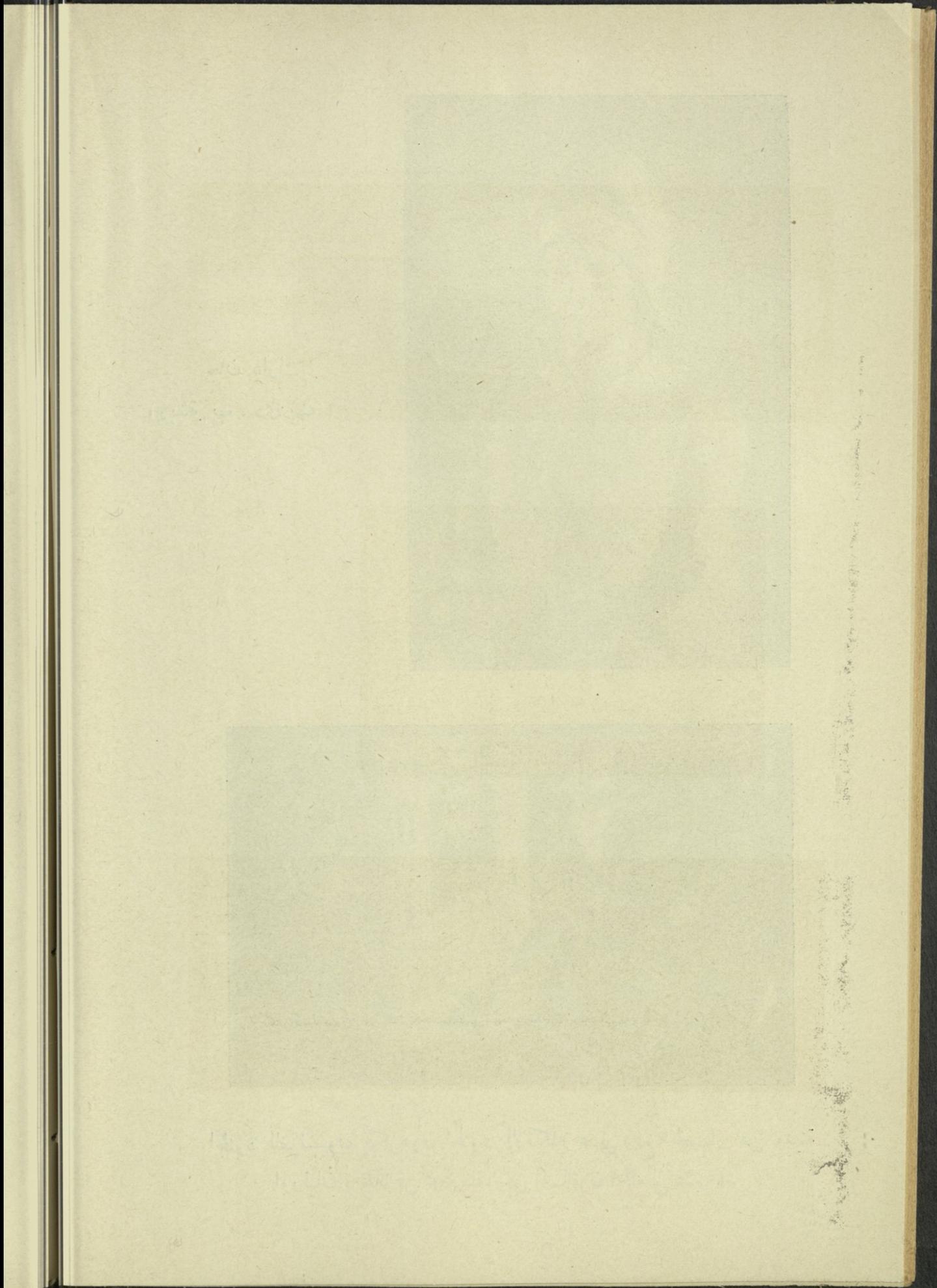


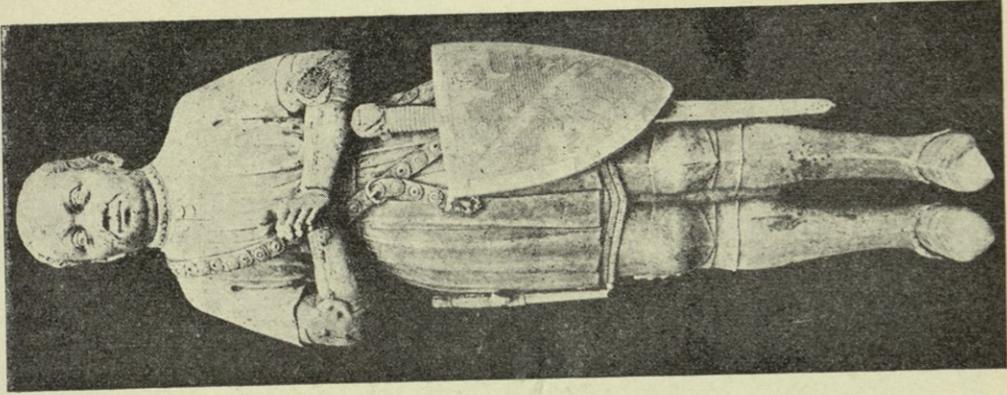
جان دارك

(بريشة ب . دي بينه) .

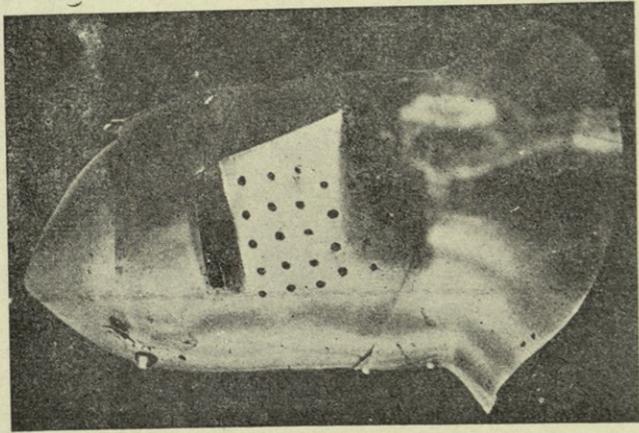


الجنود الفرنسيون يكرهون الجنود الانكليز على رفع الحصار عن مدينة اورليان (نقلًا عن مخطوطة ترقى الى القرن الخامس عشر) .

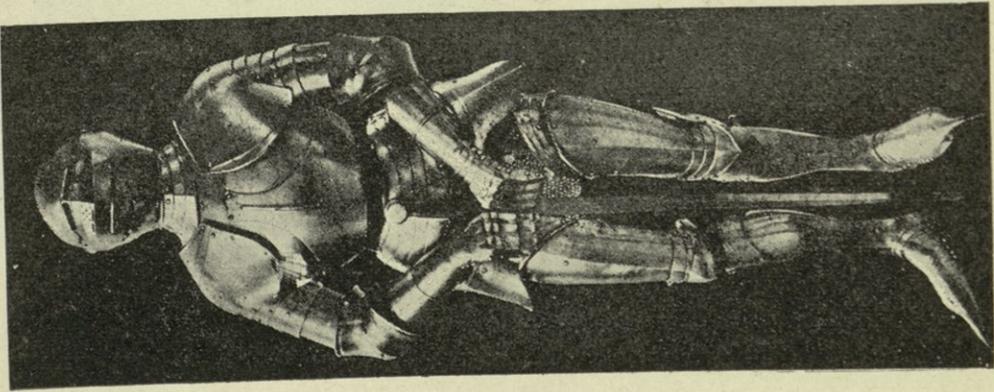




دي دوغلان كما يبدو في التمثال الذي
نصب فوق قبره في دير سان دني .

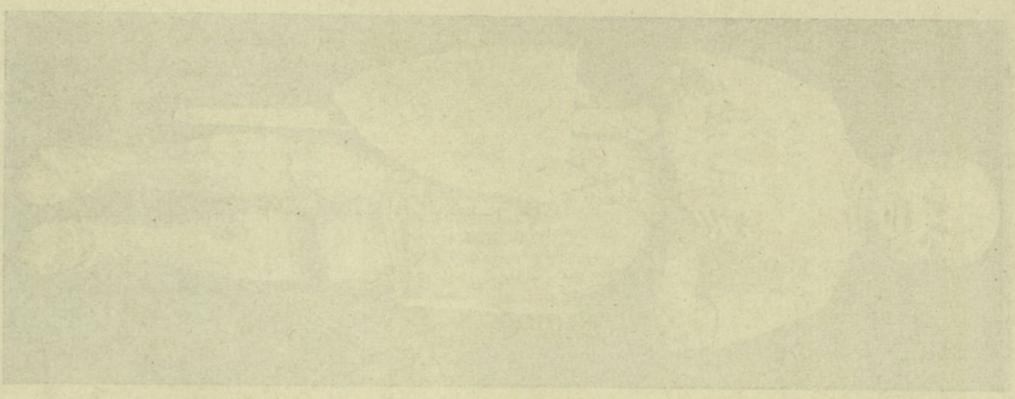


غطاء للرأس ومدع ، يرقى الى
اواخر القرن الرابع عشر .

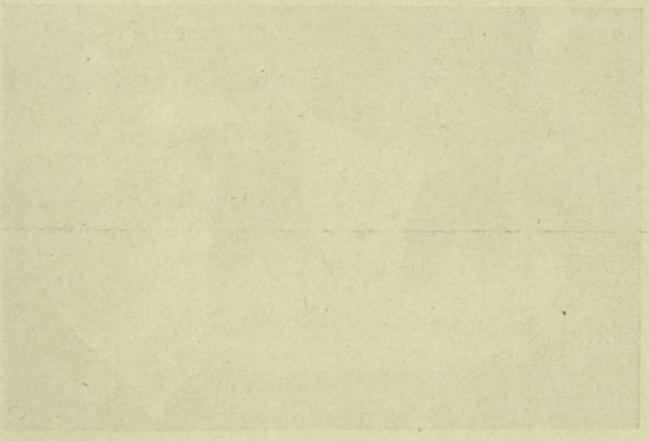


جندي فرنسي في كامل
عدته حوالي ١٤٦٠ .

فخما الى الدنيا في عهد ابي ذر الغفاري
في سنة ١٠٣١ هـ



عاش في عهد ابي ذر الغفاري
في سنة ١٠٣١ هـ

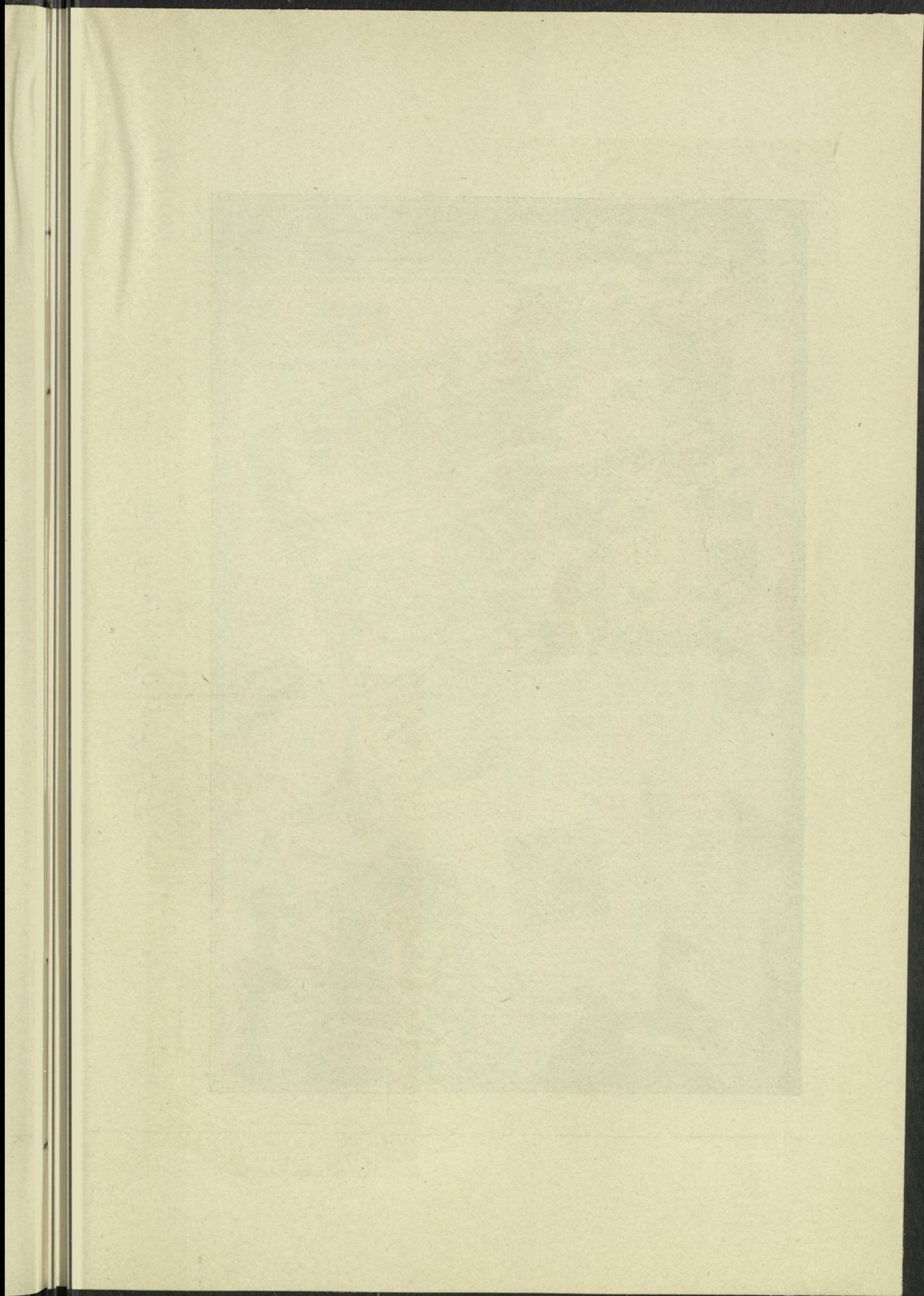


سنة ١٠٣١ هـ
في عهد ابي ذر الغفاري





مجموع على قلعة (القرن الخامس عشر)





المك لويس الحادي عشر ↗



↗ ادوار الملقب بالامير الاسود
(تمثال مأخوذ له وهو على فراش
الموت ، والتمثال محفوظ في كاتدرائية
كنتوربري) .

بیت ریاض و سببها دلالت

عربستان و بلاد اسلامی را
در تاریخ و سیرت و عادات و آداب
و غیر اینها در شرح و تفسیر
(و غیر اینها)



مدفع صغير

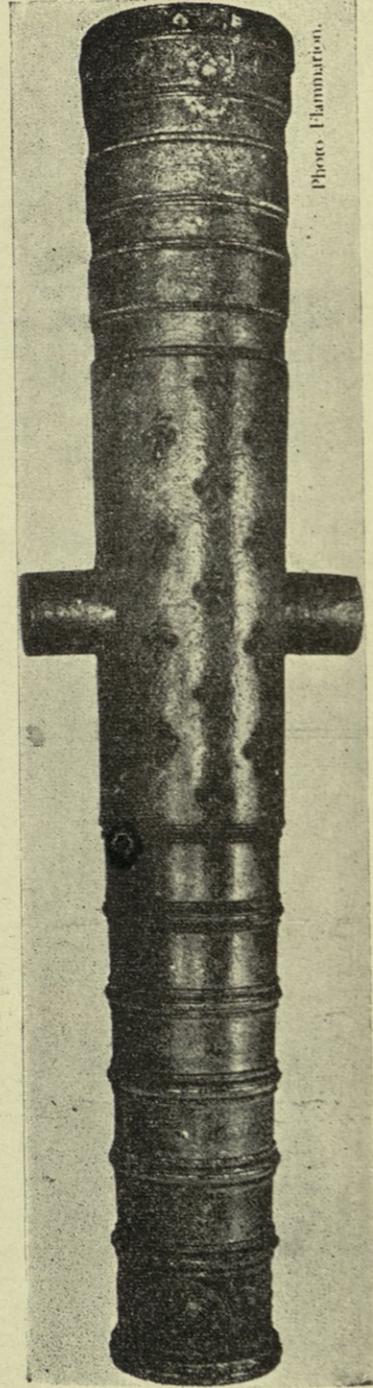
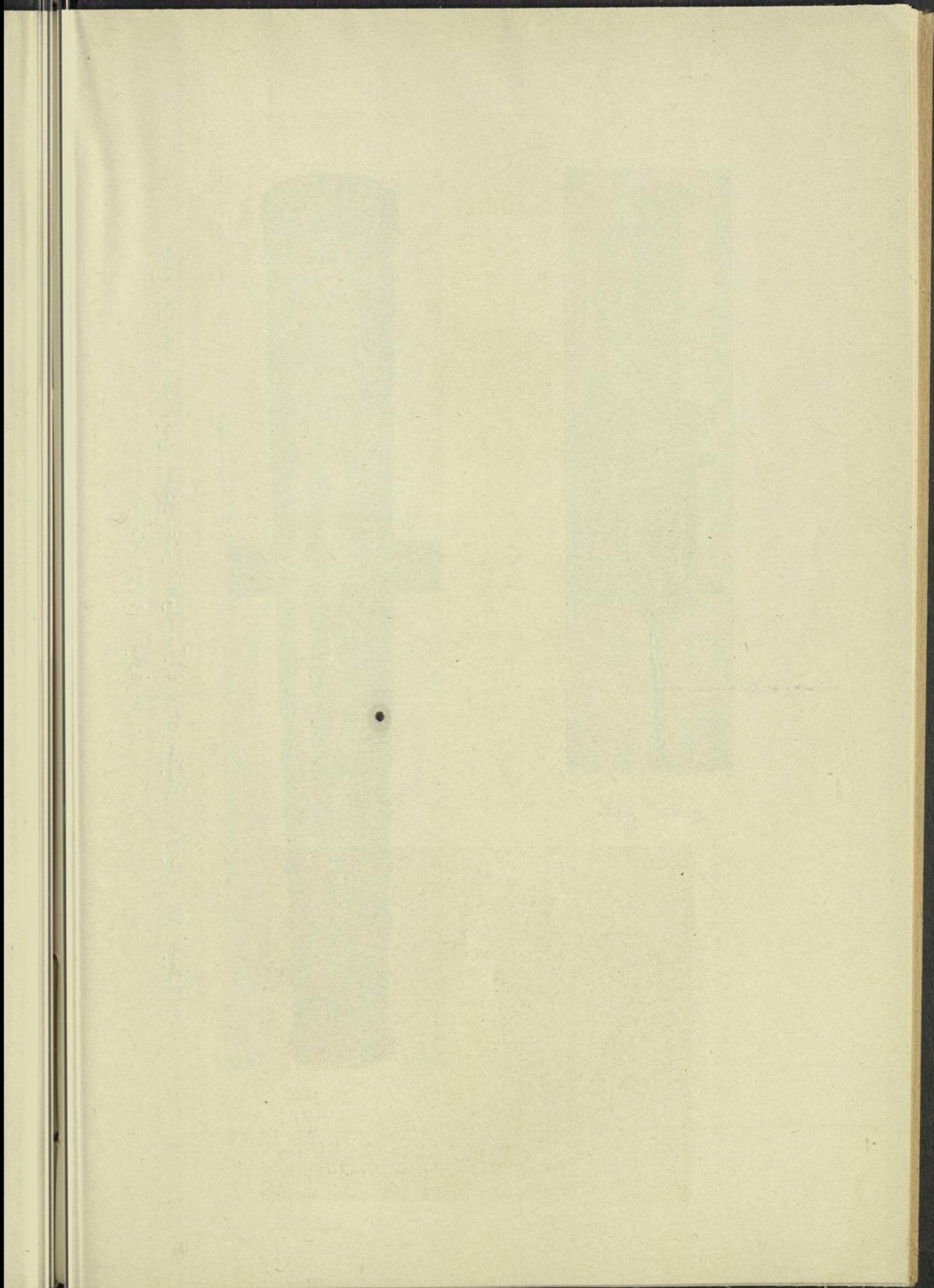


Photo Flammarton.

مدفع من عهد الملك لويس الحادي عشر ، طوله متران و ٥٦ سنتيمترآ ، وعياره ١٨ مليمتراً ،
وزنته ١٤٢١ كيلوغراماً .





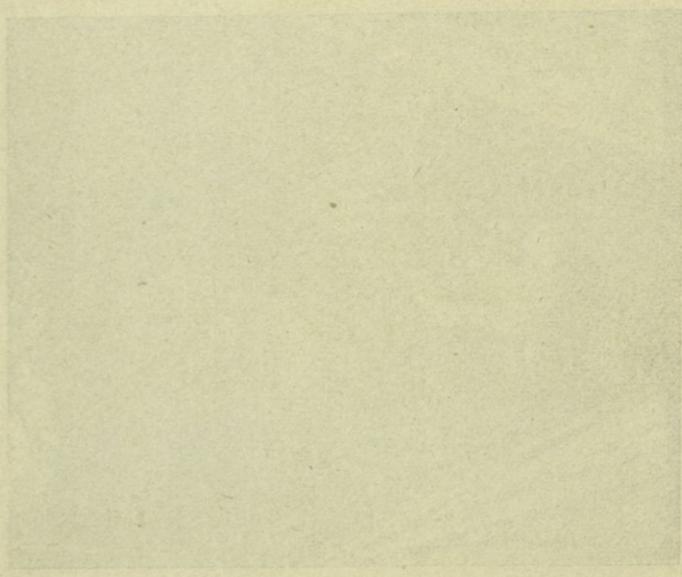
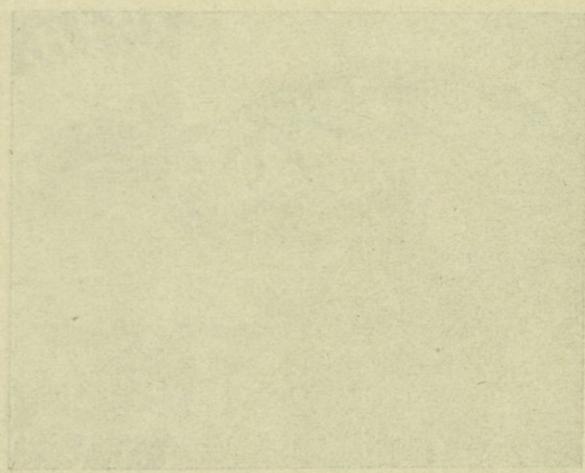
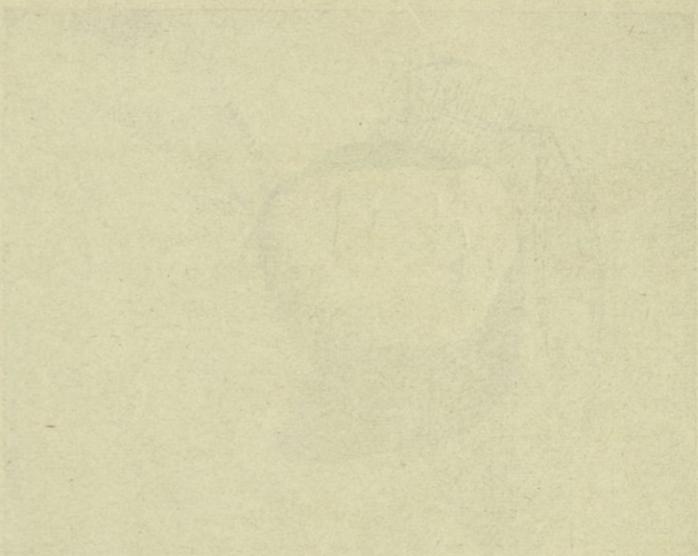
جان دي ليسكان ماريشال فرنسا .



الفارس بايار (صورة معاصرة) .



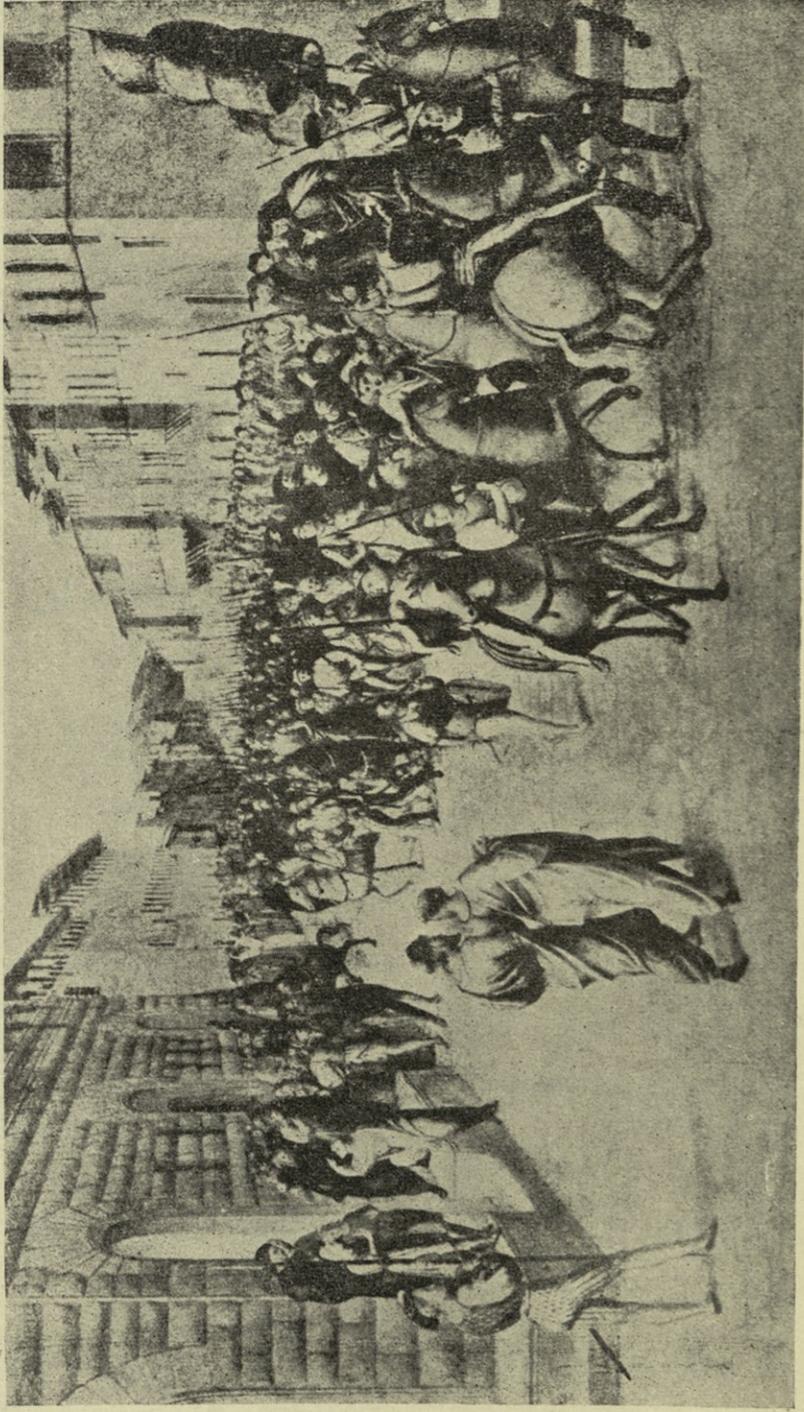
شارل السابع بريشة فوكه .



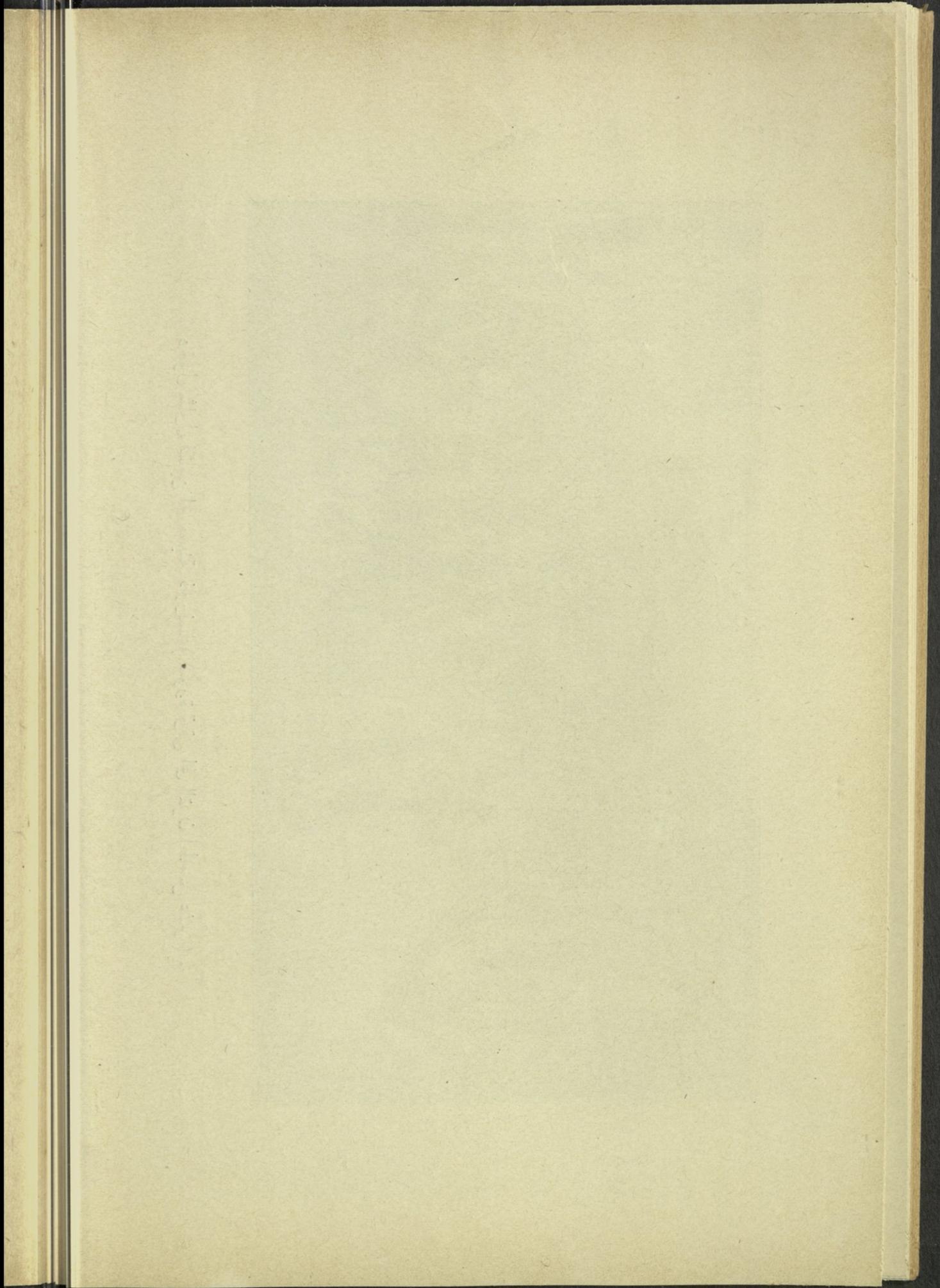
Faint, illegible text or markings on the left side of the page, possibly bleed-through from the reverse side.

Faint, illegible text or markings on the left side of the page, possibly bleed-through from the reverse side.

Faint, illegible text or markings on the left side of the page, possibly bleed-through from the reverse side.



دخول شارل الثامن الى مدينة فلورنسا (صورة ترقى الى القرن الخامس عشر) .



الهضاب والجدران والمهاوي ليفوت على خصمه الافادة من ميزة التفوق العددي .

وادرك الملك جان استحالة اختراق صفوف العدو بحملة يقوم بها الجيش كله فاختار للمهمة ثلاثئة فارس بقيادة كبير وزرائه ووقف هو في رأس سائر القوات استعداداً للانتقاض على الانكليز حالما تفرج صفوفهم . بيد ان حملة الفرسان الثلاثئة لم تنجح في اختراق صفوف العدو . وفيما هي تتلمس مخرجاً من المأزق هاجم ثلاثئة فارس انكليزي الميسرة الفرنسية وبعثوا صفوفها . فخف القلب بقيادة دوق اورليان لنجدة الميسرة . فانهز الانكليز الفرصة وانقضت جموعهم على الميمنة فبدتها ثم ارتدت على القلب والميسرة فلاذ دوق اورليان وحيالته بالفرار . اما الملك جان فقد واصل المقاومة الى الغسق فسلم ستة عشر الفاً من رجاله .

وقد اجمع النقاد العسكريون على ان الانكليز ربحوا معركتي « كريسبي » و « بواتيه » لانهم عرفوا كيف يستخدمون الارض في حرب الحركات . يضاف الى هذا انهم غزوا فرنسا باسلحة متفوقة وبجيش يسوده النظام . وفي سنة ١٣٦٠ كرسست معاهدة « برييني » الهزائم الفرنسية فاطلق الانكليز الملك جان مقابل ثلاثة ملايين ليرة ذهبية ، وتنازل البلاط الفرنسي للبلاط الانكليزي عن ربع الاراضي الفرنسية بما فيه مدينة كاليه .

٣ - شزل الخامس ودونيكلان

ما اكتفى ولي عهد انكلترا الملقب « بالامير الاسود » بما احرز من مغامر فوضع نصب عينيه افقار فرنسا بحيث تظل عاجزة عن النهوض . وعملاً بهذه الحطة استقدم من انكلترا عصابات من الشذاذ واطلقها تسلب وتتهب وتحرق القرى والديساكر ، فدبت النخوة في صدور السكان فاتحد البورجوازيون والسوقة

الجيش الفرنسي

امام الخطر ، وقرروا الذود عن اموالهم بوسائلهم الخاصة ما دام النبلاء يضمنون عليهم بالمساعدة ولا يحركون ساكناً لوقف موجة السلب والنهب .
 عمد السكان الى المدن فحصنوها ، والى القلاع فاعتصموا فيها . وكان رد الفعل في باريس اقوى منه في اي مكان آخر . فتولى الحكم « اتين مارسيل » رئيس هيئة التجار واشرف بنفسه على حفر الخنادق وبناء الاسوار .
 شارل الخامس . - بعد وقوع الملك جان دوفالوا في الاسر ارتقى العرش ولي عهده الامير شارل وكان دون العشرين . فلما نجحت حركة اتين مارسيل في باريس نصب نفسه وصياً للمملكة ، ففر شارل من باريس الى « سنليس » حيث حمل لقب « وصي العرش » وانشأ مجالس تمثيلية جديدة . وبعد مصرع اتين مارسيل عاد الى عاصمة ملكه وشرع فور وصوله في الاعمال الاصلاحية تزولاً على رغبة المجالس وتحت ضغط الظروف . وقد ساعده في مهمته قائد شجاع يدعى برتران دوغيكلان .

رمى شارل الخامس من اصلاح النظام العسكري الى خلق نواة القوة الدائمة . وهو ما سعى الى تحقيقه سلفاؤه ، فاصطدمت مساعيهم والنظام الاقطاعي القائم . وقد بدأ الملك بالقاء الحروب الخاصة محظراً على النبلاء شهر السلاح لنصرة قضية لا يكون هو طرفاً فيها . وبهذا حققت دماء الوف المحاربين وازداد عدد المجندين تحت الراية الملكية زيادة اوقعت الموازنة في عجز ، ففرض الملك ضرائب جديدة ليتسنى له دفع رواتب الجند في الاستحقاق .

ورأى شارل الخامس ان يؤمن للاصلاح الاستقرار اللازم ، فاتاح لوزيره الاول ولمارشالية فرنسا ان يشغلوا مناصبهم مدى الحياة ليستمر ببقائهم ما شرعوا فيه في الحقلين البرلماني والعسكري . الا ان هؤلاء كانوا يتبعون سير

العمل من بعيد ، وكان القيمون الحقيقيون على شؤون الجيش ضباطاً يختارهم الملك ويدفع رواتبهم من ماله الخاص ، وينيط بهم قيادة القطعات او تأمين الدفاع عن المدن المحصنة . وكثيراً ما كان هؤلاء يقومون باسم الملك بتعبئة الرجال وتدريبهم ، وتنظيم الدفاع وادارة العمليات ، وقد عرفوا باسم « الضباط المفوضين » .

وفقدت الخيالة طابعها الاقطاعي بتخلي النبلاء عن حقهم التقليدي باختيار الفرسان ، وبتوسيع نطاق هذه المؤسسة بحيث اصبحت تضم البورجوازيين . وقد اطلق الملك ايدي الضباط المفوضين في توزيع المجندين على قطعات الجيش المختلفة . وكان على ممثلي البلاط هؤلاء ان يرفعوا اليه من وقت الى آخر احصاء بعدد المشاة والفرسان مشيرين الى اختصاص كل واحد منهم . فالجندي ذو المؤهلات البدنية يلحق بالقطعات المعدة للقتال على ارض مكشوفة وقد عرفت في ذلك العهد باسم « جيش الملك » . ويلحق سائر المجندين بحاميات المدن والقلاع . ولهذا سمي مجموع هذه الحاميات « جيش المدن » .

عين الملك للجيش الذي ينتمي اليه رواتب شهرية مقابل تعهد المجندين بالعمل المستمر مهما تكن ظروف الزمان والمكان . اما حاميات المدن فقد احتفظت بطابعها الخاص . واستطاع شارل الخامس ان يحمل ابناء الطبقة الوسطى وكثيراً من النبلاء على الانخراط فيها ، فألفت بتأثير من هؤلاء واولئك الحياة النظامية واتقنت الى حد ما حرب الكمين خارج المدن والقلاع .

واتخذ شارل الخامس تدابير شتى لتأمين النظام ، فجعل الضباط المفوضين مسؤولين تجاهه عن مسلك قواتهم وعن دفع الرواتب في الاستحقاق . وانشأ ديواناً خاصاً اطلق عليه اسم « ديوان التفيش » ، وناط به السهر على حسن تنفيذ الاوامر الملكية ، ولا سيما ما كان منها متعلقاً بتنشئة الجند وتدريبهم وبتوزيعهم

على المناطق . واعتبر الملك بالدروس التي تلقاها الفرنسيون في المعارك الحاسمة فخص المدن والقلاع ببعض مجهوده الاصلاحى ، فطاف وكلاؤه بالمدن الكبيرة يستخون سكانها على تحصينها ويهيون بالنبل ان يعيدوا بناء القلاع المهتمة مقدمين لفريق منهم المساعدات المالية والمعونة الفنية . واشرف شارل الخامس بنفسه على تحصين مدينة باريس فاتم بناء قصر « فانسين » جاعلاً صرحه العالى غاية في القوة والمناعة ، وامر بتشيد « الباستيل » ذي الاسوار الثمانية . اما « اللوفر » فقد صار في عهده قصراً فخماً دون ان يفقد اهميته كقلعة حصينة .

واخذ الملك المصلح بيد المدفعية وهي بعد حديثة النشأة في فرنسا . وكان الالمان والايطاليون قد استخدموها في ضرب المدن الحصينة فاعطت نتائج باهرة .

برتران دوغيكلان . - اقترن اسم برتران دوغيكلان بالنهضة العسكرية في عهد شارل الخامس كما اقترن بالوقائع البطولية التي تميز بها ذلك العهد . هو من اصل بريتوني ، بدأ نضاله في سبيل ملك فرنسا وهو قتي في السادسة عشرة . وبعد سقوط بريتانيا بايدي الانكليز الف دوغيكلان عصابة من مواطنيه وطفق يناوىء المحتلين . واستطاع سنة ١٣٥٠ ان يتزع من اعداء بلاده قلعة « فوجري » الحصينة . وانتهى خبر هذا العمل البطولي الى الملك فارسل في طلب برتران والحقه بخدمته .

واشترك دوغيكلان في معركة « رين » حيث تجلت مواهبه التكتيكية . كان دوق « لانكستر » يحاصر المدينة فخفف البطل البريتوني لئجدة الحامية ولكنه تهيب خصمه القوي فلم يحاول اختراق النطاق المضروب حول « رين » ، بل عسكر في الضواحي وارسل جواسيسه يستطلعون احوال

العدو ويحدون من نشاط دورياته . وفي احد الايام ارسل نفرأ من رجاله ليهاجوا ميسرة دوق لانكستر . وارفق هذه الحركة بقرع الطبول والضجيج مدخلاً في روع الحُصم انه امام هجوم كبير . وقد جازت الحيلة على الدوق فابتعد بقواته الرئيسية عن اسوار المدينة ليواجه العدو فانتهر دوغيكلان الفرصة ودخل « رين » الجائعة ووراءه مئة مركبة ملائى بالئون . وحاول الانكليز محاصرة المدينة مجدداً ، فاحرق دوغيكلان سورهم الحشبي وهزمهم شر هزيمة . وتجددت المحاولات الانكليزية دون نتيجة . واخيراً اضطروا لرفع الحصار . وقد كوفى البطل البريتوني بتعيينه « ضابطاً مفوضاً » في « بونرسون » .

وفي العام ١٣٦٤ احرز دوغيكلان انتصاره الاول على ارض مكشوفة . فقد التقى جيشاً انكليزياً بقيادة « جان دوغراي » في ضواحي بلدة « كوسريل » وكان الانكليز يحشدون على هضبة محرجة ، فتظاهر دوغيكلان بتسلق الهضبة ، ثم امر قواته بالانكفاء ، فطاردها الجيش الانكليزي ظناً منه انه هزمها . وما ان ابتعد عن الهضبة حتى ارتد عليه الفرنسيون واعملوا فيه سيوفهم وفؤوسهم . واستمرت المعركة حتى الغروب فرجعت كفة الجيش الفرنسي بفضل حركة لف ناجحة قام بها الفرسان . وقد كافأ الملك شارل الخامس قائد الجيش المنتصر بان سماه دوق « لونغفيل » .

وتولى دوغيكلان قيادة الحملات التأديبية الموجهة ضد العصابات التي تألفت من الجنود المرتزقة بعد ان سرحها الملك ادوار الثالث . وقد وجد القائد الفرنسي نفسه امام قطعات عسكرية منظمة الى حد ما ، تغير على المدف فتعلمها او تقرض عليها جزية باهظة . واستطاع دوغيكلان تطهير المناطق الغربية من هذه العصابات كما استطاع اقناع ثلاثين الفاً من الشذاذ بالانضمام

الى حملة اعدھا الملك شارل ضد « بطرس الصارم » ، منافس « هنري دو ترانستامار » على عرش اسبانيا . وقد احرزت الحملة الفرنسية انتصاراً اولياً في معركة « نافاريت » ، ولكن خيالة دوغيكلان تخلت عنه كاشفة جناحيه فوقع البطل اسيراً بين ايدي الانكليز مؤيدي « بطرس الصارم » . الا ان اسره لم يكن طويل الامد فافتداه الملك بمبلغ كبير من المال . وقد ثار دوغيكلان لنفسه في معركة « مونتيل » حيث قتل « بطرس الصارم » فخلاً بمصرعه الجو المرشح البلاط الفرنسي . وبعد ان قضى عاماً كاملاً في اسبانيا استدعاه الملك شارل وعينه اميراً للجيش ، فدشن عهده بالقضاء على عصاة « روبرت كنولس » ثم حرر ٩٢١ مدينة وقلعة وحصناً من الاحتلال الانكليزي . واخذ على عاتقه القضاء على نقاط الارتكاز الانكليزية في جنوب فرنسا الغربي . فحالفه التوفيق ولكن مرضاً عضالاً وضع حداً لنشاطه في اثناء حصار مدينة « ساتونوف - راندون » ، ففضى نجه بينما كانت المفاوضات دائرة لتسليم المدينة .

٤ - عن جديدة

لحق الملك المصلح شارل الخامس بامير جيشه بعد مضي بضعة اشهر على وفاة دوغيكلان . وقد توارى الرجال بعد ان حورا فرنسا ووضعوا اسماً صالحاً لتنظيم الجيش .

وارتقى العرش الفرنسي شارل السادس وهو دون الثالثة عشرة ، فولي الوصاية على العرش عمومته . وامتد الاجل بهذا النظام لان الملك اصيب بمس عند بلوغه الرابعة والعشرين ، فقضت سياسة الاوصياء على ثمار المجهود الاصلاحى وفي رأسها الوحدة الوطنية ، وتجدد التنافس بين النبلاء ، فشطرت البلاد شطرين ، التف اولهما حول آل « ارميناك » وظاهر الآخر النبلاء من

آل «بورغينيون» . بيد ان تصدع الجبهة الداخلية لم يغير بالفرنسيين اعداءهم عبر المانش ، لان الحلافات الداخلية ذرت قوتها في انكلترا فشغلت الانكليز طوال ٣٥ عاماً عن استثمار المصاعب التي كانت فرنسا تتخبط فيها عائدة القهقري عشرات السنين . ولم يحسن الفرنسيون اتفاق هذه المدة الطويلة من الزمن ، بل قضوها في المنازعات مهملين القواعد والمبادئ التي خلفها شارل الخامس ودوغيكلان لتكون اساساً لتنظيم الجيش . فعادت الخيالة سيرتها الاولى : عنصراً رشيقاً من فضائل الشجاعة ولكنه جاهل يقاتل كيفما اتفق ويقفز قفزات خطيرة قبل ان يتبين طريقه ليتحاشى المزالق والشباك .

وفي العام ١٤١٥ استنجد آل بورغينيون الملك هنري الخامس فنزل على الارض الفرنسية واحتل هارفلور . فحشد القائد الفرنسي بوسيكو اربعين الف مقاتل وسيرهم لمنازلة الجيش الانكليزي ، وكان يضم عشرين الف رجل . بيد ان تفوق الفرنسيين العددي لم يكفل لهم الفوز ، لان القادة لم يحسنوا التصرف فاستدرجهم الانكليز الى ممرضيق استحال معه القيام بمناورات ضد الجناحين ، وبدلاً من ان تدفع القيادة بالمشاة الى الامام حشدتهم في المؤخرة واطلقت للخيالة العنان ، فاستقبلت بوابل من التبال دون ان تستطيع مقابلة العدو بالمثل . وفي اقل من نصف ساعة فقد الفرنسيون نصف فرسانهم فثار هذا الحادث في معنويات الرماة ، فتمزقت صفوفهم بعد الاشتباك الاول . وكانت تلك المعركة حاسمة بالنسبة الى الخيالة الفرنسية والجيش الاقطاعي بكامله .

وبعد حروب داخلية اذكى نيرانها عمال هنري الخامس اضطر الملك شارل السادس للتوقيع على عهدة «تروا» التي جعلت من ملك انكلترا وصياً للعرش الفرنسي ، والوريث الوحيد للتاج ، لانه ارغم خصمه على تزويجه ابنته . وقد ابرمت المجالس التمثيلية وجامعة باريس عهدة «تروا» دون ان يرتفع

صوت واحد بالاعتراض على اقصاء ولي العهد الامير شارل الوريث الشرعي للتاج الفرنسي .

وهكذا حلت بفرنسا المتفسخة محنة قاسية ، ليس لانها فقدت معركة لم تحسن خوض غمراتها ، بل لانها دخلت الحرب بجيش متفكك الاوصال ، ضعيف ، يقوده نبلاء لا تعوزهم الشجاعة انما تعوزهم المعرفة . دخلت فرنسا الحرب بالروح الاقطاعي الذي حاربه شارل الخامس ، فاحيته دسائس عمومة شارل السادس . فكان بديهاً ان يتغلب الفن الحربي الانكليزي على فوضى الحشد والقتال في الجيش الفرنسي .

• - جان دارك وشارل السابع

مات ملك انكلترا سنة ١٤٢٢ . وبعد اسابيع لحق به شارل السادس . فنودي بهنري السادس ملكاً لفرنسا وانكلترا ، وكان طفلاً ، فنصب « بدفورد » نفسه وصياً للعرش .

وكان ملك فرنسا شارل السابع قد انتقل الى جنوب نهر « اللوار » باسطاً سلطته على ثلث الاراضي الفرنسية . فلما نودي بهنري السادس استحث بعض النبلاء الملك الشرعي على الزحف الى باريس وطرد الغاصب واعوانه . الا ان شارل السابع كان ضعيفاً ، متردداً ، يتهيب المراكب الحشنة .

جان دارك . - اما الانكليز واعوانهم من الفرنسيين فقد نشطوا لاختراع البلاد كلها لسلطة هنري السادس ، فهزموا الفرنسيين في « كرافان » سنة ١٤٢٣ ، وفي « فرنول » سنة ١٤٢٤ . وبعد اربع سنوات حاصروا مدينة « اورليان » وكانت محصنة تحصيناً قوياً ومجهزة بالمدفعية . فاستطاعت الحامية ان ترد هجمات العدو الاولى . ووقف الفرنسيون من حصار « اورليان » موقفاً مختلف عن مواقفهم السابقة من الفتح الانكليزي . فقد حبسوا انفسهم يرقبون نتيجة

الصراع ، وهم على مثل اليقين بان « اورليان » هي مفتاح فرنسا كلها ، وان سقوطها يعني اخضاع البلاد من اقصاها الى اقصاها لسلطة هنري السادس . وفي هذه الاثناء عمد الانكليز الى تطهير المناطق المجاورة لاورليان واحتلوا في جملة ما احتلوا قرية « دومرمي » ، فنفر فلاحوها الى الاحراج والجبال . وكان بين القرويين الفارين فتاة تدعى « جان دارك » فتراءى لها بعض القديسين ، واوعز اليها بان تسعى الى الاجتماع بالملك شارل . فانطلقت الفتاة تبحث عن الملك ، فاهتدت الى مقره في اوائل العام ١٤٢٩ . وقد عانت جان دارك مشقة كبيرة في اقتناع شارل السابع وبطائه بانها ذات رسالة علوية ، وانها مكلفة انقاذ « اورليان » والسير في ركاب الملك الى مدينة « ريمس » ليتوج في كاتدرائيتها . فانقسم البلاط قسمين آمن احدهما برسالة الفتاة دون ما تحفظ ، و اشار الآخر بامتحان تقواها ودرجة ايمانها . واخيراً فصل الملك بالمسألة فسلح جان دارك وبعث بها الى اورليان على رأس حملة صغيرة .

كانت فرنسا بحاجة الى زعيم قوي يوحد كلمتها وينسق جهودها ، فوجدت في جان دارك هذا الزعيم ، فالتفت حولها واعلنتها على الفاتحين حرباً دينية اقتناعاً من الفرنسيين او من معظمهم بان جان هي مبعوثة العناية الالهية لانقاذ الوطن . وكان هذا الاعتقاد في رأس العوامل التي اتاحت لهم انقاذ « اورليان » .

اخرجت جان دارك الانكليز من المدينة المحاصرة بما يشبه الاعجوبة . فالقوات الاقطاعية التي قاتلت تحت امرتها انقلبت بين ليلة وضحاها جيشاً منظماً لا اثر فيه للطبقات وللغوارق التي كانت سبب ضعفه . فقد آمن الجميع ، نبلاء وبورجوازيين وسوقة ، ان جان فتاة ملهمة ، فما وجدوا غضاضة في العمل بمناشداتها وتنفيذ اوامرها . وهكذا رضي الفرسان في اكثر من مناسبة بان

يتنحوا فاسحين امام حملة الاقواس مجال العمل ، لان جان ارتأت هذا التدبير ، ولم يعترض النبلاء على اختيار القادة بين ابناء الشعب اقتناعاً منهم بان ما تراه جان دارك حسناً فهو حسن .

وفي هذا الجيش الوطني حل النظام محل الفوضى . فقد حظرت الفتاة الملهمة النهب والتجديف واخذ السيايا ، وكانت تسهر بنفسها على تنفيذ الاوامر . لم تكن ملمة بفنون الحرب ، الا ان مواهبها كقائد تجلت في الحقل المعنوي . فهي لا تعرف ما الخوف فكيف يجبن جنودها ؟ هي مؤمنة بحسن المآل فكيف يتشام مرؤوسوها ؟ كان مجرد ظهورها في قطاع ما يبعث الثقة في نفوس الفرنسيين ويشيع الفوضى والذعر في صفوف اعدائهم ، الذين كانوا يعتقدون ان متقنة اورليان من عملاء الشيطان . بهذا النفوذ المعنوي انقذت جان درك اورليان وقادت الحملة الفرنسية حتى ريمس حيث شهد الفرنسيون حفلة تتويج الملك شارل السابع وهم يحسبون نفوسهم في حلم .

كانت رايتها تحقق دائماً في الطليعة وترفرف حيث يكمن الخطر الاعظم . لم تكن شجاعة حتى التهور ، بل كانت تزن الامور بميزان العقل . ففي اثناء حصار اورليان ارتأى بعض القادة ان يرتاح المحاربون الفرنسيون بعد استيلائهم على ثلاث قلاع من اصل اربع ، فعارضت جان في هذا واصرت على مهاجمة القلعة الرابعة والاخيرة ، لان الانتصارات السابقة زعزعت معنويات الانكليز فيحسن بقوات الملك شارل ان تواصل الضغط على اعدائهم دون هوادة لتحول دون رداد الفعل والانتفاضات التي قد تقلب الموقف رأساً على عقب . وقد كان ، وجاءت الحوادث مؤيدة نظرية الفتاة الباسلة . تقدم المدفعية . - لم تكن جان دارك قائداً شجاعاً ومحرضاً ممتازاً فحسب

بل كانت تخص اسلحة المحاربين بجانب من اهتمامها ، وتصدر في تعليماتها بهذا الشأن عن احاطة تامة بهذه الناحية التي اهملت مدة طويلة في فرنسا الاقطاعية . ادركت جان اهمية المدفعية ، هذا السلاح الحديث ، فاشارت بتعزيزه . وكان الملك شارل السابع يميل شخصياً الى اعتماد المدفعية كسلاح رئيسي في الدفاع والهجوم ، فاستعان بالاخوين « بورو » و « بييريسونو » ، وكانوا من اشهر مهندسي العصر ، في انشاء وحدات المدفعية الفرنسية . وقبل ان يشرع المهندسون في عملهم استخدم الفرنسيون المدافع التي غنموها من الانكليز في معارك « اورليان » و « باتاي » و « تالبوت » في دك الحصون والاسوار واغراق السفن الانكليزية في بحر المانش .

وفي العام ١٤٣٠ جهز الجيش الفرنسي بمدافع ضخمة من البرونز تلتم من فوهاتها . وجربت هذه المدافع للمرة الاولى بحضور جان دارك قبل وقوعها اسيرة بين ايدي اعدائها . فلاحظت ان القذيفة الحجرية تحتاج الى طوق حديدي ليتمكنها من تهديم الاسوار والجدران ، فجهزت القذائف بالطوق واعطى استعمالها بشكلها الجديد نتائج باهرة .

كان مدى المدفعية الضخمة الفأ وخمسة قدم ، وكان لدى الالمان والانكليز والايطاليين مدافع مماثلة لا يزيد مداها على تسعئة قدم . وكان ثمة مدافع تلتم من مؤخرها ، الا ان الفرنسيين لم يهتموا بالاكثر منها لان استعمالها غير مأمون العواقب . وعند وفاة الملك شارل السابع كانت لفرنسا اربعة وعشرون مدفعاً ضخماً تجرها المركبات ، ويتولى اطلاقها وتلقيها رجال من ارباب الاختصاص .

وقد قلبت المدفعية الفن الحربي رأساً على عقب . ففي الميادين المكشوفة كانت المدافع المموهة تفتح نيرانها من مسافات لا يبقى معها مجال لنشاط حملة

الاقواس من الانكليز . لهذا عمدوا الى الاعتصام في القلاع والمدن المحصنة ولكن المدفعية تغلبت بسرعة على الاسوار والحصون . فكان حصار المدينة الحصينة لا يستغرق اكثر من يومين او ثلاثة .

اصلاحات شارل السابع . - احرق الانكليز جان دارك حية ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على الروح الوطني الذي نفخته في بني قومها . تركت لفرنسا ملكاً عالي الهمة يحوطه شعب مؤمن بعدالة قضيته وبمقدرات بلاده .

اعتبر شارل السابع بالمحن التي نزلت به وبيلاده فنهج سياسة اصلاحية وضعت اسسها المجالس التأسيسية العام ١٤٣٩ . وقبل هذا استطاع ان ينزع دوق « بورغونيه » من احضان الانكليز ، وقد كان الدوق عوناً للمحتلين وحليفاً يعتمدون عليه في اثاره الحروب الاهلية واضعاف الجبهة الداخلية في فرنسا المنقسمة على نفسها . تم الاتفاق بين الملك ودوق بورغونيه العام ١٤٣٥ ، وفي العام التالي حرر الفرنسيون مدينة باريس ومن ثم استردوا شمال المملكة دون ان يخوضوا غمرات معارك كبيرة . وفي العام ١٤٤٤ طلب الانكليز الصلح فرفض طلبهم . واكفى شارل السابع بعقد هدنة استمرت خمس سنوات وهي فترة لم يضعها الملك المصلح سدى بل انفقها في اصلاح النظام العسكري .

رافق عهد الملك شارل السادس انبعث روح الشقاوة ، فانبثت عصابات النهابين والسلايين تعبت بالامن وتفرض شريعة القوة حيث تأنس ضعفاً من ممثلي السلطات العامة . وقد عرف رجال هذه العصابات باسم « العيارين » وقاتست فرنسا الامرين من تحكمهم وبطشهم . وقد عمد الملك شارل السابع الى استخدامهم في مشاريعه العسكرية وحملاته التأديبية فقتل منهم في هذه الحملات من قتل وقتك الفلاحون بالذين عادوا احياء لثلا يعودوا سيرتهم الاولى .

ولما اطمأن الملك المصلح الى خلو القوات المسلحة من العناصر الخبيثة تفرغ
لاصلاح نظام الجيش ، يعاونه في مهمته الامراء والنبلاء وأمير الجيش
« دو ريشمون » الذي اسره الانكليز فعاد من الاسر وقد احاط احاطة تامة
بفنونهم العسكرية .

بدأ الاصلاح بتنظيم الحياالة ، فجعلت خمس عشرة سرية ، على ان تضم
السرية الواحدة ستمئة رجل ، منهم مئة فارس مدرعين ، وتألف ملاك السرية
من ضابط برتبة رئيس (كابتن) ومن ملازم اول (ليوتان) يتولى القيادة
الفعلية ، ويعاونه صف ضابط يقال له المرشد وحامل العلم وعريف .
واحتفظ الملك بحق اختيار قادة السرايا الخمس عشرة (اي الرؤساء) ، آخذاً
بعين الاعتبار وضعهم الاجتماعي وخبرتهم العسكرية ومستواهم الخلقى . وبعد
تعبثهم استقدمهم اليه ولقنهم الى اهمية الواجبات الملقاة على عواتقهم ، ورغب
اليهم ان يكونوا امناء للعرش وللبلاد ، واعلن انه لن يتدخل في تأليف السرايا
بل يدع لهم اختيار رجالهم على ان يراعوا المصلحة العامة في هذا الاختيار .
وقد ترتب على التنظيم الجديد تسريح عدد كبير من الفرسان الذين لم
توفر فيهم الشروط المطلوبة . وخشي الملك ان يثور هؤلاء فاتخذ تدابير
خاصة لمواجهة الطوارئ قبل ان تنشر اسماء المسرحين .

كان الرجل المدرع يعتمد بطاسة تغطي الرأس والوجه حتى العنق ، ويلف
حول عنقه طوقاً فولاذياً يتصل بالدرع والطاسة بواسطة عقاقيف صغيرة . وكانت
الدرع تغطي نصفه الاعلى بما فيه الذراعين . اما سلاحه فكان يتألف من رمح
طوله خمسة امتار ، ومن سيف مستقيم وطويل . وكان له اربعة جياد :
واحد للقتال ، وثان يمتطيه في الطريق ، وثالث يعتلي صهوته اذا سقط جواده
الاول ، ورابع يمتطيه الفارس المساعد . وقضى التنظيم الجديد بان يقاتل

الفرسان المدرعون على حدة . اما زملاؤهم غير المدرعين فقد اطلق عليهم اسم الحياالة الخفيفة ، ونيط بهم حرب الكمين واعمال الاستكشاف ومطاردة العدو المنهزم . وجعل سلاحهم الرئيسي القوس والرماح المرتدة ، اي الرماح التي تربط الى وسط الفارس بسلسلة طويلة فاذا رشق بها العدو امكن استردادها بجذب السلسلة .

تنظيم المشاة . - نظمت الحياالة بموجب البراءة الملكية المؤرخة ٢٦ ايار من العام ١٤٤٥ ولم يأت دور المشاة الا في العام ١٤٤٨ . فانشأ الملك وحدة « الرماة الاحرار » بموجب براءة حتمت على كل مدينة ومحلة وقرية ان تختار امهر رام بين سكانها . فانتخبت القرى الفرنسية اربعة آلاف رام وانتخبت المدن عدداً مماثلاً . وجعل سلاح الرماة الاحرار القوس والسييف القصير . اما عدتهم الدفاعية فقد كانت تتألف من زرد وطاسة . واجري عليهم مرتب شهري قدره اربعة فرنكات ، ورفعت عنهم الضرائب .

كان « الرماة الاحرار » يقسمون بين الولاة للملك ولا يخدمون الا تحت لوائه . وكانت نقطة الضعف في هذه المؤسسة ان الرماة ينصرفون الى اعمالهم العادية في السلم فلا تقوم بينهم رفاقة السلاح الا في فترات متقطعة . ورغم هذا ابلى « الرماة الاحرار » بلاء حسناً في المعارك التي تخللت المرحلة الاخيرة من حرب المئة السنة .

اما المشاة العاديون فقد نظموا على اساس الفوج كوحدة مقاتلة ، ولم يمد الاصلاح الى اسلحتهم لان المدفعية استأثرت بالشرط الاعظم من اهتمام المصلحين .

انتهاء حرب المئة السنة . - آتى التنظيم العسكري الجديد ثماره المرجوة فاحرز الفرنسيون سلسلة انتصارات باهرة بعد العام ١٤٤٩ . وفي آذار من

العام التالي انزل الانكليز جيشاً كبيراً في شربورغ فهزمه الجيش الفرنسي بقيادة «ريشمون» في موقعة فورميني حيث مثل الفرسان المدرعون والنشاب (الرماة بالقوس) دوراً رئيسياً. وقد تم للملك شارل تحرير نورمندي كلها في بضعة اسابيع وانتزع من العدو عنوة وخلال عام واحد ستين مدينة محصنة. ولما جاء دور مقاطعة «غويين» اصطدم الجيش الفرنسي باجهزة دفاعية قوية وبعراض السكان الذين اسيئت معاملتهم في المناطق المحررة، فاستجدوا الانكليز وكانوا لهم عوناً على مواطنيهم، فضاقت شارل السابع ذرعاً بهذه الحالة وقرر ان يضع لها حداً بقوات متفوقة.

وفي العام ١٤٥٣ تحدى الملك الفرنسي خصمه الانكليزي «تالبوت» باربعة جيوش تضم فيلقاً مدرباً على حرب الحصار ومجهزاً بمدفعية قوية. وقد ضرب الفرنسيون الحصار حول مدينة «كاستيون» وما زالوا بها حتى هددت المجاعة سكانها، فظاهروا ضد القائد الانكليزي وحاولوا ارغامه على تسليم المدينة فهاجمت خياله في السابع عشر من تموز ١٤٥٣ السور الذي يحمي طلائع الجيش الفرنسي، ففتحت المدفعية نيرانها عليها وكان «تالبوت» اولى الضحايا لانه كان على رأس فرسانه.

وبعد سقوط «كاستيون» حاول الانكليز الاعتصام في بوردو وبايون ولاروشيل. ولكن اسوار هذه المدن لم تقو على احتمال وطأة القذائف الفرنسية. وهكذا جلا الانكليز عن فرنسا وبقيت لهم مدينة كاليه في الشمال.

الفصل الرابع

نشأة الجيش الملكي

١ - تنظيم فرنسا بعد حرب المئة السبة

اجتاز انشاء الجيش الملكي في فرنسا مرحلته الاولى خلال النصف الاخير من القرن الخامس عشر وفي القرن الذي تلاه ، ومر بثلاثة عهود سياسية كان لكل واحد منها اثره في تنمية هذه المؤسسة الوطنية وتنظيمها . فقد دعم الملك لويس الحادي عشر الوحدة الفرنسية التي انقدها شارل السابع ، واقفى اثر سلفه في الاصلاح . وكان للحملات التي قام بها آل « فالوا » في الخارج اثرها في تقدم الفن الحربي وتطور الاسلحة . الا ان الاكثار من استخدام المرتزقة من الاجانب اخرنمو وحدات المشاة الوطنية . وجاءت الحروب الدينية ففتحت عيون الفرنسيين على قيمة جيشهم الوطني ، وازهرت ضرورة العناية بالمشاة . وكان من نتائج تقدم الاسلحة النارية ان وضعت قواعد جديدة لحرب الحركات ، ورافق التوسع في الحطط والمرامي السياسية التوسع في النظريات الاستراتيجية .

لويس الحادي عشر . - تجلت شخصية لويس الحادي عشر القوية وهو بعد ولي عهد المملكة . ففي العام ١٤٤٣ وكان في الرابعة عشرة من سنه ، انقذ مدينة « دياب » وكانت على وشك السقوط بايدي الانكليز . ومثل وهو ولي

للعهد دوراً كبيراً في المساعي التي بذلت للخلاص من عصابات العيارين فاغرى ثلاثين الفاً منهم بالاشتراك في الحملات التي جهزها على سويسرا فقتل معظمهم . وقد تزوج لويس من ماري دوبرغونية فلم يرض أبوه الملك عن هذا الزواج ، فابتعد العروسان عن البلاط واقاما في قصر « دوق بورغونية » بانتظار تحمل المملكة .

كان لويس الحادي عشر حاد الذكاء ، جهم النشاط ، خصب الخيال ، ولكنه كان سيء الظن بالناس ، شحيحاً ، شديد الوطأة على خصومه ، غير وفي لأصدقائه . لم يستعن في تصريف شؤون المملكة بمستشارين اذاذ وقادة موهوبين ، بل كان يختار بطانته بين الرجال المغمورين فجعل من « جان دولوكان » ، وهو من العيارين ، مارشال فرنسا . وقرب « اوليفيه لودام » وهو من اصل وضع وقد جابه في مستهل عهده خصوماً اقوياء ولاسيما « عصبة المصلحة العامة » وشارل الملقب بالجسور يدعمها ملك انكلترا ادوار الرابع . استطاع الملك الفرنسي التغلب على هذه المصاعب بالحرب حيث بدت له كفته راجحة ، وبالمفاوضة حيث كان خصومه اقوى منه . وقد خدمه الحظ فتوفي خصمه شارل الجسور (دوق دوبرغونية) ولحقت به بعد مدة قصيرة ابنته ماري زوجة لويس الحادي عشر ، فتخلص الملك من خصم عنيد وورث دوقيته وجاءت وفاة « شارل دانجو » تضيف الى ممتلكات التاج الفرنسي مناطق واسعة وغنية .

ويقول المؤرخون ان عهد لويس الحادي عشر الذي استمر اثنين وعشرين عاماً قد خلا من الفتوحات الكبيرة والاتصارات المسرحية . ولكنه عزز السلطة الملكية الى حد كبير على حساب الاقطاعيين ومدّ حدود فرنسا الى جبال الالب والبيرينه لان الملك « المسلم » ، كما كان يسميه خصومه ازدراءً ،

عرف كيف يرغم اعداء المملكة على احترامها بتعزيزه الجيش الفرنسي جاعلاً منه اداة تخويف تهييها جيوش الطامعين .

لم يعن لويس الحادي عشر بالحالة عنايته بالمشاة . اكتشف تفوق الاولى وعجز الثانية في موقعة « جسر شاراتون » وامام مدينة « نيل » . وقد قام سنة ١٤٦٩ بمحاولته الاولى لرفع مستوى « الرماة الاحرار » ، فقسم البلاد اربع مناطق اقليمية يعسكر في كل منها اربعة آلاف رام بقيادة رئيس عام (كاتب جنرال) . ووزع هذه القوة على ثلثي وحدات ، وعهد الى الرئيس العام بقيادة اولها . وناط قيادة الوحدات السبع الباقية بضباط من رتبة رئيس . وانشأ في كل منطقة من المناطق الاربع مراكز للمناداة كان الرؤساء العامون يتفقدونها متحققين من تنفيذ الاوامر وسير اعمال التدريب .

الا ان هذا الاصلاح لم يؤد الى رفع مستوى الرماة الاحرار فتكشفوا للرؤساء في موقعة « غينغات » سنة ١٤٧٤ عن جيش يعوزه النظام . فما كادت الحيلة تندفع في اثر العدو حتى تفرق اربعة عشر الف رام دون ان ينتظروا اوامر قادتهم . وقد كانت هذه الامثلة كافية لاقتناع لويس الحادي عشر بأن الوقت لم يحن بعد للاستغناء عن المشاة الاجانب ، ولا سيما المشاة السويسريين الذين تميزوا منذ عهد فيليب الجميل بالشجاعة والاخلاص ونكران الذات . وقد اتبع للملك ، وهو بعد ولي للعهد ، ان يتعرف من كتب الى فضائل السويسريين العسكرية ، فقرر بعد تربيته على العرش ان يمد يده الى هؤلاء الاعداء الاقوياء ، فعقد واياهم معاهدة صداقة حولها فرنسوا الاول الى تحالف حقيقي استمر العمل به نحواً من ثلاثة قرون .

اخلص المشاة السويسريون لاصدقائهم وجيرانهم ، فكانوا خداماً امناء للعرش ينودون عنه بحماسة وعزيمة صادقة . وقد اجمع المؤرخون على رد

الفضل في إبراز الدور الذي يمكن المشاة تمثله في الهجوم الى العناصر السويسرية في الجيش الفرنسي الذي قبض له ان ينهي حرب المئة سنة نهاية حسنة . ففي المعارك التي خاض الانكليز غمراتها قبل جلائهم عن الارض الفرنسية ، تحطى السويسريون العرف العسكري وتركوا مراكزهم ليسوا الى المدافع المعادية ويستولوا عليها ، او ليلفوا حولها بتاورات بارعة . وقد كان العرف المتبع ان يلزم المشاة مراكزهم ولا يمشوا الى لقاء العدو ، تاركين هذه المهمة للخيلة . وقد فتح عمل السويسريين العيون على اهمية المشاة كعنصر متحرك في ميدان القتال ، وعلى الدور الذي يمكن هذا العنصر ان يمثله اذا استخدم في اغراض هجومية ، وكان حسن التنظيم ، ومجهزاً بالاسلحة اللازمة .

للسويسريون يدربون المشاة الفرنسيين . - بعد ان تم للويس الحادي عشر فتح مقاطعة « فرانش كوتة » بمؤازرة السويسريين ، استقدم الى فرنسا ستة آلاف من هؤلاء بقيادة « غليوم دوديسباخ » وعهد اليهم بتنشئة قواته وتدريبها وفقاً للاساليب السويسرية . وقد اختار الملك نواة جيش المشاة الجديد من « الرماة الاحرار » فبلغ عدد المنخبين ثمانية عشر ألفاً .

وزعت هذه القوات على كتائب تضم الواحدة منها الف رجل ، واخضعت في ثكناتها قرب « روان » لنظام قاس ، ولكنها عوملت معاملة ممتازة من حيث تمييزها ودفع مرتباتها . ولم يطل بها الامر حتى اخذت عن السويسريين اساليبهم في حرب الحركة وقبست منهم فنون الف والدوران والمناوراة الطويلة النفس . وقد انتهت مهمة المدربين بعد ستة اشهر فعادوا الى بلادهم ومكث الفرنسيون في المعسكر زهاء عامين انفقوهما في التمارين العسكرية . ولم يبرحوا ثكناتهم الا عندما شعر الملك بدنو اجله فارهم باحتلال ثكنات

« بيكارديا » و « ارتوا » فسميت كتابهم « عصابات بيكارديا » . الا ان مؤرخي العصر اجمعوا على انها نواة جيش المشاة المنظم والدائم .

٢ - الحروب الخارجية

في اواخر العام ١٤٩٤ اجتاز الملك شارل الثامن جبال « الالب » مبتعداً بالجيش الفرنسي الى ما وراء الحدود . وفي العام ١٥٥٩ وضعت معاهدة « كاتوكامبريزي » حداً للحملة الفرنسية في الخارج . وقد تعاقب على العرش خلال هذه المدة ثلاثة ملوك هم شارل الثامن ولويس الثاني عشر وفرنسوا الاول . وجاء بعدهم هنري الثاني الذي جرّت وفاته المبكرة الملكة الفرنسية الى كارثة كادت تقضي عليها .

الحملة الايطالية . - ارتقى شارل الثامن العرش حدثاً فتولت الوصاية الملكة حنه « دو بوجو » ونعمت فرنسا في عهدها بالهدوء والسكينة والرفاهية . وما ان بلغ الملك رشده السياسي حتى راح يتطلع الى شبه الجزيرة الايطالية فقد ترك « رينه دانجو » ممتلكات يسيل لها اللعاب ، وحق البيت الفرنسي الملك بالتركة صريح .

كانت ايطاليا منقسمة على نفسها وانكلترا مشغولة بحرب ايكوسيا ، فشجع هذان العاملان شارل الثامن على المطالبة بنابولي مع علمه ان بادرة كهذه قد تغضب النمسا ، وكانت اقوى الممالك في اوروبا الوسطى ، كما قد تغضب اسبانيا .

كان شارل الثامن رجلاً شجاعاً وحزوماً . ولكنه كان قصير النظر ، محدود الذكاء ، خيل اليه ان احتلال نابولي سيكون نزهة عسكرية ومنها يقفز جيشه الى القسطنطينية . وكانت الفتوحات التركية قد فتحت العيون على اهمية الموجة المتصاعدة من الشرق ، فلاقت فكرة الملك تشجيعاً في

لوسط الكنيسة التي شاقها تجديد الحملات الصليبية .

وقد اختلف المؤرخون في تعليل سرعة الزحف الفرنسي في ايطاليا فأرجع فريق منهم الفضل في ذلك الى التدايب العسكرية الحكيمة التي اتخذها شارل الثامن ، ورده فريق آخر الى عطف الايطاليين على الحملة ظناً منهم انها جاءت لتحررهم .

ومهما يكن من امر فقد سير الملك على ايطاليا حملة كبيرة مجهزة بمدافع بعيدة المدى . واستطاع جيشه ان يجتاز شبه الجزيرة من الشمال الى الجنوب في خمسة اشهر . ولكن الشعب الايطالي ما عثم ان ضاق ذرعاً بالفاتحين ، فمنع عنهم المؤن وكانوا في اشد الحاجة اليها ، لان الملك لم يعن بتأمين الزاد لقواته . وقبل ان يتفاجم العداة قرر شارل الثامن الانسحاب مكتفياً من الغنيمة باسلاب ذات قيمة فنية واثرية . وقد تمت عملية الانسحاب بسرعة ولم يتعرض الايطاليون للحملة المتراجعة الا مرة واحدة امام ثغرة « فورنو » حيث فقد الجيش الفرنسي عناصره الطيبة .

ولم يتعظ لويس الثاني عشر بما جرته خفة سلفه على فرنسا ، فما ان ارتقى العرش العام ١٤٩٨ حتى وضع نصب عينيه احتلال ميلانو و نابولي ، وبدأ بمهاجمة الاولى . وقبل ان يزحف الى الاخرى سعى الى تأمين حياض ايطاليا الوسطى . ولكن ملك اسبانيا كان له بالمرصاد ، فاتفق و اياه على اقسام مملكة نابولي . وما طال الامر بالشريكين حتى تخاصما فاضطر الفرنسيون للجلاء عن نابولي بعد معارك طاحنة تميز في احداها البطل الفرنسي « بيار » (موقعة بمر غاريليانو ١٥٠٣) .

وفي العام ١٥٠٧ تدخل لويس الثاني عشر في ايطاليا مجدداً ابان ثورة جنوى . ثم حالف البابا بوليوس الثاني ضد البندقية ، وهزم جيشها في موقعة

« انياديل » . وقد ذكر المؤرخون ان الملك لاحظ ابان المعركة تضعع جنوده امام نيران المدفعية المعادية فصاح بهم : « من كان منكم خائفاً فليقف ورائي ، ان ملك فرنسا لا يموت بقذيفة مدفع . »

وقد كان هذا الموقف انبل مواقف الملك القائد في ساحة القتال . ولئن يكن الحظ قد خانته في الحرب لجهله فنونها واعتماده آراء مستشارين اعماهم الغرض ، فقد كانت له في الادارة مواقف مشرقة ، فعني باصلاح مالية البلاد ، وسهر على اقامة صروح العدل ، وكان يطوف الدساكر ليستمع الى المظالم ويرفعها ، حتى لقبه الشعب بحق بـ « الملك الطيب » وبـ « ابي الفرنسيين » .

اخفقت حملات لويس الثاني عشر في ايطاليا لان مطامعه فيها حركت مطامع النمسا واثارت غيرة اسبانيا ومخاوف البابا الذي نسي يد الملك الفرنسي عليه ، فحالف خصومه الاقوياء .

ويروي المؤرخ الايطالي « فانيي » ان البابا يوليوس الثاني نصح للويس الثاني عشر بان يتنازل عن حقه في ميلانو وناپولي ، على ان يثير هذا الحق مجدداً حالما يأنس ضعفاً من امبراطور النمسا الذي كان نجمه يتألق في سماء اوروبا واسهمه تتصاعد في بلاط ملوكها ومحافلها السياسية . الا ان رواية المؤرخ الايطالي لا تجد ما يؤيدها في ما دونه مؤرخو العصر الفرنسيون عن الخلاف الذي ذر قرنه بين ملك فرنسا والبابا ، ورد معظمهم وقوف يوليوس الثاني في صف اعداء الملك الطامعين مثله بايطاليا الى رغبة البابا في ابعاد الخطر الظاهر بمساعدة العدو المنفع .

تميز في الحملة الايطالية « غاستون دوفوا » ابن شقيق الملك ودوق نيمور ، فقد استطاع هذا الامير الشاب ان يفسد خطط العدو بمناورات بارعة ادت الى انقاذ بولونيه ، وكانت جيوش البابا قد اطبقت عليها من ثلاث جهات . وفي

موقعة « بريسيا » هزم جيش البندقية بفضل حركة لف جريئة . وفي العام ١٥١٢ هزم الاسبانيين في « رافين » ، ولكن هذا الانتصار كلفه حياته ففقدت فرنسا بطلاً مغواراً وقائداً ناهياً ، وبدأ الحظ يخونها ، فهزمت قواتها في « النافار » واضطرت الحملة الفرنسية في ايطاليا للتخلي عن مغامرها . وتوالى المحن آخذاً بعضها بوقاب بعض . فنزل الانكليز في كاليه وانتصروا في موقعة غينغات على قوات هزيلة ، مفككة العرى . وكان السويسريون قد قلبوا للويس الثاني عشر ظهر المحن فانضموا الى اعدائه وحاصروا مدينة ديجون . ولم يعتم النمسيون ان انقضوا على فرنسا بدورهم ولكن الجيش الفرنسي سد المنافذ دون جحافل الاعداء فاسحاً امام الملك مجال الانقاذ بمفاوضة الطامعين .

وقد اعاد لويس الثاني عشر تنظيم جيشه وفي نيته ان يقوم بمحاولة جديدة في ايطاليا ، فادركه الوفاة قبل ان تستكمل استعدادات الحملة . وارتقى ابنه فرنسوا الاول العرش ، وكان شجاعاً ، ذكي الفؤاد ، تراعياً الى المغامرة ، فاجتاز جبال الالب على رأس الجيش الجديد ودشن عهده بانتصار رائع في « مارينيان » ، حيث تغلب اربعة آلاف فارس فرنسي على خمسة وثلاثين الف سويسري . وعقب هذا الانتصار مفاوضات بين الغالب والمغلوب فوقع السويسريون على عهدة « السلام الدائم » . وجاءت العهدة في الوقت المناسب لان خطراً عظيماً كان يتربص بفرنسا .

فرنسوا الاول وشارلكان . - كانت موقعة « مارينيان » امتحاناً لقوة فرنسا العسكرية ، فادرك خصومها ان سلماً طويلاً الامد تنعم به كفيل بان يجعلها اقوى دولة في اوروبا ، فقرروا اضعافها بتقطيع اوصالها . وجاء قرار مجلس « فرنكفورت » سنة ١٥١٩ يضع في يد شارلكان حجة

يبرر بها اعتدائه على فرنسا . فقد جعله القرار وارث ابيه في النمسا والبلاد المنخفضة ودوقية « فرانش كوته » ، ووارث امه في « الكاستيل » ، ووارث جده في اسبانيا والممتلكات الاميركية . وكان شارل كان يتطلع الى مقاطعتي بورغونية وبيكارديا لانه حفيد شارل الجسور . وهكذا كانت ممتلكاته ومطامعه تضرب حول فرنسا نطاقاً خطراً .

وشعر فرنسوا الاول بالخطر فراح يتقرب من الانكليز . ولكن شارل الثامن مد يده الى شارل كان دون ان يولي الملك الفرنسي ظهره . فوضع بهذا اسس السياسة الانكليزية ازاء العداء الفرنسي الجرمانى المتأصل ، وهي سياسة تقضي بتأييد الفريق الضعيف منعاً لطغيان الفريق القوي .

بدأ النزاع بانقضاء جيش شارل كان على مدينة « ميزير » في محاولة جريئة لاجتياح مقاطعة شامبانيه . فعهد فرنسوا الاول الى القائد « بايار » الذي اشرف على تنظيم الجيش الجديد ، بمهمة الدفاع عن المدينة المهدة ، فاعتصم في داخلها على رأس قوات منخوبة وانشأ حولها اسواراً اضافية وحفر خنادق ومهاوى بين السور والآخر .

وقد ذكر المؤرخون ان الجرمان هاجموا « ميزير » باربعة وثلاثين ألف مقاتل احتشدوا على ضفتي نهر الموز بقيادة « ناسو » و « فرنسيسك » . وقبل ان يبدأ الهجوم انذر ناسو القائد بايار بوجود تسليم المدينة فرفض القائد الفرنسي التسليم . وعلى الاثر صبت المدفعية الجرمانية خمسة آلاف قذيفة على المدينة . وادرك « بايار » ان الحامية لن تستطيع الصمود طويلاً امام نيران العدو الكثيفة فلجأ الى حرب الاعصاب ليبدد بذور الشقاق في صفوف القوات الامبراطورية وكان يعلم ان بين ناسو وفرنسيسك منافسة قوية ، فارسل الى اولهما من يهمس في اذنه ان زميله يفاوض الفرنسيين سراً ليكون له شرف دخول « ميزير »

اولا . واوفد الى « فرنسيسك » من ادخل في روعه ان « ناسو » يسخر منه وينتقد خطه . وسرعان ما ساءت العلاقات بين القائدين وامتد الخلاف الى قواتهما ، فانقض مشاة ناسو وفرسانه وعددهم عشرون الفاً على قوات فرنسيسك ، وانهز بايار الفرصة وفتح على خصومه نيران مدافعه فقتلت منهم خلقاً كبيراً . وفي اليوم التالي انسحب الجرمان وارسل ناسو الى الامبراطور شارلكان يصف « ميزير » بانها قلعة حصينة عزيزة المنال .

غير ان انتصار بايار في « ميزير » لم يبعد الخطر عن فرنسا . ففي سنة ١٥٢٢ خان الملكة المقدم في امراء البيت المالك وانضم الى « شارلكان » وهزم الجرمان القائد « لوتريك » في « بيكوك » وقتل « بايار » في موقعة « ايتكروسو » واجتاح العدو مقاطعة « بروفانس » فانقض فرنسوا الاول مرسيليا واجتاز الالب في اثر العدو المهزم ، ولكن ميلانو اجتذبه فكف عن مطاردة العدو وتحول اليها ، فخسر موقعة « بافي » سنة ١٥٢٥ ووقع اسيراً بعد ان جرح مرتين . وحاول شارلكان ان يساوم الوصية على العرش « لويز دوسافوا » والدة الملك الاسير ، فاشترط لاطلاق الملك اقتطاع اراض معينة فرفضت الملكة الام التنازل عن شبر واحد من الارض الفرنسية ، وايدها في موقفها رأي عام اعتاد التخلي عن الملكية المستضعفة ، فدعمها هذه المرة مدلاً على وعي قومي عظيم . وكانت انتصارات شارلكان قد فتحت عيون الانكليز على الخطر ، فوقف هنري الثامن في صف المناوئين للمنتصر . وحذا حذوه ملوك اوروبا الوسطى وسلطان العثمانيين ، فتنفس فرنسوا الاول الصعداء بفضل معاهدتي مدريد وكامبره .

الكتائب . - اضطر فرنسوا الاول لاستخدام المحاربين الاجانب في حملاته على نطاق واسع . الا ان هذا لم يقعه عن العناية بالجيش الفرنسي ، فاخضع

للتدريب حاميات المدن الحصينة . ووزع فرق المشاة على اربع مناطق ، هي بيكارديا وشامبانيه في الشمال وغويين وبييمون في الجنوب . واصبح لكل واحدة من الفرق الاربع تقاليدھا وشاراتها ، ولكنها ظلت تعرف باسم « العصابات » رغم نموھا وحسن تنظيمھا .

ولاحظ فرنسوا ان هذه العصابات لا تكفي للقيام بعمليات حربية على جبهات متعددة ، فقرر انشاء جيش مشاة قليل التكاليف نسبياً ، واكثر اخلاصاً للعرش وللوطن من الجنود المرتزقة ، على ان يتم تسريحه بسهولة حالما تضع الحرب اوزارھا . وفي تموز من العام ١٥٣٤ صدر مرسوم بانشاء القوات الجديدة وفرض الملك على كل من المقاطعات الكبيرة تعبئة كتيبة قوامها ستة الاف رجل . فتجمع لديه سبع كتائب . فقسم كل كتيبة ست سرايا تضم الواحدة منها الف رجل بقيادة كابتن (رئيس) ، وقسم السرية الواحدة فضيلتين تضم الواحدة منها خمسمئة رجل بقيادة ملازم اول (ليوتنان) .

ولكن التنظيم الجديد لم يعط النتيجة المتوخاة . فاللحمة التي نشدها فرنسوا الاول من تقوية ملاك الضباط ظلت مفقودة ، وتكشفت الميليشيا الجديدة في الحروب التي اختتم بها الملك عهده عن قوات مفككة العرى ، عديمة النظام ، فخرست فرنسا مقاطعة السافوي في الحملة التي سبقت لاحتلال ولاية ميلانو ، وتراجعت قواتها امام جيوش شارلكان وهنري الثامن ، فاحتل الانكليز بولونيه ليوسعوا قاعدتهم في كاليه . ووصلت جيوش الامبراطور الى شاتوتيري ، ورغم هذا استطاع دوق انجين انقاذ شرف الجيش الفرنسي العام ١٥٤٤ في موقعة « سريزول » وكان اعداء فرنسا قد ملوا القتال ففرضوا بمفاوضة ملكها فاستردت فرنسا السافوي واحتفظ الانكليز ببولونيه لمدة ثماني سنوات يعيدونها بعدها الى فرنسوا الاول مقابل مليوني ليوا ذهبية . اما شارلكان فقد احتفظ بميلانو .

هنري الثاني والحدود الشرقية . - لم يكن الصلح سوى هدنة مسلحة .
وقد ادرك فرنسوا الاول ان الدولة الجرمانية ذات القوة المتزايدة يوماً بعد
يوم ، لن تستكين حتى تخضع اوروبا لسيطرتها . لهذا عمل على تعزيز نظام
المحالفات الفرنسي . ونسج على منواله خلفه الملك هنري الثاني الذي اعتلى
العرش في العام ١٥٤٧ ، فعمل على تقوية اواصر المودة بين فرنسا وتركيا . ولم
يفت هنري الثاني ، وهو ينشد في القارة حلفاء اقوياء ، ان ايطاليا عدو قليل
الخطر ، وان المطالب الفرنسية في شبه الجزيرة تأتي في الدرجة الثانية بعد الحدود
الشرقية حيث يربط عدو قوي الشكيمة ، شديد المراس ، واسع المطامع .
ولم يشأ الملك استثارة خصومه قبل ان ينظم جيشه التنظيم اللائق ، فعهد
بالقيادة الى ضباط لامعين امثال « بريساك » و « كوليني » . واصر
سلسلة مراسيم باصلاح نظام التعبئة والتدريب . ولما اطمأن الى نتيجة هذه
الجهود ، تحدى شارلكان ببيان اعلن فيه عن عزمه على استرداد مملكة
« اوسترازيا » وعن رغبته في توسيع حدود فرنسا حتى نهر الرين .

وقد فعل اسم الرين في نفوس الشبية الفرنسية فعل السحر ، فهرعت الى
الثكنات تعرض سواعدها : « شاق الفرنسيين كباراً وصغاراً ان يسايروا الى
لقاء العدو ورؤية نهر الرين العزيز على قلوبهم . » (من اقوال المارشال دو
فيفيل عن الحملة) .

احتل هنري الثاني متر وتول وفردون دون ما صعوبة . وقد ابتعد جنوده
في نهر الرين العام ١٥٥٢ . ولكن الحملة اصطدمت والعدو امام ستراسبورغ
واستطاعت ان تقذف به الى داخل المدينة الحصينة . وهرع شارلكان لاسترداد
متر وكان يقود حاميتها الفرنسية ضابط نبيل ذو مواهب هو « فرنسوا دوغيز »
فاعتصم في المدينة وارغم الامبراطور على فك الحصار بعد قتال شرس استمر

شهرين . وبعد عامين تنازل شارل كان وخلفه ابنه فيليب الثاني زوج « ماري تيودر » فحرضه الانكليز على اجتياح فرنسا عبر الاراضي المنخفضة ، ومنها زحف الى « سان كاتان » وكان يدافع عنها « كوليني » فانتصر الجرمان انتصاراً باهراً ، وكان في وسعهم التوغل حتى باريس ، ولكنهم لم يفعلوا فكانت غلطة استراتيجية اتاحت للفرنسيين ان يستجمعوا قواهم . وبعد سنة واحدة على موقعة سان كاتان (١٥٥٨) هزم فرنسوا دوغيز الانكليز امام « كاليه » وانتزع منهم المدينة الهامة . وعقب هذا الانتصار معاهدة « كاتو - كامبريزي » (١٥٥٩) التي اعترفت لفرنسا بحدودها الطبيعية في الشرق وردت اليها « كاليه » نهائياً .

الجيش الملكي . - وصف الكونت « رابوتان » ، وكان معاصراً لهنري الثاني ، الجيش الملكي في منتصف القرن السادس عشر قال :
« اجتشد امام Metz سنة ١٥٥٢ جيش عظيم ، فكان هناك من المشاة ثلاثة فيالق مربعة ، اولها يضم قدماء المحاربين الذين ابلوا بلاء حسناً في « بيمون » و « سامبانيه » و « بولونيه » . وكان عدد رجال الفيلق ستة عشر الفاً مسلحين بالسيوف الطويلة والعدارات والخناجر . وكان الفيلق الثاني يتألف من الفاسكونيين وابناء « الباسك » و « البروفانس » و « اوفرنيه » ويضم اثني عشر الف مقاتل . اما الثالث فكان يضم ثمانية آلاف الماني بقيادة الكونت « رانغراف » وكان الالمان مجهزين بأسلحة صنعت في بلادهم .

« اما الخيالة فقد انتشرت على اجنحة فيالق المشاة وكان كل صف منها يضم الف فارس واتباعهم من حملة الاقواس . اما الجياد فقد جيء بها من تركيا واسبانيا . وجهاز الفرسان بأسلحة خفيفة منها السيف والرمح والفأس ، وتدرعوا بدرع فولاذية رقيقة نسيياً . وكان عدد الخيالة الخفيفة يراوح بين

ثلاثة واربعة آلاف فارس .

« وعند وصول الملك حينه مدفعيته التي نصبت في الكروم بين الدوالي وكانت تتألف من ست عشرة قطعة ، منها ستة مدافع طويلة المواسير ، وستة مدافع متوسطتها ، واربعة مدافع من طراز جديد . وعلى الجملة احتشد في ذلك اليوم امام مدينة متز كل العناصر التي تولف الجيش الفرنسي الدائم . »

٣ - الحروب الدينية . - هنري الرابع

انتشرت تعاليم « كالفان » في فرنسا واعتنق المذهب الجديد كثير من المفكرين والزعماء وسواد الشعب ، فادى التنافس بين المذهب الجديد والمذهب القديم اي الكاثوليكي الى انقسام المملكة على نفسها . فقام فيها حزبان بل معسكران . فترعم فرنسوا دوغيز ، وكان قد بلغ قمة المجد ، المعسكر الكاثوليكي ، وترعم « انطوان دوبريون » والقائدان « كونده » و « كوليني » المعسكر البروتستنتي .

آخر ملوك آل فالوا . - في عهد فرنسوا الثاني الذي لم يعمر ملكه سوى بضعة عشر شهراً كان الدوق دوغيز عم ماري ستيوارت صاحب الامر والنهي في فرنسا فقمع بقسوة مؤامرة « امبواز » ، وكان البروتستنت في جملة مدبريها .

وبعد وفاة الملك تولت كاترين دومدسيس الوصاية على العرش ، معتمدة على الوزير « دولويتال » الذي نهج سياسة معتدلة ازاء البروتستنت ، فاضعف بعمله هذا السلطة الملكية ومهد لوصول شارل التاسع الى العرش . وفي سنة ١٥٦٢ بدأت الحروب الدينية ووجد كلا الفريقين حلفاء له في الخارج . فمد فيليب الثاني الاسباني يد المساعدة الى الكاثوليك ، ووعدت

المصابات ملكة انكلترا البروتستنت بشد ازرهم لقاء وضعهم مينائي الهافر
وكاليه تحت تصرفها كضمانة .

وقد تخلت السنوات الثاني التي انقضت بين ١٥٦٢ و ١٥٧٠ ثلاث حروب
دينية . و قتل الدوق دوغيز في اولها بعد انتصاره في معركة « درو » . وفي
الحرب الثالثة احرز الكاثوليك انتصارين باهرين في موقعي « جارناك »
و « مونكوتور » بفضل براعة المارشال « دونافان » .

وضعت براءة « سان جرمان » حداً للنزاع بمنحها البروتستنت اربع مدن
حصينة يأمنون في داخلها شر خصومهم الاقوياء . وقد اغضبت هذه التسوية
غلاة الكاثوليك فتجاهلوا البراءة الملكية واستمروا في اضطهاد اتباع المذهب
الجديد ، تشجعهم كاترين دو مدسيس مرأاً .

وكان عهد شارل التاسع ، ثاني انجال كاترين وشقيق هنري الثاني ،
حافلاً ، على قصره ، بالحوادث الدموية . فقد خضع الملك لوالدته خضوعاً اعمى
وجارها في اضطهاد البروتستنت فكانت مذبحه « سان برتلي » المشهورة .

وتوفي شارل التاسع ولما يمض على ارتقائه العرش ثلاث سنوات ، فخلفه
شقيقه هنري الثالث ، وكان يتربع على عرش بولونيا . فوجد البلاد في غليان
وقد زاد الشقة اتساعاً بين الكاثوليك واتباع « كالفان » قيام العصبة
الكاثوليكية برئاسة الدوق هنري دوغيز ، وكان ذا شعبية عظيمة . فحاول
الملك الجديد ان يوفق بين مصلحة البلاد وهي تقضي باصلاح ذات البين ،
وبين مصلحة البيت المالك وهي تقضي بمسايرة الاغلبية . وكان ملك اسبانيا
يفذي الخلاف ويشجع « العصبة » على الامعان في اضطهاد البروتستنت ، فلفت
هنري دونافان (الملك هنري الرابع فيما بعد) الملك هنري الثالث الى تدخل
الملوك الاجانب تحت ستار الدفاع عن الدين ، وناشده ان يضع حداً لنشاط

دوغيز وعصبة . فانحاز هنري نهائياً الى جانب ملك النافار ، فطرده الباريسيون من عاصمة ملكه ، فثار لنفسه بقتل هنري دوغيز وتحالف وهنري دونافار . ولكنه لم ينعم بالملك اذ اغتاله راهب متعصب .

هنري الرابع . - كان هنري الثالث آخر ملوك آل فالوا وبموته انتهى العرش الى هنري دونافار او هنري الرابع ، وكان بروتستنتياً ، فرفضت « العصابة » الاعتراف به ، وناجسته العداة طيلة عشر سنين ، اضطر خلالها لان يفتتح بملكته فتحاً .

تكررت اغلبية الشعب للملك الجديد لانه بروتستنتي ، وشهرت في وجهه السلاح بدافع التعصب من جهة وبتعريض من الدول الكاثوليكية من جهة اخرى . وقد استعان كلا الفريقين بالاجانب ليظاهروه ضد خصمه . فخفف هؤلاء بمعون في فرنسا الجريح طعناً ، وقد كانت مصلحتهم في ان يقضوا على حيويتها . وساعدهم الفرنسيون في هذا لان الملكية ، صانعة الوحدة ، فقدت نفوذها وتضاءل شأنها بتضاؤل الشعور الوطني وامام موجة الدولية الدينية الطاغية .

كان هنري الرابع ذكياً ، مرناً ، واسع الحيلة . فادرك منذ اللحظة الاولى ان طريق العرش طويل وشاق فعمل على استمالة الشعب بالاصلاح والحزم . وخدمه الحظ ، فقام نزاع بين الاسبانيين اعدائه الأقوياء وبين الانكليز حلفاء البروتستنت الفرنسيين واعداء فرنسا التقليديين ، فافاد هو من هذا النزاع كما افاد من ثورة البلاد المنخفضة على السلطة الاسبانية ، لان فيليب الثاني ملك اسبانيا شغل بالحربين عن مظاهر الكاثوليك الفرنسيين ، فانتهز هنري الفرصة وسدد الى العصابة ضربتين شديتين في موقعي « آرك » و « ايفري » ، ولكنه عجز عن دخول باريس رغم الجهود التي بذلها في سبيل اقتحامها طيلة ثلاث سنوات . واخيراً اعتنق المذهب الكاثوليكي ، ففتحت له العاصمة ابوابها . ولما

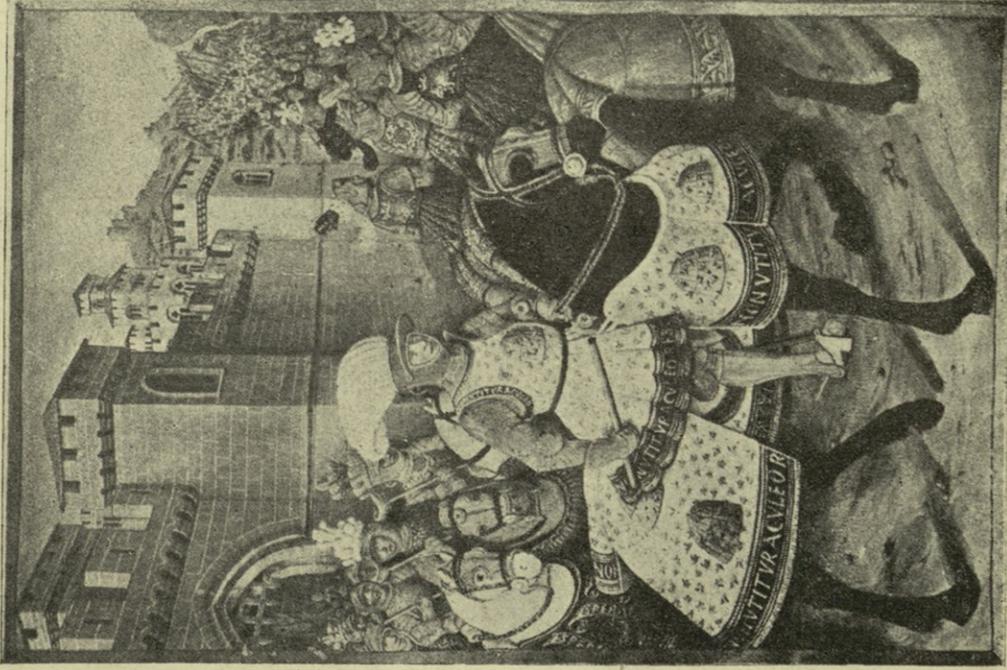
اطمان الى متانة الدعائم التي يقوم عليها العرش ، اعلن الحرب على ملك اسبانيا واستطاع ان يطرد الجيوش الاجنبية خارج فرنسا .

وفي العام ١٥٩٨ اصدر الملك براءة « نانت » وعقد صلح « فرغان » فبعث بهما الوحدة الفرنسية . وكانت البراءة اول وثيقة اوروية اعترفت للاقلية الدينية بحرية العبادة .

انشاء الكراديس . - تفكرت عرى الجيش في الحروب الدينية وفقدت فرنسا زهرة خيالها . ورغم هذا لم يكن ذلك العهد عهد انحطاط من الوجة العسكرية . فقد حفل بالماآتي البطولية وبالابتكارات ، وفيه خطت فرنسا اوسع الخطى نحو انشاء الكردوس .

كان انشاء هذه الوحدة العسكرية نتيجة الفراغ العظيم الذي احدثته الحروب في صفوف القوات النظامية . فقد حاول دوغيز ان يلم شتات بكتائب بيكارديا ، وبييمون ، ليواجه بها اتباع المذهب الجديد ، فلم يلب النداء سوى ثمانية آلاف رجل من ثمانية عشر الفاً ، فاضطر دوغيز لان يعيد تنظيم هذه القوات على اساس الكردوس ، ناسجاً بهذا على منوال الاسبانيين والسويسريين والبروتستنت الفرنسيين ، وجعل قوام الكردوس الواحد ثلاثة آلاف رجل . بلغ عدد الكراديس في عهد شارل التاسع خمسة ، واطلق عليها اسم « الحرس الفرنسي » . وطراً تحول اساسي على نظام القيادة . ففي العهود السابقة كانت الوحدة العسكرية الكبرى تعمل في الحرب تحت امرة قائد لم تعرفه في السلم ولا تلبث ان تنفصل عنه حالما تنتهي الحملة . فجاء التنظيم الجديد يضع الكردوس في السلم والحرب تحت امرة قائد واحد ، يعرف رجاله واحداً واحداً كما يعرف اختصاص كل منهم .

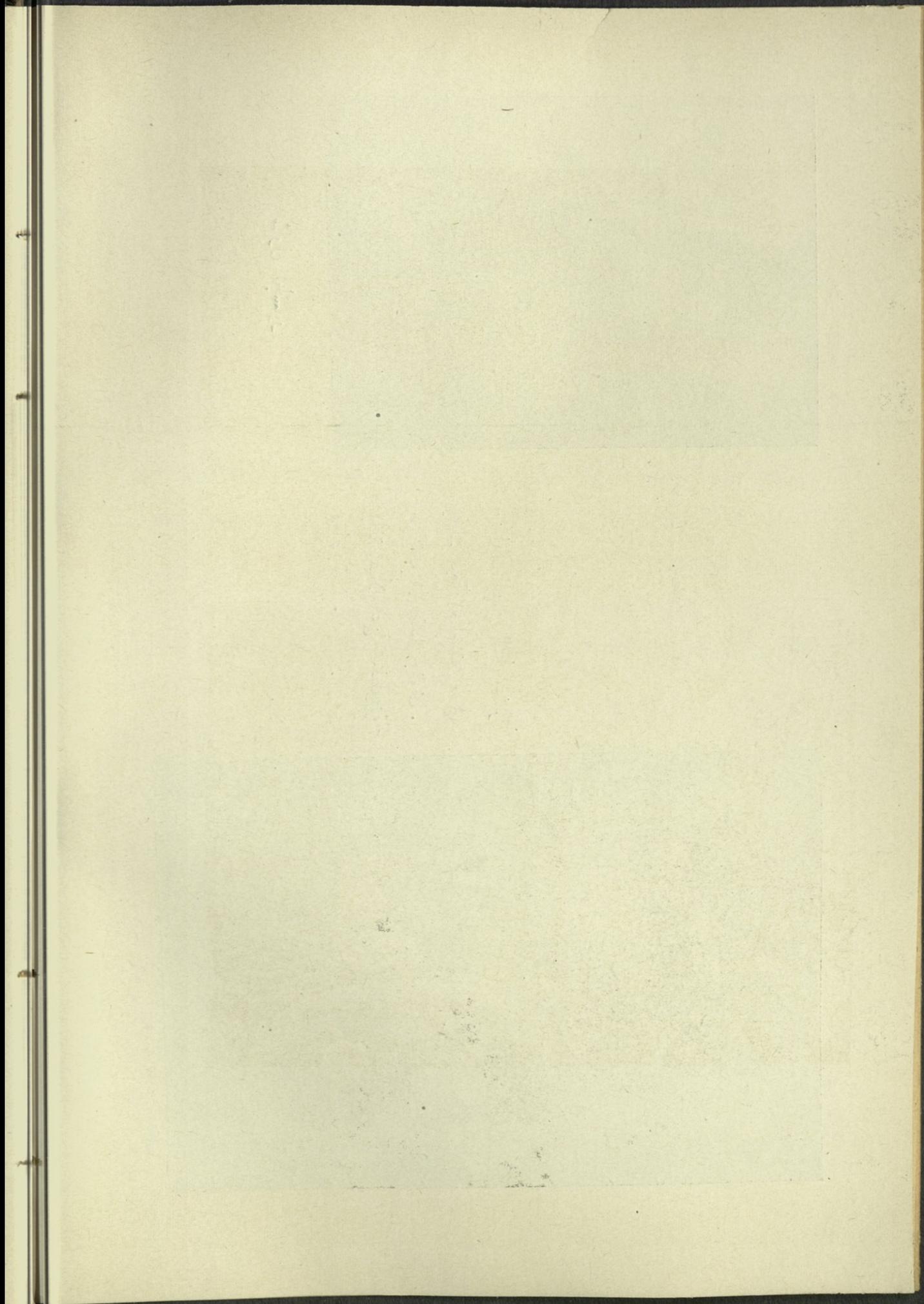
واتاح التنظيم على اساس الكردوس للقائد ان يستخدم نفوذه الشخصي في

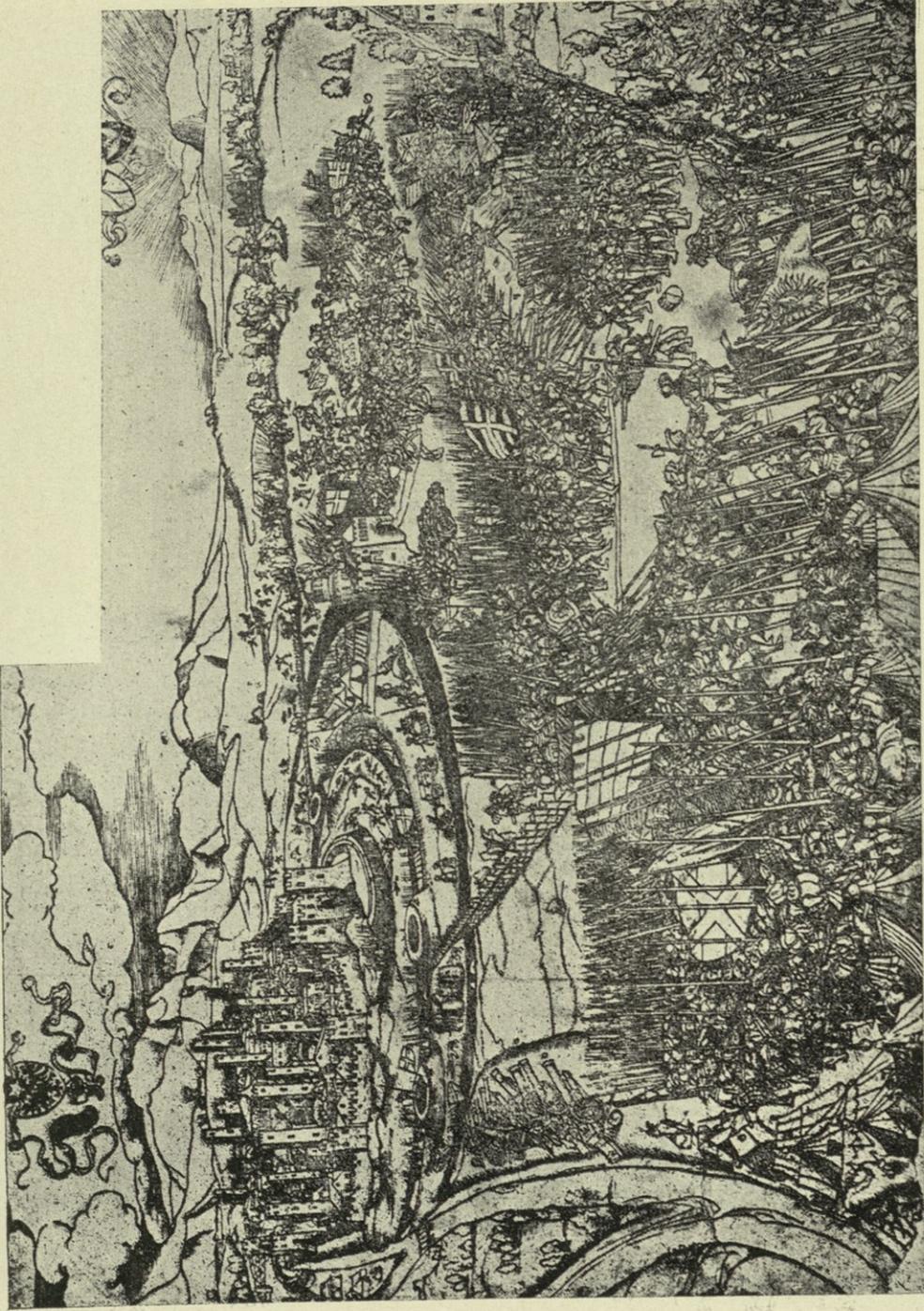


الملك لويس الثاني عشر
 يتارك قلعة « است » في
 طريقه الى تسلم جنوى .
 (نقلاً عن مخطوطة
 معاصرة) .



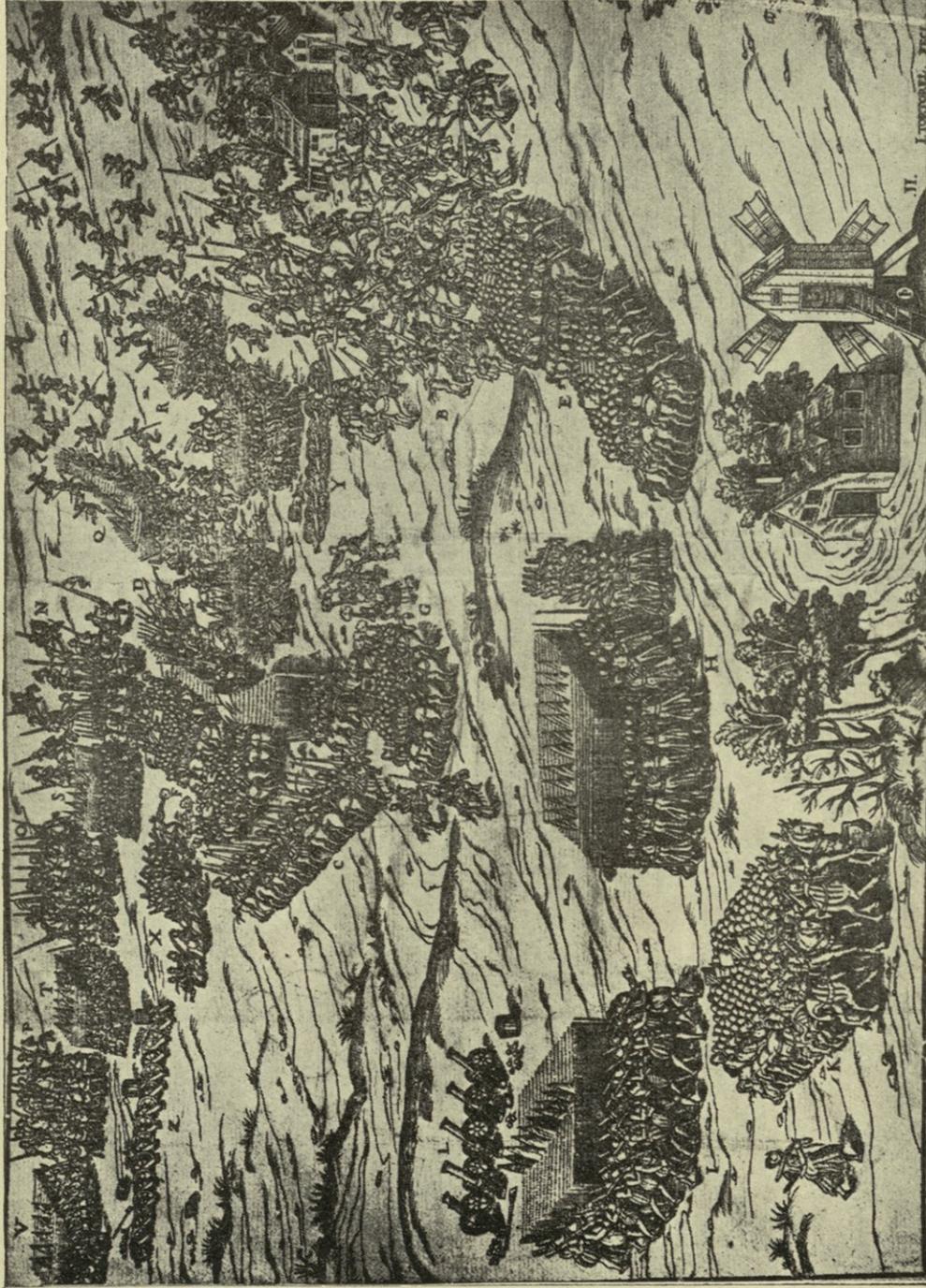
شارل الجسور



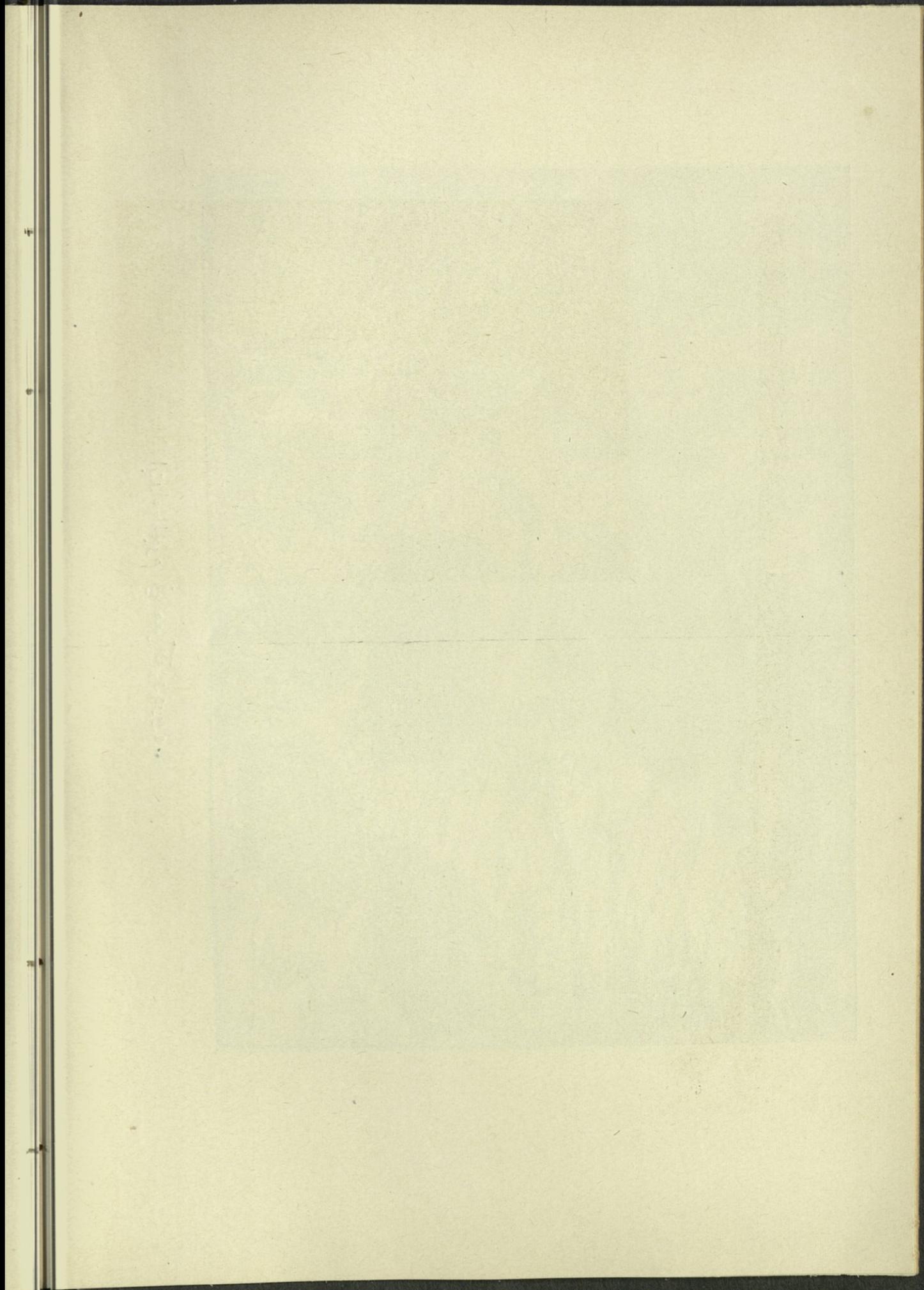


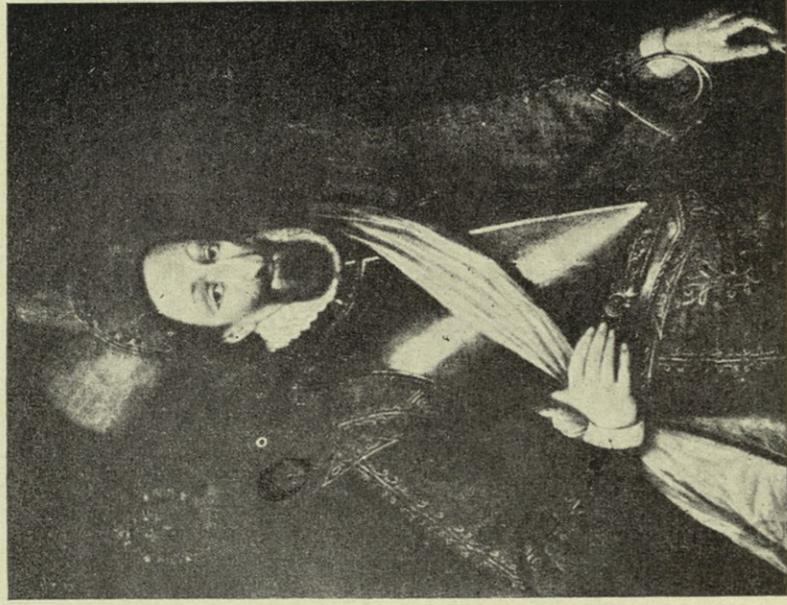
معركة بافي ، وهي من ريشة مصور الماني في القرن السادس عشر .

THE UNIVERSITY OF CHICAGO PRESS



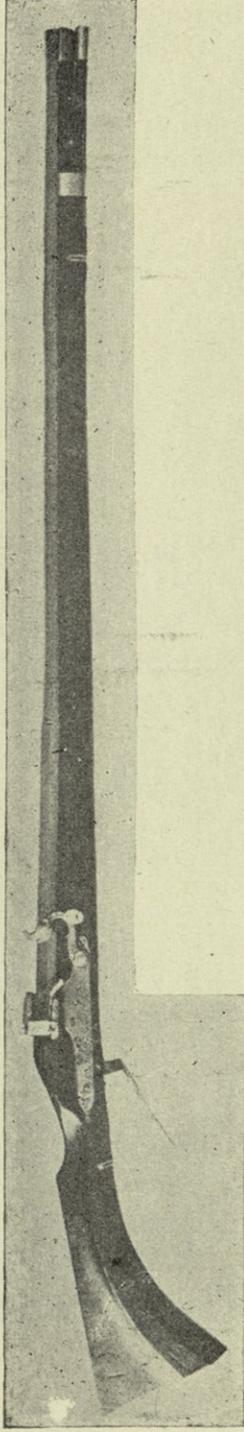
ابتداء الهجوم في معركة « درو » .

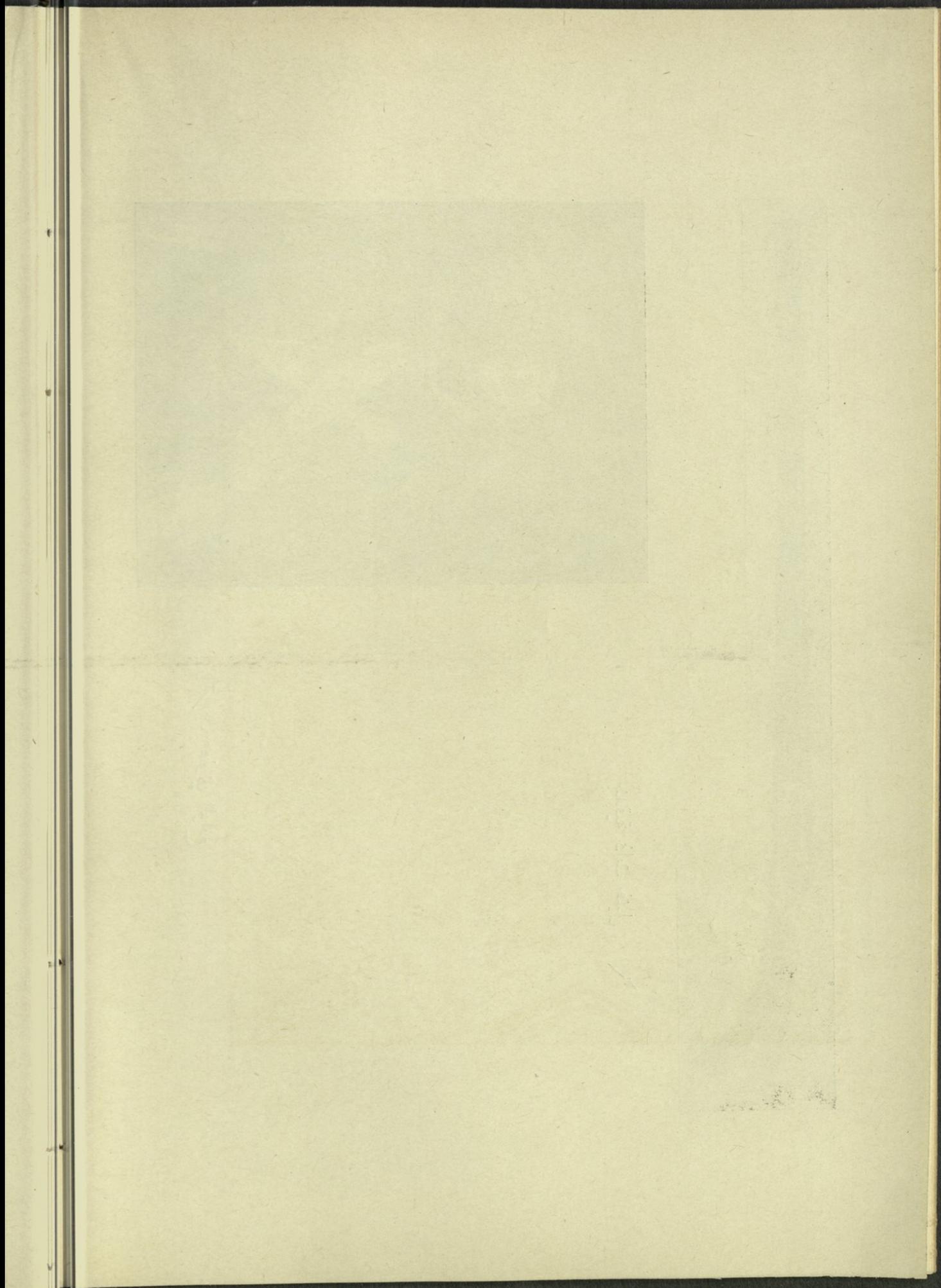


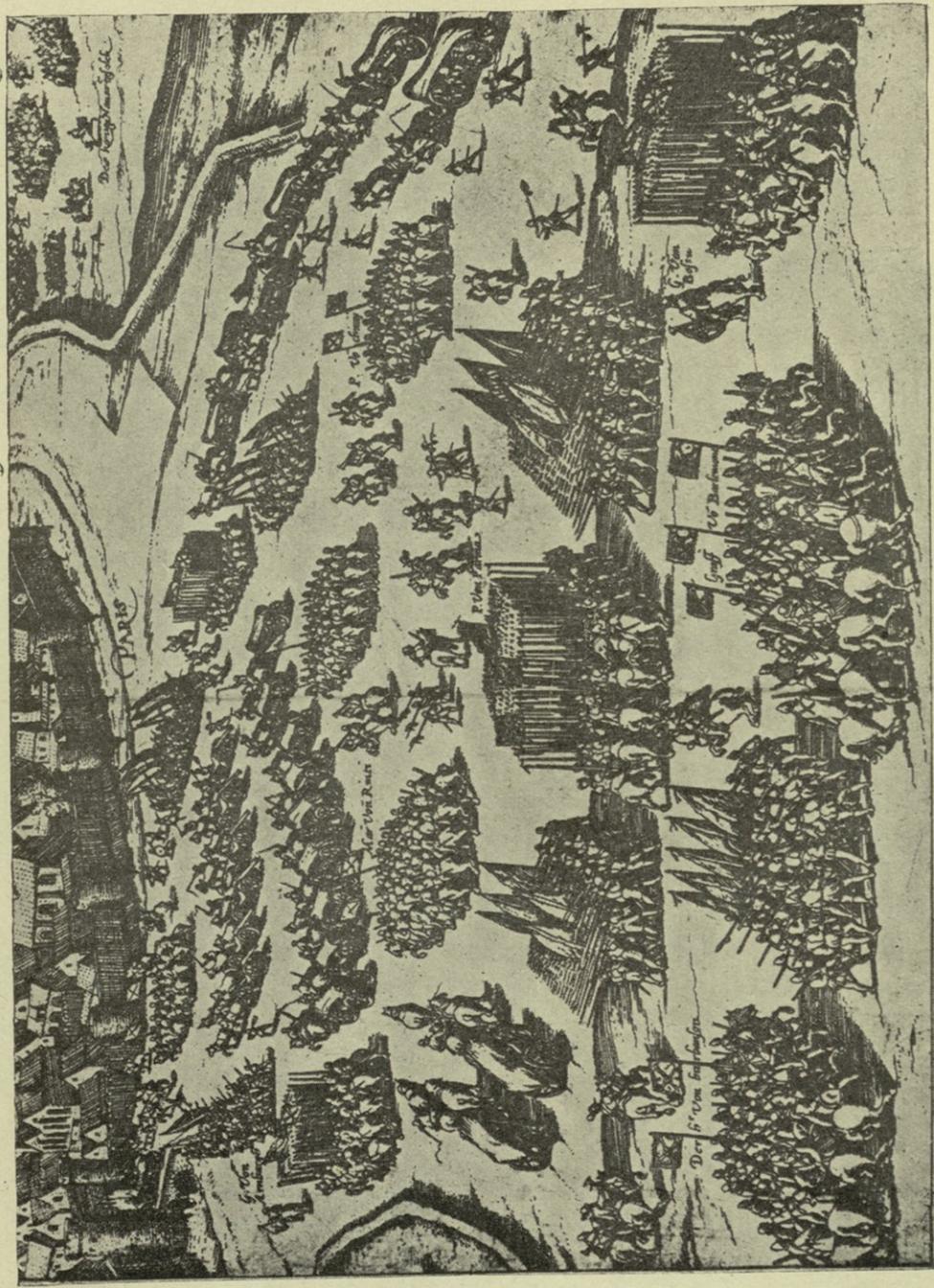


هنري الرابع ↗

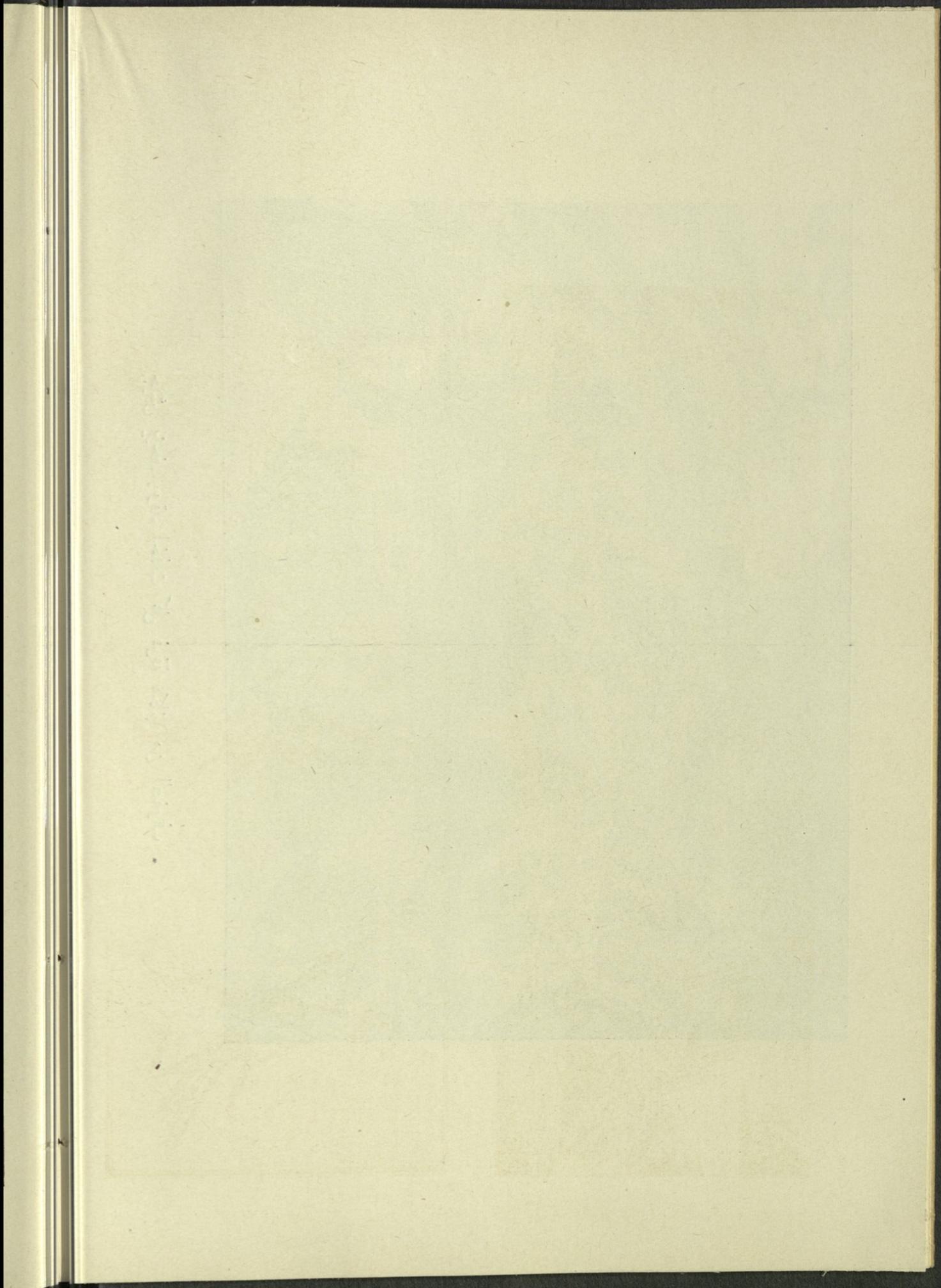
↖ بندقية ذات فتميل



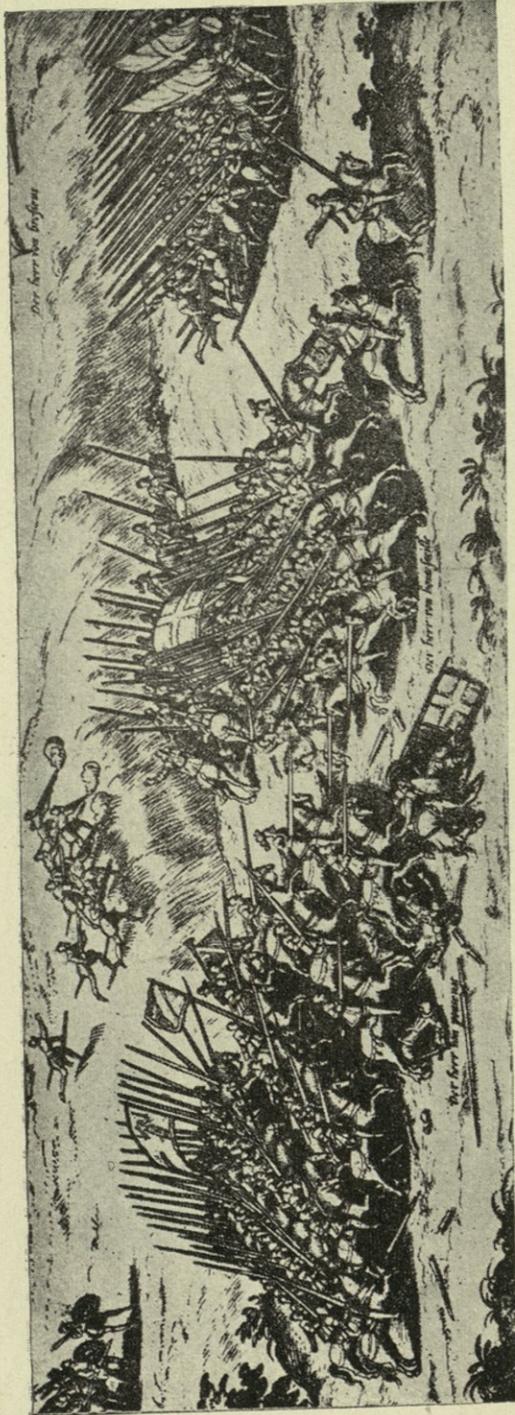




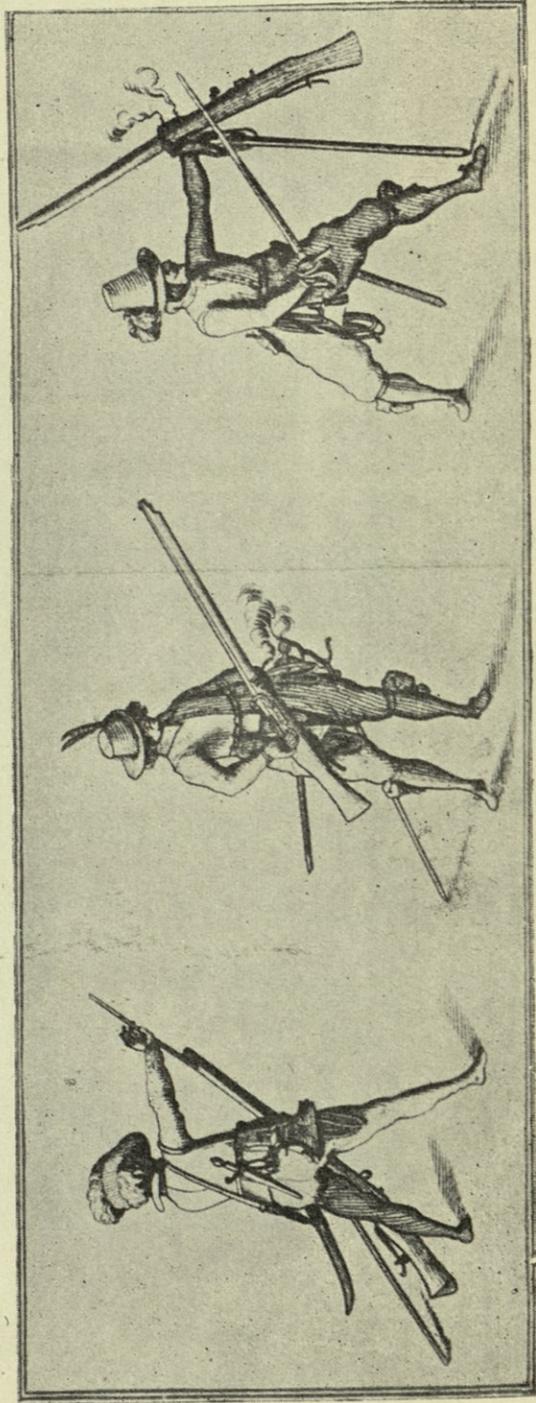
جيش يزحف وقد اخذت كل فرقة مكانها من الصفوف .

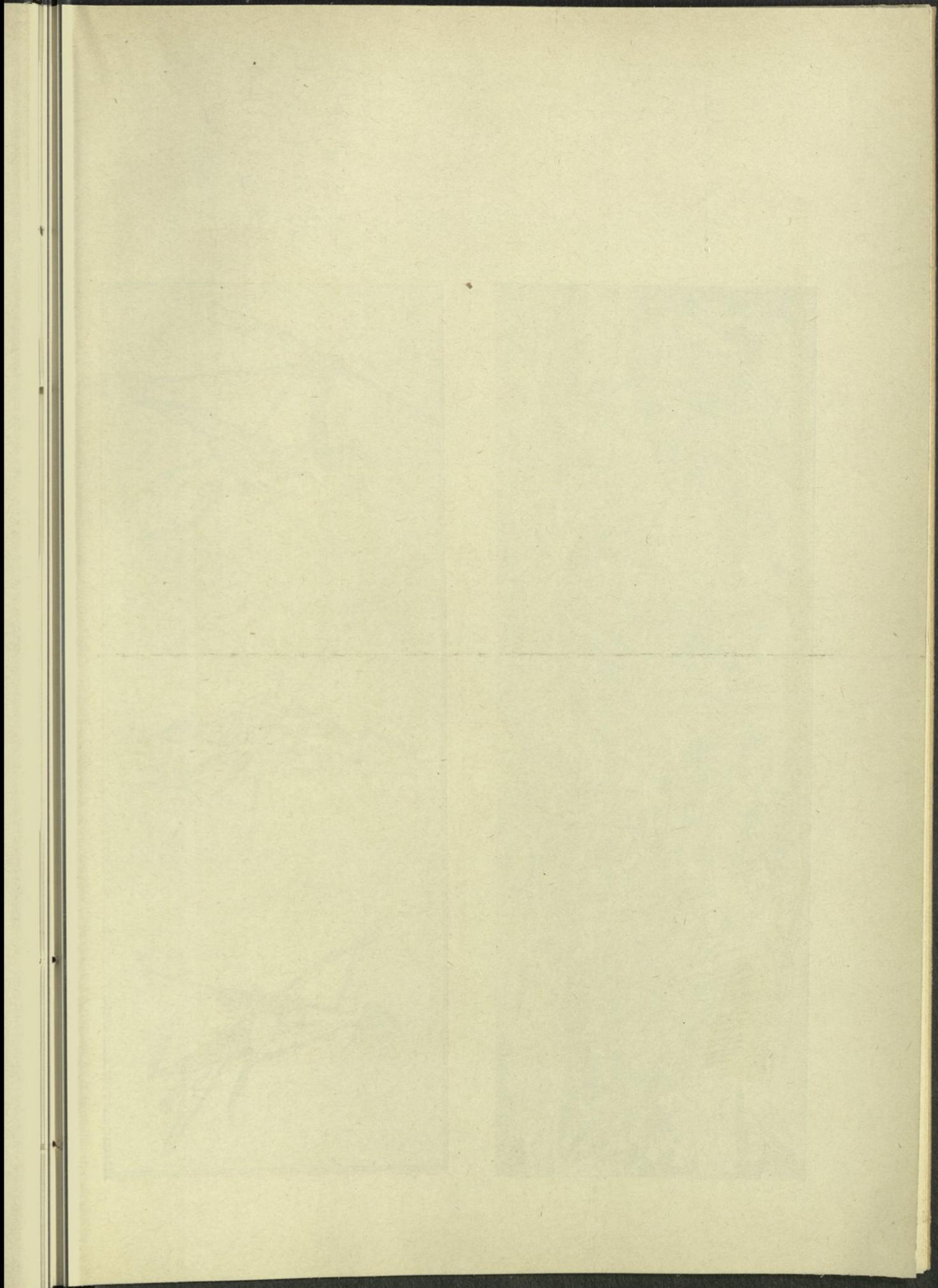


اصطدام بين الفرسان .



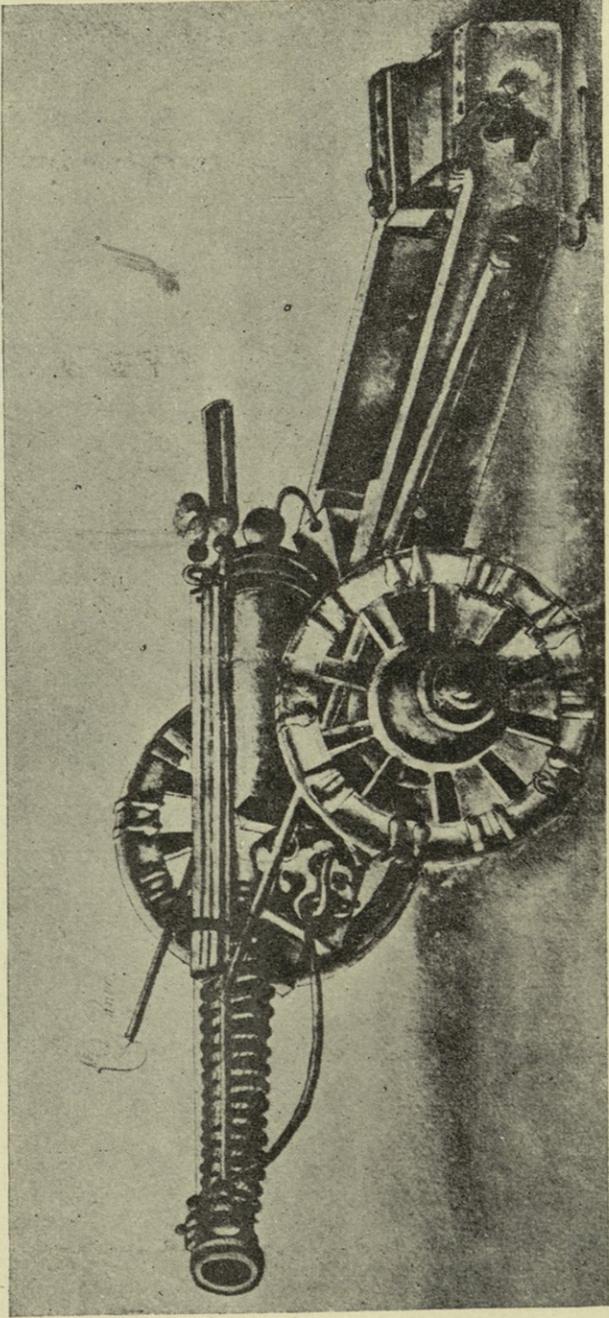
المراحل التي يمر فيها
استعمال البندقية ذات
الفتيل . (من الشمال
الى اليمين) .



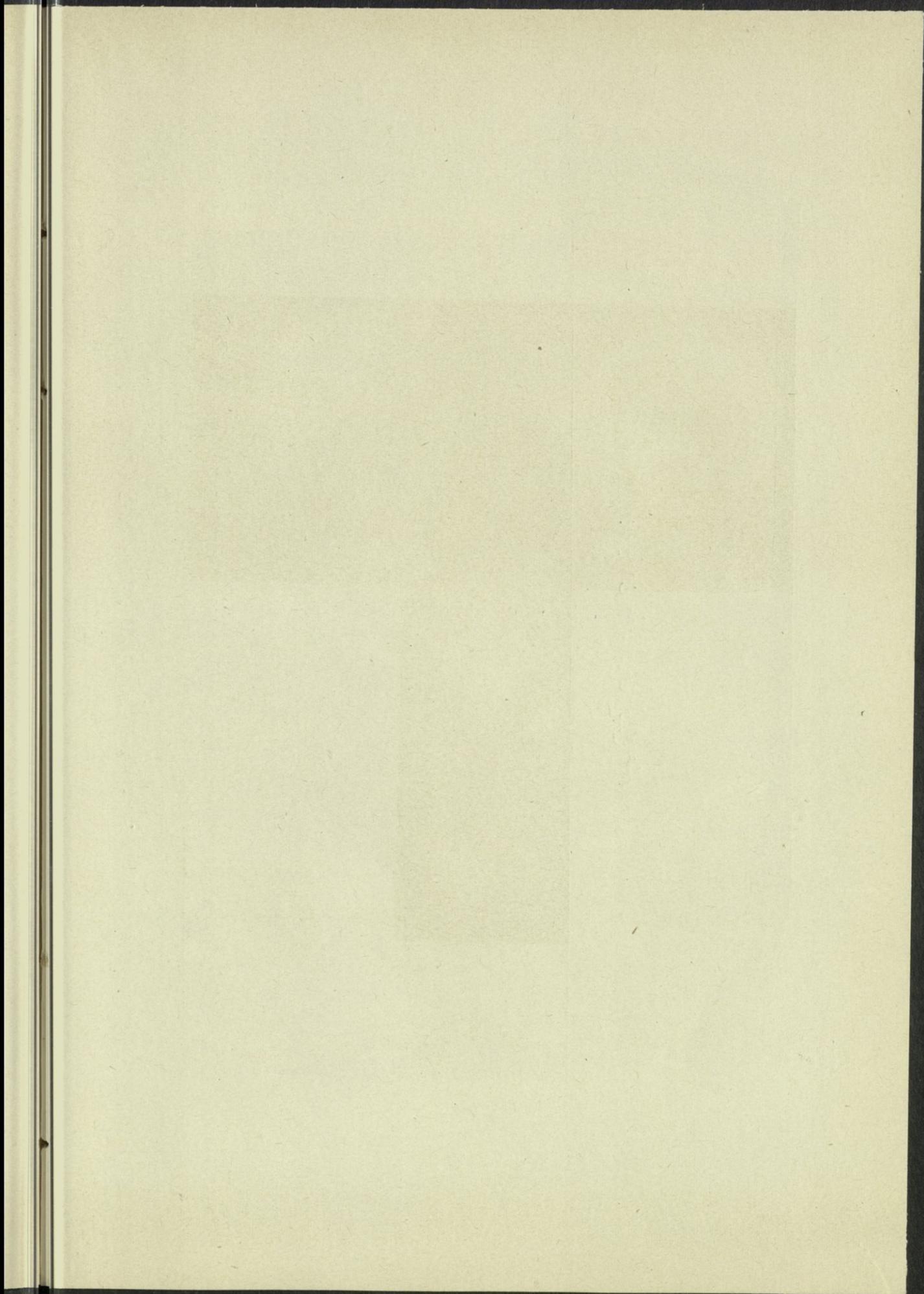




بندقية من عصر لويس الرابع عشر



مدفع مجهز بجميع معداته وزنته ٨٤٢٠ ليبرا .

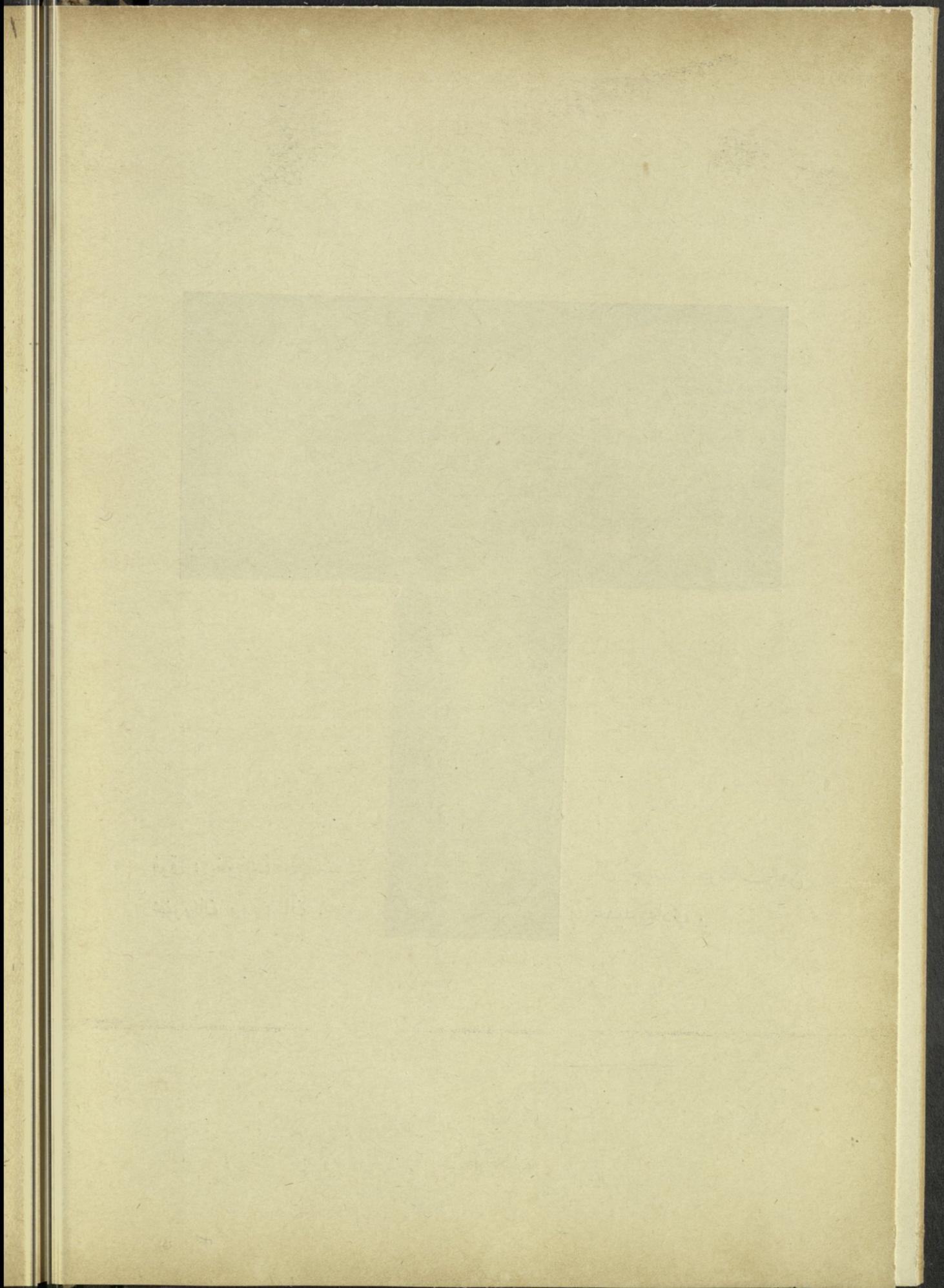




الى جانب : خودتات من
حديد عادي .



فوق : خودتان من حديد
مخفورتان ومذهبتان .



تأمين اللحمة والانسجام في وحدته . اما هذا النفوذ فكان يستمد من اعمال بطولية تصدر عنه في الحرب ومن تدابير موفقة يتخذها في السلم .
ومن هنا نشأ ما يسميه العسكريون « روح الثكنة » اي التنافس بين الكراديس على تحدي الخطر واحراز الاجاد .

اما الحياطة الفرنسية فقد ظلت بعزل عن الاصلاح والتنظيم ومثلها المدفعية .

٢ - الجيش في اواخر القرن السادس عشر

السلاح . - قلبت الاسلحة النارية قواعد التكتيك رأساً على عقب . ولكن الفرنسيين ترددوا بعض الوقت في استعمال البندقية ذات القليل . وكانت حاجتهم ان هذا السلاح الذي يقتل من مسافة طويلة لا يشرف الانسان وينزل الشجاع الى مستوى الجبان . وقد هدد القائد بايار بشق كل من يحمل سلاحاً ثانياً . اما الخبراء فعابوا على البندقية ثقلها واستحالة استعمالها في الايام الممطرة .

الا انه اتبح للفرنسيين ان يتبينوا اهمية السلاح الجديد في الحملات الايطالية وفي اثناء حروبهم الدفاعية ضد الجرمان والاسبانيين ، فاعتمدوا البندقية سلاحاً رئيسياً في حرب الكمين وفي مهاجمة القلاع والحصون . ولم يمض طويل وقت حتى عم استعمال البنادق القصيرة (قراينه) وهي ذات قندق (عكاز) . وكانت ثقيلة عند ظهورها ثم خفف وزنها تدريجاً وحل الكبسول محل القليل وضوعف مدى القذيفة واصبحت قوة اختراقها ضعفين . وكانت زنة الرصاصة اربعين غراماً ومدى انطلاقها اربعمئة متر .

ويظهر البندقية برزت اهمية المدفع ، فعني الملك لويس الحادي عشر بزيادة مدى المدفعية الفرنسية . وفي عهده حلت القذيفة المعدنية محل القذيفة الحجرية . وظهرت المدافع البرونزية في عهد شارل الثامن . وقد جهز حملته على ايطاليا

الجيش الفرنسي

بمئة واربعين مدفعاً برونزياً منها اربعون قطعة من النوع المعروف باسم «الافعى» وهو من عيار متوسط ، ولكنه بعيد المدى نسبياً . اما لويس الثاني عشر وفرنسوا الاول فقد جهزا الجيش بمدافع خفيفة تدار بسهولة . غير ان تفوق مدفعية الالمان الثقيلة حمل هنري الثاني على مهر قواته بمدافع من كل وزن وعيار .

وفي مطلع القرن السادس عشر قام في فرنسا اربعة عشر مصنعاً لانتاج البارود والمدافع والقذائف . وفي الثلث الثاني من القرن المذكور عهد بابلوة سلاح المدفعية الى ارباب الاختصاص . وتطور فن الرماية تطوراً نوه به « مونلوك » في وصفه حصار « سين » قال : « بدأت مدفعية الجرمان تصب حمها على قاعدة السور مستهدفة ما كان العدو يحسبه نقطة الضعف ، على امل ان ينهار الجدار . ولما انقضى نصف النهار على غير طائل شرعت المدفعية تصوب قنابلها الى وسط السور . وما عتمت حتى فتحت فيه عدة ثغرات . » التكتيك . - ظل الفوج ، حتى موقعة « بافي » ، يؤلف وحدة القتال ، وكان قوامه ستة آلاف رجل يسرون الى لقاء العدو في مجموعة واحدة متقيدين بقواعد معينة . وعند نشوب المعركة تقف القوات الرئيسية في مكانها وينتشر الرماة بالبنادق مؤلفين الطليعة والجناحين . فاذا تطور القتال نحو الالتحام انسحب الرماة فاسحين المجال امام الرماحين وحملة الحراب .

في « بافي » اعتمد المشاة الاسبانيون بقيادة الماركيز « دوبيكيز » تكتيكاً اشاع الارتباك في صفوف الحيلة الفرنسية . فقد انتشر دفعة واحدة الف وخمسة رجل من حملة البنادق وراحوا يناورون ضد قلب الحيلة الفرنسية وجناحها بخفة ورشاقة ، غير متقيدين بالقواعد المدرسية التي تحد من النشاط الشخصي ، وتجعل من الجنود آلات طيعة بيد القائد .

وهكذا كانت « بافي » الخطوة الاولى نحو الغاء تكتيك قديم يقضي بان يقاتل المشاة مجموعة مترامة ، الكنف على الكنف . وادرك الخبراء الفرنسيون على ضوء تلك الموقعة ان اللحمة الحقيقية لا تقوم على التكتل المادي في ميدان المعركة ، انما تقوم على فهم الجنود المهمة المشتركة المنوطة بهم ، وعلى تقمهم بسلاحهم . وقد جرب الفرنسيون هذا التكتيك في موقعة « سيريزول » فصيد القائد « مونلوك » على رأس ثمانية رجل زهاء اربع ساعات في وجه سبعة آلاف ايطالي . ويقول المؤرخون المعاصرون ان « مونلوك » استطاع الثبات لأن قواته عملت متفوقة ، تكرر هنا وتفر هناك ، وتشن حملات موفقة على نقاط الضعف في صفوف العدو .

وفي الحروب الدينية عمل القادة : « كوليني » و « كونده » و « ناسو » على تصغير وحدات القتال ، ليتسنى لها الانتشار بسرعة واتقاء نيران العدو . وقد استبدلوا من المربعات العادية مربعات مستطيلة يضم الواحد منها عشرة صفوف .

وفي اوائل النصف الثاني من القرن السادس عشر بدأت الخيالة تجنح الى تكتيك الاندفاع في صفوف عميقة على اساس الكوكبة كوحدة قتال . وقد سبق الالمان الى تسليح خيالتهم بالبنادق فكان الصف الاول يتقدم فيطلق النار ثم يتقهقر بسرعة فاسحاً المجال امام الصفوف التالية ليؤلف هو المؤخرة . وقد سميت هذه الحركة « الدورة » ، لان الفارس كان يدور بفرسه ليلزم مكانه من المؤخرة . واعتمدت الخيالة الفرنسية هذا التكتيك واستبدلت من الرماح والنصال الاسلحة النارية ابان الحروب الدينية .

وتطورت العدة الدفاعية تبعاً لتطور السلاح الناري . فعم استعمال الدروع وحدات المشاة والخيالة ، وضوعفت سماكة الدرع فرزحت المطايا تحت ثقلها

وفقدت الخيالة الخفيفة المرونة التي كانت تتميز بها .
 اما وضع الجيوش في ميدان المعركة فقد ظل هو اياه : وحدات القتال في
 الوسط يتما جناحان وقوات احتياطية متوارية خلف مرتفع او في غابة .
 اما المدفعية فتركز على الهضاب او وراء الجناحين مباشرة . ففي موقعة
 « كوتراس » نصب ملك النافار مدافعه على هضبة عالية وحشد خلف الهضبة
 بضعة الوية من المشاة وثلاث كتائب من الفرسان . وكان يغطي ميسرته نهر
 « بالار » . اما الميمنة فكان يحاذيها خندق كمن فيه خط من الرماة بالبنادق .
 ذكر المؤرخون ان الجيش البروتستنتي في هذه الموقعة كان معادلا للجيش
 الكاثوليكي بقيادة الدوق « دو جوايوز » . فتحت مدافع البروتستنت النار اولا
 فردت مدفعية الكاثوليك من مراكز مكشوفة ، فارشدت الومضات العدو الى
 مواقعها ولم يطل به الامر حتى اخرستها مدافعه . ولما تضايق جيش
 « دو جوايوز » من نيران البروتستنت حمل على هؤلاء حملة قوية فبدأ
 الهجوم بداية حسنة شجعت الدوق على ائزال احتياطه الى الساحة ، ففوجيء
 يتدخل القوات التي كانت تتوارى وراء الهضبة ضد ميمنة جيشه وبخروج
 الرماة بالبنادق من مكانهم للانقضاض على ميسرته . وقبل ان يتدارك
 « دو جوايوز » الموقف انقض عليه الجيش البروتستنتي وسحق قواته سحقاً في
 موقعة لم تستمر اكثر من ساعة ، قتل خلالها ثلاثة آلاف جندي كاثوليكي .
 وقد اجمع المؤرخون على ان ملك النافار كسب الموقعة بمدفعية نصبت
 في الموقع المناسب وبمعرفة التامة للارض واستخدامه اياها استخداماً بارعاً .
 سياسة واستراتيجية . - سارت الاستراتيجية والقضايا السياسية جنباً الى
 جنب . ففي القرن الخامس عشر كان يهدد الوحدة الفرنسية خصوم ذوو
 مطامع مرتكزة على حقوق اقطاعية . وكان لهم في فرنسا نفسها ممتلكات

وقواعد . . . اما حروب القرن السادس عشر فقد وضعت فرنسا امام اخطار خارجية ، فهبت تدافع عن حدودها باذلة المجهود الاكبر ضد العدو الاقوى وتآزرت الاستراتيجية والسياسة لحل هذه المعضلة الكبرى ، وهي النضال ضد الجرمانية .

تميز في الحروب التي خاضت فرنسا غمراتها في القرن السادس عشر قادة عظام امثال « غاستون دوفوا » ، « لاباليس » ، « كوليني » ، « تافان » ، « دوغير » ، « بربسك » ، « دولانو » ، « بايار » .

قال المؤرخ « برانتوم » يصف بايار : « كان كبار القادة يتنازعون بايار لان الحملة التي يشترك فيها هذا البطل هي حملة ناجحة . كان بايار محارباً شجاعاً واسع الحيلة ، وقد تجسست فيه سجايا الفارس الفرنسي : الاخلاص والصدق والشجاعة والكرم . كان له في موقعة « مارينيان » شرف تكريس ملكه فارساً . »

ورصف « برانتوم » القائد « مونلوك » قال : « كان فظاً ، ظمأً ، ممسكاً ، ولكنه كان بطلاً صديداً . التحق وهو دون الثامنة عشرة بسرية الرماة التي كان يقودها الملازم « بايار » . وبعد خمس سنوات اشترك في الحملة الإيطالية وجرح فيها ثلاث مرات فرقي الى زتبة رئيس . وبعد موقعة « سيريزول » عين قائد اقليم واشترك في معظم المعارك التي تخللت النصف الاول من القرن السادس عشر . وقد جرح « مونلوك » وهو في الواحدة والسبعين من سنه وبعد سنتين سمي مارشال فرنسا . »

يقول مؤرخو العصر ان الملك هنري الرابع كان قائداً متفوقاً واستراتيجياً من الطراز الاول . عاب عليه « فارنيز » حماسه واندفاعه الجنونيين في موقعة « ايفري » وردهما الى قصر نظره ، ولكن تكتيكه في موقعة « كوتراس »

اظهر بجلاء مواهبه الفنية ، كما اظهرت مواهبه السياسية مرونته في معالجة الازمة
الداخلية وقوله للذين عابوا عليه اعتناقه المذهب الكاثوليكي : « ان باريس
لتساوي قدماً ! »

المفصل الخامس

جيوشي العهد الذهبي

١ - لويس الثالث عشر وریشيليو

ظل آل هابسبورغ (البيت النمسي المالك) حتى مطلع القرن السابع عشر يطمحون الى التوسع على حساب جيرانهم ، متأثرين في هذا خطى الامبراطور شارلكان . وقد وضع هنري الرابع نصب عينيه الوقوف في وجه هذا التوسع ومنع آل هابسبورغ من التمركز على الضفة اليسرى لنهر الرين . وبعد وفاته شغلت المشاكل الداخلية خلفه عن متابعة هذه السياسة . ولكن ما ان تم لریشيليو القضاء على « اعداء الطمأنينة العامة » حتى قام يسعى الى جعل الرين سداً منيعاً في طريق الجرمانية ، وبسط حدود فرنسا بحيث تعود اليها الاراضي التي كانت تؤلف قديماً بلاد الغول .

ولم يفت ریشيليو ، وهو رجل الدولة العظيم ، ان مشروعاً كهذا يقتضي تحقيقه ان يكون لدى فرنسا جيش قوي ، وان هذا الجيش لا تقوم له قامة الا اذا احسن تنظيمه وتدريبه وقيادته . وقد سجل التاريخ الفرنسي للكردينال الوزير جهود عشرين عاماً في هذا السبيل ، كما سجل جهود الكردينال مازاران واثر لويس الرابع عشر والوزيرين « له تليه » و « لوفوا » .

وانصف التاريخ الملك لويس الثالث عشر فذكر انه شجع جهود ریشيليو

وساندها . وبفضل هذا التأييد تمكن الكردينال من القضاء على الفتنة الدينية ،
ومن اخضاع النبلاء الذين حاولوا بعث النظام الاقطاعي وازعاف سلطة
الملك . وفي الخارج كانت حرب الثلاثين السنة شغل اوروبا الشاغل . فقد
ازاحت فتوحات آل هابسبورغ الستار عن نياتهم ومطامعهم . بيد ان
التدخل الفرنسي ضد الامبراطور فردينان ظل مقصوراً على العمل الدبلوماسي
حتى العام ١٦٣٣ . ففي العام المذكور رفض ريشيليو يده من المشاكل
الداخلية واحتل « فانسي » و « اللورين » ، وعقد تحالفات مع « دوق ساافوا »
وامارات الشمال ، وحمل اسوج على التنازل لفرنسا عن المواقع التي كانت
ها في الازراس .

وبعد ان اطمأن ريشيليو الى مركز فرنسا السياسي والاستراتيجي ، اعلن
الحرب سنة ١٦٣٥ على النمسا المنهكة واسبانيا المتفسخة . على ان اضطرار
الجيش الفرنسي للقتال في الاراضي المنخفضة والمانيا واسبانيا وايطاليا ، مضافاً
الى الجهود البحري الذي قامت به فرنسا لتأييد هولندا ضد الاساطيل
الانكليزية والاسبانية ، لم يتح لريشيليو ان يختار جبهة رئيسية يجعلها ميداناً
للعمل الحاسم . وقد بدأت الحرب بداية سيئة فهدد الاعداء باريس ، ولكن
الفرنسيين استجمعوا قواهم وردوا الاسبانيين عن ابواب العاصمة ، واستردوا
بشاتهم وصمودهم المناطق المفقودة .

موقعة « روكروا » . - في اوائل سنة ١٦٤٣ احتشد جيشان فرنسيان
على الحدود الشمالية ليواجهها مجموعة الجيوش المعادية بقيادة « دون فرنسيسكو
دو ميلو » التي كانت تهدد « روكروا » و « لاندريسي » و « اراس » .
احتشد الجيش الفرنسي الاول على ضفة نهر « السوم » وكان بقيادة « لويس
دو بوربون » ، دوق انجيان (الامير كونده فيما بعد) ، وقد اتخذ الدوق

من المارشال « دو لوييتال » مستشاراً عسكرياً . وعسكر الجيش الآخر في وادي نهر « الواز » بقيادة « دو برونان » . وفي منتصف ايلول حشد دوق انجيان قواته حول « اميان » وكانت تلتهب حماسة واندفاعاً ، ولكنها كانت عديمة التنظيم . فبذل قائدها يعاونه « سيرو » و « غاسيون » مجهوداً جباراً في سبيل القضاء على الفوضى قبل نشوب القتال .

كانت خطة « دوميلو » ترمي الى احتلال « روكروا » قبل وصول الفرنسيين . وفي ١٦ ايار انتهى الى دوق انجيان نعي الملك فعرض جيشه في اليوم التالي امام مدينة « فرغان » ، وكان هذا الجيش يضم خمسة عشر الف راجل وستة آلاف فارس ، فهتفوا له معربين عن حنينهم الى القتال . ولكن المارشال « دو لوييتال » نصح بالتريث فضرب الدوق بالنصح عرض الحائط وشاقه ان يفاجيء الملك الجديد بعمل عسكري باهر .

اجتاز الجنرال « غاسيون » بسرعة المرتفع الذي كان يقوم بين الحصين مغطياً بهذه الحركة القوات الرئيسية التي عبرت بدورها المر لتنتشر قبيل الغروب امام العدو على جبهة طولها كيلومترا ونصف الكيلومتر . وقد عهد الدوق الى « دو برونان » بقيادة القلب ، وكان يضم خمسة عشر فوجاً ، والى « سيرو » بقيادة الاحتياط الذي تجمع وراء القلب وكان يضم ثلاثة افواج من المشاة وخمس كتائب من الفرسان . اما الجناحان فكانا يتألفان من الخيالة فوضعت الميمنة تحت قياد « غاسيون » والميسرة تحت قيادة المارشال « دو لوييتال » والجنرال « لافيروته » .

وانتشر الاسبانيون في الجهة المقابلة على النحو الآتي : احتشدت الخيالة مؤلفة الجناحين بقيادة « ألبوكرك » و « ايزنبورغ » وشغل القلب ثلاثة كراديس من المشاة ، يضم كل منها ثلاثة صفوف لا فاصل بينها ، واصطف الاحتياط

وراء القلب .

ارخى الليل سدوله قبل الشروع في القتال ، فاستولى « غاسيون » عند فجر اليوم التالي على غاب يفصل بين الخيالتين ، ثم حمل على مسيرة خصمه حملة قوية اشاعت الفوضى والارتباك في صفوفه . ولكن حدث في الوقت نفسه ان كرت مينة العدو كرهة قوية على المسيرة الفرنسية التي هاجمتها فارغتها على الانكفاء كاشفة المشاة ، فانقض عليها فرسان « ايزنبورغ » وغنموا بضعة مدافع . الا ان لواء « الليمون » استطاع كبح جماح الخيالة المعادية ، وبالرغم من هذا خيل الى القائد فالير مساعد « دو برونان » ان الموقف خرج فأمر قواته بالتقهقر ، ووافق دو برونان على هذا التديير .

كان دوق انجيان يرقب سير المعركة والى جانبه ضباط اركان حربه ، فنصحوا له بوقف دفعة المينة لينجد بها مسيرته المهلدة . فلم يفعل ، بل التحق بـ « غاسيون » وقاد الخيالة حتى آخر خط من خطوط العدو ، ثم ارتد على الاحتياط وكان يتألف من الالمان ، فبعثر صفوفه وراح يتهدد مؤخرات خيالة ايزنبورغ ، فاضطر هذا لوقف هجومه ومواجهة الخطر الجديد . وبعد قتال عنيف شقت خيالة غاسيون طريقها وسط صفوف الخيالة الاسبانية بعد ان استردت المدافع المضیعة ، وانضمت الى المشاة الذين كان « سيرو » قد اعاد النظام الى صفوفهم . فحمل المشاة الاسبانيون والالمان حملة قوية فردتهم المدفعية الفرنسية على اعقابهم ثم انقضت الخيالة على العدو قبل ان يستجمع قواه المبعثرة ، فقتلت منه خلقاً كثيراً وامرت سبعة آلاف رجل وغنمت مئتي راية . وكان الكونت « دوفونتين » قائد المشاة في الجيش الاسباني في عداد القتلى .

ومع ان انتصار روكروا أحرز بعد موت ريشيليو ببضعة اشهر ، فالجمع عليه

ان الفضل في احرازه يعود الى الاصلاح العسكري العظيم الذي تحقق في عهده .
الجيش في عهد لويس الثالث عشر ورشيليو . - تأثر الملك لويس الثالث عشر خطى ابيه هنري الرابع في السياسة والحرب . فواصل سياسة التطهير في الداخل والتوسع في الخارج ، وعني بالجيش جملة وتفصيلاً ، لانه لصق بالجنديّة منذ نعومة اظفاره والف جو الثكنات ، فشب على حب ما كان يسميه بحق « سياج المملكة » .

وقد ذكر المؤرخون المعاصرون ان لويس الثالث عشر كان يعني بالكبيرة والصغيرة من شؤون الجيش ويقضي ساعات الفراغ بين رجال كردوس الحرس الخاص فيدربهم ويؤاكلهم ويسمر وايام . واليه يعود الفضل في انشاء وحدات التكتيك واقتباس قواعد المناورة الهولندية ، وفي استبدال البندقية القصيرة ذات القندق من البندقية الطويلة ذات القليل . وفي عهده بذلت محاولات جدية لتوحيد البزة العسكرية ، وانشئت الكراديس النموذجية لتنسج على منوالها سائر القطعات ، وارتفع عدد الكراديس الاقليمية من ستة الى اثني عشر .
ولا ينكر اثر الوزير رشيليو في كل هذا . تسلم الكاردينال زمام الحكم وهو دون التاسعة والثلاثين فوضع نشاطه وذكاءه في خدمة مولاه والوطن . ولكن وفرة المشاريع التي اخذ تحقيقها على عاتقه لم تنح له الوقت الكافي لاعادة تنظيم الجيش تنظيمًا اساسياً . ومع هذا كان نصيب هذه المؤسسة الوطنية من نشاطه الاصلاحى كبيراً الى حد .

قبل رشيليو كان الوزير الاول في البلاط وامين سر الحربية او وزيرها يتنازعان الصلاحيات فوضع الكاردينال حداً لتجاوز الوزير الاول على ما يخرج من دائرة اختصاصه وصلاحيته . وعني في الوقت نفسه باختيار وزراء الحربية بين رجال الحزب ، واثاح لهم وسائل العمل المنظم ، وانشأ « مكاتب

الحرب ، وعين لدى الجيش موظفين اداريين مهمتهم تأمين اعاشة الجنود ودفعت مرتباتهم .

وعمل ريشيليو على تعزيز السلطة المركزية ، فاصبح قادة الكراديس مسؤولين ازاء امير الجيش عن النظام في وحداتهم ، وصار القائد العام (اي امير الجيش) يتلقى التعليمات من وزير الحربية . وبفضل هذا التنظيم قام نوع من التنافس بين القادة على رفع مستوى كراديسهم اجتلاباً لرضا القائد العام وخوفاً من العقاب .

وفي عهد لويس الثالث عشر كان الجيش الفرنسي يضم ربع مليون رجل . وقد ادرك الكردينال ريشيليو على ضوء الحملات الاولى ان لا غنى لفرنسا عن المرتقة من المحاربين الاجانب ، فاستقدم الوف الرماة والفرسان من سويسرا وهولندا واسكوتلندا وارلندا وبولونيا .

وبعد عهدة « البيرينه » (١٦٣٥) صار الجيش الملكي يضم ثمانين كاردوساً من الحياالة الاجنبية ، فضلاً عن جيش « ويمار » الذي اشتراه ريشيليو من الدوق « برنار دوساكس ويمار » بموجب عقد يضع في خدمة ملك فرنسا ستة آلاف فارس واثني عشر الف راجل بكامل عدتهم ، بقيادة الدوق نفسه لقاء مبلغ اربعة ملايين ليوا ذهبية يتقاضاها الدوق سنوياً .

وبعد وفاة الدوق (١٦٣٩) تولى قيادة جيش « ويمار » المرشال « دوغيبريان » ثم تولاها « تورين » . وفي سنة ١٦٤٧ تمردت الكراديس الويمارية فقمع القائد الفرنسي الكبير هذه الحركة و اشار بدمج كراديس الفرسان في الحياالة الفرنسية .

٢ - حداته لويس الرابع عشر - مازاران وله تيليه

كان على الكردينال مازاران الذي خلف ريشيليو في الحكم ان يتم ما

بدأه سلفه العظيم . وفي عهده وضعت حرب الثلاثين السنة أوزارها ، واندلعت نيران الحرب الاهلية ، ونشب نزاع مسلح بين فرنسا واسبانيا . حرب الثلاثين السنة . - استهلت فرنسا المحاربة العام ١٦٤٣ استهلالاً حسناً . ولكن الحظ لم يحالفها الى النهاية . فقد قتل القائد غيريان في موقعة « روتكيل » بعد ان احرز انتصاراً باهراً وخان الحظ خلفه رانترو ، فولي القيادة المرشال تورين . واحرز القائد الجديد انتصاراً كبيراً على الدانوب ولكنه لم يوفق الى الحؤول دون سقوط « فريبورغ » عندما هاجمها السنة التالية جيش القائد « مرسي » . وقد خف « كونده » لنجدة « تورين » واستطاع ان ينتزع نصراً كثير التكاليف بعد صراع جبار استمر اياماً .

وفي سنة ١٦٤٥ فوجيء جيش تورين بحملة معادية بقيادة « مرسي » على مدينة « مارينتال » وكان للعدو التفوق العددي الساحق ، فخف « كونده » لنجدة زميله واتى القائدان العظيمان من ضروب الشجاعة والمهارة ما آمن لهما الفوز . فسحق جيش « مرسي » في « نورلجن » وقتل قائده .

وتميزت الحملات التالية بمناورات بارعة قام بها « تورين » وامنت له السيطرة على المانيا من « ماينس » حتى جنوب بافاريا . وكان العام ١٦٤٨ خصباً بالانتصارات على مجمل الجبهات : ففي قطلونيه احتل شومبرغ « تورنوزا » وكسب تورين معركة « لانس » في الفلاندر فعجلت هذه الانتصارات بدفع آل هابسبورغ الى عقد الصلح ، وقد كرسست عهدة وسقاليا انتصار السياسة الفرنسية وقضت على الوحدة الالمانية . اما اسبانيا فقد رفضت المصالحة طمعاً منها بالحصول على شروط ملائمة ضد فرنسا المتمخضة بموادك داخلية خسام . الحرب الاهلية . - لم يخطيء حدس الساسة الاسبانيين فقد اندلعت في فرنسا نيران الحرب الاهلية وامتشق القائدان تورين وكونده الحسام ضد

الملك . ولكن اولهما ما عم ان ادرك خطأه ووضع سيفه في خدمة مولاه .
وما ان عاد البلاط الى باريس حتى دعي تورين الى طرد الاسبانيين من فرنسا ،
وكانوا قد احتلوا جزءاً منها بقيادة كونده . وفي الوقت نفسه نشطت
الدبلوماسية الفرنسية فاستطاع الكردينال مازاران ان يحالف البورتغال وامراء
المانيا ، وان ينال مساعدة كرمويل مقابل تعهد بالتنازل لانكلترا عن دنكرك
حالما يتم اجلاء الاسبانيين عنها . وهو تنازل لم يكن منه بد لانه لم يكن
لفرنسا اسطول بحري يستطيع منازلة الاسطول الاسباني القوي ، فاستبعد
مازاران الاسطول الانكليزي .

وخان الحظ « كونده » فهزمه « تورين » في آراس حيث خسر الاسبانيون
اربعة آلاف رجل واربعة وستين مدفعاً . ثم هزمه في « دون » وفي مواقع
أخرى . واضطرت اسبانيا في النهاية لطلب الصلح . فاحتفظت فرنسا باقليم
« بينيول » وخولتها معاهدة « بيداسوا » حق احتلال اللورين واعطتها حدود
« البيرينه » . واحتفظ الاسبانيون بـ « ليل » و « سان اومير » و « لاباسه »
وتنازلت فرنسا لانكلترا عن دنكرك . وهكذا ظلت حدود فرنسا الشمالية
مشرعة الابواب .

تورين وكونده . - سمي « تورين » مارشال فرنسا بعد ان ساهم في ثلاث
عشرة حملة وابلى فيها بلاء حسناً . وقد وصفه معاصروه بانه « القائد المتحفظ
ذو الضمير الحي والاعصاب الفولاذية . » وقال فيه نابليون انه « القائد الوحيد
الذي نما فيه الاقدام مع كرا الاعوام ، وتراكم التجارب والاختبارات . »
ولعل ابرز صفاته معالجته المواقف الطارئة بحكمة واتزان وحزمه في
الحالات التي لا تنفع فيها التدابير العادية وانصاف الحلول .

اما كونده ، دوق انجيان ، فقد تألق نجمه في موقعة « روكروا » وبرهن

مذ ذاك عن مواهب تكتيكية رفعته الى مستوى كبار القادة الذين اخذ عنهم نابليون السرعة في التصميم والحزم في التنفيذ . كان سريع الحاطر ، يلم بالموقف الطارئ بسرعة عجيبة ، وهي موهبة لم يكن لتورين مثلها . ومن اشهر المواقع التي ربحها بعد « روكروا » : « فريبورغ » ، « نورلانجن » و « لانس » .

ميشيل له تليه . — تولى ميشيل له تليه في عهد « مازاران » وزارة الحربية بعد ان شغل مدة طويلة وظيفة مفوض الاعاشة في الجيش . وقد لاحظ الوزير ان عدد القادة في الجيش كبير جداً وان النظام الرتبوي معدوم . فقد كان مازاران يكثر من تعيين القادة اجتلاباً لرضا النبلاء ، فاضحى للجيش الواحد عدة آمرين من رتبة واحدة وصار هؤلاء يتولون القيادة كل بدوره ، فنجم عن هذا محاذير جمّة منها تشابك الصلاحيات وانعدام الانسجام والاستقرار في رسم الخطط وتنفيذها . ففي الفلاندر كان المارشالان « تورين » و « لافرتيه » يتوليان قيادة الجيش الفرنسي ، كل بدوره ، فامر اولهما بانشاء استحكامات لتغطية نقاط معينة . وبعد اسبوعين ولي القيادة « لافرتيه » فامر بازالة الانشاءات التي امر زميله باقامتها . فكان هذا الامر المضاد سبباً في تمرد قطعات الجيش التي ساءها ان تؤمر بهدم ما انفقت في بنائه بمجهود بضعة عشر يوماً .

لم يحقق ميشيل له تليه اي اصلاح اساسي في الحرب . وقد بدأ باقامة النظام الرتبوي على اسس قوية وبوضع قواعد معينة لتسلسل الرتب . فالغى وظيفة امير الجيش . وبعد عهدة « البيرينيه » عين لويس الرابع عشر القائد تورين مارشالاً عاماً لجيوش الملك وثكناته وسمي في البراءة الملكية « المتقدم في مارشالية فرنسا » فاغضب هذا الايثار زملاء تورين وقام فريق منهم سنة ١٦٧٢ بمركبة نمت عن استيائهم وسميت « النزاع بين المارشالية » فتدخل الملك لحسم الخلاف . وبعد هذا الحادث صار البلاط يختار لكل حملة قائداً

عاماً آخذاً بعين الاعتبار مواهب القائد وقوة نفوذه واقدميته في السلك .
وانشأ « له تيليه » ، بناء على اقتراح « تورين » ، رتبة امير لواء (بريغاديه)
في الحياالة . وشجعه نجاح التجربة على احداث الرتبة نفسها في جيش المشاة .
وكان لواء الحياالة يضم اربعة كراديس ، اما لواء المشاة فكان قوامه خمسة
افواج واحياناً ستة .

والغى الوزير المصلح وظائف « مارشال الميدان » و « منكب المعركة »
Sergent de Bataille ، والزعماء العامين Colonels Généraux . واحتفظ
تورين بلقب « زعيم عام للحياالة » ، ولكن مشاغله الكثيرة صرفته عن الاضطلاع
بهذه الوظيفة اضطلاعاً فعلياً فعين « له تيليه » مفوضاً عاماً للحياالة والحقه
بالوزارة ليكون صلة الوصل بينها وبين الالوية . وما عم المفوض العام حتى
اصبح المهيمن الفعلي على الحياالة الفرنسية .

وعني « له تيليه » عناية خاصة بالتسلسل الرتبوي في الكراديس ، فعهد
بقيادة الكردوس الى ضابط كبير برتبة زعيم (كولونيل) يعاونه عقيد
(ليوتان كولونيل) فكبير المقدمين (ماجور) فرؤساء (كابيتن) فملازمون
اولون ، فملازمون ثانون .

وفي اواخر العام ١٦٥٤ حدد مرسوم مهمة الكراديس في القتال ومركزها
في حفلات العرض . وجعلت هذه القطعات فئتين : الكراديس الدائمة
والكراديس الموقوتة . وكانت هذه تسرح فور انتهاء الحملة . وجعل المرسوم
نفسه من الفوج قطعة اساسية تضم الف رجل ، وقد كان في عهد لويس الثالث
عشر قطعة تكنيكية . وجعل عدد الافواج في الكردوس الواحد يراوح بين
اثنين واربعة .

وانشأ « له تيليه » فيلقاً مستقلاً للمدفعية اختار ملاك ضباطه بين ارباب

الاختصاص . واستغنى عن خدمات المهندسين الاجانب بانشائه فرقة الهندسة العسكرية . وابطل عادة كانت متفشية في العهود السابقة ، وهي شراء الرتب العسكرية بالمال او بخدمة خاصة يسديها الطامح للرتبة الى الرئيس ذي السلطة . ولكن اصلاح « له تيليه » لم ينجح في القضاء على اساليب الخداع والتزوير التي كان يعتمدها الضباط المكلفون التعبئة ، طمعاً منهم بالربح . فقد كان هؤلاء يأتون بجنود مستعارين من كردوس مجاور ، كلما احسوا قدوم المفتش . وكان الكردوس المعبأ حديثاً غير كامل . فاذا دعت الحاجة الى خروج الكردوس للقتال اتقى الضباط الفضيحة بتزوير شهادات ثبت وفاة المتغيين او مرضهم .

و « له تيليه » هو اول من فرض نظام الخدمة في الثكنة ، وحتم على الضباط الاقامة الجبرية فيها ، واخضع الاجازات للمناوبة ، بحيث لا يتغيب دفعة واحدة اكثر من نصف الضباط . وحدد اياماً معينة في الشهر للتدريب ، ووضع نظاماً خاصاً لحفلات العرض وللمناورات ، وحدد صلاحيات المحاكم العسكرية بعد ان وضعها تحت سلطة مفوضي الاعاشة الاقليميين المباشرة . وعني الوزير المصلح عناية خاصة باعاشة الجيش فاخضعها لنظام المناقصة والتزيم ، وضاعف عدد المخازن الدائمة ، وانشأ دائرة خاصة للوازم الجند ، ووجد مرتباتهم ، وعهد بدفعها شهرياً الى موظفين اطلق عليهم اسم « عمال الملك » . وفي عهده انشئت مستشفيات نقالة تحت اشراف مفوضي الاعاشة ، ومستشفيات ثابتة في المدن الحصينة . وقد كمل الوزير « لوفوا » ، وهو نجل « له تيليه » ، ما بدأه ابوه ، وكان لويس الرابع عشر قد بلغ سن الرشد السياسي ، فاشرف بنفسه على الاصلاح .

٣ - لويس الرابع عشر ولوفوا

لم يعين لويس الرابع عشر خلفاً للكردينال مازاران لانه قرر تصريف شؤون الدولة بنفسه . اما وزارة الحربية فقد عهد بها الى « لوفوا » وكان دون الثانية والعشرين من سنه .

حرص الملك منذ توليه السلطة الفعلية على اجتلاب محبة الجيش باحداث ما فات « مازاران » و « له تليه » احداثه مرورد اليه المؤرخون عمليين عظيمين هما انشاء « الانفاليد » لايواء الضباط والجنود الذين تشوهم الحرب ، او الذين تدهمهم الشيخوخة وهم فقراء ، او يقعدهم مرض عن خدمة العرش والبلاد . اما العمل الاخر فهو انشاء وسام القديس لويس لمكافحة الضباط الذين يلمعون بقطع النظر عن مركزهم الاجتماعي .

ولم يقل لويس الرابع عشر عن سلفه اهتماماً بتدريب القطعات وعرضها . ولا سيما قطعات « الحرس الفرنسي » والحرس الملكي الخاص . وكان يقضي اياماً متنقلاً بين الثكنات ليقف بنفسه على سير الامور ويقدم ملاحظاته الشفوية او الخطية الى وزير الحربية .

اما « لوفوا » فقد كان شعلة ذكاء وكتلة اعصاب . عاب عليه خصومه كبريائه وشدة وطأته على مرؤوسيه . ولكن المؤرخين ردوا كراهية البعض للوزير العظيم الى حقه عليه ، لانه كان ابعد الناس عن التحيز ، ينزل بالمسيء العقاب الصارم اياً كان مركزه وشفعاؤه .

اهتم « لوفوا » باكمال الاصلاح الذي بدأه ابوه « ميشيل له تليه » . وسرعان ما وضعت قسوته حداً للفوضى وروح التمرد ، فكانت العقوبات التأديبية التي تنزل بالمتخلفين عن اداء الواجب والمتقدمين ببيانات كاذبة والمتلاعبين باعاشة الجند تراوح بين الجلد بالسياط والتعذيب بالحديد المحمي . ولم يتردد الوزير في

طرد الضباط الذين اقدموا على اساءة الائتمان ، او انفقوا مرتبات الجند في غير الوجوه المعينة لها .

وحسن « لوفوا » نظام دفع الرواتب ، فصار الجندي يتقاضى مرتبه الشهري ثلاث دفعات . وشدد الرقابة على المسلمين شؤون الاعاشة . وفي عهده خطا مشروع توحيد اللباس خطوة واسعة نحو التنفيذ ، فجعل لباس الحرس الفرنسي ازرق اللون . اما سائر قطعات الجيش فقد اختار لها « لوفوا » اللون الاحمر .

ووضع « لوفوا » حداً نهائياً للبقية الباقية من امتيازات الاقطاعيين ، فلم يبق كرم المحتد شرطاً لبلوغ المراتب العالية في الجيش . وجعلت الاقدمية والاعمال الباهرة اساساً للترقية .

ساعد الوزير في مهمته قادة لامعون امثال « مارتينه » و « فوريل » و « دومتز » . وقد سقط ثلاثهم في ميادين الشرف بعد ان ادوا لوطنهم اجل الخدمات .

عهد « لوفوا » الى « مارتينه » في العام ١٦٦٨ بتفتيش جيش المشاة فدربه على الخطوة الموزونة وادخل تحسيناً على اساليب التدريب ، واقترح تجهيز البنادق بالحراب . واليه يعود مهر كل كردوس من الكراديس بسرية من حملة الرمانات . اما « فوريل » فقد كان امير لواء في الحياالة فعينه « لوفوا » مفتشاً عاماً لهذا السلاح ، فنظم قواعد المناورة وانشأ الكراديس الدائمة وعددها ستة وستون ، كما انشأ اربعة عشر كردوساً من الفرسان « الدراغون » .

وتولى « دومتز » قيادة قطعات المدفعية ثم عين مفتشاً عاماً لهذا السلاح ومستشاراً فنياً للوفوا . وقد ابطل « دومتز » عادة تلزيم انشاء البطاريات واستعمالها من قبل اشخاص لا خبرة لهم . ومهر فلق المدفعية الذي انشأه « له تيليه » برجال

من ارباب الاختصاص . فاعطى هذا التدبير نتائج مشجعة في مواقع الفلاندر ، ولم يمض طويل وقت حتى اضحى فيلق المدفعية جديراً باسمه .

حروب الثلث الاخير من القرن السابع عشر . - نعمت فرنسا بالسلم زهاء ثماني سنوات . وعندما نشبت حرب المواريث كان الفرنسيون مستعدين لها ، ولكنها لم تكن سوى حلقة في سلسلة حروب طاحنة .

لم يتخلل حرب المواريث اي ظاهرة عسكرية جديدة بالذكر . ولكنها قربت ، سياسياً ، بين هولندا وانكلترا . فكانت من هذه الناحية علة المشاكل التي تجبّط فيها فرنسا بعد عهدة « اكس لاشايل » (١٦٦٨) ، وهي العهدة التي عقدت دون ترو . وسرعان ما ادرك ملك فرنسا ان حدود بلاده ما تزال مكشوفة وان هولندا تشكل خطراً لا يجوز اغفال شأنه . وقبل ان يعلن الحرب على الجارة الشمالية الشرقية ، حالف شارل الثاني ملك انكلترا وملك اسوج وامراء المانيا . وفي سنة ١٦٧٢ عبر جيش فرنسي من مئة وعشرين الف رجل نهر الرين قرب مدينة « تولوس » منفذاً خطة ناجحة لـ « تورين » ، وكان الهولنديون يعتمدون على النهر في حماية بلادهم ، فاسقط في ايديهم وطلبوا الصلح . ونصح « تورين » للملك وللوفوا بمصالحة العدو ، ولكن « كونده » وعدهما بانتصارات سريعة وقليلة التكاليف . وطال الاخذ والرد فافاد الهولنديون من هذه الفترة فحطموا سدودهم ليغرقوا ارض الوطن بالفيضان . وفي الوقت نفسه عمد رئيسهم « غليوم دورانج » الى حث ملوك اوروبا على كبح جماح الجيش الفرنسي قبل فوات الاوان . فحالفه ملك اسبانيا وامير براندبورغ وامبراطور المانيا . ورغم هذا احتل الجيش الملكي « فرانش كونته » بينما كان « تورين » يناور لمنع الالمان من التدخل . وبعد موقعة « سنيف » التي انتصر فيها « كونده » انتصاراً غير حاسم ،

اتجهت الانظار مجدداً الى نهر الرين . فانقذت حملة تورين الشتوية بلاد الازراس وكان لمتاورات المارشال اثرها في بلوغ هذه النتيجة . ففي الخامس من كانون الاول ١٦٧٤ قام جيش « تورين » من « هاغنو » و « سافيرن » فعبد جبال الفوج المكسوة بالثلج وهبط منحدراتها الغربية متجهاً جنوباً ، بينما كانت جيوش الحلفاء منطوية على نفسها في السافوى العليا بانتظار الربيع .

وفي ٢٧ كانون الاول دخل الجيش الفرنسي الازراس من ثغرة بيفور وزحف الى « موهوز » . فاسقط بايدي الاعداء وارتبكت صفوفهم فهزهم تورين قبل ان يتخذوا التدابير اللازمة لمواجهة الحالة . وقد قتل القائد العظيم في موقعة « سالزباخ » بينما كان يراقب مواقع العدو استعداداً لتسديد الضربة القاضية اليه . واصيب معه الضابط « سان هيلير » بجرح ثخين ، فأكب نجل الضابط فوق ابيه يبلى وجهه بدموعه فقال له « سان هيلير » مشيراً الى جثة « تورين » : « بموتي لا تخسر فرنسا سوى واحد من ابنائها ولكنها خسرت بموت « تورين » قائداً فذاً وجندياً عظيماً . »

وقد تولى القيادة بعد « تورين » تلميذه « كريكي » فاعتمد تكتيك استاذه وواصل مطاردة الالمان داخل بلادهم . وفي هذه الاثناء كان جيش آخر بقيادة الملك يضرب الحصار حول المدن المحصنة فاحتل « بوشان » و « كوندي » و « آير » سنة ١٦٧٦ . وفي العام التالي احتل « فالانسين » و « كامبره » و « سار اومير » و « غان » . وفي البحر هزم الاميرال الفرنسي « دوكر » عمارة « رويتر » في « باليرمو » وتغلب « دسفري » على « ترومب » في مياه « الانتيل » . وفي العام ١٦٧٨ وقع الحلفاء على عهدة « نيميغ » فاحتفظ لويس الرابع عشر من فتوحاته ، بولاية « فرانش كونته » و « كوندي » و « فالانسين » و « بوشان » و « موبوج » و « كامبره »

و « سان اومير » و « كاسل » .

وفي العام ١٦٨١ احتل الفرنسيون « استراسبورغ » ، والفي الملك لويس الرابع عشر براءة « نانت » التي منح هنري الرابع البروتستنت بموجبها حرية العبادة ، فاثار التدييران نقمة الدول البروتستنتية وقلق جيران فرنسا ، فتألفت « عصبة او كسبورغ » العام ١٦٨٨ من المانيا واسبانيا والنمسا وانكلترا ودوقية سافوى . فحاض الجيش الفرنسي غمرات حرب دفاعية استمرت ثماني سنوات واستطاع ان يقف في وجه أوروبا وان يهزم الجيوش المتحالفة في البر : في « فلوروس » و « ستافارد » و « ستانكرك » و « مرساي » و « تروندين » . ولكن القائد تورفيل الذي كسب موقعة « بوفوزيه » البحرية اقلت زمام النصر من يده في موقعة « هوغ » . فكان هذا بدء الخطاط الاسطول الفرنسي . وقد تميز في هذه الحرب الدفاعية قائدان كبيران هما المارشال « دولو كسبورغ » والمارشال « دو كاتينا » . كان « دولو كسبورغ » صديقاً حميماً للوزير لوفوا ، قضى بضع سنوات في البلاط لم يأت خلالها عملاً مثمراً . وقد تجلّى نشاطه ومواهبه في ميادين القتال . ولقبه معاصروه بـ « كونداه الثاني » لانه كان سريع الخاطر والبدية ، مقداماً كسلفه القائد العظيم . ومن اشهر المواقع التي ربحها « فلوروس » و « ستانكرك » و « تروندين » . وفي هذه الموقعة الاخيرة تجلت مواهب « دولو كسبورغ » التكتيكية . فقد حشد مقابل ميمنة العدو اثنين وثلاثين فوجاً يدعمها خمسون مدفعاً . فمهدت المدفعية لهجوم المشاة ، ولكن العدو صدم ثلاث مرات متوالية ، وكانت المدفعية في كل مرة تفتح نيرانها تمهيداً للهجوم ، وفي المرة الرابعة اخترق المشاة صفوف الاعداء وكسب « دولو كسبورغ » المعركة .

اما المارشال « دو كاتينا » فقد هزم الحلفاء في موقعتي « ستافارد »

و «مرساي» . وكان متواضعاً يؤثر العمل الصامت ولا يقدم الا بعد درس طويل . وكان يقول للذين لم يعجبهم تباطؤه : « افضل ان ابلغ الهدف في شهر باقل كلفة ممكنة على بلوغه في يوم بثمان باهظ . »

وقد وضعت عهدة « ريزويك » (١٦٩٧) حداً للحرب فخرجت فرنسا منها سليمة واحتفظت بـ « استراسبورغ » وبالحدود الشمالية .

الجيوش . — كانت قوة الجيوش تقاس بعدد المحاربين . اما العتاد فكان يأتي في الدرجة الثانية . ففي العام ١٦٦٨ لاحظ الوزير « لوفوا » بسرور ان فرنسا عبات سبعين ألف راجل وخمسة وثلاثين ألف فارس . وقد ارتفع هذا الرقم تدريجاً مذ ذاك حتى بلغ قبل صلح « نيسينغ » ٤٠٠ ألف رجل . وكان « لوفوا » يسرح خمسين بالمئة من المجندين بعد كل صلح ليخفف عن كاهل الخزينة .

وبلغ عدد المحاربين الفرنسيين في العام ١٦٩١ نصف مليون رجل ، منهم ثلاثئة وتسعون ألف راجل . وبعد صلح « ريزويك » سرح ثلاثهم . كانت القاعدة المتبعة في زيادة عدد المجندين ان يزداد عدد الكراديس او ان يزداد عدد الرجال الذين تتألف منهم . وقد تمشى « لوفوا » على القاعدة الثانية ، وهكذا ظل عدد الكراديس على حاله ، ولكن زيد عدد السرايا في كل منها . وبعد موت « لوفوا » اعتمد لويس الرابع عشر القاعدة الاولى فأنشأ بين ١٦٨٦ و ١٦٩٦ مئة وستين كردوساً جديداً منها اربعون اجنياً . كان عدد المتطوعين يتناقص بعد كل حملة ، فاضطر « لوفوا » لتجنيد السجناء بعد الغاء براءة « فانت » ، ليسد النقص الذي احدثته هجرة البروتستنت من البلاد . وفي العام ١٦٨٨ انشأ الميليشيا الاقليمية . كان رجال هذه الميليشيا يختارون بالقرعة لمدة سنتين ، ويشرف على تدريبهم محاربون قدماء .

وفي اربعة اشهر تجمع لدى « لوفوا » تسعة وعشرون كرددوساً تعهدت الاقاليم اعاشتها وتجهيزها ، ولم تكلف الدولة فلساً واحداً .

السلاح والتكتيك . - تأثر تكتيك وحدات المشاة في الجيش الفرنسي بما حمله اليها « برناردوساكس ويمار » من تعاليم غوستاف ادولف . فقد اعتمد الملك الاسوجي اساليب جريئة في المناورة ، واولى قوة النيران واستمرارها عناية خاصة . فنشر مشاته صفوفاً ستة ، ثلاثة منها في الخط الامامي وتليها الثلاثة الباقية . فيطلق الخط الاول النار على العدو ثم يشغل الخط الآخر الفترة التي يستغرقها تلقيم البنادق بطلقات متقطعة ، وهكذا تظل النار متواصلة الى حد ما . وقبل هذا كانت الصفوف تفرغ بنادقها دفعة واحدة ثم تتصرف الى تلقيمها ، فينتهز العدو فترة الهدوء لاتخاذ الاوضاع الملائمة او لشن حملات خاطفة على الاجنحة .

تحمس « تورين » للتكتيك الجديد ولكنه لم يطبقه على نطاق واسع ، لان افواج المشاة ظلت حتى اواخر القرن السابع عشر تخرج للحرب وسلاحها الاساسي الرمح . وكان للسرية الواحدة عدد محدد من البنادق يراوح بين اربع وست . ولم يستبدل المشاة الفرنسيون البندقية من الرمح الا العام ١٦٩٩ ، فجهزوا ببنادق تلقم بفسك محشوة باروداً وحلت الحربة المثبتة فيها محل الرمح . وتخلي المشاة نهائياً عن العدة الدفاعية كالزرد والدرع والطاسة . ولكنهم لم يألفوا التكتيك الجديد الذي فرضه السلاح الناري الا بصعوبة . فقد اعتادوا الانقضاض على العدو والاتحام واياهم ليعملوا فيه اسلحتهم القاطعة ، فطبيعي الا يقلعوا بسهولة عن عادة متأصلة ليلزموا مراكزهم ويطلقوا النار من مسافات معينة ، ولا يستعملوا حرايمهم الا اذا ولى العدو الادبار ، او بات عاجزاً عن اطلاق النار باحكام .

ولم تتبع الخيالة الفرنسية تكتيكاً معيناً بعد موقعة « روكروا » ، فكانت تارة تعتمد الاسلوب الاسوجي الذي اعتمده المشاة ، وطوراً تنقض على العدو بالسلاح الابيض ، وهو الاسلوب الذي اعتمده « كونداه » في معظم المواقع التي كسبها .

المدفعية . - عني « فوبان » ، اعظم مهندس عسكري انجبهته فرنسا ، عناية خاصة بتنظيم المدفعية ، فانشأ بطاريات ثقيلة لحرب الحصار ، وضاعف عدد مدافع الهاون ومدافع الميدان ، وجيز كل كردوس من كراديس المشاة ببطارية تضم عدداً من القطع يراوح بين اربع وتسع . وكان مدى مدافع الميدان يراوح بين ٤٥٠ و ٦٠٠ متر . وكان المدفع عيار ٢٤ يطلق ١٥٠ طلقة في اليوم . قبل المارشال « تورين » كانت البطاريات تنصب امام الجناحين فصارت في عهده تتخلل الصفوف . ونحا المارشال « دولوكسبورغ » هذا النحو دون ان يتخلى عن قيادة المدفعية . وهو اول قائد فرنسي ادرك اهمية هذا السلاح اذا استخدم على نطاق واسع .

وعني « فوبان » ، في جملة ما عني به ، بوضع قواعد معينة للدفاع عن المدن الحصينة ومهاجمتها . علي ان شهرته لم تقم على النظريات فحسب ، بل قامت على نجاحه خلال النصف الاخير للقرن السابع عشر ، في تنظيم الدفاع عن المدن التي اشرف هو على تحصينها او حصنها سواه ، وفي الاستيلاء على قلاع العدو واختراق اجهزته الدفاعية المتأسكة .

وفوبان هو اول من قال بتغطية المدن المحصنة باجهزة خارجية عميقة ليكون الدفاع طويل النفس ، واول من اعتمد في حماية المدن على الحصون المستقلة ، والخنادق المحفورة خارج الاسوار . وكان يولي النواتيء في المنشآت الدفاعية عناية خاصة ، لانها نقاط الضعف في الجهاز ، وعليها يصب المهاجم معظم

مجهوده . وكان يعتمد في مهاجمة المدن الحصينة تكتيكاً ما يزال له انصاره الى يومنا هذا : يحشد امام المدف قطعات مختارة تدعمها مدفعية قوية . وقبل الشروع في العمليات تقوم دوريات الاستكشاف بسر غور المكان الحصين لتبين نقطة الضعف . وفي هذه الاثناء ينصرف الجيش المحاصر الى حفر الخنادق وانشاء جهاز يمكنه الاعتصام فيه اذا الجأت تطورات القتال الى التزام موقف دفاعي . اما الهجوم فيشرع فيه نهائياً لتفادياً للاخطاء، ولعواقب الفوضى . وبفضل هذا التكتيك قاد « فوبان » بنجاح حصار خمسين مدينة منها عشرون حوصرت تحت اشراف الملك وولي العهد .

الاستراتيجية . - اجتاز فن « الاستراتيجية » خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر مرحلة انتقال بطيء من حرب تدور رحاها بين جيوش صغيرة الى حرب تتلاقى في ميادينها جيوش جرارة . ذلك انه بالرغم من تزايد الجيوش ظلت مصادرة الحضم ونهك قواه بحرب الحركات والمداورات الطويلة النفس ، شغل الاستراتيجيين الشاغل ولم يعتمدوا المعارك الفاصلة لاحتراز النصر الا في حالات نادرة .

وقد تعارضت نظريتان في ادارة العمليات : نظرية تقول بافضلية حرب الحصار والخنادق (الجهة الثابتة) ، واخرى تقول بحرب الميدان . والفرنسيون هم اول من بشر بها في عهد هنري الرابع ، واعتنقها « تورين » و « كريكى » و « فيلار » . « عندما تؤمن لنفسك السيطرة في الميدان يمكنك ان تحول القرى الى حصون ترتكز عليها في مهاجمة المدن المحصنة . » (من رسالة بعث بها « تورين » الى « كونده ») .

اما لويس الرابع عشر الذي كان شديد الحرص على قيادة جيوشه بنفسه ، فقد تبني النظرية الاولى ، وجاراه وزيره « لوفوا » . وكانت حجتها ان حرب

الحصار مأمونة النتائج مهما يطل امد المقاومة . اما حرب الحركات فالفوز فيها رهن مشيئة الحظ . وقد قاد الملك جيوشه بنفسه في معارك هولندا . وبعد سنة ١٦٩٣ صار يرسم الخطط ويبعث بها الى القادة . فكان المبرزون منهم امثال « تورين » و « كونده » و « كاتينا » يطبقون خططهم الخاصة ، ثم يعززون نجاحها الى صاحب الجلالة . اما القادة غير اللامعين فقد كانوا يتقيدون بالاوامر الملكية حتى اذا فوجئوا ابان المعركة بعنصر جديد ، اسقط في ايديهم ، وكتبوا الى الملك يلتمسون تعليمات اضافية . وقد ترتب على تدخل لويس الرابع عشر بادارة العمليات على النحو المتقدم ، ضياع فرص ثمينة لاحراز نصر حاسم ، وتمديد اجل النزاع لمصلحة العدو .

على ان تثبت لويس الرابع عشر بقيادة العمليات بحيث تكون مهمة القادة مقصورة على التنفيذ ، لم يمنع « فوبان » من فرض نظرياته وتطبيق خطته في حرب الحصار . وقد اخذ الملك دون تردد بآراء المهندس العظيم ، واطلق يده في تغطية شمال البلاد وشرقها بتحصينات قوية اتاحت للجيش الفرنسي ان ينتشر جنوباً وغرباً ، وهي مطمئنة الى قوة الجدارين اللذين اقامهما « فوبان » حاجزين بين فرنسا وجارتها هولندا والمانيا .

المسيكرات المحصنة . — رد المؤرخون نجاح المراكز المحصنة في صد المهاجمين خلال القرن السابع عشر الى الظروف الصعبة التي كانت تلابس العمليات الهجومية في ذلك العهد . فقد كانت الطرق نادرة الوجود ، ووسائل النقل محدودة . وكانت القلاع والحصون تسد المنافذ دون القوافل والجحافل ، فتقف هذه امامها مترددة بين الاقدام والاحجام . فان هي اقدمت تتأخر الحملة عن بلوغ الهدف الرئيسي ، لان القضاء على مقاومة الحامية عملية شاقة تستغرق وقتاً طويلاً وجهوداً جبارة ، وان هي واصلت تقدمها بحركة

لف ناجحة تكون قد تركت وراءها عدواً يتهدد مؤخرتها ويعرقل تمويها .
ولم تكن جيوش القرن السابع عشر كبيرة لدرجة يمكن معها تخصيص
قوات معينة لتجديد هامية القلعة القائمة في الطريق ، ولمنعها من ايداء المؤخرة
وقوافل النقل ، لهذا لم يكن بد من محاصرتها . فاذا امتد الحصار الى فصل
الشتاء اضطر المهاجمون لوقف كل نشاط بانتظار الصحو ، واتهم المدافعون
الفرصة ليسدوا الثغرات المفتوحة ، فيعود الحصار الى النقطة التي بدأ منها .
كان « فوبان » يقول ان الحصون والقلاع هي الوسيلة الكفيلة بمد اجل الحرب ،
وقد عاب النقاد العسكريون على هذا المهندس تسببه في زوال اهمية المراكز
المحصنة بادخاله على الهجوم تحسيناً لم يدخل مثله على الدفاع . بيد ان المؤرخين
الذين انصفوا « فوبان » ذكروا ان الرجل اقترح سد هذا النقص بتدابير
معينة ، فاهمل اقتراحه جزئياً في حينه ، ثم اتخذ اساساً للتحسين الذي ادخل
على الاجهزة الدفاعية الثابتة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .
ويقول الذين دافعوا عن « فوبان » ان التحصينات التي لم يعن بتحسينها
تبعاً لتحسين التكتيك الهجومى استطاعت خلال حرب « المواريث » ان تصد
سلسلة هجمات عنيفة ، وان تكبح جماح العدو وتحول بينه وبين الوصول الى
باريس . واذا كانت المراكز المحصنة قد اثبتت عجزها ابان الحروب التي
نشبت في اواخر القرن السابع عشر وخلال القرن الثامن عشر ، فالمسؤول عن
هذا العجز هم قادة الحاميات لانهم لم يحسنوا ادارة العمليات الدفاعية .
ويقول مؤرخو القرن السابع عشر ان معسكرات المهندس الفرنسي كانت
جزءاً متمماً للحصن الكبير ، تحميها مدفعية ويغطيها خط متماسك من الخنادق ،
يحتله جيش من عشرة آلاف رجل ليحول دون تسلل العدو بين
« المعسكرات المحصنة » .

حمى الفرنسيون مدينة دنكرك وراء جهاز من الطراز المتقدم عندما هوجمت في العام ١٧٠٦ ، فاختلق العدو في اختراق الخطوط الدفاعية ولم يستطع التسلل بينها نظراً لكثافتها وعمقها . و « فوبان » هو اول من ارتأى انشاء المعسكرات المحصنة . ففي مذكراته عن حماية باريس يقترح انشاء سور خارجي علاوة على السور الداخلي ، يناور خلفه جيش متحرك قوامه ثلاثون الف رجل من جنود الخط الاول ، وعشرة آلاف يعبأون في باريس نفسها . فاذا قيص للعدو اختراق السور الخارجي ارتد الجيش الفرنسي الى ما وراء السور الداخلي وانضمت اليه الحامية المؤلفة من البورجوازيين . وكان « فوبان » يعتقد ان العدو سيستنفد مجهوده الاكبر في محاولته دك الجهاز الخارجي ، حتى اذا تم له ما اراد وجد نفسه امام جهاز آخر لا يقل عن سابقه مناعة ، فاما ان يتهب الموقف ويرتد او ان يهاجم ويمني بالاختراق . وقد عزا نابليون الى المهندس « فوبان » فكرة انشاء الغطاء المحصن على الحدود فجاء في مذكراته ما يلي :

« حول « فوبان » مناطق معينة الى معسكرات محصنة تغطيها الانهر والفيضانات والحصون والغابات . ولكنه لم يقل ان الحصون وحدها تستطيع حماية الحدود ، بل رمى من هذا الجهاز الى تأمين الحماية اللازمة لجيش ضعيف ضد جيش قوي ، فوضع تحت تصرف الاول ميداناً للعمل يتيح له الصمود وعرقلة تقدم العدو وشن كرات ناجحة ، كما يتيح له كسب الوقت بانتظار وصول المدد . »

٤ - قضية العرش الاسباني

بعد « ريزويك » امر لويس الرابع عشر بالغاء كراديس الميليشيا وبخفض عدد الافواج والسرايا . ولكن موت الملك شارل الثاني الاسباني سنة ١٧٠٠

طرح مسألة الوراثة على بساط البحث ، فلم يسع الملك الفرنسي الا العمل على تقوية الجيش ليتسنى له ان يدعم حق حفيده بالعرش الاسباني بقوى مسلحة قادرة على مواجهة جيش آل « هابسبورغ » الذين لم يرقهم تبرع امير فرنسي على عرش اسبانيا ، فقرروا احباط المشروع باي وسيلة .

كان الجيش في العام ١٧٠٠ يضم تسعين كوردوساً فارتفع الرقم في عام واحد الى مئة وعشرين . وفي منتصف العام ١٧٠٢ صرح الملك امام سفير انكلترا وهولندا بان فرنسا على استعداد لمواجهة الطوارئ ، فقد عبات ٢٢٢ الف جندي منهم خمسة وثلاثون الف فارس .

وعند نشوب الحرب واجهت فرنسا اعداءها بمئة واربعة واربعين كوردوساً . وانتهى النزاع ولها جيش قوامه ٣٥٠ كوردوساً . الا ان نحو هذا الجيش خلال سني الحرب صادف عقبات كأداء اهمها عجز الخزانة عن تأمين مرتبات الجند واثمان الاعتدة ، مما حمل كثيرين على التهرب من حمل السلاح وتقديم البدل نقداً او عيناً ، اي ان يقدم الخاضع للخدمة مبلغاً من المال او شخصاً يحل محله . فالتخرط في الجيش رجال لا يصلحون للخدمة وقتيات سلخوا عن مقاعد الدرس ليسد بهم النقص في الصفوف ، ولكنهم ما عتموا ان فروا من الجيش ، فقد زجوا في المعركة قبل ان يعدوا لعادة النار الاعداد اللازم .

اما اعداء فرنسا فقد البوا ضدها جيوشاً جرارة . فحشدت انكلترا اساطيلها وذهبها وخمسين الف محارب . وعبأ امبراطور النمسا مئة الف رجل ، وهولندا قوى معادلة ، وحشد امراء المانيا ستين الف محارب . وتولى قيادة الجيوش المتحالفة رجلان موهوبان هما دوق « مارلبور » والامير « اوجين » . قرر لويس الرابع عشر الصمود امام العدو في « الفلاندر » مرتكزاً على

الحصون التي انشأها « فوبان » . وكان يرجو ان تتيح له مخالفته عاهل بافاريا ان يضرب في وسط المانيا ضربة تقوض الحلف الموجه ضده ، ولكن خطته هذه كانت تتطلب تمركز الجهود الفرنسي في قطاع واحد ، وكيف يتم هذا التمركز والحرب في كل مكان : في « الفلاندر » ، على « الرين » و « الدانوب » ، وفي « التيرول » و ايطاليا ؟

وبعد نضال شاق استمر اربع سنوات احرز خلالها « فاندوم » في ايطاليا و « برويك » في اسبانيا و « فيلار » في المانيا انتصارات باهرة ، ختم القائد الانكليزي « مارلبرو » المرحلة الاولى باحراز انتصار كبير في « هوستيد » (١٧٠٤) ، فخسر الفرنسيون في الموقعة ثلاثين الف رجل كما خسروا حليفهم عاهل بافاريا . وتوالى النكبات منذ ذلك . ففي سنة ١٧٠٦ تراجع الجيش الفرنسي في « الفلاندر » واخرجت قوات « توران » جيش « فاندوم » من ايطاليا ، وفي السنة التالية هزم دوق « مارلبرو » جيش دوق « بورغونيا » في « اودرناد » واحتل مدينة « ليل » ، وهكذا حطم العدو الجهاز الدفاعي واندفع في داخل فرنسا فسقطت مدينة « غان » و « بروج » وساد الذعر والفوضى البلاد . ولكن نجاح « برويك » في اسبانيا و « فيلار » في « السافوى » ووصول جيش شارل الثاني عشر الاسوجي الى « الساكس » انعش الآمال بعض الشيء . غير ان الانتفاضات الفرنسية كانت قصيرة النفس ، وكان التناسق معدوماً فيما بينها ، فحاول لويس الرابع عشر انقاذ الموقف بصلح شريف . الا ان الحلفاء تقدموا بشروط قاسية ، فتوجه الملك الى شعبه برسالة يستنهض فيها الهمم ويضرب على وتر الوطنية الحساس ، فهب الفرنسيون هبة الرجل الواحد يلبون نداء ملكهم رغم الضيق الذي كانت تعانيه البلاد .

وادرك الملك ان توحيد القيادة شرط اساسي لنجاح الجهود الوطني بشكله

الجديد ، فأمر على جيوشه رجالاً من تلامذة « تورين » هو المارشال « فيلار » . كان هذا القائد محبوباً في الجيش واستطاع بنفوذه الشخصي وبالمعاملة الحسنة التي كان يخصص بها جنوده ان يواجه العدو في « السافوى » وعلى نهر الرين بجيش متراس الصفوف سليم المعنويات ، بينما كان الفراريون في جيش « فاندوم » (جيش الحملة الايطالية) يملأون السهل والجبل لان قائدهم لم يعرف كيف يجب اليهم العمل تحت امرته .

عهد الملك الى « فيلار » في العام ١٧٠٩ بقيادة جيش « الفلاندر » الذي يغطي باريس . وكان هذا الجيش في حالة تفسخ تبعث على القنوط . فنفض فيه « فيلار » من روحه ، وسرعان ما انتعشت المعنويات والامال . وقبل ان يشرع القائد الجديد في سبر غور العدو ، امن لقواته المؤن وكانت في ميسس الحاجة اليها ، ودرها تدريباً كافياً على الهجوم .

عرف « فيلار » ان « مارلبرو » والامير « اوجين » يحشدان جيشهما قرب مدينة « مالبلاكه » فمضى اليهما . وقبل ان يشرع في الهجوم انتهى اليه كتاب من الملك ينهيه فيه عن خوض غمار معركة كبيرة ، وينصح له بالتزام موقف دفاعي « امام عدو واسع الحيلة » . وقد تقيد المارشال باوامر مولاه وترك مبادرة العمليات للعدو . وظل يصاوله بضع ساعات مستدرجاً اياه الى المواقع التي اختارها لتكون ساحة النضال الحاسم والمعركة الفاصلة ، ولكنه اصيب بجرح ثخين قبل ان يتحقق هذا الغرض ، فحل محله في القيادة المارشال « دوبوفلر » ، وكان قائداً مجرباً ولكنه لا يحسن انتهاز الفرص واستغلال مصاعب العدو .

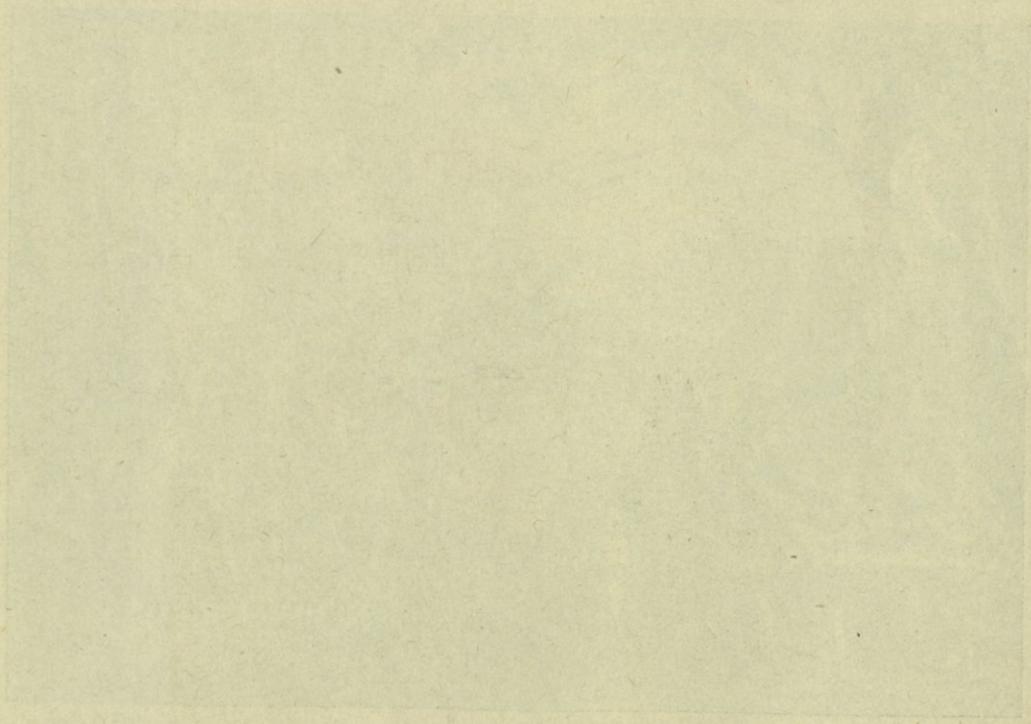
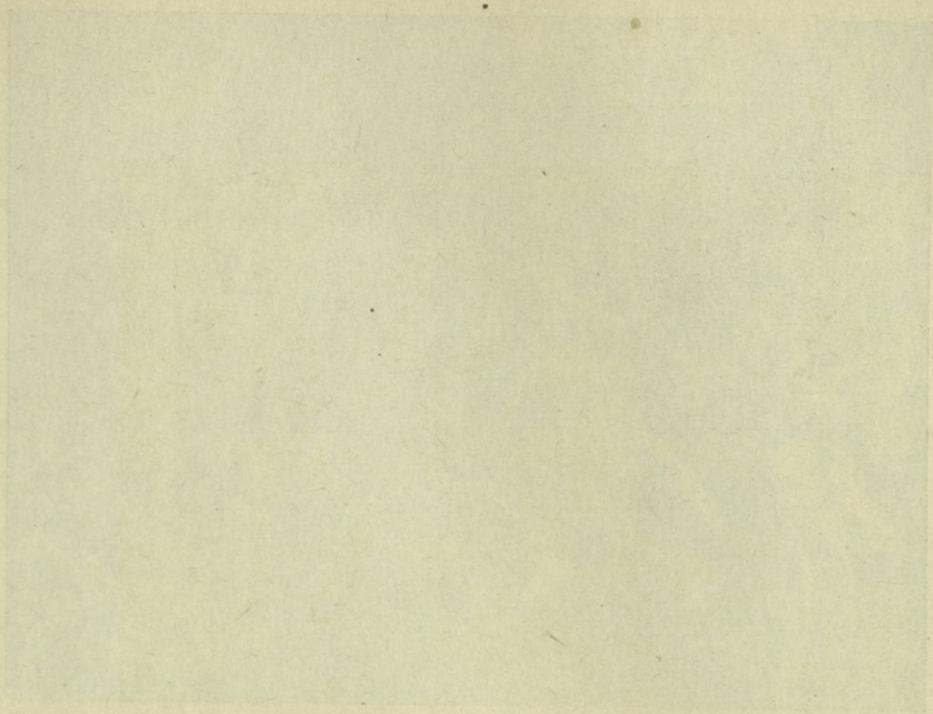
وفي المساء انسحب الفرنسيون من الساحة بنظام تام تاركين وراءهم احد عشر الف قتيل وخمسة اسير ، وخسر الحلفاء تسعة عشر الفاً بينهم اثنا عشر



هنري الرابع في معركة « ايفري » .



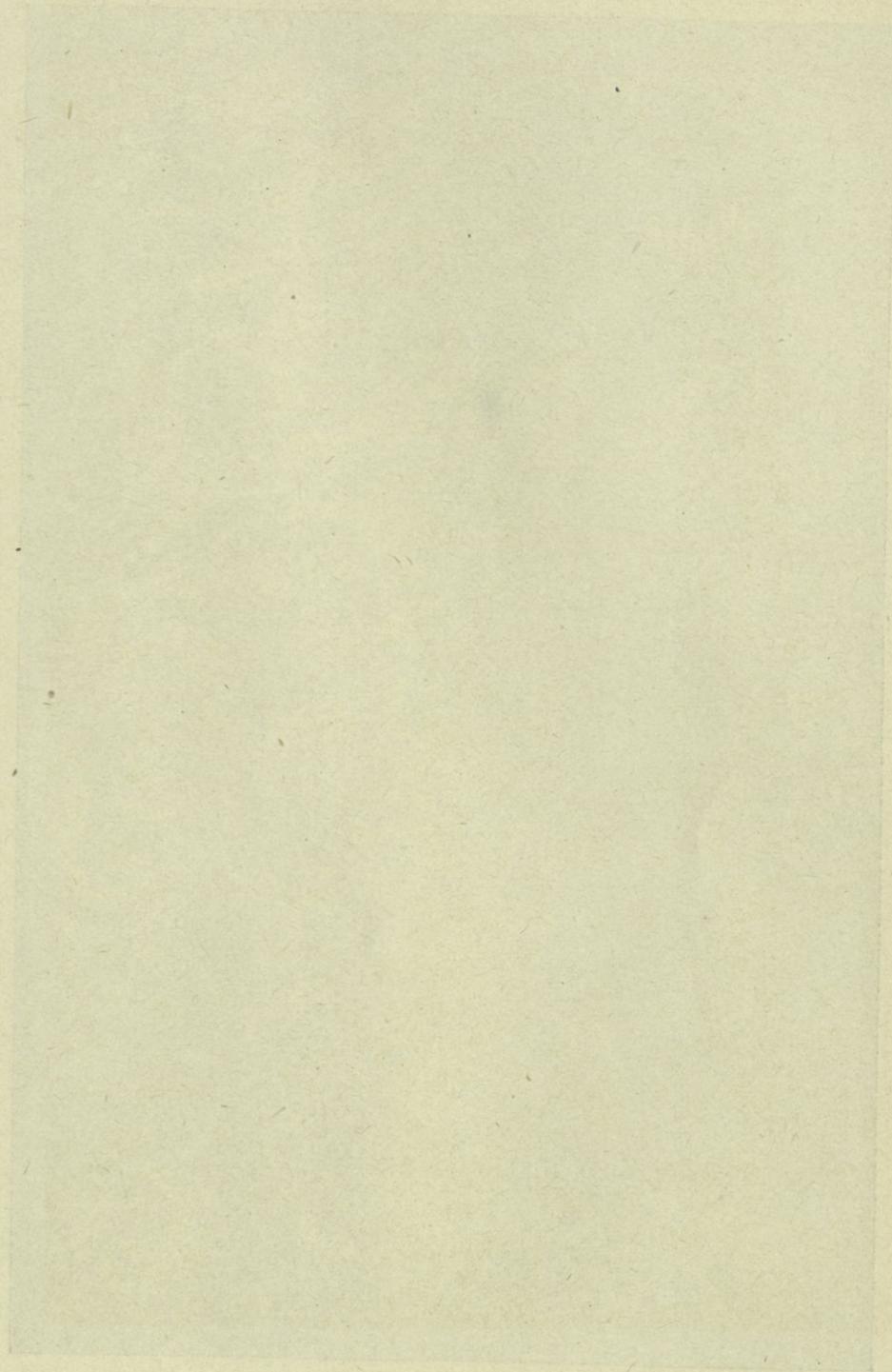
التطوع : (الى اليمين) المتطوعون يوقعون على عقود تطوعهم ، (الى الشمال) المتطوعون الجدد يقبضون سلفية .



Handwritten text at the bottom of the page, appearing to be in Arabic script. The text is very faint and difficult to read, but seems to consist of several lines of cursive writing.

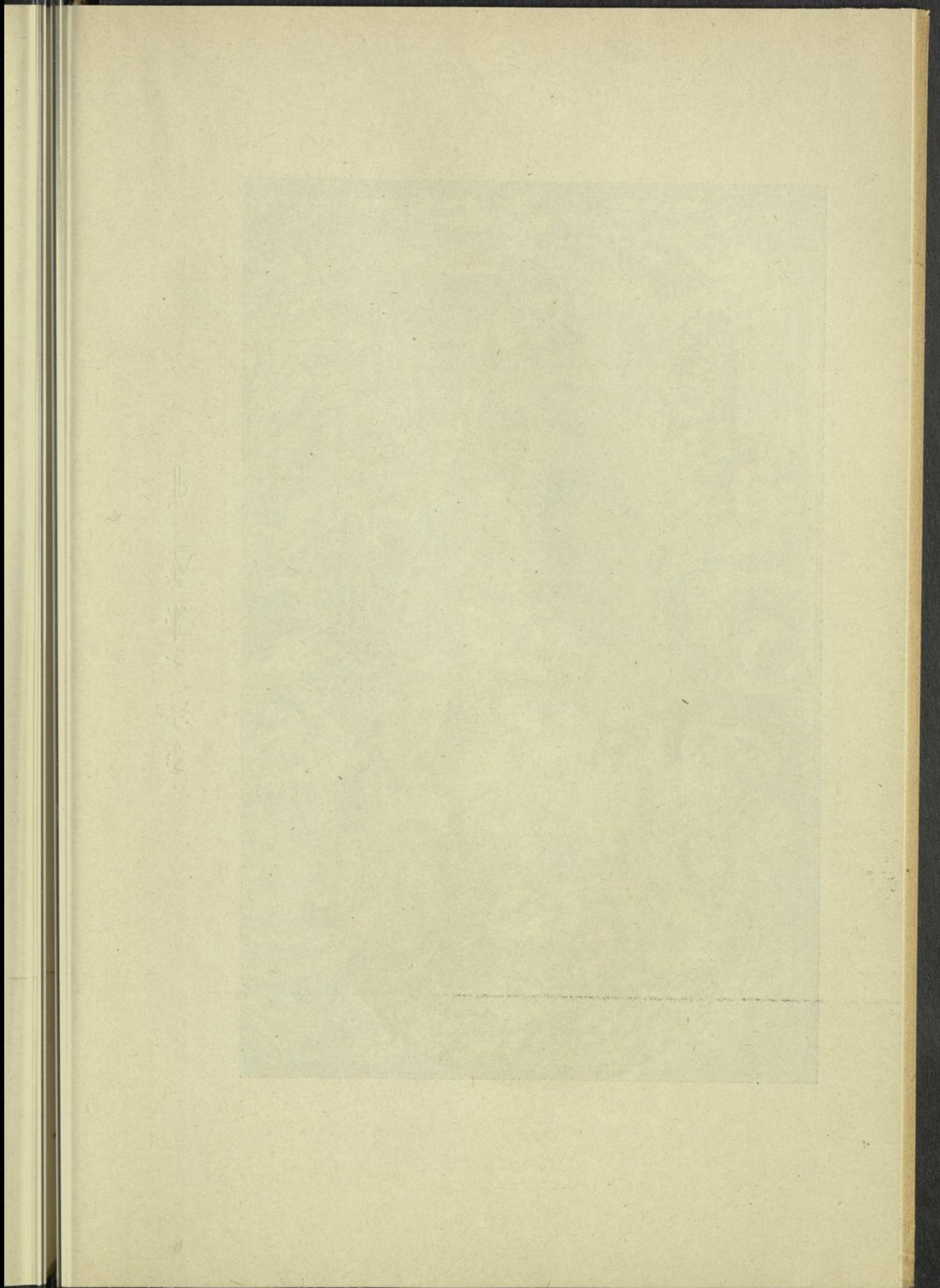


معركة « روكروا » (١٩ ايار ١٦٤٣)





کونده الکیر یط به ارکان حربه .

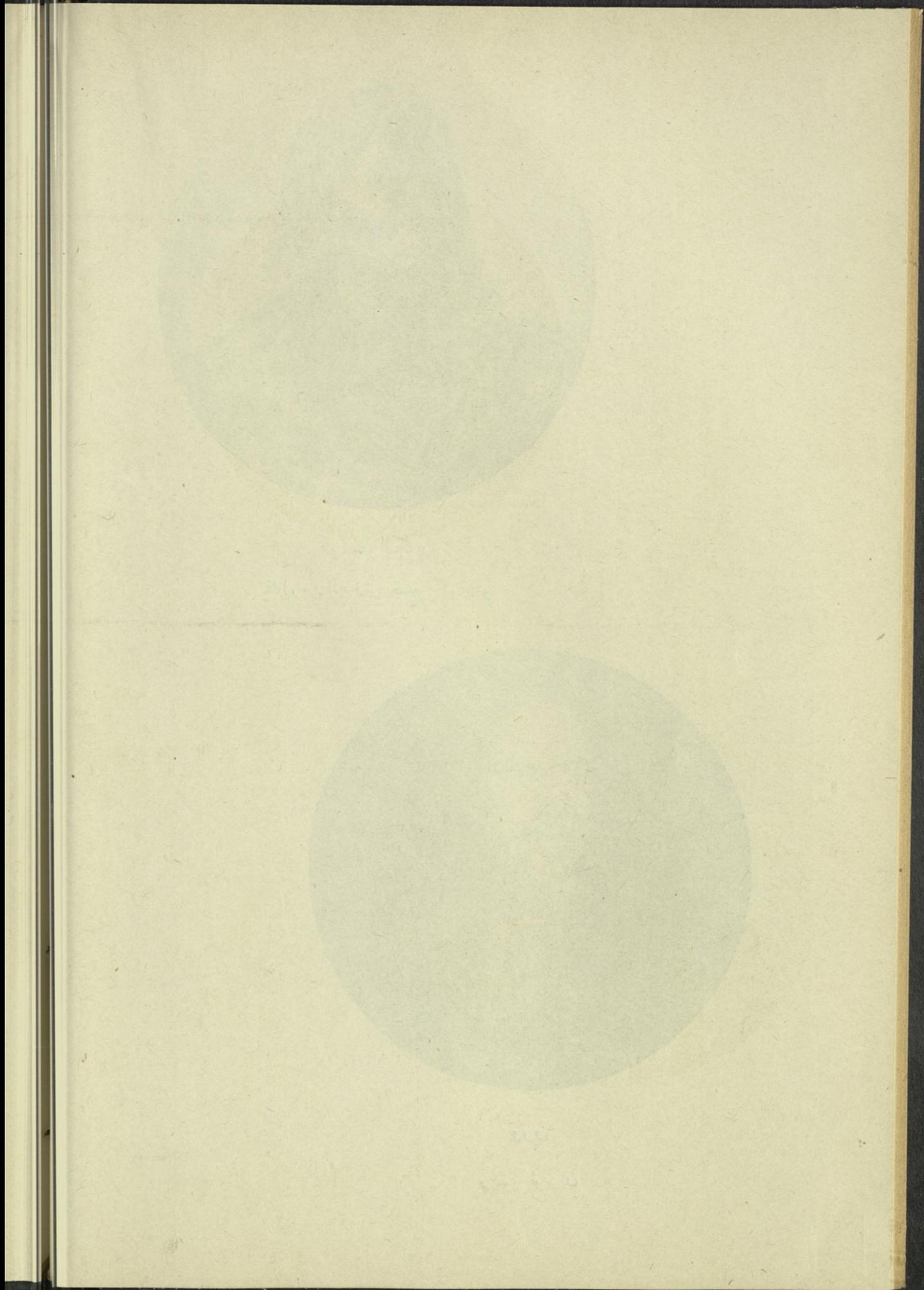




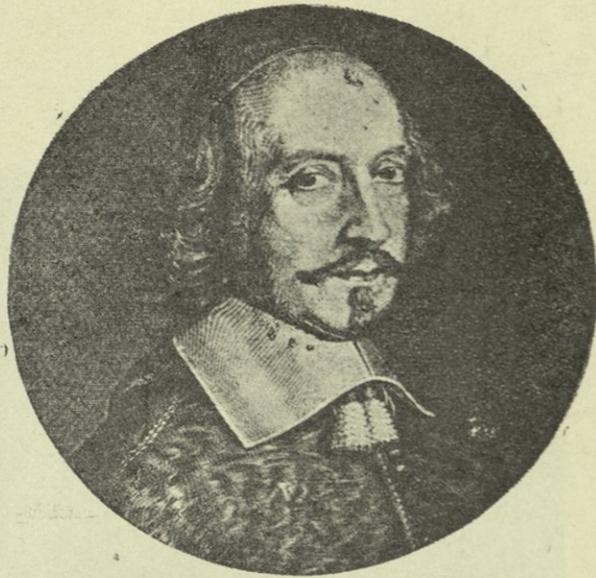
كونده الكبير
تمثال من البرونز صنع كوازفو



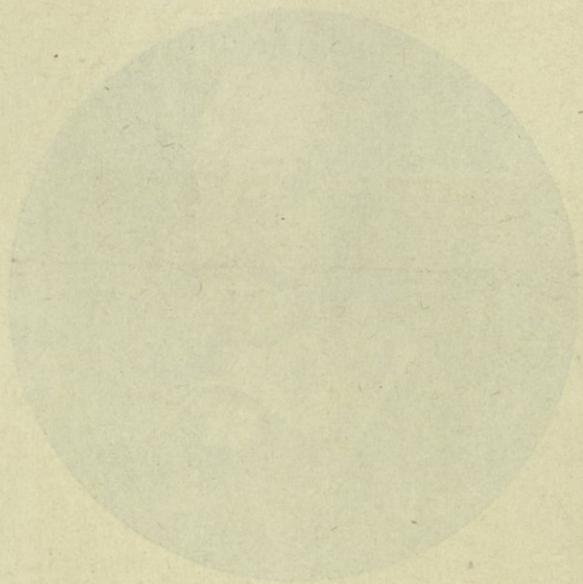
تورين
بريشة لوبران



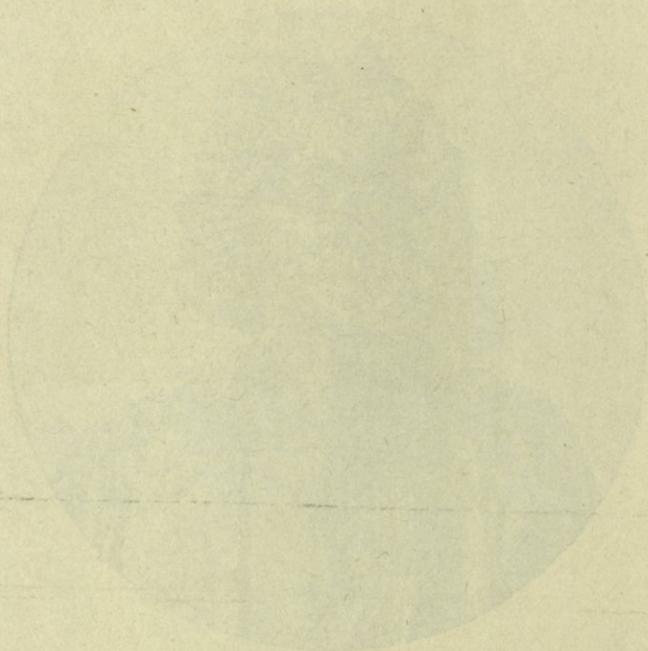
الكردينال مازارن



ميشال لوتيليه



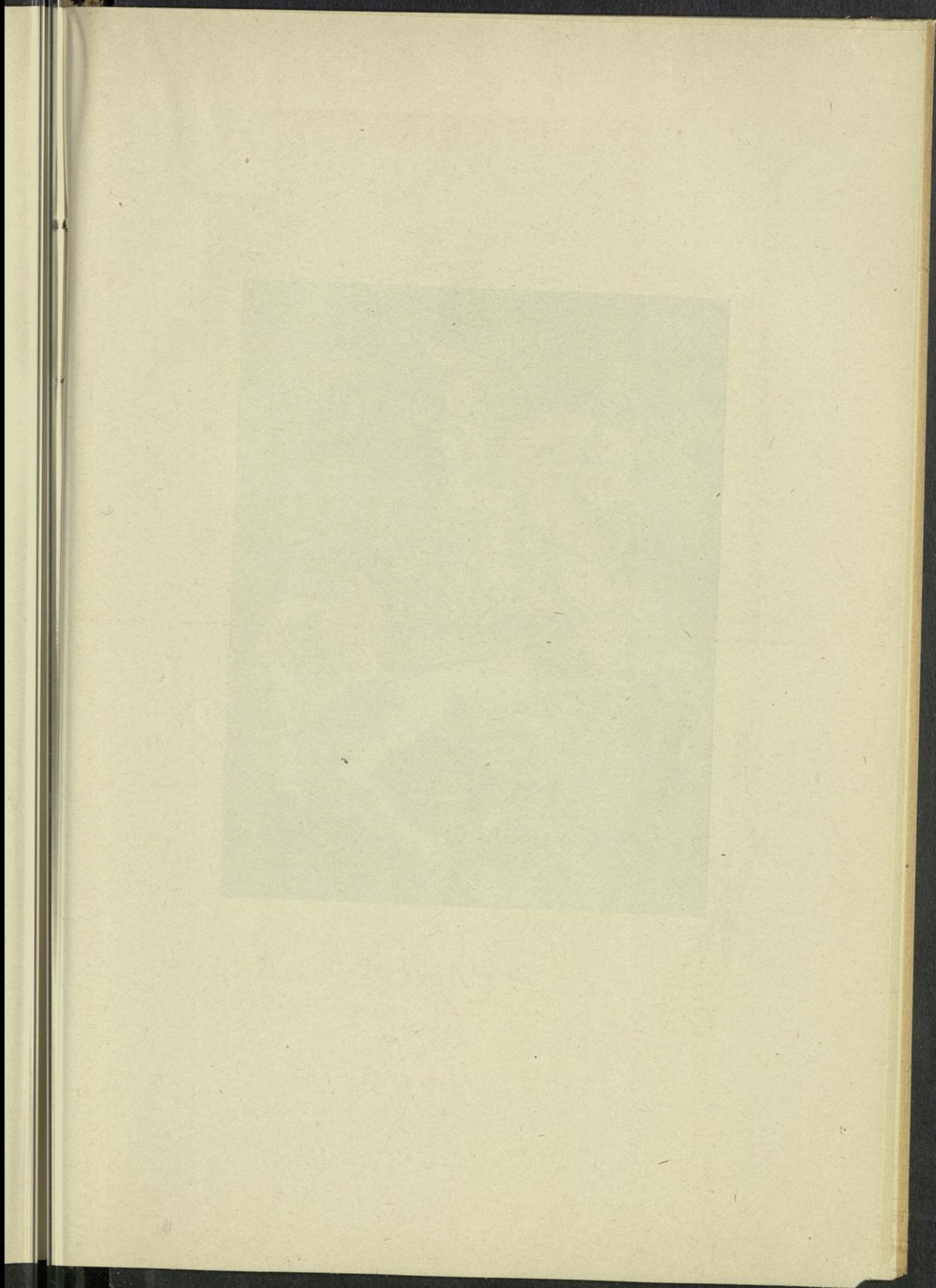
دائرة المعارف



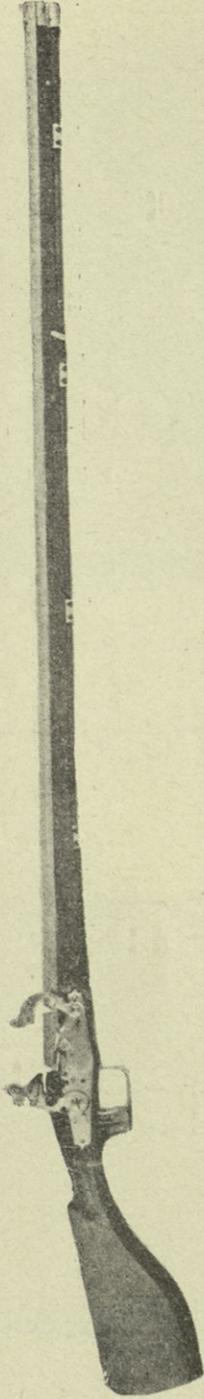
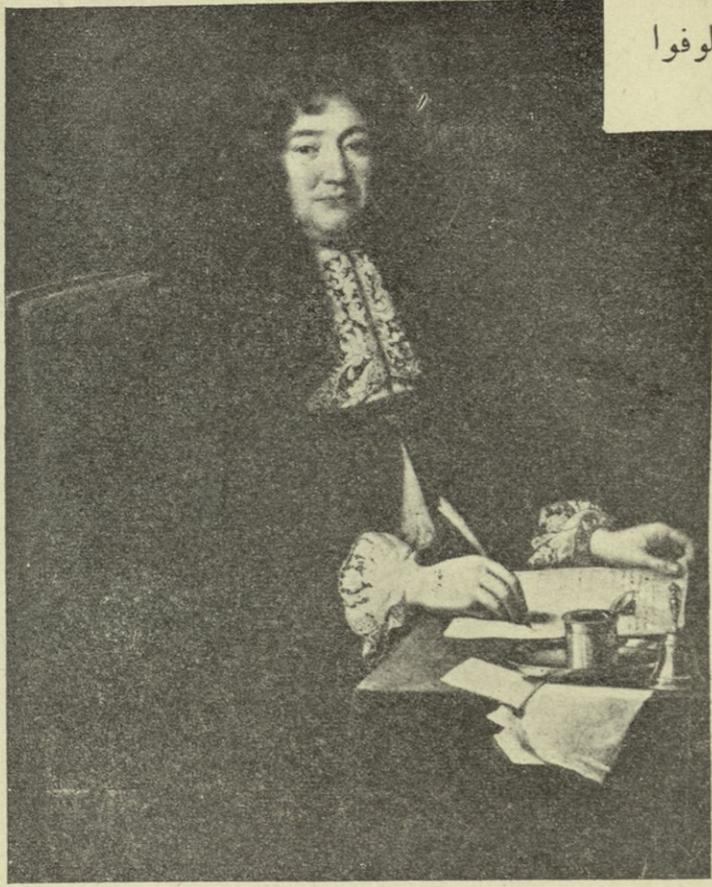
دائرة المعارف



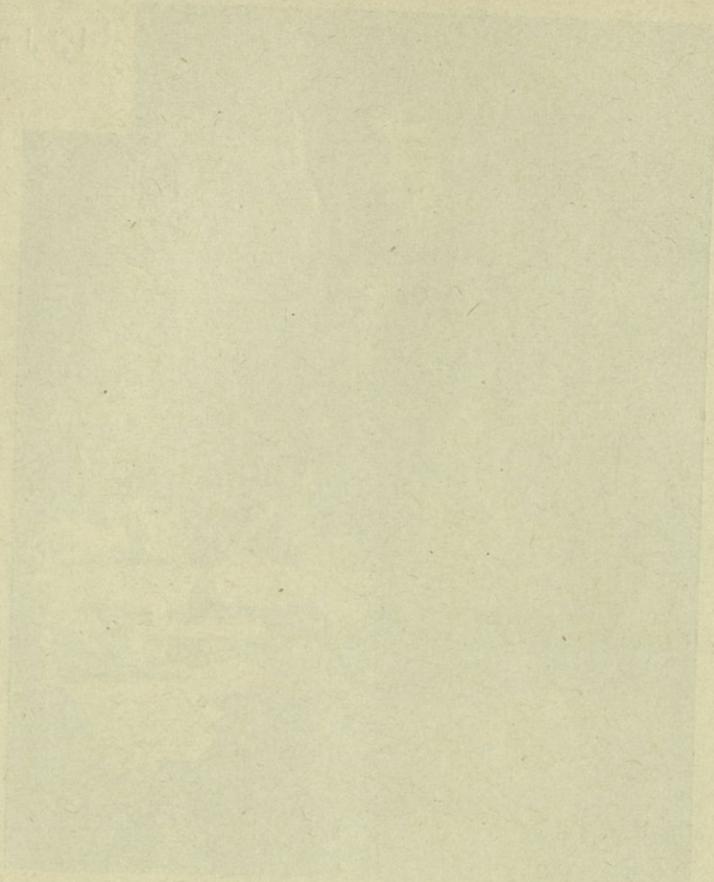
لويس الرابع عشر



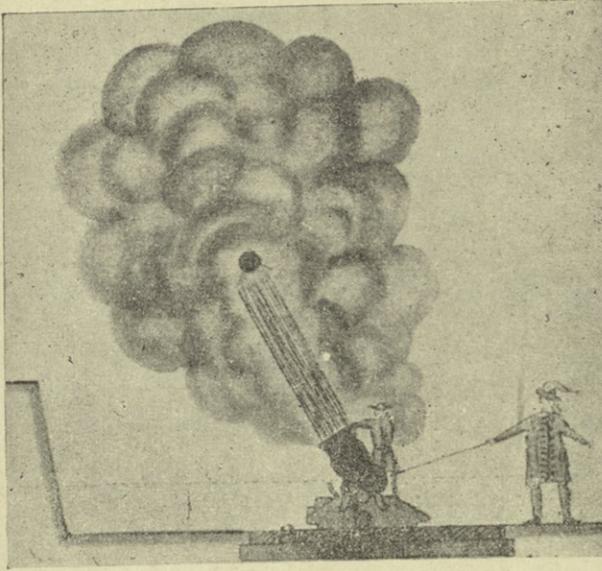
لوفوا



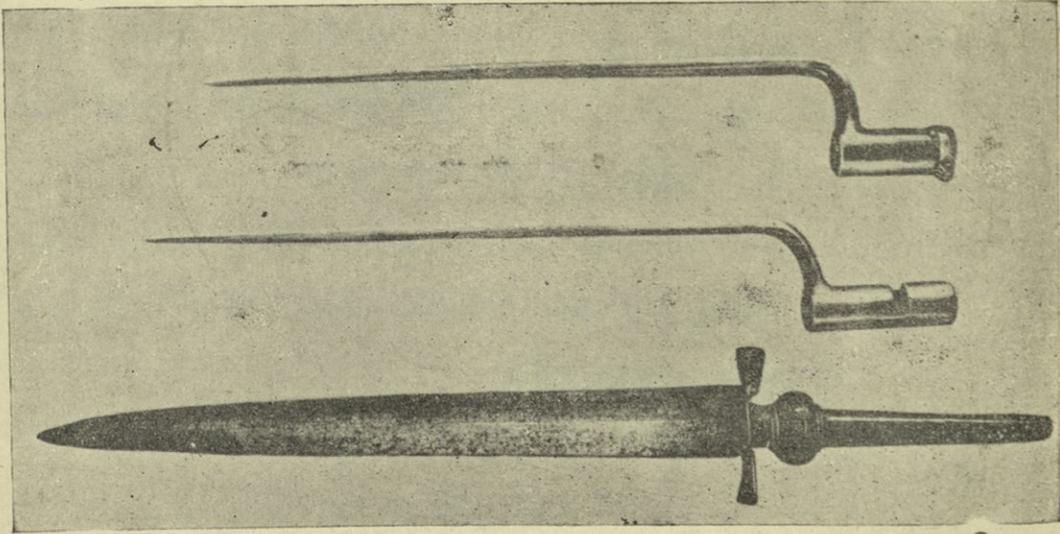
بندقية من طراز العام ١٧٠٠ ، وقد اطلق
عليها اسم « بندقية لوفوا » .



مكتبة
الملك فيصل
الرياض



مدفع هاون في حالة الانطلاق .



المراحل التي مر بها تطور الحربة خلال القرن السابع عشر .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

قائداً والف وثامنة ضابط . وهكذا خسر الجيش الفرنسي المعركة ولكنه حطم شوكة العدو واقعده عن مواصلة النضال ، فكانت هزيمته انتصاراً .
وانقضى عامان حاول خلالها « فيلار » الحلفاء وطاولهم بنجاح نسبي ، ولكن الحرب استنفدت قوى فرنسا فلم يبق لها في « الفلاندر » العام ١٧١٢ سوى جيش قوامه سبعون الف جندي تعوزهم الخيول والمدفعية والمؤن .
ورغم هذا لم يفقد لويس الرابع عشر ايمانه بالنصر وبمقدرات فرنسا فاستقدم اليه « فيلار » في ١٦ نيسان ١٧١٢ « ليعهد اليه بقوات الدولة ومصيرها » في حفلة مؤثرة .

وفي اواخر ايار التحق المارشال بالجيش ، وكانت قوات الامير « اوجين » الجرارة تحتشد في منطقة « لاندريسي » ، وقد جعلت من « دينان » قاعدتها الرئيسية . فسبر « فيلار » غورها باغارات خاطفة ثم قرر القيام بحركة لف جريئة ضد « دينان » ، وعهد بالمهمة الى قوات مختارة لفت حول جناح العدو تحت جنح الظلام قاطعة مسافة ثمانى مراحل . وقد تم لها احتلال « دينان » دون كبير غناء لان الحامية المعادية بوغت بالهجوم . وقد اباد الفرنسيون وشتوا اربعة وعشرين فوجاً وقطعوا خطوط تموين الامير « اوجين » .

وفي اسابيع معدودة حرر « فيلار » « لاندريسي » و « دوي » و « بوشوان » و « كينوا » واستعادت فرنسا حدودها الشمالية . وقد كافأ الملك المارشال المنتصر بان اطلق يده في مفاوضة الحلفاء .

الفصل السادس

الجيش في القرن الثامن عشر

١ - التنظيم العسكري

لم يبق الجيش الفرنسي بمعزل عن التيارات الفكرية التي هبت تتجاذب الشعب في مستهل القرن الثامن عشر . لهذا كان تطوره في هذه الحقبة جزءاً لا يتجزأ من تاريخ فرنسا السياسي ، وتطورها الاجتماعي والفكري .
وقد انساق الجيش مع التيارات الحديثة بتأثير عوامل شتى ، منها انعدام الاستقرار الحكومي في عهد الوصي على العرش ، ومنها تدمير الجمهور من قسوة النظم العسكرية ، وحملة المفكرين الاحرار على الحرب ودعوتهم الى تسوية الخلافات بالطرق السلمية . يضاف الى هذا وذاك عجز الخزانة عن تأمين نفقات القوى المسلحة ، لان معظم الواردات كان ينتهي الى جيوب الوزراء والندماء وحظيات المتربع على العرش .

وليس ادل على تأثر الحكام بالافكار الجديدة ، من المنهاج الذي رسمه « فنيلون » والوزير دوق « دوشيفروز » للاصلاح العسكري رغبة منها في التخفيف عن كاهل الخزانة ، فقد اشتمل المنهاج على المبادئ التالية :

- ١ - يكتفى بجيش قوامه مئة وخمسون الف رجل .
- ٢ - لا تقف فرنسا وحدها في صف وسائر اوروبا كلها في صف ، فيحسن

بالساسة ان يتوددوا الى انكلترا ، وان يدوا ايديهم الى هولندا ، وان يحاولوا عقد محادثات مع ايطاليا واسبانيا .

٣ - يكتفى بعدد محدود من المدن المحصنة والثكنات لان كثرتها ترهق الخزانة . ويستعاض عن القلاع والحصون بالاكثر من الاسلحة .

٤ - يخفض عدد الكراديس الى نصفه ويعنى عناية خاصة بتنظيم هذه الوحدات وتدريبها . وتزداد رواتب الجند وتدفع لهم بنظام . ويضاعف عدد المستشفيات العسكرية ويعامل الجنود المرضى على قدم المساواة ورؤسائهم الضباط .

٥ - لا عبرة باقدمية الضابط اذا لم يكن ذا مواهب تؤهله للترقية .

٦ - يصرف من الخدمة الضباط الذين تناهت بهم السن ، وليس لهم من مواهبهم ومؤهلاتهم ما يبرر بقاءهم .

٧ - ليس ما يمنع ترقية الضباط الحديثي العهد اذا لمعوا في ساحات القتال .

٨ - يناط بالجنود تشييد الثكنات والحصون ، على ان يعاونهم في مهمتهم فلاحو المنطقة التي تبني فيها هذه الانشآت .

٩ - تقفل ابواب « الانقاليد » في وجوه مشوهي الحرب والضباط المعوزين وينح هؤلاء تقاعداً تحدد قيمته بقانون .

هذه هي المبادئ الرئيسية التي اشتمل عليها المنهاج الاصلاحى ، ولكن انعدام الاستقرار السياسى حال دون تنفيذه برمته في عهد الوصي دوق دورليان . اما لويس الخامس عشر فقد اغفل شأنه اغفالا يكاد يكون تاماً . وجاء لويس السادس عشر فوجد نفسه امام تركة مثقلة بالديون . وجابهته منذ اللحظة الاولى مشاكل لا قبل له بحلها ، فافلت من يده الزمام . وكان

الجيش في جملة العناصر الوطنية التي تكثرت للعرش ، لتجاري التيار الجارف .
لم يحسن لويس الخامس عشر وخلفه من بعده الاستئثار بالسلطة كما فعل
لويس الرابع عشر ، بل تركا لوزرائهما تصريف الامور دون ان يدعما
سلطة هؤلاء بما لهما من هبة ونفوذ .

تولى وزارة الحربية منذ ١٧١٨ حتى ١٧٨٩ ثمانية عشر وزيراً بينهم
سبعة مدنيين ، لمع منهم الكونت « دارجنسون » . ولع من الوزراء العسكريين
« شوازل » و « بيل ايل » و « دوغيون » و « سيغور » و « سان جرمان » .
في عهد « دارجنسون » (١٧٤٣ - ١٧٥٧) انتصر الفرنسيون في موقعتي
« فيلترى » و « كوني » وقد استبقاه لويس الخامس عشر في منصبه اربعة عشر
عاماً متواصلة « لانه عرف كيف ينشئ جيشاً للملك . » ويقول المؤرخون ان
اصلاحه العسكري ينحصر بتوسيع نطاق الميليشيا الاقليمية وبقامة ملاك
الضباط على اساس ديموقراطي .

وذكر المؤرخ « ميشله » ان « بيل ايل » الذي ولي وزارة الحربية ١٧٥٨
حاول تقوية الجيش بدم جديد ، ولكن مجهوده ارتطم بانقاض الكوارث التي
جرتها على فرنسا حرب السنوات السبع . اما خلفه دوق « دو شوازل » فقد
كان سياسياً بعيد النظر وعسكرياً مجرباً . ولي في وقت معاً وزارات الخارجية
والحربية والبحرية ، واستطاع رغم وفرة مشاغله ان يولي الجيش عناية كبيرة
ولكن مشروعاته الاصلاحية لم تتحقق كلها ، لان حكمه زال بزوال صديقه
المركيزة « بومبادور » حظية الملك .

تقلص نفوذ الندماء والمحظيات في عهد لويس السادس عشر ليفسح المجال
امام تدخل الملكة « ماري انطوانيت » . الا ان هذا لم يحل دون التضحية
بالوزراء المنتجين ارضاء للمحاسبين وذوي القربى . وقد لمع في هذا العهد

الوزيران « سان جرمان » و « سيغور » . فاعاد اولهما النظام الى الثكنات بتعزيزه سلطة الوحدات ، وعني الآخر بوضع قواعد جديدة لتعبئة الميليشيا دون ان يتعد كثيراً عن المبادئ التي استوحى منها « بيل ايل » اصلاحه في هذا الباب .

الميليشيا الاقليمية . — وصف بعض المؤرخين القرن الثامن عشر بانه « عصر الميليشيا » وهو وصف ينطبق على واقع الحال انطباقاً تاماً .

انشئت الميليشيا الوطنية على اساس الخدمة الاختيارية ، فحلت تدريجاً محل الميليشيا البورجوازية ، وقضت على فوضى التعبئة المرتجلة التي كان يلجأ اليها عندما يكون الوطن في خطر . ولم يبق من الوحدات غير النظامية القديمة سوى عناصر خاصة نيطت بها تغطية الحدود المهتدة . ولكن تنظيم الميليشيا على اسس جديدة لم يكن خطوة نحو دعمها بالجيش . فقد ظل هذا منظوباً على نفسه داخل الثكنات .

وظلت الميليشيا الوطنية قوات ذات طابع موقوت ، يلجأ اليها في الحرب وتسرح في السلم ، الى ان احلها مرسوم شباط ١٧٢٦ محلها من النظام الرتبوي وجعل منها قوات احتياطية دائمة .

وقد اهمل شأن الميليشيا بعد حرب السنوات السبع . وجاء الوزير « شوازل » فاولاها جانباً من اهتمامه ، ووضع نظاماً للتعبئة يقضي بتجنيد الرجال الصالحين للخدمة طبقة بعد اخرى . ولكن الذين تولوا الوزارة بعده الغوا هذا الاساس واعتمدوا نظام القرعة .

عبئت الميليشيا الوطنية تعبئة عامة ثلاثاً واربعين مرة بين ١٧٢٦ و ١٧٨٩ ، وبلغ عدد المجندين للحملة البولونية ٨٤،١٣٢ رجلاً . واشترك في الحرب ضد النمسا ضعفا هذا العدد . وفي سنة ١٧٨٩ بلغت نسبتهم الى الجنود النظاميين

في جيش المشاة خمسة الى ثمانية .

الا ان اهمية الميليشيا ظلت محصورة بالناحية العدية . ففي السلم كانت تسرح رغم الصفة الدائمة التي منحها اياها مرسوم ١٧٢٦ . ويقول المؤرخ « ميشله » ان الميليشيا الوطنية كانت شراً لا بد منه في نظر ملوك القرن الثامن عشر . وقد رفضت حكومات القرن المذكور ان تذيب هذه القوات في الجيش النظامي ، فظلت مستقلة تؤلف افواجاً لا رابطة بينها .

وفي آب من العام ١٧٧١ ألغى مرسوم ملكي اسم الميليشيا واطلق عليها اسم « القوات الاقليمية » تمهيداً لضمها الى الجيش النظامي . ثم نظمت ملاكاتها على اساس الكردوس الدائم بعد ان كانت على اساس الفوج .

وجاء الوزير « سان جرمان » فألغى هذه الكراديس « لان مسلكتها في ميادين القتال لم يكن مرضياً . » (من تقرير رفعه الوزير الى الملك) . ولكن خلفه « مونباري » انشأ الى جانب كل كردوس نظامي كردوساً اقليمياً ، الا انه ابقى للقوات الاقليمية (الميليشيا) ملاكاتها الخاصة لان الجيش النظامي تبوم دائماً بالمحاولات التي بذلت في العقود السابقة للاحاق الميليشيا به . وتلقى « مونباري » تقريراً مطولاً رفعه اليه القادة ، عندما ترامى اليهم خبر اعتزام الوزير اعادة تنظيم الكراديس الاقليمية . وقد جاء في التقرير ان الجندي الاقليمي محارب شجاع ، ولكنه عديم الخبرة ، نزاع الى الفوضى . فاذا ألحق بكردوس نظامي في الحرب يتأثر الجنود بمسلكه ويحتل النظام .

القرعة . - كانت نعبئة الميليشيا تخضع لنظام القرعة . فيجتمع في ساحة عامة جميع العزاب والمتزوجين الذين لم يرزقوا اولاداً ، ليسحبوا ، كل بدوره ، ورقة من قبة مندوب الحكومة . فمن كان نصيبه ورقة بيضاء يعفى من الخدمة ، ويعبأ من يسحب ورقة سوداء .

كان يعفى من القرعة ، وبالتالي من الخدمة ، الاكليروس والاشراف والمتزوجون ارباب العيال ، واصحاب المهن والحرف والمرضى والمصابون بعاهاات . ويقول المؤرخون ان سواد الشعب ظل يقبل على القرعة دون تبوم ، الى ان بدأ الرؤساء يسيئون معاملة الجنود الاقليميين ، ويحملونهم تبعة الاخفاق بعد كل معركة خاسرة . فنفر الشعب من المؤسسة نفوراً حمل كثيراً من الشبان على التهرب لينجوا من القرعة . وذكر « مونتسكيو » ان ثلاثة آلاف شاب في « نانت » شوهوا اجسادهم بعاهاات مختلفة ليتسنى لهم الافلات من « نظام التعبئة البغيض » .

الاصلاح العسكري . - بعد حرب السنوات السبع قام رجال الفكر والكتاب العسكريون يطالبون بتنظيم الجيش على اسس جديدة . ولكنهم شخصوا الداء ولم يصفوا للحالة العلاج اللازم . وقد وضع الوزير « لوفوا » مشروعاً اصلاحياً يقضي بتزغ صلاحيات التجنيد من الضباط آمري الافواج . الا ان الموت عاجله قبل ان يضع مشروعه موضع التنفيذ . وحاول الوزير « دارجنسون » ان يجعل من الجندية خدمة عامة يؤديها المواطنون بمجرد صدور المنشور الملكي بدعوتهم الى حمل السلاح ، فاصطدمت محاولته بمعارضة الضباط ، وظل هؤلاء يتولون تعبئة افواجهم ويضعونها في خدمة الملك . وفي عهد الوصي دوق « دورليان » اخضع التجنيد لضرب من ضروب التزيم ، فكانت المهمة تناط بالضابط الذي يتعهد بتعبئة عدد معين من الرجال باقل كلفة مستطاعة . وظلت الحال على هذا المتوال الى العام ١٧٦٠ ، فالفي الوزير « شوازول » نظام التعبئة القديم جاعلاً من الجندي رجل الملك وقد كان حتى ذلك التاريخ رجل الضابط الذي يجنده .

قضى اصلاح « شوازول » باعفاء الضباط من مهمة التجنيد وحصر

هذا الحق بالملك او بمن يمثله . وجاء في المرسوم الملكي الذي تلي في الشككات على آمري الكراديس والافواج ، ان الملك رأى ان يأخذ على عاتقه عملية كانت من اختصاص الضباط ليتسنى لهؤلاء ان يصرفوا اهتمامهم الى المهام الرئيسية المنوطة بهم .

ومنذ العام ١٧٦٢ صارت التعبئة خاضعة لنظام خاص . ففي كل محلة مركز للتجنيد وموظفون يعرضون على الصالحين للخدمة عقوداً صريحة اعدت سلفاً في وزارة الحربية . وبعد التعبئة يتولى المركز تدريب المجندين الجدد قبل ضمهم الى الكراديس الجديدة ، حيث يدربون تدريباً اضافياً ويجهزون على نفقة الدولة ، تمهيداً لاحاقهم باحدى الوحدات العاملة .

ومن اصلاحات « شوازول » الجريئة التدابير التي اعتمدها لتأمين الاستمرار في الجيش . ففي العهود السابقة كانت الافواج ترتجل ارتجالاً كلما اقتضت الظروف الحربية تقوية الجيش ، وتسرح بالجملة بعد ان تضع الحرب اوزارها . فكان ينجم عن هذا عدم استقرار في الملاكات ، فضلاً عما تصطدم به التعبئة السريعة من عقبات .

حدد « شوازول » عدد الوحدات التي يتألف منها الجيش ، وجعل هذا العدد واحداً في الحرب والسلم ، على ان يسرح من كل فوج نسبة مئوية معينة ، حتى اذا حدث ما يستدعي التعبئة ، يصار الى سد النقص الحاصل في كل فوج دون ان تكون ثمة حاجة الى ارتجال افواج جديدة . اما ملاك الضباط فيظل هو اياه ، اي ان عددهم لا يتأثر بمراوحة عدد جنود الفوج بين النقص والزيادة .

قامت في طريق هذا الاصلاح الخطير عقبات ذات بال . فقد ايهض كاهل الحزاة بقاء الافواج التي عبثت ابان حرب السنوات السبع . فرغب

الملك الى وزيره تسريح خمسين بالمئة من القوات ، وبهذا ضاعت الفائدة من الترتيبات الجديدة ، ولم يبق قيد التعبئة سوى افواج اسمية .
وحاول « شوازول » ان يخفض عدد الكراديس تبعاً لتناقص عدد الجنود في الافواج ، فاحتج آمو هذه القطعات على المحاولة وكتب « دوق برويلي » الى الوزير يقول ان المشروع يلقي معارضة شديدة في صفوف الضباط الذين يطمحون الى قيادة الكراديس عند بلوغهم السن التي تخولهم هذا الحق . فخفض عددها يشبط عزائم كثير من هؤلاء لانهم يتفانون في خدمة الملك طمعاً بالترقية .

واخذ مؤرخو العصر والنقاد العسكريون على اصلاح « شوازول » الغاءه الاقدمية كأساس لترقية الضباط الى رتبة عقيد (ليوتنان كولونيل) ، وتركه اختيار من يستحقون الترقية لتقدير الرؤساء الذين لم يكن التجرد والعدالة من صفاتهم المميزة .

وشمل اصلاح « شوازول » ملاكات ضباط الصف . كان النظام القديم يحتم على المنكب والعريف (سرجان وكابورال) الراغبين في الترقية ، ان يقضيا في الخدمة مدة معينة ويجددا عقد الخدمة عند انتهائه . فالغى اصلاح الوزير هذا القيد وجعل مسلك المناكب والعرفاء ، ومعرفتهم القراءة والكتابة شرطاً لتوقيتهم الى رتبة ضباط صف . ووضع نظاماً لترقية العريف الى رتبة منكب يقضي بان يختار المستحقين في كل فوج اثنا عشر من المناكب الاقدم عهداً في الخدمة ، ويعرضوا الاسماء والاسباب الموجبة على أمر الفوج ، فيقترح هذا توقيتهم على أمر الكردوس .

وعني « شوازول » بترقية منهاج التدريس في المعهد الحربي الملكي الذي انشئ في العام ١٧٥١ ، فاضاف الى الغراماطيق والحساب والجغرافيا والتاريخ

علم الهندسة وفن رسم الخرائط وفن التحصين والمبارزة بالسيف . وجعل تعلم اللغة الالمانية والرقص جبرياً . ووضع الوزير المعهد الحربي في عهدة ضباط لامعين .

وفي عهد لويس السادس عشر نعمت فرنسا بعهد سلمي طويل الامد ، فاغفل خلفاء « شوازل » اكمال الاصلاح الذي بدأه ، وصاروا ينظرون الى الجيش نظرم الى مؤسسة اجتماعية ينبغي للرؤساء ان يجعلوا منها اداة لتقوية الروح الوطني . وقد تأثر وزراء الملك بالتيار الفكري الجارف فغضوا الطرف عن تسرب الافكار الجديدة الى الثكنات .

وحاول الوزير « سان جرمان » في العام ١٧٧٥ ان يعيد الى الجيش طابعه الاصيل فاصدر سلسلة قرارات جريئة يقضي معظمها بتنظيم وحدات المشاة على اسس جديدة .

لم يكن عدد الافواج واحداً في كل الكراديس ، فوحده « سان جرمان » بان جعل قوام الكردوس فوجين ، وألحق بقيادة الكردوس مجلس ادارة عدد اعضائه خمسة ، مهمتهم ادارة شؤون القطعة المالية والانفاق من صندوقها في وجوه التعبئة والتجهيز والتسليح . وحدد الوزير جرية الجندي الواحد فجعلها مئتي غرام لحماً في اليوم يضاف اليها الحساء و ٢٣٠ غراماً خبزاً وقليل من الفاكهة المجففة .

وانشأ « سان جرمان » رتبة معاون (ادجودان) ، وهي اعلى المراتب في ملاك ضباط الصف . وناط به تنشئة المناكب والعرفاء واوجب توقيته الى رتبة ملازم ثان (سوليوتان) بعد مضي مدة معينة .

ولاحظ الوزير ان قوات الحرس الملكي التي تؤلف قطعة خاصة لها امتيازاتها ، هي عالية على صندوق الدولة لانها لا تأتي عملاً نافعاً ولا تدين

بالطاعة لغير الملك . فاقترح تسريح خمسين بالمئة من رجال الحرس . فقبول
اقتراحه بمعارضة شديدة من جانب الضباط والبطانة . وكتب المارشال « دونواي »
قائد الحرس الملكي الى لويس السادس عشر يناسده احباط « مؤامرة سان
جرمان الذي يحاول ازالة السياج الوحيد الذي يحمي الملكية وحقوقها
وامتيازاتها . »

وابطل الوزير المصلح عادة حاول سلفاؤه ابطالها ، فقامت في طريقهم
عقبات عجزوا عن تخطيها ، وهي شراء بعض المناصب العسكرية باموال كان
يتقاضاها الرؤساء باسم الدولة ويستأثرون بمعظمها . وقد رفع « سان جرمان »
اقتراحه الى البلاط مرفقاً بذلكه جاء فيها : « ان المناصب العسكرية
ليست سلعاً تباع وتشري ، فليس اقتل للطموح والكفاءة والامانة للواجب
من بقاء هذه العادة القبيحة . »

بيد ان الغاء المناصب المشتراة كان يحتم التعويض على شاغليها بعد تسريحهم ،
فاحتج الملك بان خزانة الدولة لا تستطيع حمل هذا العبء الا اذا تم التسريح
تدرجاً ، وقد كان .

والغى « سان جرمان » المدرسة الحربية « التي تخرج ضباطاً يتقنون الرقص
وحديث الصالونات ولا يصلحون لكثر من هذا » ، (الكلام للوزير)
واستبدل منها عشر مدارس اقليمية تخرج منها الضباط العظام « بوناوت »
و « دافو » و « كارنو » و « مورتيه » و « مارمون » .

وبذل « سان جرمان » مجهوداً صادقاً في سبيل انصاف الانتقار فامر بان
يعاملوا برفق ، وحظر معاقبة جندي على مخالفة يرتكبها قبل محاكمته وسماع
دفاعه . والغى عقوبة الحبس مستبدلاً منها الضرب على الطريقة الالمانية . بيد
ان مشاريعه الاصلاحية لم تلق تأييداً في اوساط الجيش ، واثارت نقمة اتباع

المدرسة القديمة من كبار الضباط .

اما خلفه « سيفور » فقد اضطلع بمهمته يعاونه مجلس حربي قوامه خمسة قادة وضابط برتبة زعيم (كولونيل) . وقد عني الوزير والمجلس بانشاء وحدتين كبيرتين هما الفرقة واللواء . وجعلت الفرقة الوحدة الكبرى ويلها اللواء فالكردوس فالفوج الخ ... ويقول الكولونيل « ريفول » في كتابه « تاريخ الجيش الفرنسي » ان الفرقة الواحدة كانت تضم الوية من المشاة العاديين والمشاة الخفاف والوية اخرى من الخيالة . اما المدفعية فقد ظلت سلاحاً مستقلاً .

وفي العام ١٧٨٨ كان الجيش الفرنسي يضم احدى وعشرين فرقة موزعة بين مناطق الحدود والثكنات ، يضاف اليها سبع عشرة فرقة اقليمية او عرابطة ، مستقلة عنها استقلالاً تاماً .

٢ - الحروب

حروب لويس الخامس عشر . - قال لويس الرابع عشر لولي عهده عندما احس دنو اجله : « كنت كلفاً بالحروب فلا تنسج علي منوالي . » وقد عمل لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر بهذه الوصية فلم يتخلل عهدهما سوى ثلاث حروب كبيرة في غضون عشرين سنة ، ونعمت فرنسا بالسلم طوال نصف قرن .

نشبت الحرب الاولى في عهد لويس الخامس عشر من اجل العرش البولوني . فخاض الفرنسيون غمراتها مسوقين بعاملين ، اولها تأمين عرش لوالد ملكة فرنسا ، والآخر منع روسيا والنمسا من بسط سيطرتهم على بولونيا الضعيفة ، واقامة عرش خليفهما « اوغست » الثالث منافس مرشح البلاط الفرنسي . بيد ان مساعدة فرنسا لبولونيا اقتضرت على ارسال لواء الى دانترغ بقيادة

الكونت « دي بلولو » فحاصره الاعداء وبادوه بعد قتال تجلت فيه بطولة الحملة الفرنسية باروع مظاهرها .

واستطاع الكردينال « فلوري » وزير لويس الخامس عشر ان يؤلب ضد النمسا الدول التي تخشى خطرها ، فاضطر النمسيون لمفاوضة الكردينال في العام ١٧٣٨ فوقع الفريقان على عهدة فيينا التي تركت لأوغست الثالث عرش بولونيا ، على ان ينتقل بعده الى « ماري تيريز » ابنة شارل السادس النمسي . ومقابل هذا تنازلت النمسا عن « اللورين » لـ « استانيسلاس لكزفسكي » والد ملكة فرنسا على ان تضم فرنسا هذه المقاطعة بعد وفاة « استانيسلاس » او في حال تنازله .

وفي العام ١٧٤٠ ارتقى العرش البروسي فريدريك الثاني وارتقت « ماري تيريز » العرش النمسي . فدشن الملك البروسي عهده باجتياح مقاطعة « سيليزيا » (١٧٤١) ولكن عمله قوبل بعطف في فرنسا المعجبة بالملك الشاب ، الحاقدة على آل « هابسبورغ » . وما عثم لويس الخامس عشر والكردينال « فلوري » ان زجا بفرنسا في غمرات الحرب الى جانب بروسيا . وقد انتهزت انكلترا الفرصة فلعبت لعبتها في البحر وتمكنت دون كبير عناء من وضع يدها على جزء من « الفلاندر » بينا كانت جيوش لويس الخامس عشر تحرز انتصاراً باهراً في « براغ » . الا ان « ماري تيريز » ما عتمت ان تفاهمت وفريدريك فتنازلت له عن « سيليزيا » وتفرغت بعد انسحابه من الميدان لمصاولة الفرنسيين ، فاضطر هؤلاء للجلاء عن بوهيميا والمانيا ، مما كان له اسوأ وقع في الرأي العام . ولكن الجيش ما لبث ان انقذ سمعته بانقاذ البلجيك وبالغلب على الانكليز في موقعة « فونتونا » (١٧٤٥) . وفي هذه الاثناء نقض « فريدريك » الثاني الاتفاق المعقود بينه وبين « ماري تيريز » واحتل « بوهيميا » ، وكاد الحلف

الفرنسي البروسي يأتي بأفضل النتائج لو لم يتفرد « فريدريك » بمصالحة النمسا وانكلترا ، فاضطرت فرنسا للتوقيع على عهدة « اكس لاشايل » (١٧٤٨) التي جردتها من مكاسبها في الاراضي الواطية . اما « فريدريك » فقد احتفظ بفتوحاته كلها .

حرب السنوات السبع . - عقدت انكلترا و« فريدريك » الثاني الحناصر ضد فرنسا والنمسا ، ووضع الانكليز نصب اعينهم تجريد الفرنسيين من مستعمراتهم ولاسيا الهند وكندا . وقد انضمت الى الحلف الفرنسي النمساوي روسيا واسوج .

بدأت الحرب سنة ١٧٥٦ بعملية بحرية من جانب الانكليز . وما عم جيش « فريدريك » ان اجتاح بلاد « الساكس » . فكان على فرنسا ان تواجه الضغط البروسي في البر ، وان ترسل المدد بجزراً الى كندا والهند . ففي البحر بدأ الفرنسيون الحرب بداية حسنة بانتصار « ميورقه » ولكن الانكليز خسروا معركة ولم يخسروا الحرب . ولم يطل بهم الامر حتى احرزوا التفوق ، فقطعت بحريتهم المدد الفرنسي عن « مونكالم » في كندا وعن « لالي تولندال » في الهند . اما في البر فقد هزم الفرنسيون وحلفاؤهم ، البروسيين والانكليز في اكثر من موقعة . الا ان « فريدريك » الثاني لم يلم نفسه واستطاع ان ينزل باعدائه ضربة قاصمة في موقعة « روسباخ » (١٧٥٧) التي سيأتي الكلام عليها فيما بعد . وظلت الحرب سجالاتا بين الفريقين الى ان انتهت في العام ١٧٦٣ بصلح يكرس انتصارات بروسيا وتفوق انكلترا البحري . وقد تخلت « ماري تيريز » عن « سيليزيا » وفقدت فرنسا كندا والضفة اليسرى لنهر ميسيسيبي والسفغال والهند .

عهد لويس السادس عشر . - نعمت فرنسا في عهد لويس السادس عشر

بسلم طويل الامد . واستطاع بعض الوزراء المصلحين ان يبعثوا الاسطول وان يعدوه للمهام الكبيرة . اما الجيش الذي نهكت قواه حرب السنوات السبع ، فقد اعيد تنظيمه رغم الازمات الداخلية ولاسيما المشادة بين البلاط وممثلي الشعب .

وفي العام ١٧٧٦ عرضت للاسطول مناسبة اثبتت فيها وجوده وهي الحرب الاستقلالية في اميركا . فقد نخطت سفن الاميرال « سوفرين » كل العقبات التي اقامها الاسطول الانكليزي في طريقها ، ناقلة الحملة الفرنسية الى وطن « واشنطن » . فكان نجاح الثورة الاميركية نجاحاً للقضية الاستعمارية الفرنسية لان انكلترا تخلت عن « دنكرك » ورددت الى فرنسا السنغال و « الانتيل » وبعض المدن الهندية .

٣ - تكتيك واستراتيجية

زعم بعض المؤرخين العسكريين ان الفرنسيين عنوا بترقية الفن الحربي بعد هزيمة جيشهم في « روسباخ » ، فراح علماءهم العسكريون يدرسون نظريات « فريدريك » الثاني ويبسطونها داعين الى تبنيها . ولكن هذا ليس رأي الجنرال « مكسيم ويغان » الذي يذكر في كتابه « تاريخ الجيش الفرنسي » ان الفن الحربي في فرنسا بدأ يقظته الفكرية قبل حرب السنوات السبع فاقترح « مينيل ديوان » في العام ١٧٤٧ قواعد جديدة لحرب الحركات في كتابه « نظام جديد للتكتيك الفرنسي » . وظهرت « تأملات » موريس « دو ساكس » قبل ان يمد « فريدريك » الثاني يده الى اعداء فرنسا بعد معاهدة « اكس لاشايل » .

وبعد « روسباخ » عني اساتذة الاستراتيجية والتكتيك بدراسة اساليب « فريدريك » ، ووضع « غيرت » كتابه « محاولة في التكتيك العام » فور عودته من بروسيا . فاهتمت الالندية العسكرية بالكتاب واعتمده المجلس الحربي اساساً

للاصلاحات التي ادخلت على التكتيك الفرنسي ، كما اعتمد دراسات الشيفاليه « دوشاستداي » عن خطط الملك البروسي .
القادة الفرنسيون . - كان عهد لويس الرابع عشر غنياً بالقادة الافذاذ امثال « تورين » و « كونده » و « برويك » و « فيلار » . ولم يكن هذا شأن عهد خلفيه . فقد لمع قادة ببطولتهم واقدامهم ولكنهم كانوا محدودي الاطلاع ، قليلي الخبرة ، ضعاف الشخصية والنفوذ .

ومن هؤلاء المارشال « دو بيل ايل » والجنرال « شيفير » الذي تطوع وهو دون الثانية عشرة ، ورفي الى رتبة ملازم اول في الخامسة عشرة ، وقد تميز في موقعة « براغ » بشجاعة نادرة ، وكان يعاون الجنرال « سوبيز » برتبة عقيد (ليوتان كولونيل) . غير ان مؤرخي العصر يردون اليه فضل الانتصار الفرنسي ويقولون ان « سوبيز » نفسه عجب لعصا المارشالية تسلم اليه هو مع ان المنتصر الحقيقي هو « شيفير » . وقد توفي القائد الشجاع عن اثنين وستين عاماً ، بعد ان لمع في معظم المواقع التي خاض غمراتها كقائد معاون او كقائد مسؤول عن سير العمليات . وانزل في القبر وهو امير جيش لان الله لم يمد في اجله كي يتسلم عصا المارشالية .

واشتهر بين قادة القرن الثامن عشر دوق « دو برويلي » الذي ارتفعت اسمه بعد انتصار « ماندن » ثم حمل تبعات اكثر من هزيمة . وبعد انسحابه من الخدمة الفعلية وضع مواهبه واختباراته في خدمة المجلس الحربي . وكان من انصار التجدد في حقلي الاستراتيجية والتكتيك .

اما ابرز قائد عرفته فرنسا في عهد لويس الخامس عشر فهو « موريس دوساكس » الالماني بطل انتصار « فونتنوا » . حمل موريس السلاح في الثانية عشرة من سنه ليخوض غمرات القتال ضد الجيوش الفرنسية في

« ماللاكه » ، ومن ثم قاتل في الجيوش النمساوية والروسية والبروسية . وفي العام ١٧٢٠ وضع خبرته في خدمة ملك فرنسا وحرص منذ اللحظة الاولى على الاحاطة بنفسية الجندي الفرنسي ، وما لبث ان اسر جنوده بشجاعته ورحابة صدره .

وقد اجمع المؤرخون على ان لويس الخامس عشر اعطى القوس بارها عندما عين « دوساكس » قائداً عاماً ، لان الرجل تكشف قبل « فونتنوا » عن قائد موهوب يتحلى بمؤهلات الزعامة العسكرية : نشاط خارق ، فكر ثاقب ، سرعة في التصميم ودقة في التنفيذ ، لا يؤخذ بالمفاجآت ، ولا يتردد في ارتجال الخطط المناسبة ، اذا طرأ على الموقف ما لم يكن بالحسبان .

موقعة فونتنوا . - تقدم معنا ان « موريس دوساكس » هزم الانكليز في « فونتنوا » . وقد ورد عن الموقعة الوصف التالي في تاريخ الجيش الفرنسي للكولونيل « ريفول » :

في نيسان من العام ١٧٤٥ انتشر جيش « دوساكس » على الضفة اليمنى لنهر « ايسكو » مغطياً بلدة « فونتنوا » وكانت ميمته تمتد من قرية « اوتوان » حتى فونتنوا مؤلفة تنوءاً بارزاً يستند طرفه الايسر الى غابة « باري » . وفي الحيز غير المشغول بالتحصينات حشد « دوساكس » كراديسه المنخوبة صفوفاً اربعة ، ونصب مئة مدفع امام قلب الجهاز الفرنسي وميسرته .

وفي الحادي عشر من ايار هاجم ثلاثة وخمسون الفاً من الانكليز والهولنديين والهانوفرين بقيادة « كمبرلند » الجيش الفرنسي المؤلف من اربعين الف مقاتل . انقض الهولندون والايكوسيون على الجناحين الفرنسيين فردوا على اعقابهم . اما القلب فقد مشت اليه ثلاثة جحافل انكليزية وهانوفرية ، الجيش الفرنسي

وقبل ان تحمل حملتها دعا قائدها لورد « تشارلس هاي » الفرنسيين الى اطلاق النار اولاً ، فكان جواب القائد اوتروش : « لا يا سيدي ، اننا نتنازل لكم عن هذا الشرف . » الا ان هذا المسلك الفروسي كلف الجيش الفرنسي غالباً . فقد تراجع الحظ الاول امام نيران العدو الكثيفة ، وهم الحلفاء باستثمار هذا النجاح المبدئي ، ولكن الملك و « موريس دوساكس » سارعا الى تعزيز القلب على حساب الجناحين اللذين نجحا في صد الهولنديين والايكوسيين ، فتكسرت الهجمات المعادية على صخرة عناد المشاة الفرنسيين ، حتى اذا دب الفتور الى همم الحلفاء كرت الخيالة بقيادة « دوساكس » نفسه مرغمة الجناحين المعاديين على ترك مراكزهما والانضمام الى القلب . فتألف منها جميعاً جيش متكامل بطيء الحركة عاجز عن المناورة .

ولم يترك قائد الجيش الفرنسي لـ « كمبرلند » فرصة لاعادة تنظيم قواته ، بل حمل على العدو حملة موفقة يساندها الاحتياط والحرس الملكي ، فاضطرت صفوف الحلفاء ، وما عتموا ان اخلوا الساحة لمخلفين الوف القتلى والاسرى والجرحى .

موقعة روسباخ . - لم يقيض لفرنسا ان يقود جيوشها « موريس دوساكس » في المعارك التي خاضت غمراتها ضد قوات فردريك الثاني . ذلك بان القائد الكبير اعتزل العمل عندما تتكرر الملك البروسي لحلفائه الفرنسيين وانضم الى المعسكر الآخر . ولا يختلف اثنان في ان فردريك الثاني واحد من عظماء القادة في التاريخ . ولم تتجل مواهبه في حقل الاستراتيجية والتكتيك فحسب ، بل تجلت في التنظيم والادارة .

لقد اختلف المؤرخون والنقاد العسكريون في تقدير قيمة الانتصار الذي احرزه جيش فردريك في « روسباخ » ضد الجيوش المتحالفة . ويقول الجنرال

ويغان في تأريخه الجيش الفرنسي ان بعض النقاد المعاصرين حمل القائد الفرنسي « سوبيز » تبعه الهزيمة ، مع ان قوات الملك البروسي المؤلفة من عشرين الف رجل دحرت جيوشاً متحالفة تضم خمسة وستين الف مقاتل منهم اربعة وعشرون الف فرنسي . ولم تكن القيادة العامة للفرنسيين ، فقد تولاهما دوق « هيلد بورغوزن » وهو الماني وكان « سوبيز » مساعداً له .

لاحظ فردريك قبيل نشوب المعركة ان قوات الحلفاء تحتل مراكز حصينة ، فانكفاً بسرعة مستدرجاً اعداءه الى ارض يجهلونها جهلاً تاماً . وفجأة بدل الملك البروسي اتجاهه مستخدماً الارض في اخفاء مناورته ، ولم يشعر به الحلفاء الا وهو منقض عليهم ، ففعل عنصر المفاجأة فعله ، ففر دوق « هيلد بورغوزن » وشاع الارتباك والفوضى في صفوف الحلفاء .

الخط المائل . - رد بعض النقاد نجاح فردريك الى تفوق العناد البروسي والى اخذ الملك باساليب تكتيكية جديدة في رأسها النيران الكثيفة تطلقها صفوف ثلاثة ، واخيراً الى الخط المائل او المنحرف . غير ان هذا لم يكن رأي نابوليون الذي رد الانتصارات البروسية في عهد فردريك الثاني الى جرأة الملك الاستراتيجية وحركاته التكتيكية الحكيمة . اما الخط المائل فهو في رأي نابوليون خدعة حربية اراد فردريك ان يضل بها رجال التكتيك الفرنسيين . ويخالف الجنرال ويغان نابوليون في هذا . فهو يقول ان الخط المائل مثل دوره بجلاء في موقعة « لوتن » . فقد مشى فردريك مباشرة الى الجيش النمساوي المنتشر بكامله ، ولكنه بدأ بنشر الطلائع واطلق وراءها قواته الرئيسية موجهاً اياها شطر الميمنة ثم حمل بها على ميسرة العدو ، وهكذا اضحى الجهاز البروسي كله منحرفاً او مائلاً تتقدمه الميمنة .

الخط الرقيق والخط العميق . - لم يكتب الكتاب العسكريون في فرنسا

بدرس خطط فردريك ، فقام منهم فريق يطالب بادخال تعديل اساسي على التكتيك الهجومي . وكان ان انبرى له انصار المدرسة القديمة وانقسم الخبراء فثنين : فئة تقول بحشد المشاة للقتال خطأً رقيقاً واخرى تقول بحشدهم خطأً عميقاً .

كان «موريس دو ساكس» وفردريك الثاني من انصار الخط العميق . ولكن الملك البروسي اعترف في وصيته بان المعارك لا تكسب بالصفوف المتراصة انما تكسب بالنيران المتفوقة . ولم يكن « الشوفاليه دو فولار » من هذا الرأي . فقد قال بالخط العميق لانه كان يسند الى الهجوم الدور الرئيسي في القتال . ومن اقواله ان انتشار الخط الرقيق يعطي نيراناً مجدية ولا شك ، ولكن قوة المشاة لا تتجلى الا بشنها الهجوم صفوفاً كثيفة . فالخط العميق يضاعف قوة المشاة الاختراقية .

وفي عهد لويس السادس عشر قام نقاش حول مسألة اخرى هي : ايها اصلاح للمناورة والحركة ، الصف المنتشر ام الخط ذو الصفوف المتراصة ؟ فاقترح القائد بيرش ، وهو بروسي التحق بالجيش الفرنسي ، اعتماد الصف المتطاوول في المناورة واعتماد الخط ذي الصفوف في القتال ، وقد اخذ مجلس الحرب الاعلى بهذا الاقتراح .

المدفعية . - شهد القرن الثامن عشر جدلاً حامياً بين انصار القديم وانصار الجديد في حقل المدفعية . ففي عهد الوزير « شوازول » اخذ المارشال « غريوفال » على عاتقه تنظيم المدفعية الفرنسية على اسن جديدة ، فجعلها اربع فئات : مدفعية الميدان ، ومدفعية الحصار ، وبطاريات الساحل ، ومدفعية القلاع . وجعل مدفعية الميدان خفيفة مرنة وذات عيارات ثلاثة : ١٢ و ٨ و ٤ . قامت على « غريوفال » قيامة انصار المدفعية القديمة ، وكانت حجته ان

الجديدة لا تقوى على مجابهة نيران العدو . ولكن شوازل لم يأخذ بهذا الاعتراض
فضنعت المعامل في عهده ١٢٠٠ مدفع ميدان . وبعد اعتزاله الحكم جدد انصار
القديم محاولاتهم ، وافلحوا في احلال مدفعية « فالير » الثقيلة محل المدافع
الجديدة . الا ان الوزير « سان جرمان » لم يلبث ان اقصى القديم وقد اثبتت
الحوادث ان « غريبوفال » كان على حق .

الفصل السابع

يهوش الثورة

١ - نهاية الجيش الملكي .

عندما عقدت المجالس العامة اول اجتماعها التاريخية للمطالبة بالاصلاح ، كان التفسخ في الجيش قد استفحل امره . فالرؤساء والمرؤوسون غير راضين عن الحالة ، يطالب هؤلاء بتقصير مدة الخدمة وبالغاء العقوبات الجسدية كالجلد والضرب . اما الرؤساء فقد هب منهم النبلاء للمطالبة بملاكات ثابتة لا تتبدل بتبديل الوزراء . وقام منهم ابناء الشعب يطالبون بالغاء امتيازات النبلاء ويجعل المواهب اساساً للترقية .

وقد عنيت المجالس العامة بقضية الجيش بدافع من اعضائها العسكريين . وتصدى فريق من الكتّاب لمعالجة القضية ، فاقترح « كوندورسه » ان يترك للجنود حق التقدير فاذا وجد الجندي ان اوامر رئيسه غير جديرة بالاعتبار ، جاز له اهمالها . وطلب « ميرابو » ، الخطيب السياسي المشهور ، الغاء الجيش الدائم وجعل الرؤساء العسكريين تابعين للسلطة المدنية . وحمل « سرفان » الذي صار فيما بعد وزيراً للحربية على امتيازات النبلاء وطالب في كتابه « الجندي المواطن » بالغاء مجلس الحرب والميليشيا وضريبة الدم . فكان تيار الافكار الجديدة يمر بالثكنات فينز من فيها ويبذر في وسطهم بذور الثورة على القديم .

الحرس الوطني . - في تموز من العام ١٧٨٩ تمرد فوجان في الحرس الفرنسي احتجاجاً على قرار ملكي . فأنزل الرؤساء بالتمرد عقوبات صارمة . ولكن هذا التدبير وسع الحرق وافضى الى تمرد الحرس كله . وانتهز خصوم الملكية الفرصة فزينوا للتمرد سلوك سيل الارهاب . وخدم مسلك الملك مشاريع اعدائه اذ استعان بكراديس اجنبية على دفع خطر الحرس عن باريس وفرساي . فكان لهذا التدبير اثر سيء جداً في نفوس الفرنسيين . فعمت الثورة العاصمة والولايات ، وشق معظم القوات النظامية عصا الطاعة وانضم الى الثوار .

وفي هذه الغمرة من الحوادث تألف « الحرس الوطني » ، فانضمت اليه افواج الحرس الفرنسي المتمردة والفراريون من شتى الكراديس ، وتألف منهم في باريس والولايات ستة عشر فوجاً .

وسرعان ما اضحى الحرس ، في نظر المواطنين ، جيش فرنسا الجديدة وسياس العهد الجديد . ولم تبخل عليه المجالس التي تعاقبت بين ١٧٨٩ و ١٧٩٨ بما كفل له النمو والاستمرار . الا ان تطوره اجتاز مراحل دامية واعترضته عقبات كالتى اعترضت نظام الحكم الذي قام الحرس في الاصل لدعمه وحمايته .

التفكك الاجماعي . - بعد حوادث ٥ و ٦ تشرين الاول من العام ١٧٨٩ وقفت القوات الموالية للملك حائرة بين الواجب وبين شق عصا الطاعة . وكانت السياسة قد طغت على الشكبات فتألفت فيها « لجان اصلاحية » من صغار الضباط والجنود ، فنحت هذه اللجان نحو لجان الثورة في الاقتصاص من الضباط الذين رفضوا اداء القسم الجديد (بين الولاء للدستور وللامة) . واتصل خبر هذه الفوضى بالجمعية الوطنية فلم تحرك ساكناً للقضاء عليها مما شجع على

قيام فكرة « الاتحاد » (فيديراسيون) التي كان الغرض الظاهر منها ازالة الحواجز بين العاصمة والولايات ، وتحقيق وحدة الامة . ولكن الذين روجوا لها من اليقوبيين رموا الى اشاعة روح التمرد في الجيش من طريق اتصال الكراديس بعضها البعض الآخر بعد سقوط الحواجز التي تباعد بينها . وقد اعلنت وحدة الوطن في ميدان « مارس » في الرابع عشر من آذار ١٧٩٠ بحضور وفود تمثل شتى الكراديس . فعادت الوفود الى ثكناتها بأراء جديدة ونزعات ثورية ، وراحت تحرض الجنود على رؤسائهم مدخلة في روعهم ان مجلس الامة اجاز للجندي ان يناقش أمره الحساب وان يقف منه موقف الاتهام .

وشجع اليقوبيون انصار الثورة من الجنود والضباط على دخول اندية تروج للمبادئ الجديدة ، وراح رسلهم يعالجون في « نانسي » جيش الشرق الذي ظل موالياً للملك . فقمع قائده الجنرال « بويه » حركة غير نظامية قام بها كردوس سويسري . وعرفت الدعاية الثورية كيف تستثمر الحوادث بتفتنها في وصف « مذبح نانسي » . وانتهزت الكراديس الفرصة ، فهبت تطالب بالاعتراف للجنود بحق الانتاء الى الاندية ، وكان اشهرها « نادي اصدقاء الدستور » فزلت الجمعية الوطنية على هذا الطلب ، ووضحت الاندية مذ ذاك مفزعة الضباط الذين لم يرتقوا في احضان الثورة لان رؤوسهم كانوا يرفعون الى زعماء الحركة الانقلابية تقارير يومية عن حركات الضباط وسكناتهم . وكان بعض هذه التقارير يطوى على تهم خطيرة لا تلبث ان تضع من نسبت اليهم موضع الشبهة .

الهجرة... - في شباط من العام ١٧٩١ قررت الجمعية الوطنية تطهير الجيش من العناصر « الرجعية » . لان بوادر الاخلاص للعهد الجديد لم تصدر الا عن

صغار الضباط ، وظل شعار قادة الفرق والالوية والكراديس : « الايمان ، القانون ، الملك » .

اقترح اليعقوبيون تطهير الجيش بطرد الضباط غير الموالين . ولكن وزارة الحربية رأت ان تدييراً كهذا قد يذهب بفريق من انصار الثورة ، نظراً لرواج سوق الوشايات ، فاصدرت في ٢٣ شباط ١٧٩١ قانوناً يقضي بترقية كل ضابط برتبة زعيم او عقيد (كولونيل وليوتنان كولونيل) يرغب في ترك الخدمة الى رتبة لواء (بريغاديه) . فترك الخدمة مئات الضباط . غير ان اليعقوبيين وجدوا التديير غير كاف فانبروا يطالبون بطرد كل ضابط لا يقسم بين الاخلاص للدستور ، وذهب « ميرابو » و « روبسيير » الى ابعد من هذا فاقترحا الغاء ملاكات الضباط وانشاء ملاكات جديدة . وجاء هروب الملك ضعفاً على ابالة فانهارت الملاكات بهجرة فريق كبير من القادة وكبار الضباط .

بدأت الهجرة بعد حادث سقوط « الباستيل » . فغادر فرنسا الكونت « دارتوا » والامير « كونده » وفي معيتها القادة « برويلي » و « اوتيشان » و « بزنتال » و « لاميك » . واستفحل امر هذه الحركة في شتاء ١٧٩٠ عندما شرع الامراء المهاجرون ينشئون جيشاً موالياً للملكية . وجاء قرار الجمعية العمومية بطرد كل ضابط لا يقسم على حدة بين الاخلاص للدستور يزيد الحركة استفحالاً ، ولا سيما في جيش الشمال الذي كانت دعاية الامراء تعالج قاداته بمهارة .

وقد اتسع نطاق الهجرة عقيب حادث « فارين » وماجر اليه من ذيول . ذلك بان اشتراك بعض الكراديس في المؤامرة التي اقتضح امرها في « فارين » بقبض الملك واعادته الى باريس ، جعل ضباط معظم القطعات موضع الشبهة ففرج مئات منهم في السجون وذهب كثير من آرمي الافواج ضحايا

الاضطرابات التي حصلت في الثكنات ، فكانت هذه الحوادث حافزاً للضباط على الهروب والانضمام الى جيش الامراء .

بدأت الهجرة تقض مضاجع رجال الثورة بعد فرار جيش الجنرال « بويه » الى بلجيكا ، لان عدوى التمرد انتشرت في معظم ثكنات الشمال والشرق واستطاع بعض الضباط ان يجتاز الحدود مصحوباً بجنوده . وازاء تفاقم الحالة بهذا الشكل قررت الجمعية التأسيسية ان تأخذ على الضباط عهداً بأن يتقيدوا بما يصدر عنها من اوامر ونواهٍ وتعليمات . فرفض الف وخمسة ضابط الارتباط بعهد هذا شأنه ، فسرحوا ، واتخذت السلطات تدابير شتى للحوول دون التحاق المسرحين بجيش الامراء . فما نجح منهم في اجتياز الحدود سوى بضعة عشر ضابطاً كبيراً ومثني ضابط برتبة رئيس وملازم (كاتبين وليوتان) .

ولجأت الجمعية التأسيسية الى تدابير متناقضة لسد النقص المتزايد في ملاك الضباط . فبدأت بالغاء التقاعد ، وأتبع هذا التدبير بملاحقة المهاجرين قضائياً ثم الغت الالقاب التي منحها الملك فريقاً من القادة كما الغت نظام الاوسمة . ورغبة منها في استرضاء الجميع منحت الفوج السويسري الذي تمرد في ثكنة « شاتونيون » عفواً عاماً .

ولكن « اندية اصدقاء الدستور » زادت ازمة الملاك استفحالاً بتحريضها الجيش على الضباط النبلاء ، خصوصاً بعد اعدام لويس السادس عشر ، ونشوب الثورة في مقاطعة « فاند » ، وخيانة القائد « ديوريه » . فسلك القادة المضطهدون والملاحقون سبل الهجرة لينجوا بانفسهم من الهلاك . واستمرت الحال على هذا المنوال رغم بروز شيخ الحرب وصراخ الزعماء « الوطن في خطر » . على ان توالي الازمات بين ١٧٨٩ و ١٧٩٢ ، والانقسام الخطير في صفوف

الجيش ، لم يقضيا على مميزات فرنسا العسكرية ، انما قضيا على الجيش الملكي قضاء مبرماً ، فقامت جيوش الثورة على انقاضه بما يشبه الاعجوبة .

٢ - جيوش الثورة . - موقعة فالسي

المتطوعون الاول . - في كانون الاول من العام ١٧٩١ تم تأليف جيوش ثلاثة : ١ - جيش الشمال بقيادة المرشال « دوروشامبو » ، ٢ - جيش الوسط بقيادة « لافاييت » ، ٣ - جيش البرن بقيادة « لوكنير » . وقد رأت وزارة الحربية عند الشروع في انشاء جيوش الثورة ان تسد النقص في الكراديس النظامية بفصائل من « الحرس الوطني » ، ولكن الفكرة لم تلق تأييداً لدى ارباب الاختصاص . وفي الثاني من كانون الثاني ١٧٩١ استصدر وزير الحربية مرسوماً بتعبئة مئة الف « جندي مساعد » يؤخذون بالتطوع الاختياري ويُدخَلون بعد تدريبهم بالكراديس النظامية . الا ان المرسوم لم يوضع موضع التنفيذ . وفي حزيران من العام نفسه قرر ممثلو الامة تعبئة « الحرس الوطني » والعدول عن التطوع اختيارياً . ودعت الاقاليم الى تأليف افواجها على ان تظل هذه الافواج متأهبة لتلبية نداء الوطن .

وبعد فرار الملك نفذت التعبئة بموجب ثلاثة مراسيم استصدرها وزير الحربية تباعاً ، فلبى النداء في المرة الاولى ٢٦ الف متطوع ، وفي المرة الثانية لباه ٩٧ الفاً ، ولباه في المرة الاخيرة مئة الف متطوع . اشتهرت هذه القوات باسم « متطوعة ١٧٩١ » ، فكانت الدولة تجهزها بالاسلحة ، اما الالبسة والمؤن فكانت توفرها لها مجالس الاقاليم . وقد ترك مرسوم انشاء المتطوعة للجنود حرية انتخاب ضباطهم ، ونص على امكان وضع الافواج تحت امره القادة في حال دعوتها الى خوض غمرات حرب نظامية .

فألف في باريس والمقاطعات الشمالية الشرقية ستون فوجاً من المتطوعة ،

ولم يزد قوام الفوج الواحد على خمسمئة وخمسة وسبعين رجلاً. واختار بعض الافواج ضباطه من ملاكات الميليشيا الاقليمية ، فاحسن الاختيار. ومثلت الدسائس دورها في انتخاب قادة البعض الآخر ففاز بالرئاسة رجال اتقنوا صناعة الكلام والتلاعب بعواطف الجمهور، ولكنهم كانوا اجهل الناس بفن القيادة. فشاعت الفوضى في الثكنات الاقليمية وانصرف المتطوعة الذين حشدوا في مناطق الحدود الى السلب والنهب تشجعهم « ديموقراطية » رؤساء اعتادوا النزول الى مستوى الشعب تودداً اليه واستجاباً لرضاه ، فدرجوا على الخطة نفسها في معاملة مرؤوسيهـم.

وزاد في الطين بلة قرار اتخذه الجمعية التشريعية في ايلول ١٧٩١ ، يميز للمتطوع ان يترك الخدمة بعد كل حملة شريطة ان يخطر رئيسه بعزمه على الانسحاب قبل شهرين ، وحظرت الجمعية في الوقت نفسه على افواج المتطوعة ان تختار رؤساءها بين ضباط القوات النظامية . فافضت هذه التسهيلات الى تشجيع الفرنسيين على الانخراط في افواج المتطوعة ، فظلت الكراديس النظامية تشكو الهزال .

تلك كانت حالة الجيش الفرنسي عند نشوب الحرب : الكراديس النظامية تشكو نقصاً كبيراً في الرجال ، وافواج المتطوعة تتكوّن وتتمو في غير نظام . ولم تكن حالة الادارة المدنية خيراً من حالة القوى المسلحة الخاضعة لها ، فقد ولي وزارة الحربية رجال لم يكن الحزم من شيمهم . وشذ الوزير « ناربون » ولكن تراخي الجمعية التشريعية افسد عليه تدابيره ، فاستقال في آذار ١٧٩٢ وحل محله « رولان » يعاونه « دوموريه » كوزير للشؤون الخارجية . الحرب . - سعى « دوموريه » الى اقناع بروسيا بالتزام الجهاد في حرب تنشب بين فرنسا والنمسا ، ولكن ضعف بلاده اغرى بها الجيران الطامعين ،

فتحالف ضدها البروسيون والنمسيون بحجة القضاء على الوباء الثوري الذي يهدد الممالك الاوروبية :

شهر « دوموريه » الحرب في ٢٠ نيسان ١٧٩٢ قبل ان يعنى باعادة الامور الى نصابها في الثكنات والمعسكرات ، مع انه لم يكن غريباً عن الجيش ، ادركته الثورة فريقاً في جيش لويس السادس عشر ، وعاملاً من عمال الملك في عواصم الممالك الاوروبية ، وقد ظل موضع ثقة ولي نعمته رغم قعوده عن مكافحة التيارات الجديدة .

عبرت الحدود اربع فرق فرنسية وفاقاً لخطه « دوموريه » الهجومية ، ولكن مينة الجيش ما لبثت ان رفضت التقدم وحذت حذوها الميسرة . وتمرد جنود الفرقة التي كانت تؤلف القلب وفتكوا بقائدهم الجنرال « ديون » فاجتمع ممثلو الامة لدرس الموقف والاطلاع على تقارير القادة ، الا انهم لم يتخذوا اي تدبير زجري بحق الكرديوسين اللذين حملها تقرير الجنرال « بيرون » تبعه ما حدث .

وفي ايار ١٧٩٢ قررت الجمعية التشريعية زيادة عدد المتطوعة في كل من الافواج بحيث يضم الواحد منها ثمانية رجل (كان قوام الفوج ٥٧٥ رجلاً) ، كما قررت جعل عدد الافواج ٢١٤ . ولكن استمرار حوادث التمرد والعصيان وشق عصا الطاعة ، وانتقال عدد من القادة اللامعين الى المعسكر الآخر بعد ان يشوا من اصلاح الحالة ، وتردد السلطة التنفيذية في اخذ مسيبي الاضطراب والفوضى بالشدة اللازمة - ولكن هذه العوامل مجتمعة زادت الحالة سوءاً . وما اطل شهر تموز حتى اضحى الوطن عرضة لخطر داهم ، فاعد ممثلو الامة في ٤ و ٥ منه مشروعاً يرمي الى حشد موارد البلاد ويقضي بتعبئة جميع الرجال الذين سبقت لهم الخدمة في الحرس الوطني . ونص المشروع

على مصادرة الاسلحة الخاصة ، وعلى تجمع الحرس الوطني في الاقضية والاقاليم تحت اشراف السلطات المحلية استعداداً لتلبية نداء الوطن . كما نص على الغاء نظام التطوع الاختياري لتحل محله المصادرة .

الوطن في خطر . - اعلنت الجمعية التشريعية الوطن في خطر في الحادي عشر من تموز ١٧٩٢ ، ودعت الى حمل السلاح . وقد جاء في النداء الذي توجهت به الى الامة ان كل منطقة تعي ، فضلاً عن الافواج المفروضة عليها ، وحدة اضافية من الحرس الوطني ، وتضعها في خدمة فرنسا مجهزة ومسلحة ، تستحق شكر الوطن .

نص مشروع التعبئة على تجنيد ٤٥٠ الف رجل . ودعت الولايات الثلاث والثمانون الى تقديم خمسين الف رجل يسد بهم النقص في الجيش النظامي . ولم توفر التداوير الجديدة قوات الدرك والمحاربين القدماء ، فاخذت فرقتين من الاولى واحلت بضع كتاب من قدماء المحاربين محل القوات النظامية في حماية القلاع والحصون .

وفي ١٧ تموز قررت الجمعية التشريعية تعبئة اثنين واربعين فوجاً جديداً من المتطوعة . وفي ٢٣ منه اقرت قادة جيش الرين على مصادرتهم الرجال والاسلحة ، وخولت سائر قادة الجيوش حق اللجوء الى التدبير نفسه . ثم اخضعت للمصادرة والتعبئة الفتيان الذين اتموا السادسة عشرة من سنهم .

وبعد هزيمة « فونتوا » واستسلام « لونغوي » (١٩ و ٢٢ آب) اضيفت احكام جديدة الى قوانين السلامة العامة والطوارئ تميز اعدام كل مواطن يجهر بعزمه على القاء السلاح في اثناء دفاعه عن موقع محاصر . وفي ٢٦ آب صودر ثلاثون الفاً من متطوعة باريس والمناطق المجاورة لها وارسلوا الى جيش « لوكنيو » لانه كان في حاجة ماسة الى المدد .

وتعاقبت التدابير تحت ضغط الحوادث والاحتمالات ، فضوعف عدد الوحدات الخاصة كالفيلق الحر والكتائب الاجنبية المؤلفة من مرتزة بلجيكيين وجرمانيين . وانشئ واحد وعشرون فوجاً قنصاً اطلق عليها اسم « افواج المشاة الخفاف » .

واهتمت الجمعية التشريعية بتنظيم الادارات المدنية المشرفة على القوى المسلحة ، فأنشأت في آب ١٧٩٢ اللجنة العسكرية وخولت اعضاءها الثلاثة حق الاشتراك في اعمال لجنة الدفاع . وفي نيسان ١٧٩٣ اخضعت اعمال المجلس التنفيذي (الحكومة) لاشراف لجنة السلامة العامة ، وما لبث ان تفرع من هذه اللجنة ادارة خاصة سميت « مجلس ادارة العمليات العسكرية » ، واخضع لاشرافها وزير الحربية ومفوض التنظيم والحركة في جيوش البر . وقد عملت هذه الادارات بهمة واخلاص . وكان وجود « لازار كارنو » في لجنة السلامة العامة وعلى رأس « مجلس ادارة العمليات » ضماناً كافية لسير الامور على ما كان يشتهي المخلصون .

كان « كارنو » مفوضاً لدى جيش الشمال (المفوض هو ممثل مجلس الامة لدى القوى المسلحة) عندما عقدت لجنة السلامة العامة جلسة خاصة لدرس الموقف الحربي ورفع مستوى الجيش . فاقترح العضو « بريور » ضم « لازار كارنو » الى اللجنة لانه بين ممثلي الامة الرجل الوحيد الذي يصدر في الشؤون العسكرية عن معرفة واختصاص .

تسلم « كارنو » ادارة العمليات الحربية في ١٤ آب ١٧٩٣ ، وظل طيلة عامين المهيمن الفعلي على جيوش الجمهورية ، ولقب عن جدارة بـ « منظم النصر » . وكانت فكرة التعبئة العامة قد جالت في الرؤوس منذ اول آب ، فاستهل « كارنو » عهده باستصدار مرسوم بالتعبئة نصت مادته الاولى على ما يلي :

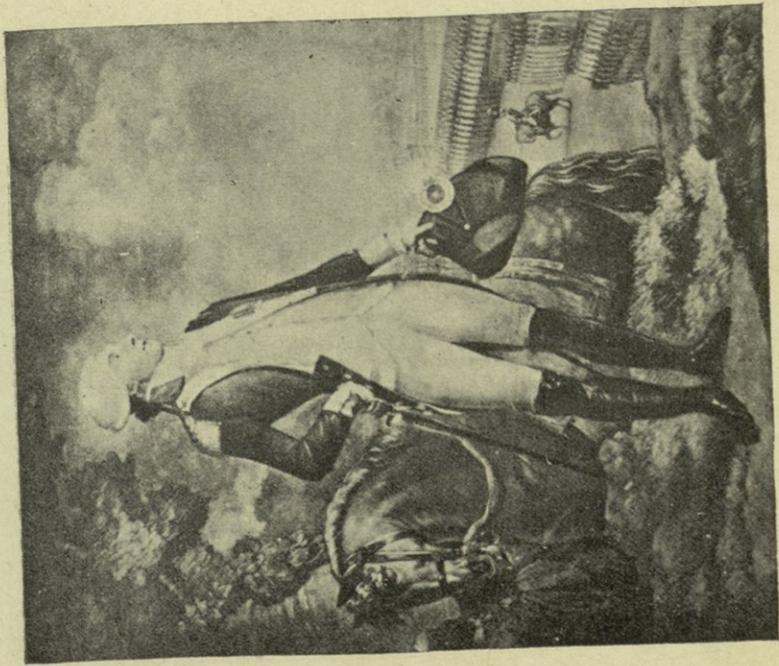
« من الآن الى ان يتم طرد العدو من اراضي الجمهورية ، يصادر جميع الفرنسيين مصادرة دائمة لمصلحة القوى المسلحة . فالشبان يخرجون للحرب ، والرجال المتزوجون يصنعون الاسلحة ويؤمنون نقلها الى الجبهة . والنساء يصنعن مخيمات والبسة ويتعاطين التمريض في المستشفيات . والشيوخ يخرجون الى الساحات العامة لينفخوا في الشبان الشجاعة والحماسة ، ويغذوا في الصدور الحقد على الملوك ويبشروا بوحدة الجمهورية . »

بدأت التعبئة العامة وانتهت في ثلاثة اشهر دون ان تثير اعتراضاً او تصطدم بعقبة جدية . بقي ان تؤمن اللجنة في جيش الجمهورية المؤلف من كراديس نظامية وفيالق حرة وكتائب اجنبية وافواج من المتطوعة والحرس الوطني . اقترح بعض ممثلي الامة منذ صيف ١٧٩٢ الحاق المتطوعة بالجيش النظامي ليدوبوا فيه ، فسفقت الاكثوية هذا الاقتراح « لانه يزعج بالروح الثوري في وسط رجعي متفوق » . ولما طرحت المسألة على بساط البحث في صيف ١٧٩٣ اقترح « كارنو » و « ودلماس » العكس ، اي تذييب القوات النظامية في افواج المتطوعة . ولكن القادة عارضوا هذا الاقتراح لان تطبيقه يمزق صفوف افضل ما في الجيش من قطععات . واخيراً رؤي توحيد القوى البرية المسلحة على اساس تداخل الافواج ، فتألف اللواء الواحد من فوجين نظاميين واربعة من المتطوعة ، فيأخذ هؤلاء عن النظاميين احترام الرؤساء والتقييد بالنظام ، ويأخذ النظاميون عن المتطوعة حب الوطن والاخلاص للجمهورية .

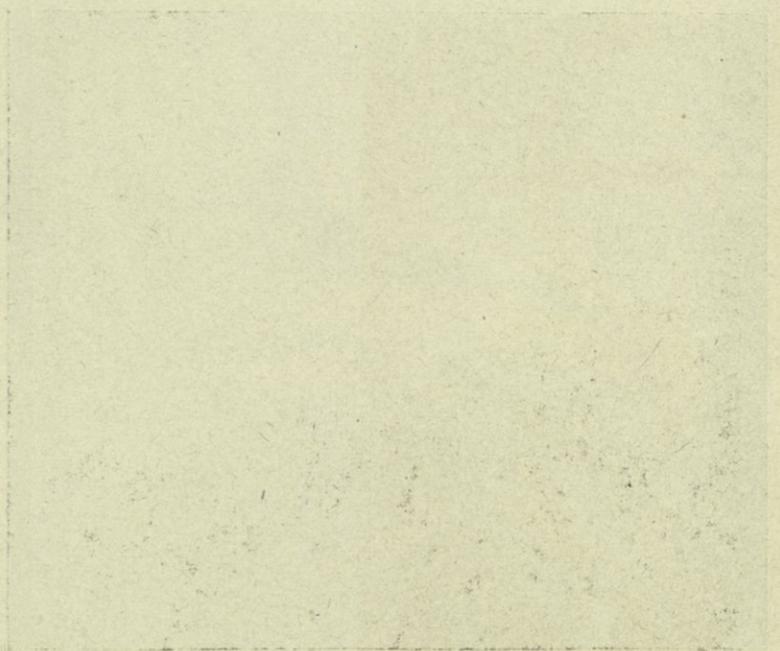
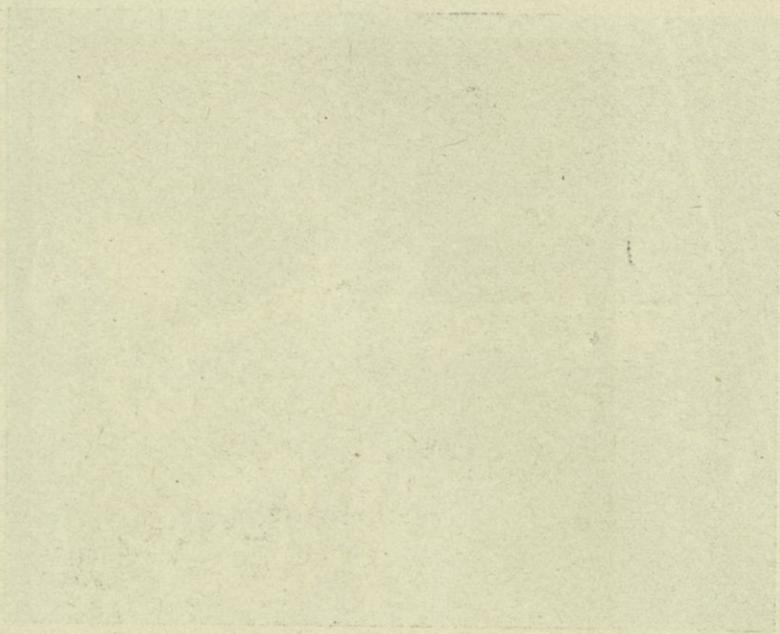
وقد قضى التنظيم الجديد بتوحيد اللباس والسلاح والشارات واساس الراتب الشهري . وما انصرم العام ١٧٩٣ حتى تألف من ٢١٣ فوجاً نظامياً ومن ٧٢٥ فوجاً من المتطوعة ، مئة وسبعة الوية او ٢١٤ نصف لواء لان « كارنو » وزملاءه اعتمدوا هذا التقسيم رغبة منهم في ايجاد وحدات لجميع الضباط الكبار .



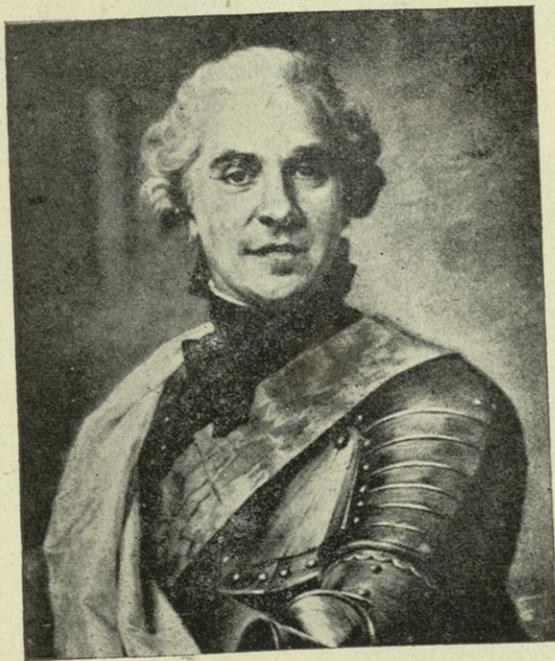
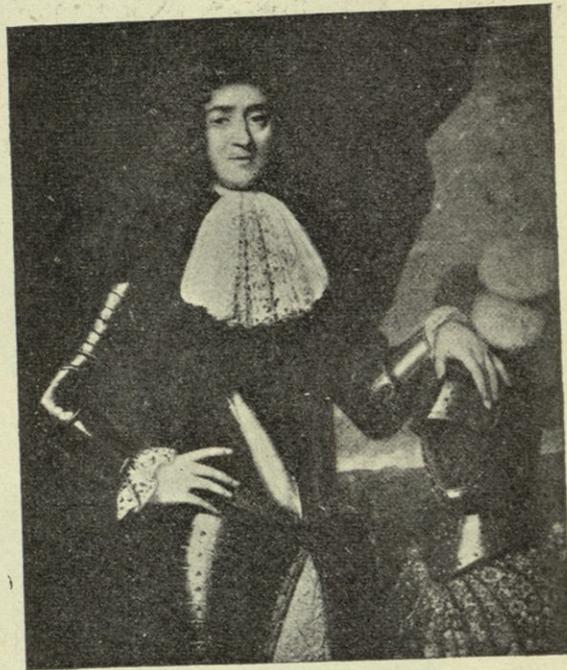
فوبان



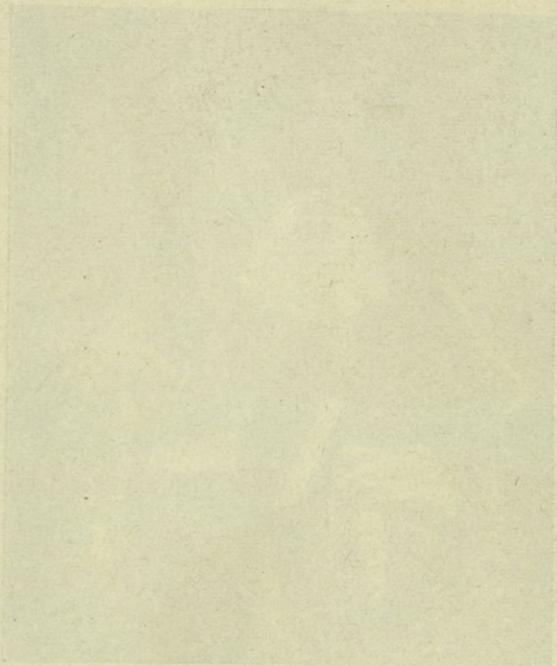
لافایت



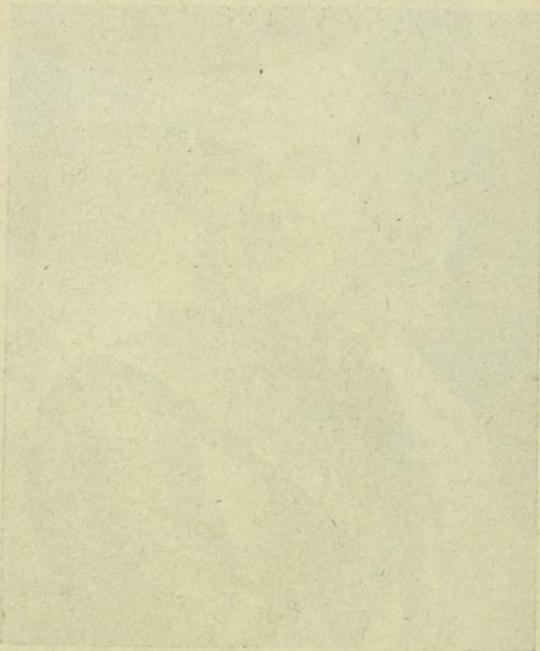
دوق مار لبروغ



المارشال دي ساكس



وینا بانی



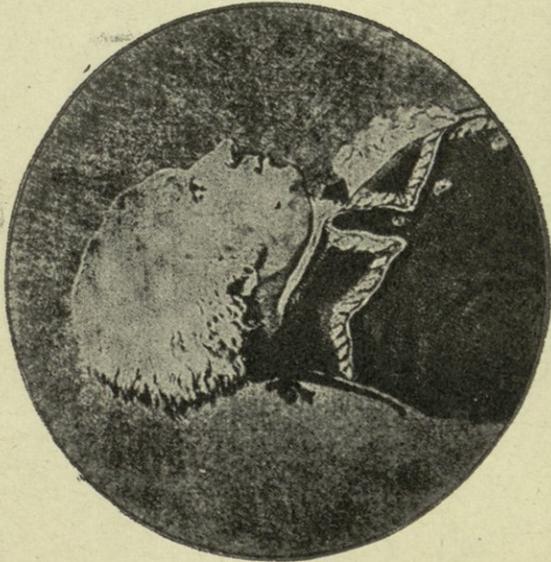
بانی بانی



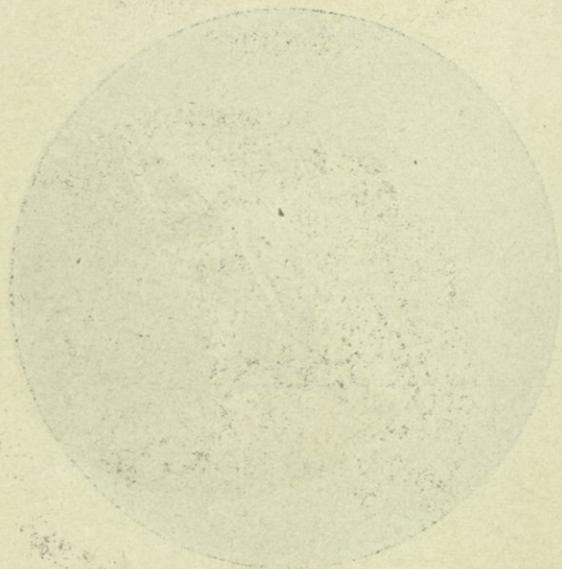
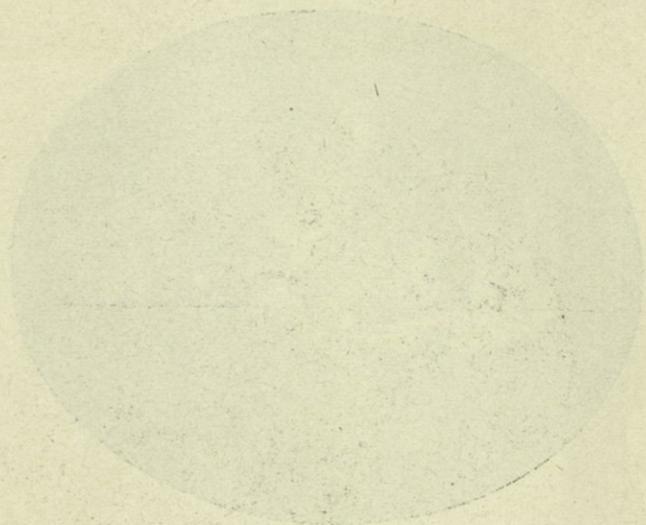
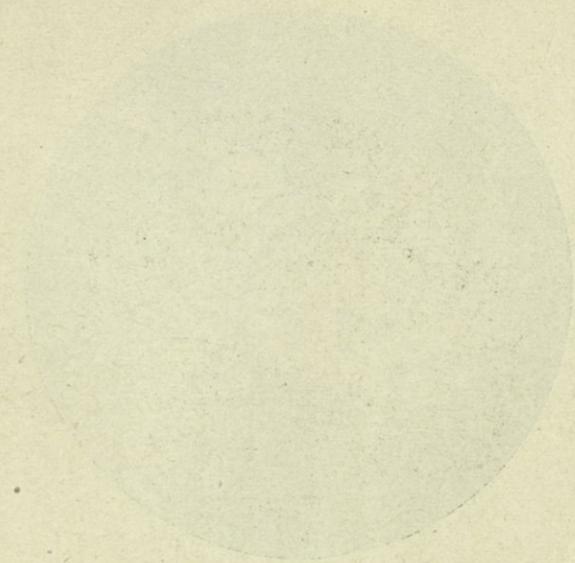
نيوريه



فردريك الثاني ملك بروسيا



كلارمن



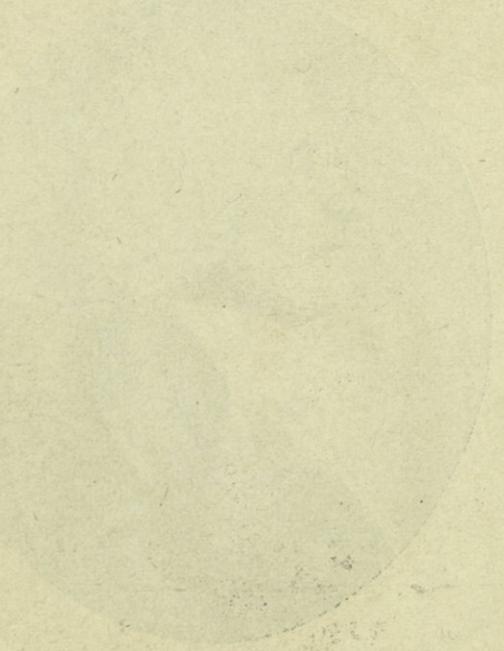
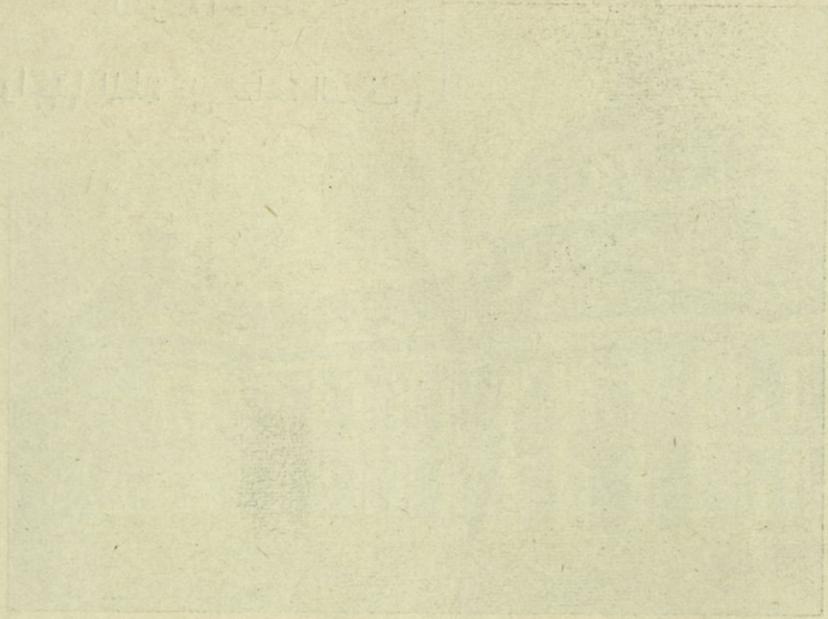
المدرسة الحربية

(واجهتها المطلة على ساحة الشرف)



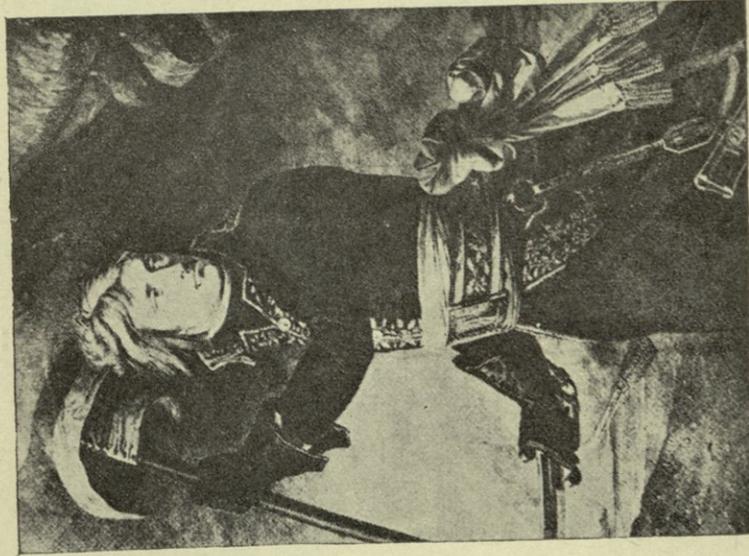
كارنو في العام ١٧٩٢

(1871-1872)





هوش



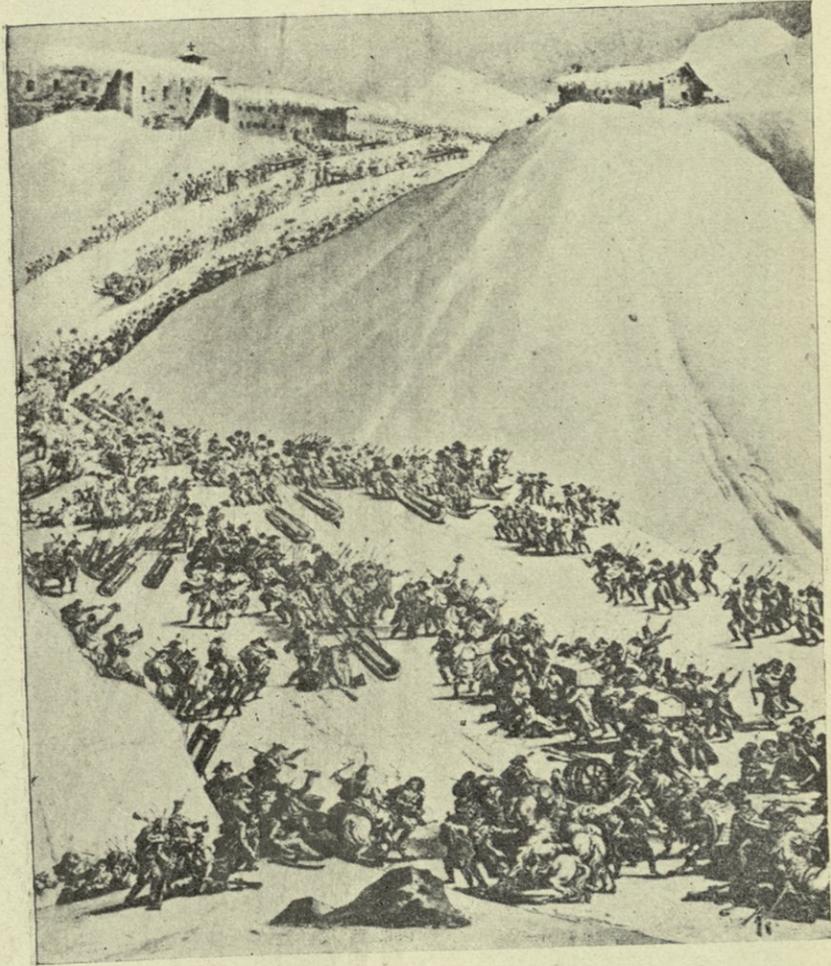
بوناپوت علی جسر ارکول



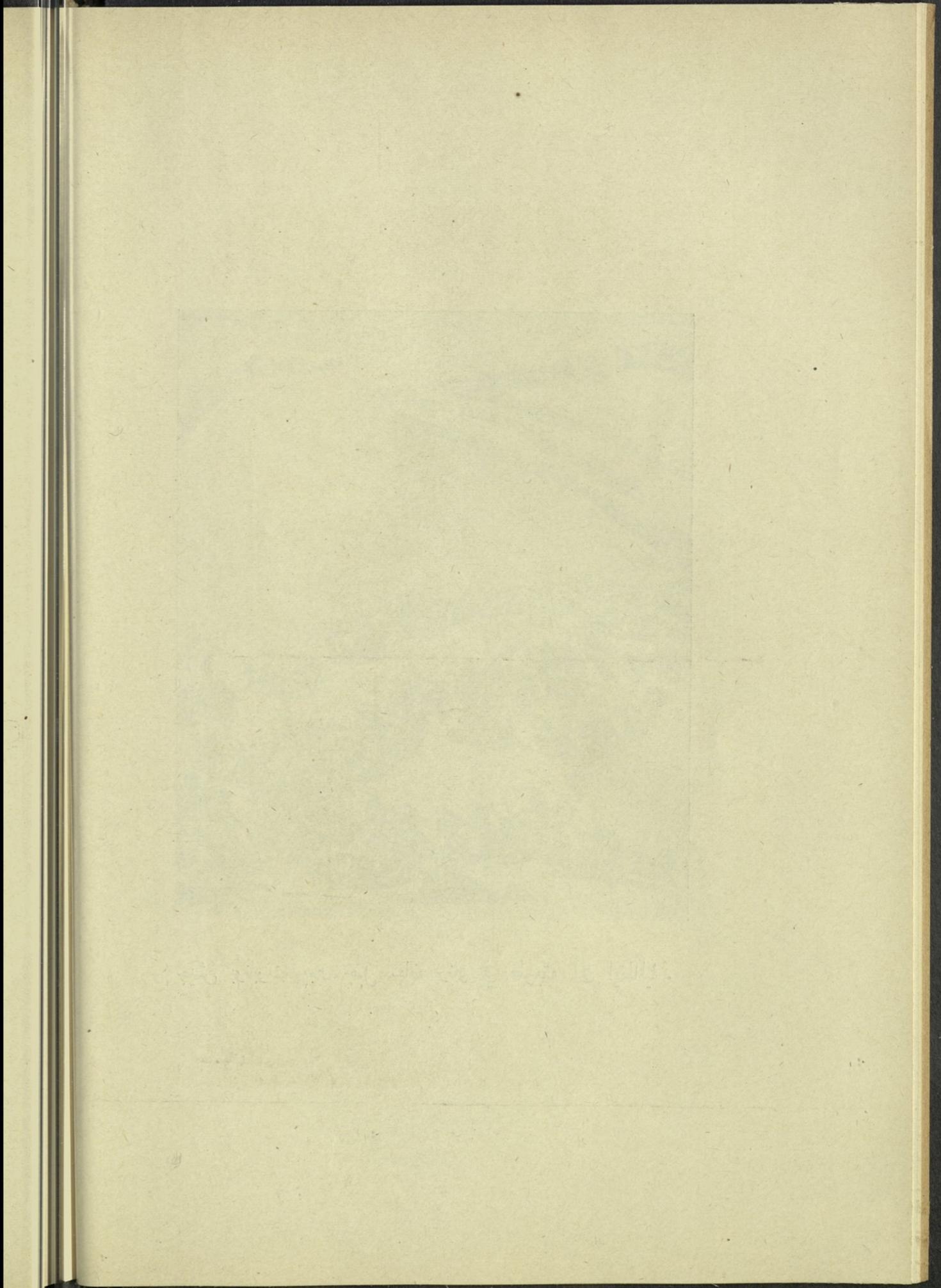
کلبر

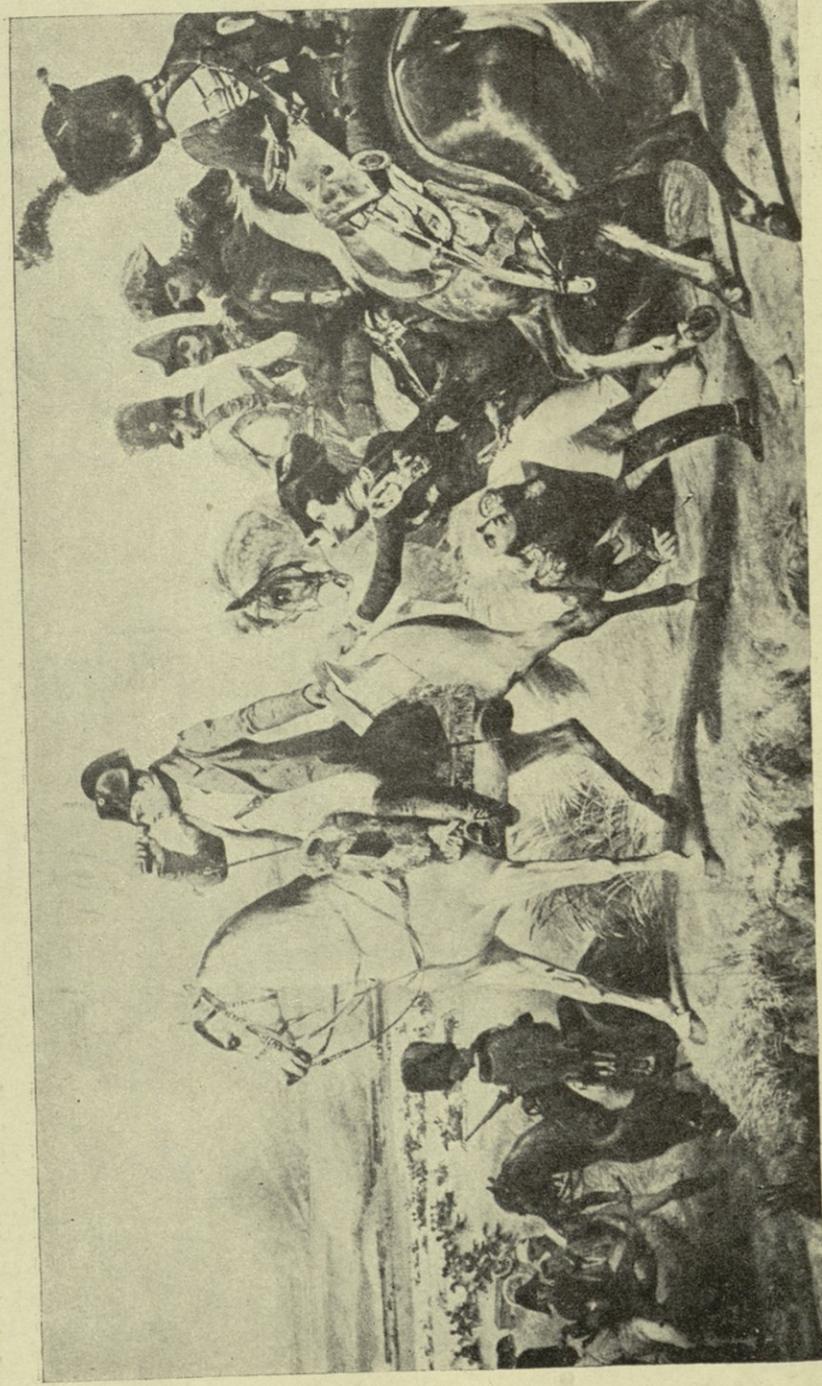


92-10-10-10

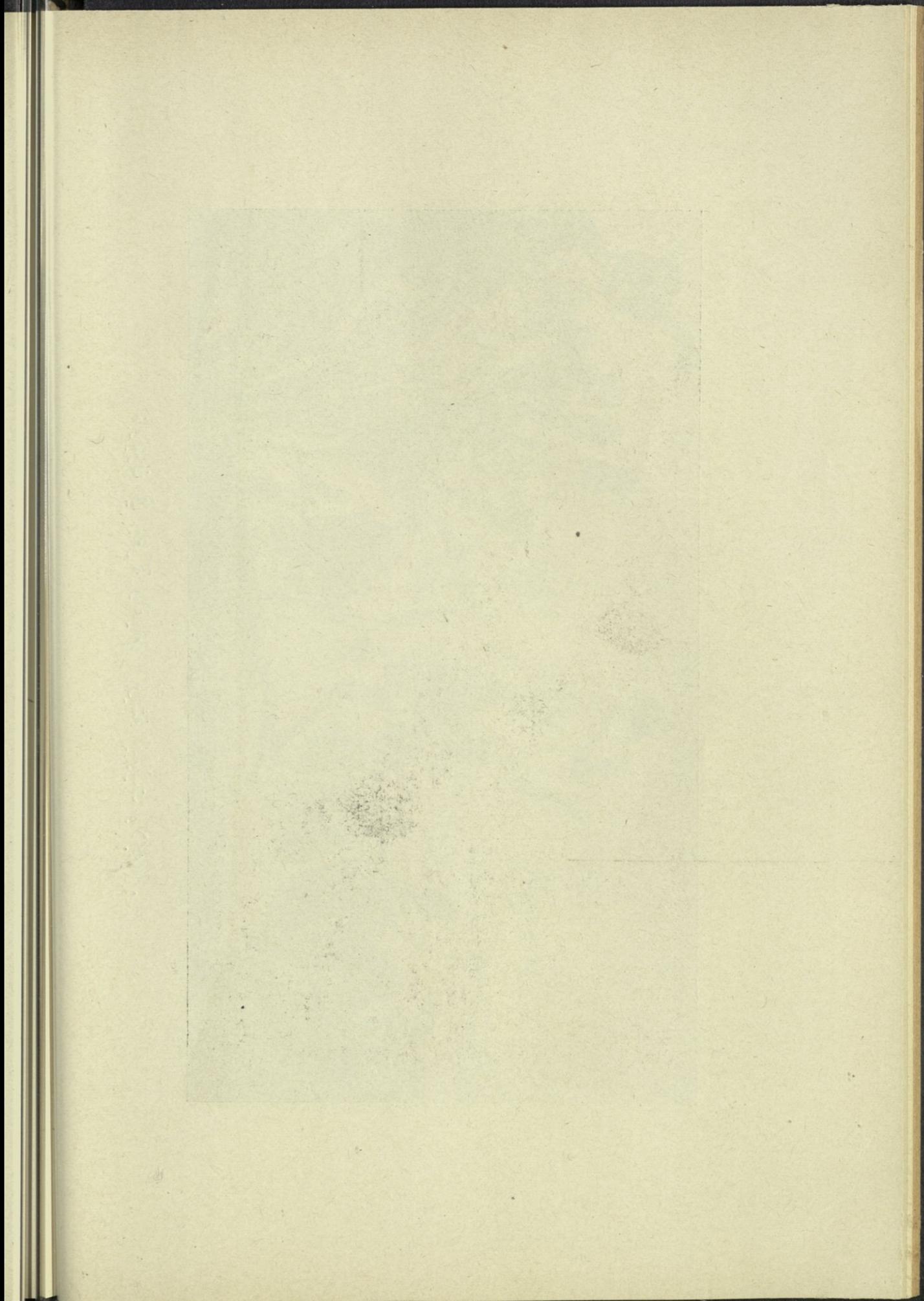


جيش بونابوت يعبر جبل سان برنار في طريقه الى ايطاليا .



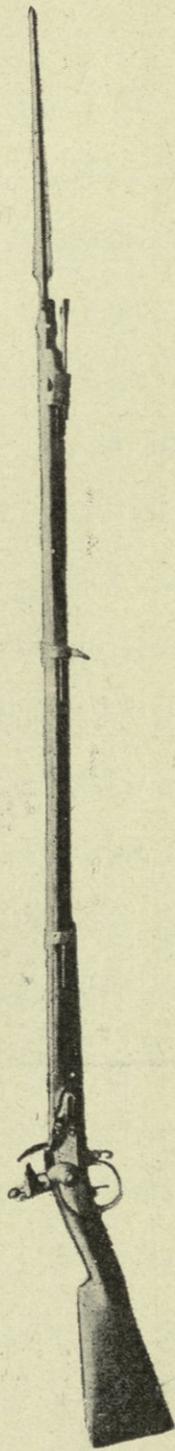


نابوليون في معركة واغرام (بريشة ايبوليت بلانجه).





كتيبة ماري لويز (« انتهبوا ، الامبراطور ينظر النبا! »)



بنديقة للمشاة من طراز العام ١٧٧٧ ، معدلة في السنة التاسعة للثورة .

THE UNIVERSITY OF CHICAGO
LIBRARY

لم تكن تعبئة الرجال كل شيء ، فقد كان على الدولة ان تسلحهم وتجهزهم وتغذيهم ، وهي اشياء يحتاج تأمينها الى مال كثير . فتحت الحكومة لحاجات الدفاع الوطني حساباً جارياً واطلقت يد لجنة السلامة العامة في الانفاق ، وفي اتخاذ التدابير الكفيلة بوضع كل ما هو ضروري للحرب في متناول القوى المسلحة . فعمدت اللجنة الى مصادرة الخيول والمركبات والاسلحة الفردية . ثم وضعت يدها على مصانع الاسلحة وانشأت مصانع جديدة في منطقة باريس ، وصارت الحديد المنقول والثابت من الافراد والاديرة ، ولم تغف الكنائس فصارت اجراسها .

واستخدمت لجان الدفاع الوطني تقدم العلم في تجهيز الجيش بوسائل الاتصال الحديثة كالتلغراف . وعهدت الى وحدة الهندسة العسكرية بتقوية الحصون والقلاع ، لان معارك الحدود ابرزت اهمية الانشاءات التي قامت تحت اشراف المارشال « فوبان » في عهد لويس الرابع عشر .

بقي تموين الجيش وتجهيزه . فمنذ ١٧٩١ دعيت السلطات المحلية في كل ولاية الى تجهيز المتطوعة الذين لا يمكنهم ان يجهزوا انفسهم . ثم انشئت معامل لنسج الاقمشة الصوفية تحت اشراف لجان الدفاع الوطني . الا ان التجربة لم تنجح فاعتمدت وزارة الدفاع طريقة التلزم . وفي الوقت نفسه دعى المواطنون الى تقديم الالبسة هدايا الى الجنود . واجبر صانعو الاحذية على العمل مدة معينة في تأمين حاجة الجيش . ولكن فريقاً من الجنود باعوا احذيتهم من المدنيين ، فحظرت السلطات على الشارين استعمالها تحت طائلة المصادرة والحبس .

اما اعاشة الجيش فقد كان يتبع في تأمينها نظام التلزم . ثم اخذتها الدولة على عاتقها واستمر العمل بهذا النظام ستة اشهر ، اعتمد بعدها اسلوب الشراء

الجيش الفرنسي

المباشر ، فكانت دائرة الاعاشة في كل كردوس تشتري لوازمه من اللحوم والحبوب لمدة ثلاثة اشهر . وقضت حالة الحرب بمصادرة الحبوب والماشية لتأمين حاجة القوى المسلحة ، وانشئت لجان التموين في وزارة الدفاع ، فاخذت على عاتقها تأمين اعاشة الجيش .

واستلزم سرعة انتقال الكراديس الى المناطق المهدة تنظيم النقل ، فانشىء في هيئة اركان الحرب مكتب خاص لهذا الغرض ، فعمد الى مصادرة وسائل النقل المختلفة ، واخذ على عاتقه حماية القوافل ، فكان هذا التنظيم خطوة واسعة نحو القضاء على الفوضى ، وايداناً بانقضاء عهد التدابير المرتجلة .

التجنيد . - ما عم الامر برجال الجمهورية الاولى حتى ادركوا ان مصادرة المواطنين تدبير جريء ، ذو طابع استثنائي لا يجوز اعتماده في السلم ، فوضع الوزير « جوردان » مشروع قانون بالتجنيد وعرضه على ممثلي الامة ، فاقروه في الخامس من ايلول ١٧٩٨ .

نص القانون على تعبئة جيش السلم من طريق التطوع الاختياري ، فاذا لم يتقدم عدد كاف من المواطنين ، بصار الى تجنيد جميع الرجال الذين تراوح اعمارهم بين عشرين وخمس وعشرين سنة ، على ان يوزع الخاضعون للتجنيد على خمس طبقات تبعاً للسن ، ويبدأ بدعوة الرجال الاصغر سناً .

وقد تجنب « جوردان » الوقوع في الخطأ الذي وقع فيه سلفاؤه ، فلم يؤلف من المجندين وفاقاً للقانون الجديد قطعات خاصة على هامش الجيش ، بل ضمها اليه ، وهكذا وضع الوزير اساس الجيش العصري ، وظل قانونه نافذاً حتى اواخر عهد الامبراطورية .

٣ - التكتيك والرجال

تقدم معنا ان « كارنو » مثل دوراً رئيسياً في تنظيم جيش الثورة . وقد

اجمع المؤرخون على التنويه بآثره في توجيه القادة وادارة العمليات الحربية وفاقاً لمبادئ جريئة ، لاقت معارضة شديدة في « لجنة السلامة العامة » ، ولكن الحوادث اثبتت جدواها .

كان « كارنو » يوصي القادة باعداد الخطط سراً ، وينصح لهم بتضليل العدو بحيث يظل جاهلاً حتى اللحظة الاخيرة حقيقة ما وطموا العزم عليه ، لان المفاجأة من عناصر النجاح في الحرب .

وقد كتب الى القائد « بيشغرو » يقول : « ترغب اليك لجنة السلامة العامة ان تعد عدتك للعمل الحاسم وان تحيط تدابيرك بسياج من الكتمان . اننا ننظر منك عملية هجومية صاعقة يرتك امامها العدو ، فيسهل عليك الاجهاز عليه بضربات متداركة . »

وكتب الى « جوردان » : « ينبغي لك ان تلاحق العدو فلا تدع له لحظة يتنفس فيها الصعداء . لا تضع الوقت سدى في محاصرة المراكز المحصنة بل اسع الى خوض غمار معركة حاسمة بكل ما تملك من قوى . »

ولم من قادة العهد الملكي « ديوريه » و « كيلرمان » اللذان انقذا الوطن والجمهورية في موقعة « فالمي » (ايلول ١٧٩٢) . اما « جويير » و « دوزيكس » فقد ادركتها الثورة ضابطين كما ادركت كلا من « ماسينا » و « هوش » و « مارسو » صف ضابط . اما القادة الذين احرزوا رتبهم بعد ١٧٨٩ فاشهرهم « جوردان » و « كليبر » و « مورو » و « شامبيونه » .

اعتمد هؤلاء القادة تكتيكاً واحداً في القتال وهو تركيز الجهود الهجومية في قطاع معين ومواجهة العدو بقوى متفوقة . وكان التكتيك يقضي بأن يبدأ الرماة التحرش بالعدو تدعمهم المدفعية وتغطيهم ، ثم تتحرك القوات الرئيسية فتنتشر على جبهة ضيقة ذات عمق كاف وتندفع الافواج ، ضابطها على

رأسها ، والحراب مثبتة في رؤوس البنادق .
كانت الحماسة العنصر الاساسي في القتال ، لان معظم قادة الجيش
الجمهوري كانت تعوزهم الخبرة والعلم ، فالقوا بشجاعتهم ومثورة خاطرهم في كفة
الميزان ، ليتأثر جنودهم خطاهم وينالوا باندفاعهم ما كان جنود العدو يرجون
بلوغه بحفاظتهم على النظام ، وتنفيذ تعليمات رؤساء مجربين .

الفصل الثامن

جيش المهربين القنصلي والامبراطوري

١ - النصر بخلق

لا يمكن فصل ترجمة بوناپرت عن تاريخ الجيش الفرنسي . فقد شهد نشأة جيوش الثورة وعمل منها جيوشه . كانت قبل ان تسلم اليه قيادها تقاتل من اجل الوطن وفي سبيل مثل اعلى ، فجعل منها اداة طيبة تحارب لانها تحت امرته ، وتحرز النصر تلو الآخر لانه ارادها ان تنتصر .

وفي عهده ابصر النور « الجيش الاعظم » جيش الامبراطورية ، ففتح به بوناپرت الامصار وكاد يبدل خريطة العالم لو لم يحتل التوازن بين الطموح والمستحيل ، قهوي العبقرية صريعة امام تفوق الخصوم .

في اذار من العام ١٧٩٦ وصل بوناپرت الى « نيس » ليتولى قيادة الجيش الذي سيرته فرنسا الى ايطاليا . فوجد معاونيه في انتظاره وقد آلمهم ان يعملوا تحت امره قائد شاب ، عديم الخبرة ، استهوته السياسة فنزل الى معسكرها ولكنها لم تصرفه عن الطموح الى ارفع المراتب العسكرية .

كتب القائد « ماسينا » في مذكراته عن اجتماع « نيس » ما يلي : « كانت المقابلة قصيرة الامد ، لان بوناپرت ، هذا القائد الصغير ذا النظرات النافذة ، لم يدع لنا مجالا لابداء ملاحظتنا ، فاصفينا اليه بشرح خطته وكان على

رؤوسنا الطير . لقد فرض علينا احترامه وشعر كل منا انه وجد سيده
وزعيمه . »

وفي التاسع من نيسان تحرك الجيش الفرنسي وفاقاً للخطة المرسومة .
وفي ١٢ و ١٤ منه كسب موقعي « مونتينيوتى » و « ديغو » ودق اسفيناً بين
النسويين وجيش سردينيا . وفي ٢١ منه هزم هذا الجيش في « سيفا »
و « موندوني » ، فالقت سردينيا السلاح في ٢٨ نيسان . وفي غضون ثلاثة
اسابيع كانت بلاد « الليمون » خارج الساحة . وفي الخامس من ايار قام
بونابرت بمانورة جريئة امنت له الفوز في موقعة « لودي » فبلغ نهر « اديج »
وقذف بمعظم الجيش النسوي الى ما وراء الحدود . وبعد ان هزم القائد
« ورمزر » في « لوناتو » و « كاستليونى » و « روفيريدو » انهى لمنازلة القائد
« ألفنزي » الذي هبط من التيرول على رأس جيش كبير . فكانت موقعتا
« اركول » في تشرين الثاني و « ريفولي » في اوائل ١٧٩٧ فحرز فيها بونابرت
انتصارين رائعين ، ثم مشى للقاء الارشيدوق شارل ، ولكن الامير النسوي
تفادى المعركة وتقدم بعروض للصالح .

تبع الرأي العام الفرنسي خطى القائد الشاب باهتمام ولهفة ، فاخذت
شعبته تنمو تبعاً لتزايد نفوذه العسكري والسياسي . ولم تكن انتصارات
ايطاليا سوى حلقة في سلسلة اعمال باهرة رفعت بونابرت الى مصف عظماء
القادة والسياسيين .

نشأة بونابرت . — ابصر نابوليون بونابرت النور يوم ضمت فرنسا اليها جزيرة
كورسيكا . ودخل في العام ١٧٨٤ المدرسة الحربية ، وتخرج منها ملازماً وهو في
السادسة عشرة من سنه ، فالحق بكردوس المدفعية في « فالانس » . وما
ان عصفت ريح الثورة ١٧٨٩ حتى اعتنق بونابرت المبادئ الجديدة ، ورتقى

الى رتبة رئيس (كابتن) في المدفعية . وفي لوائل العام ١٧٩٢ انتقل الى باريس وشهد من كئيب التطورات السياسية والانقلاب الاجتماعي الخطير ، ثم زار مسقط رأسه زيارة قصيرة غادر بعدها كورسيكا وقد آلى على نفسه ان يعتزل المجتمع مدة من الزمن يتاح له خلالها ان ينشئ نفسه بنفسه ، سياسياً وعسكرياً .

وقد صرف بوناپرت سنة وبعض السنة في قراءة «ابوقراط» و «شيشرون» و «مونتانيه» و «مونتسكيو» فدلل بهذا على ميله الى تقديم شؤون الحكم والسياسة على العمليات العسكرية .

ومن ثم انصرف الى دراسة اشهر مواقع التاريخ ، فاكب على قراءة النقاد العسكريين في القرن الثامن عشر ، وعني عناية خاصة بدرس حملات «تورين» وفرديريك الكبير . ولم يغفل فتوحات يوليوس قيصر و «هنيغل» واسكندر المقدوني .

خرج بوناپرت من عزلته ليقود فوجاً مدفعيةً في قطاع البحر المتوسط ، وكان الفرنسيون همون بـ «طولون» محاولين انتزاعها عنوة من ايدي الانكليز . واتفق ان قتل قائد المدفعية بعد وصول بوناپرت بايام ، فوقع عليه اختيار «ساليستي» ممثل الشعب لدى الجيش الفرنسي للحلول محل القائد الجريح ورفي للمناسبة الى رتبة عقيد (ليوتان كولونيل) .

ادرك القائد الشاب للوهلة الاولى ان اخذ «طولون» عنوة ليس بالمهمة السهلة فنصح للقيادة العامة بان تسعى الى احتلال شبه جزيرة «ايغيليت» التي تفصل بين المرسى الصغير والمرسى الكبير ، حتى اذا تم لها ذلك نصبت بطاريتها في شبه الجزيرة مهددة بها الطريق الوحيد لانسحاب الاسطول المعادي ، فيضطر الانكليز للجلاء عن المرسين . وقد عملت القيادة بنصيحة القائد

الشاب ، وترتب على العمل بها جلاء الانكليز عن « طولون » .
وبعد تحرير « طولون » رقي الى رتبة لواء ، والحق بركان حرب الجنرال
« دومريون » قائد الجيش الفرنسي في ايطاليا . فعهد اليه رئيسه بقيادة لواء
المدفعية واعترف في تقاريره الى الرؤساء بانه مدين بانتصاراته لخطط بوناپرت
الجرية .

وبعد حوادث ٩ « ترميدور » عين مديراً لمكتب الخرائط في « لجنة السلامة
العامة » ، فوضع عدة مذكرات طواها على وجهة نظره في ادارة الجيش
الفرنسي في ايطاليا ، فاعجب الرؤساء بأرائه وانتدبوه لقيادة الجيش المذكور
كما تقدم معنا .

وقد اكتشف نابوليون من خلال الحملة الايطالية ضعف الحكومة وعجزها
عن فرض ارادتها عليه ، الا انه آثر ، رغم هذا ، ان ينتظر الظروف
المواتية لاستغلال نجاحه كقائد وكسياسي . ولم يفته ، عندما وافقت
حكومة المديرين (ديكاتور) على ارسال حملة بقيادته الى مصر ، ان الرؤساء
يريدون الخلاص منه ، وانهم تعمدوا التطويح بشهرته ونفوذه في مغامرة
خاسرة . وقد رأيناه يعود من مصر اشد شكيمه منه بعد عودته ظافراً من
ايطاليا .

حوادث برومير والجيش . — وجد نابوليون البلاد تتخبط في بحران من
القلق والفوضى وعدم الاستقرار . وكان « سيس » يبحث عن قائد كفؤ بعد
ان فجعت فرنسا بـ « هوش » المع قادتها الشباب وابعدهم نظراً ، وبعد ان خيبت
املها هزيمة « جوبير » في « نوفي » . وقبل وصول نابوليون ولي « مورو »
القيادة العامة ، وكان الجمهور بعده من قادة الدرجة الاولى ، ولكنه لم ينزل
نفسه هذه المنزلة ، فما ان وطئت قدما الكورسيكي الارض الفرنسية حتى

وضع «مورو» استقالته تحت تصرف «سيس» وقال له ان نابوليون بونابرت هو رجل الساعة .

وقد كان ، وجاءت حوادث ١٨ « برومير » فاذا نابوليون رجل الساعة سياسياً وعسكرياً ، فرض نفسه قنصلاً اول ، وطفق يسعى الى استالة جيش الشمال بعد ان جعلت منه انتصارات ايطاليا معبود القوات التي عملت تحت امرته . ولكن «مورو» الذي تخلى له عن مركزه مختاراً راح يعمل ضده في ثكنات الشمال ، ويغذي الميول الجمهورية في قطعات الجيش . فادرك نابوليون ان سيبله الوحيد الى غزو قلوب المجندين هو احراز انتصارات جديدة .

مارنغو . - كانت فرنسا تواقه الى الاستقرار في الداخل والى السلم في الخارج ، فنجح نابوليون في القضاء على بواعث الفوضى والتدمر . اما السلم فقد اراده الشعب الفرنسي مشرفاً ، يقر الحدود الطبيعية التي امنتها الثورة (الضفة اليسرى لنهر الرين وبلجيكا) . ولكن انكسروا لم تنظر بعين الرضى الى وجود الفرنسيين في « انفرس » ، فرفضت عروض الصلح الفرنسية وحملت النمسا على رفضها ، فادرك الشعب الفرنسي ان لا مفر من الحرب ، فمضى وراءه رئيسه يدعمه بكل قواه .

كان على نابوليون ان ينظم الجيش تنظيمًا يجعل منه اداة صالحة لكسب الحرب ، ودعامة يستند اليها في السعي الى ربح السلم . فعين الجنرال « بوتييه » ، رئيس اركان حربه في ايطاليا ومصر ، وزيراً للحربية (حل كارنو محل بوتييه بعد تعيين الجنرال في ايطاليا) . وكان الجيش الفرنسي يضم ربع مليون مقاتل ، فعزز نابوليون بدعوة مئة الف فرنسي الى حمل السلاح ، وبجض المواطنين على التطوع . ثم عمد الى اختيار القادة فوضع تحت امرة «مورو» ، رغم ما كان بينها ، جيوش الرين وسويسرا وكانت تضم ١٣٠ الف رجل يقابلها ١٥٠

الفأ من الاعداء بقيادة الجنرال « كراي » . وعهد الى « مسينا » بقيادة جيش ايطاليا (٣٦ الف مقاتل يقابلهم ١٣ الفاً بقيادة ميلاس) .

وقضت خطة نابوليون بان تعبر قوات « مورو » نهر الرين سراً في منطقة « كونستانس » ثم تندفع على طريق فيينا . وفي هذه الاثناء يزحف هو ، اي نابوليون ، باربعين الف مقاتل من منطقة جنيف - ديجون وينقض على مؤخرات الجنرال « ميلاس » المواجهة لقوات « مسينا » في ايطاليا .

خاضت قوات « مسينا » غمار معارك طاحنة ضد عدو متفوق . وفي اواخر نيسان انسحبت الى « جنوى » وراحت تستعد لحرب حصار طويلة الامد .

واحجم « مورو » عن عبور الرين ظناً منه ان مجازفة نابوليون ستنتهي الى كارثة . فتركه القنصل الاول وشأنه وخف لانقاذ « مسينا » ، فاجتاز بقواته مضيق « سان برنار » بين ١٥ ايار و ٢٣ منه ، ومنه هبط الى مقاطعة ميلانو وعبر نهر بو ، وما عم ان احتل ممر « ستراديبلا » قاطعاً على القائد النمساوي خط الرجعة فاضطر للقتال في « مارانغو » حيث هزمه نابوليون شر هزيمة . فكان لهذا الانتصار وللخطط الجريئة التي ادت اليه صداها في محافل اوروبا العسكرية واثرا في تقوية معنويات الفرنسيين . وما انصرم العام ١٨٠٠ حتى كانت الجيوش الفرنسية قد هزمت اعداءها في كل مكان . وفي التاسع من شباط ١٨٠١ اعترفت معاهدة « لونفيل » بالحق بلجيكا وضمه الرين اليسرى بالدولة الفرنسية ، وبالحماية الفرنسية لجمهوريات سويسرا وباتافيا وليغوريا والالب .

واقرت الاحتلال الفرنسي للبييمون . وفي العام التالي وقعت انكلترا على عهدة اميان .

وهكذا حقق نابوليون الاستقرار في الداخل والسلم الشريف في الخارج فغزا بانتصاراته قلوب الفرنسيين . الا انه لم ينم على الثقة ، لان اشاعة كاذبة

عن معركة « مارانغو » كادت تطيح بمركزه وسمعته ، ففتح عينيه على ما يحاك حوله . وكانت يقظته في محلها ، فقد قام خصومه بسلسلة محاولات للقضاء عليه ، منها محاولة « الاوبرا » في ١٠ تشرين الاول ومحاولة « سان نيكيتر » في ٢٤ كانون الاول . ولم يخذعه الصلح مع انكلترا ، فادرك ان السلم لن يعمر طويلاً ، وان فرنسا لا تستطيع ان تحتفظ بثار جهودها الا باتحاد كلمتها وبتعبئة مواردها تعبئة دائمة . وادرك ايضاً ان الجيش هو السلم التي يمكنه ان يرقى بواسطتها الى المركز الذي يطمح اليه . فوجه الى القوى المسلحة عناية خاصة ، وراح يتقرب من الضباط والجنود ليحول دون تلاعب القادة بعواطفهم . وسن انظمة جديدة جعلت منه المهيمن الوحيد على شؤون الجيش .

٢ - الجيش الاعظم

في ايار من العام ١٨٠٣ نقضت انكلترا معاهدة « اميان » ، ولكن اوروبا رتعت في ظلال السلم عامين كاملين بعد هذه البادرة الخطرة ، لان نابوليون كان مشغولاً بتحقيق مطامعه الشخصية . وما ان تم له ما كان يصبو اليه (اعتلاء العرش) حتى كانت انكلترا قد انشأت حلفاً ضده . فوقف الامبراطور حائراً لا يدري اي السبل يسلك لانقاذ فرنسا وعرشه : يضرب حلفاء انكلترا ام يهاجمها هي في عقر دارها ؟ حزم امره ، بعد امعان الفكرة ، على اعتماد الخطة الثانية وقرر غزو الجزر البريطانية بجيش كبير . وما عم ان حشد قوات الغزو في مرافئ المانش وامن لها السفن اللازمة لتقلها . الا ان عبور المانش لم يكن عملية سهلة ، فالاسطول الانكليزي يسرح فيه ويمرح على هواه ، ولم يكن لفرنسا سفن حربية تمكنها منازلة العدو ، فقد اغفلت الثورة شأن الاسطول وقضت موقعة « ابوقير » على ما ورثه العهد

الجديد من العهد الملكي . وجاء اخفاق مناورة الاميرال « فيلنوف » في آب ١٨٠٥ برهاناً قاطعاً على عجز فرنسا البحري ، فصرف نابوليون النظر عن غزو انكلترا وحول وجهه شطر النمسا ، فساق ضدها جيش المانش الذي صار مذ ذاك « الجيش الاعظم » .

تنظيم الجيش الاعظم . - في خريف العام ١٨٠٣ حشدت فرق ثلاث في معسكرات « مونرويل » و « بولونيه » و « بروج » بقيادة « ناي » و « صولت » و « دافو » . وحشدت قطعات اخرى في معسكرات « اوترخت » و « برست » بقيادة « مارمون » و « انجيرو » . وكان المركز الرئيسي في « بولونيه » .

نظم « الجيش الاعظم » على اساس انشاء فيالق واحتياط عام للخيالة وضم الفيلق الواحد فرقتي مشاة (واحياناً ثلاث فرق او اربعاً) وفرقة من الخيالة الخفيفة ، وراوح عدد رجاله بين ١٤ و ٤٠ الفاً . اما احتياط الخيالة فقد ضم فرقتين من الفرسان المدرعين واربعة فرق من الفرسان « الدراغون » ، وفرقة « دراغون » راجلة وفرقة من الخيالة الخفيفة ، واربعة وعشرين قطعة مدفعية ، وراوح عدد رجاله بين ٢٢ و ٢٥ الفاً بقيادة « مورا » . وقد استخدم الامبراطور هذا الاحتياط في مناوراته الناجحة ضد مؤخرات العدو .

وانشأ نابوليون الحرس الامبراطوري وجعل منه وحدة مقاتلة من الطراز الاول ، تضم ثمانية آلاف رجل منهم خمسة آلاف راجل والفا فارس يعززهم اربعة وعشرون مدفعاً . ودعي للانخراط في الحرس ضباط الصف والمحاربون القدماء الذين اشتركوا في اكثر من حملة ، وسلخوا في الخدمة اكثر من خمس سنوات . واعطي النفر في هذه الوحدة العسكرية رتبة منكب ، والمنكب رتبة رئيس مناكب ، وهذا رتبة ملازم ثان .

وقد نما الحرس الامبراطوري على كسر الاعوام ، فصار يضم في العام ١٨٠٩ خمسة وعشرين الف مقاتل . وفي اثناء الحملة الروسية كان الحرس يؤلف جيشاً .

الملاكات . — كان معظم الضباط في الجيش الامبراطوري من سبق لهم الخدمة في الجيش الملكي كانفار او كمنكب وعرفاء . وقد تولى قيادة الكراديس زعماء (كولونيل) شبان متوسط اعمارهم ثمانية وثلاثون عاماً . وكان المتقدمون آمورو الافواج (القومندان) والرؤساء (كابتن) والملازمون الاول في سن واحدة تقريباً ، يستثنى الملازمون الذين تخرجوا من مدرسة « فونتنبلو » العسكرية (نقلت المدرسة الى سان سير ١٨٠٨) فقد كان معظمهم دون الواحدة والعشرين .

القادة . — بلغ عدد القادة (جنرالية) في العهد الجمهوري مئة وسبعين ، ففضض نابوليون بوناپرت ، وهو بعد قنصل اول ، عددهم الى سبعة وثلاثين . وفي العام ١٨٠٥ كان اصغر القادة سناً في الجيش الاعظم دون الثلاثين من سنه وكان اكبرهم سناً في الرابعة والخمسين .

وكانت حكومة الثورة قد الغت عصا المارشالية فاصدر نابوليون في العام ١٨٠٤ مرسوماً باعادة هذه الرتبة وجعل عدد مارشالية الامبراطورية ثمانية عشر . وقد سلم عصا المارشالية الى « كيلرمان » و « بيرينيون » و « سيورويه » و « جوردان » مكافأة لهم على خدمات سابقة ، وانعم بالرتبة نفسها على « بيسير » و « بونادوت » لاعتبارات سياسية وعاطفية . اما سائر المارشالية فقد استحقوا هذه الرتبة بشجاعتهم ومواهبهم . فقد كان برتیه القائد « الذي لا يمكن ان يتم شيء بدونه » ، وكان مورا « اقدر من يتولى الاجهاز على العدو واستئثار النجاح المبدي » ، اما « ناي » فهو « اشجع الشجعان وفارس الميدان » ، وكانت

١. « مسينا » مواهب عسكرية تجعل منه قائداً فذاً . ولا ننس « انجيرو » ولوفيفر « الممتلئين حمية و إخلاصاً » و « لان » و « صولت » و « دافو » و « ماكدونالد » و « مورتيه » و « مونسي » و « برون » ، اساتذة فن المناورة في الجيش الاعظم . كان « برتیه » اكبرهم سنأ في العقد الخامس ، اما اصغرهم سنأ فهو « دافو » وقد تسلم العصا من الامبراطور وهو في الثالثة والثلاثين .

الاسلحة . - كان سلاح المشاة الرئيسي في الجيش الاعظم بندقية طويلة اثبتت في مقدمها حربة ، مدى اطلاقها مئتا متر . كان الجندي يحمل في وسطه خمسين فشكة ، وكان عليه ان يفرغ محتويات الانابيب النحاسية من البارود في فوهة البندقية ، ثم يتبع بها الرصاص ، جاعلاً الفاصل بينهما خرقة من قماش او وريقة . اما الحربة فقد كانت قصيرة وسريعة العطب . لهذا قلما استخدمها المشاة في الالتحامات ، بل كانوا ينقضون على العدو بسيف قصيرة ذات حدين .

وقد عني الامبراطور عناية خاصة بالخيالة لانه ادرك اهميتها في المناورة وحرب الحركات ، فجهز الوحدات المدرعة ، وكانت مهمتها شن حملات صاعقة على العدو ، بدروع لا يؤثر فيها الرصاص ، ويجوز خفيفة ولكنها متينة . اما « الدراغون » المشاة فقد سلحوا ببنادق كالتي سلح بها المشاة العاديون ، وظل معظمهم راجلاً لتعذر الحصول على العدد اللازم من الجياد . اما « الدراغون » الفرسان فقد كان سلاحهم السيف الاحدب والقرايينة . وبعد الالتحامات الاولى مع الفرسان القوزاق جهزت الخيالة الخفيفة بالحراب .

واولى نابوليون المدفعية جانباً كبيراً من اهتمامه وعنايته وهو بعد فصل اول . وعلى اثر تنويجه امبراطوراً اعاد تنظيمها فضمت ثمانية كراديس مشاة وستة كراديس خيالة وعشرة افواج للنقل . وقد اخذ سلاح المدفعية

بالتوا فبلغ عدد رجاله سنة ١٨١٣ اثنين وثمانين ألفاً .
واعتمد « الجيش الاعظم » في المعارك التي خاض غمراتها مدافع من طراز
« غريوفال » التي مهر بمثلها الجيش الملكي ، واستخدم منها في « اوسترليتز »
و « واغرام » و « درسدن » مدافع الميدان ذات المدى البعيد (٣٠٠٠ متر) . كان
المدفع يطلق مرتين في الدقيقة فبلغ عدد المقذوفات التي اطلقتها المدفعية الفرنسية
في موقعة « واغرام » ٩٦ ألفاً ، وكانت تضرب اهدافها من مسافة ستمئة
متر وتجتهد في ان تأتي اعمالها منسجمة وحركات الخيالة والمشاة .

المعنويات . - كان الامبراطور شديد الحرص على رفع معنويات جنوده ،
وقد وجد في الاستعراضات الفخمة احدى الوسائل القمينة بتحقيق هذا الغرض
لانها تتيح له ان يهر عيون مرؤوسيه بمظاهر الابهة ، كما تتيح للضباط
والجنود ان يعجبوا بنفوسهم وهم يسرون وسط جماهير النظارة بيزاتهم الانيقة
واسلحتهم البراقة .

في الخامس عشر من آب ١٨٠٤ تسلم « الجيش الاعظم » من يد
الامبراطور صليب جوقة الشرف في احتفال عسكري مهيب . وقف
الامبراطور على منصة وسط سرادق كبير زين بالاعلام والرايات التي غنمها
الفرنسيون من العدو ، واصطفت الفيالق مقابل السرادق . ثم تقدم مستحقو
الوسام الرفيع من المنصة ، وبعد ان اقساموا بين الولاء سلم اليهم الامبراطور
الاورسمة وكانت موضوعة في خوذة « دوغيكلان » ودرع « بايار » وزرد
فرنسوا الاول . وبعد انتهاء حفلة توزيع الاوسمة مر الجيش امام نابوليون
بنظام بديع .

تحرك الجيش الاعظم . - ترك « الجيش الاعظم » المعسكرات الساحلية
في آب ١٨٠٥ ، وقد تمت هذه الحركة سراً وبنظام تام ، مع ان القوات

الزاحفة كانت تتألف من سبعة فيالق بقيادة المرشالية « برنادوت » و « مارمون » و « دافو » و « صولت » و « ناي » و « انجيرو » و « مورا » . وبعد مسير عشرين يوماً وصل « الجيش الاعظم » الى الرين بينما كان الحلفاء يرسمون خططهم . وقد ذكر المؤرخون المعاصرون ان الفيالق السبعة لم تذق طعم الراحة خلال الايام العشرين ، وان الضباط والجنود قطعوا المسافة الطويلة بين برست والرين دون ان يرتفع صوت واحد بالتذمر والشكوى . ذلك بان روح التنافس بين الكراديس كان على اشده ، وكانت الرغبة في ارضاء الامبراطور ونيل حظوة في عينيه تستحث خطى الكهول وذوي البنية النحيفة من الشبان .

يضاف الى هذا ان نابوليون كان محرضاً بارعاً وعالمماً باهواء النفس من الطراز الاول . كان يعلم ان الجندي لا يحتاج الى اكثر من كلمة لطيفة وابتسامة وربتة على الكتف لينسى تعبهُ ، ويطوح بنفسه في مهاوي التهلكة تنفيذاً لاوامر الرؤساء ، لهذا ما كان ليضن عليهم بالعطف ، فيتفقد احوالهم ويؤاكلهم ويتحدث اليهم ببساطة .

٣ - الفن الحربي

عبر « الجيش الاعظم » نهر الرين في الخامس والعشرين من ايلول ١٨٠٥ . وفي السادس من تشرين الاول سيطرت الطلائع على ممرات « ليخ » وراء مؤخرة جيش القائد « ماك » الذي كان يقاتل حول « اولم » . وبعد اربعة عشر يوماً تراجع الجيش النمساوي امام نابوليون . وقد غطى هذا الانتصار السريع هزيمة الاسطول الفرنسي في الطرف الاغر حيث سجلت انكلترا رجحاً الاول في صراع طويل ، عنيف . وعقب تغلب الجيش الاعظم في « اولم » انتصاراته الرائعة في « اوسترليتز » و « بينا » و « ايلو » و « فريدلند » و « ايسلنغ » ، فبلغ نابوليون قمة المجد وبلغ منه العسكري الذروة .

الرجل والفرن . - يحسن بنا ان نقف قليلاً عند الرجل الذي دوخ اوروبا وكادت فتوحاته تغير خريطة العالم .

كان نابوليون قوي الارادة ، ذكياً ، سريع الخاطر ، نافذ البصر والبصيرة ، لا يفوته من الامور صغيرها وكبيرها . يفكر ملياً في ما هو مقدم عليه ، على ما حباه الله من مواهب وعلى ما حصل هو من معرفة . وقد قال مرة لاحد السفراء : « اني اعلم عشرين ساعة في اليوم لاني لا ارتجل تدايري ارتجالاً ، فانا عندما انصرف الى وضع خططي اجاهد جهاد من يتسلق مرتفعاً وقد بهظ كاهله عبء ثقيل ، واحس احياناً الاوجاع التي تحسها صبية فاجأها المخاض . ولكن هذا كله يزول حالما احزم امري على عمل بعد ان اكون قد رسمت له الخطة اللازمة ، وعندها احشد قوى عقلي كافة واستخدمها في تدبير العناصر وتأمين العوامل التي تكفل نجاح خطتي . »

ولنابوليون في فن القيادة وفي الحرب ، كعلم وكفن ، آراء تبدو متناقضة للوهلة الاولى . فقد كتب في جزيرة « القديسة هيلانة » يقول : « ليس للحرب قواعد معينة ، فالاخفاق او النجاح يتوقف على عوامل شتى ، منها سجية القائد وحالة الجيش وطبيعة الارض والاحوال الجوية . » وكان قد كتب لاحدى المناسبات يقول : « الحرب فن ذو قواعد لا تتبدل ، لهذا ينبغي للقادة ان يسترشدوا بالمبادئ المقررة لان القضاء والتقدير لا يكفلان نجاح العملية الحربية . » قلنا انها آراء تبدو متناقضة للوهلة الاولى ، وقد اثبت نابوليون بتصرفاته كقائد انه قبس من مطالعاته ودروسه مبادئ معينة وعمل على توضيحها وطبقها بنجاح في حملاته الاولى . الا ان هذه المبادئ فقدت قيمتها شيئاً فشيئاً تبعاً لتطور فن القتال . وتعلم الامبراطور على حسابه ان الجيش الذي ساقه لاختضاع روسيا هو غير الجيش الذي هزم العدو في « اولم » الجيش الفرنسي .

و « اوسترليتز » . لهذا رأيناه يكتب في جزيرة القديسة هيلانة : « انه ليس للحرب قواعد معينة . »

كانت « الاستراتيجية » النابوليونية تقوم على السعي الى صق العدو بتدابير جريئة تتركه في حيرة من امره ، وترغمه على القتال في احوال غير ملائمة . وللقضاء على معنويات الخصم اعتمد الامبراطور عناصر لا يمكن تحقق هذا الغرض بدونها ، وهي كتمان الاستعدادات الهجومية ، ودقة التنفيذ ، والوصول بسرعة الى خط مواصلات العدو ، للحؤول دون افلاته ولارغامه على القتال . ولبلوغ هذا الهدف كان يطوق بجيشه ساحة العمليات مهما تكن واسعة . وهو تكتيك ينطوي على مخاطر ما كان نابوليون ليغفل عنها . منها ان مواصلاته تصبح عرضة للخطر ، وهو محذور كان يتلافاه بانشاء « مراكز للعمليات » في نقاط معينة بحيث يكون كل شيء في متناول الجيش فلا يتأثر بسيطرة العدو على خطوط تموينه الاصلية . ومنها ان العدو المتجمع يستطيع ان يشن هجوماً مركزاً على نقطة ضعيفة في الجهاز الفرنسي الواسع الانتشار ، ليشق لنفسه طريقاً . وقد كان يتفادى هذا المحذور باطلاق الدوريات تستطلع له احوال الخصم وحركاته ، حتى اذا لاحت منه بادرة خطرة امرع نابوليون الى القضاء عليها وهي بعد في مستهلها .

والمعركة عند نابوليون تكيف تبعاً للمناورة . فاذا وقف العدو ازاء حركات الجيش الامبراطوري جامداً ، متردداً ، عمد الفرنسيون الى تطويقه كما حدث في « اولم » . وان هو نهد لمجاهة الجيش المناور دارت بينهما رحى معركة حاسمة على اساس « الجبهة المقلوبة » اي ان الفرنسيين ينازلون العدو على خط تراجعهم كما حدث في « مارانغو » . وعلى الجملة ، لا يمكن ، عند درس معارك نابوليون ، تبيين الحد الفاصل بين نهاية الاستراتيجية ، وهي فن قيادة

الجيش حتى يصل الى العدو ، وبين بدء التكتيك ، وهو فن نشر الجيش واستخدامه في ساحة القتال .

كانت المعركة النابوليونية تجتاز مراحل اربعاً : قبدأ بهجوم جبهي للتعرف الى قوى الخصم ، ثم تليها حركة التفاف الغرض منها ارغام الخصم على الانتشار لاتقاء الخطر وعلى الاستنجاد باحتياطه . وبعد هذا تضغط القوات الرئيسية على نقطة الضعف في جهاز العدو . واخيراً تبدأ المطاردة ، بعد ان يكون هجوم القوات الرئيسية قد فتح فجوة في الصفوف المعادية .

في الهجوم الجبهي كان الامبراطور يضحى بالقليل من الرجال ينطلقون من نقاط ارتكازية قوية ، وقما اتبعهم بنجذات لان عملياتهم الهجومية غير اساسية . وكان يقوم بعملية الالتفاف الفرسان غير المدرعين . اما الهجوم الرئيسي فيتولاه الفرسان المدرعون والمشاة ، ويسبق الهجوم تمهيد من جانب المدفعية . فاذا فتح المهاجمون الفجوة المطلوبة في الجهاز المعادي حمل الجيش كله على العدو وانطلقت الحيالة في الطليعة .

وقد لخص الجنرال « ويغان » تكتيك نابوليون الهجومي بما يلي : « كان الامبراطور يستخدم في العمليات الثانوية قوات محدودة ، وفي الهجوم الرئيسي معظم القوات العاملة ، وفي الهجوم الحاسم والمطاردة الجيش العامل مضافاً اليه الاحتياط . وكان اذا ألقى نفسه امام عدو متفوق ، يجتهد في تجميد اكبر عدد ممكن من جنود الخصم بمناورات يقوم بها اصغر عدد ممكن من جنوده هو ، على ان ينقض بقواته الرئيسية على القوات المعادية ، حتى اذا تم له سحقها ارتد على العناصر الاولى . »

التنفيذ . — من اقوال نابوليون في الحرب انها فن بسيط اذا اقترنت خطته بالتنفيذ . وقد تجلت مواهبه في التنفيذ تجليها في التصميم .

كان يتقن باخلاص معاونه وشجاعتهم وخبرتهم . الا انه كان يقيدهم بتعليماته فلا يتيح للواحد منهم فرصة يبرز فيها مهارته وبداهته في المناورة . وككل قائد معتد بنفسه كان يتفرد بالتصميم ، ويحفظ لنفسه بدقائق الخطط التنفيذية ، غير مستخدم الوسطاء الا في حالات استثنائية ، مبالغة منه في كتمان مشروعاته . ففي مستهل الحملة كان يوجه الى القادة البعيدين عن مقره رسائل شخصية . اما القريبون من المقر ، فقد كان يعهد الى المارشال « برتیه » بمهمة ابلاغهم او امره . وقبل المعركة كان يجمع القادة ويشرح لهم خطته ، ثم يجتهد في التعرف الى الارض وفي اختيار النقطة التي يمكنه ان يتتبع منها تطور القتال ليبادر الى استئثار « الحدث » ، وهو هنا نجاح حركة الالتفاف . وفي اليوم التالي يطوف الميدان ليقف بنفسه على اهمية الحسائر وعلى الاغلاط المرتكبة . كان المقر العام يشتمل على غرفة الامبراطور العسكرية ، وعلى هيئة اركان الحرب العامة . فموظفو الغرفة العسكرية هم امناء السر والمرافقون والقادة المعاونون . وقد مثل هؤلاء دوراً رئيسياً في فتوحات نابوليون واشتهر منهم القادة « جونو » و « كافاريلي » و « موتون » و « راب » و « لوريستون » و « سافاري » و « لوبران » و « دريو » و « لوجون » . اما الاركان العامة فقد كان رئيسها المارشال « برتیه » يتولى تعميم اوامر الامبراطور وتعليماته ، ويشرف على اعمال الدوائر التي كانت مهمتها لا تختلف كثيراً عن المهام المنوطة في الجيش الفرنسي الحديث بالمكاتب الاربعة ، اي ان منها دائرة مهمتها تنظيم حركات الجيش ، وثانية نيط بها تنظيم النقل والتموين ، وثالثة ادارة العمليات وفاقاً لتعليمات نابوليون ، ورابعة وقفت نشاطها على الاستخبارات وعلى تأمين النظام في الجيش . وكان هناك هيئتا اركان حرب للمدفعية والهندسة تعودان في شؤونهما الى الامبراطور من طريق المارشال « برتیه » .

٤ - حروب نابوليون

الحملات الاولى . - يقول الكولونيل « ريفول » في كتابه « تاريخ الجيش الفرنسي » ان الحملة الايطالية هي رائعة نابوليون . ففيها ملك ناصية الفن وحدد للاستراتيجية الحديثة قواعدها : اقتصاد في القوى ، واعتماد المفاجأة عنصراً اساسياً في القتال ، وتهديد مواصلات العدو بمناورات التفافية جريئة . بيد ان الجيش الذي القيت اليه مقاليد في ايطاليا لم يكن في حالة يمكن قائده معها ان يناور ويتوسع في تطبيق خطته التكتيكية .

في مصر حجب السياسي الماهر والاداري الذي لا يجارى في نابوليون رجل الحرب الحري بالاعجاب . ثم كانت معركة « مارانغو » فهد لها بمناورة استراتيجية جريئة ، ولكنها كادت تنتهي بهزيمة لولا القائد « دوزيكس » . وقد اعترف الامبراطور في مذكراته بانه اتكل كثيراً على نجمة في حملاته الاولى وان الحظ مشى في ركابه حتى في المجازفات التي لا يقرها فن الاستراتيجية والتكتيك .

الحملات الكلاسيكية . - زخرت معركة « يننا » و « اوسترليتز » بالدروس والابتكارات . ولكن النقاد العسكريين عنوا بدرس المعركة الاولى لان مواهب نابوليون العسكرية تجلت فيها باجلى مظاهرها . اما « اوسترليتز » فقد ربحها دون كبير عناء لان جواسيسه كانوا يوافونه ساعة بعد اخرى باخبار العدو وحركاته ، فبني خطته على هذه المعلومات . يضاف الى هذا ان قادة الجيوش المتحالفة كانوا اقزاماً ازاء العملاق الفرنسي ، فكان يلاعب « ماك » المتردد ، و « كوتوزوف » الشيخ المتهم ، والامبراطور اسكندر الجسور حتى التهور ، ملاعبة الهر للفأر . ولا يلقي اي صعوبة في احباط خططهم وفي ايقاعهم في حباله .

في « بينا » تلاقى « الجيش الاعظم » والجيش الروسي الذي جرحت كبرياءه هزيمة اوسترليتز ، فحزم امره في ايلول ١٨٠٦ واجتاح « الساكس » . وكان الجيش الفرنسي معسكراً في المانيا الجنوبية فحشده نابوليون بين « ماينس » و « امبرغ » وفي نيته ان يزحف الى برلين ابتداء من « بامبرغ » . وكانت خطة البروسيين تقضي بالزحف من « ارفور » الى « ويرزبورغ » وقطع مواصلات الفرنسيين .

عزا نابوليون الى العدو خطة معقولة ، وهي التجمع وراء نهر « الايلب » بانتظار وصول حلفائه الروس ، ولكنه لم يحزم امره على خطة معينة ريثما يحمل اليه رجاله الخبر اليقين . فعرف في ٢٩ ايلول ١٨٠٦ ان البروسيين يحتشدون حول « ارفور » فقرر حشد قواته كلها حيث كانت تحتشد ميمته تاركاً البقعة الواقعة بين الرين و « بامبرغ » مكشوفة . وقد صرح لقادة جيشه في ٣٠ ايلول بان نجاح مناورته ترتب عليه نتائج عظيمة الشأن لان العدو سيحاول اللف حول المسيرة الفرنسية اعتقاداً منه انها تستند الى نهر الرين ، وعندها يكر الفرنسيون ويقذفون به الى ما وراء النهر .

ولكن البروسيين لم يحركوا ساكناً . فبدأ الجيش الامبراطوري زحفه شمالاً بشرق على النحو التالي : تقدمت المسيرة بقيادة المارشالين « لان » و « انجيرو » مارة بـ « كوبورغ » و « سالفيلد » ، ومضى القلب بقيادة المارشالين « برنادوت » و « دافو » بدعمه احتياط الحباله ، ماراً بكروسناخ و شليز ، واتجهت الميمنة بقيادة المارشالين « ناي » و « صولت » نحو هوف و « بلوين » .

وفي العاشر من تشرين الاول قرر نابوليون الاسراع في العمل قبل وصول الروس عبر سيليزيا ، وكان الجيش البروسي يقف متردداً امام طرق ثلاث : الطريق المؤدية الى « ويمار » و « درسدن » مارة بـ « بينا » و « جيوا » ، وهي تدنيه

من حلفائه الروس ، وطريق ويمار - لايبزيغ مارة بنومبرغ ومنها الى درسدن او برلين وطريق ماجدبورغ مارة بسوميردا .
 حشد الامبراطور قواته الرئيسية بشكل نصف دائرة وعهد الى قوات «دافو» بالاندفاع نحو طريقين من طرق التراجع المعادية ، على ان تدعمها خيالة «مورا» وتظل متصلة بالقوات الرئيسية بواسطة قوات «برنادوت» ، فاذا التقت القوات الثانوية الجيش البروسي شغلته ريثما تصل القوات الرئيسية . اما اذا تصدى البروسيون للجيش المنتشر بشكل قوس فتكون قوات «دافو» في وضع يتيح لها المناورة واللف حول الاعداء .

ولم ينتظر نابوليون تحرك العدو ليتبين اتجاهه فزحف بقواته الرئيسية الى «ويمار» بطريق «بيننا» بينما كانت قوات «دافو» تقطع طرق الشرق . وانتهى اليه في ١٣ تشرين الاول ان البروسيين يحاولون التراجع نحو ماجدبورغ ، فعجل الخطى في اندفاعه نحو «بيننا» وامر «دافو» و«برنادوت» بالزحف الى «ويمار» . ولكن البروسيين غيروا خطتهم في اللحظة الاخيرة وحولوا وجوههم شطر الشرق في محاولتهم الافلات . وقضت الخطة الجديدة بان يعمل جيش الجنرال «هوهنلوخ» على تغطية القوات الرئيسية الموضوعة تحت امره «برنسويك» ، وان يحول دون وصول الفرنسيين الى «بيننا» عبر نهر «سال» . فاضطر نابوليون الى مواجهة الحالة الجديدة بتدابير ادت الى ادخال تعديل يسير على الخطة الاصلية .

كان قد حشد جيشه استعداداً لمعركة يقود فيها المارشالية «انجيرو» و«لان» و«ناي» عمليات التحرش الجبهية ، ويتولى المارشالان «دافو» و«برنادوت» ادارة حركات اللف ، ويقود المارشال «صولت» الهجوم الرئيسي . اما الحرس الامبراطوري فيؤلف الاحتياط العام . وقد قضت الخطة المعدلة بان

تقرب القوات الرئيسية امام جيش «هوهنلوخ» في «يينا» وظلت مهمة «انجيرو» و«لان» و«ناي» هي اياها. ولما كان «دافو» و«برنادوت» قد ابتعدا بقواتهما لتنفيذ حركة الف عملاً بالخطة الاصلية، فقد نيّطت المهمة نفسها على الجهة الجديدة بفرقة الجنرال «سان هيلير» التابعة لفيلق الخيالة. ويظل الهجوم الرئيسي منوطاً بالمارشال «صولت» (قائد الخيالة) يدعمه الاحتياط والحرس الامبراطوري. اما الاحتياط العام فتولفه قوات «برنادوت» ان هي وصلت في الوقت المناسب.

وفي ليل ١٣ - ١٤ تشرين الاول كانت القوات الفرنسية تحتل مراكزها على النحو التالي: انتشرت قوات المارشال «لان» والحرس الامبراطوري على التلال القائمة الى الغرب من «يينا»، وتجمع فيلق «انجيرو» في وادي نهر «سال»، وانتشر فيلق «ناي» عند مدخل المدينة. وبعد منتصف الليل بقليل اجتازت المدينة احدى الفرق التابعة لفيلق «صولت» وشرعت الخيالة تتحرك نحوها. وفي هذه الاثناء كان «برنادوت» بين «نوبورغ» و«دورنبورغ». اما «دافو» فكان في «نوبورغ».

وقبل انبلاج الصبح انتهى الى نابوليون ان الجيش البروسي ينتشر بينه وبين «ويمار» فقرر مهاجمة العدو صباح اليوم التالي. وقبل ان تتحرك قواته ارسل اليه المارشال «دافو» من ينهيه الى احتشاد قوات معادية كبيرة بين «ويمار» و«ايكارسبورغ» على طريق «نوبورغ». وقد تبين انها قوات برنسويك (وكانت تضم ستة وخمسين الف مقاتل) كما تبين ان خمسين الف بروجي انتشروا بين «ويمار» و«يينا» بقيادة هوهنلوخ لتغطية انسحاب برنسويك.

المعركة. - في ساعة مبكرة من صباح ١٤ تشرين الاول انقض نابوليون على ميسرة هوهنلوخ. وبعد ساعة من الزمن كانت فرقتا القائدين

« سوشه » و « غازان » التابعتان لفيلق المارشال « لان » تحتلان ثلاث قرى حصينة وتحدثان ثغرة واسعة في صفوف الفيلق البروسي الذي كان يحميها . وفي الساعة التاسعة برز « صولت » الى الميدان واتصل « انجيرو » بميسرة « لان » وكان هوهنلوخ قد غير جبهته فحشد ميسرته امام بلدة « نكويترز » والميمنة في « شنيك » اما القلب فقد تجمع حول مدينة « فيرنهبلجن » . وفي منتصف الساعة العاشرة تقدم « ناي » بحجبه الضباب بين فيلقي « لان » و « انجيرو » وانقض بثلاثة آلاف رجل على قوات « هوهنلوخ » الرئيسية في « فيرنهبلجن » فحملت عليه الحيلة البروسية حملة قوية كادت تزجه في مأزق لولا بطولة افواجه الاربعة التي صدت هجمات العدو واستطاعت الاحتفاظ بمراكزها حتى وصل لنجدتها فيلق المارشال « لان » . وقد تمكن المارشالان (ناي ولان) من احتلال المدينة بعد معركة حامية الوطيس . وفي هذه الاثناء كان « انجيرو » و « صولت » يدفعان بيمينه العدو وميسرته الى الورا ، فامر « هوهنلوخ » جيشه بالتقهقر . وكان نابوليون يرقب هذه البادرة من جانب البروسيين ، لينقض عليهم بقواته كلها .

حاولت الحيلة البروسية عبثاً تغطية عملية الانكفاء لان خيالة « مورا » كنست كل شيء في طريقها . وما انتصفت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى انقلب التقهقر البروسي هزيمة . اما جيش « برنسويك » فقد هزمه « دافو » في موقعة « اورستيدت » وبلغت خسائر البروسيين في الموقعتين ثمانين الف رجل .

٤ - التوازن يتخل

خيل للامبراطور بعد انتصاره على الروس في موقعة « تيلسيت » ان السلم في القارة اضحى رهن مشيئته وانه يستطيع ان يلزم انكلترا حدودها بالقضاء عليها اقتصادياً ، ما دام لا يقوى على مهاجمتها في عقر دارها . ولكن سياسة

الحصار اقتضت ارسال حملة فرنسية الى البورتغال فاسبانيا فادمت « اشواك »
البلدين ارجل الفرنسيين، واثخت الجيش الامبراطوري بالجراح . فشجعت هذه
المصاعب آل « هابسبورغ » على معاداة نابوليون بعد ان اطمأنوا الى حياد
روسيا التي حالفت الامبراطور بعد « تيلسيت » رغبة منها في كسب الوقت
واعداد العدة للاخذ بالثأر حالما تسنح الفرصة .

هزم نابوليون النمسيين في « واغرام » فرفع هذا الانتصار معنويات جيشه .
وازداد مركز فرنسا مناعة عندما صار الامبراطور الفرنسي صهراً لفرنسوا
جوزيف امبراطور النمسا، وحلت مشكلة ولاية العهد بالمولود الذي اعطي
اسم « ملك روما » .

ولكن القارة ظلت تغلي كالمرجل ، لان الدبلوماسية الانكليزية تطوعت
لفتح العيون « على الخطر الفرنسي المتزايد » وربطت اوروبا الناقمة على
الكورسيكي بسلسلة محالفات جعلت الحرب الطريق الوحيد المؤدي الى
السلم .

وفي هذه الاثناء تزايدت الحاجات العسكرية عند الامم ، وظراً على « الجيش
الاعظم » تطور مزدوج : فزاد عدده زيادة كبيرة ولم يبق جيشاً فرنسياً
صرفاً .

الجيش الاعظم في خمس سنوات . - كسب نابوليون معركة اوسترليتز
بسبعين الف مقاتل . وخاض غمار معركة « واغرام » بجمّة وثمانين الفاً . ذلك
لانه ادرك ان جودة السلاح لا تستطيع شيئاً ازاء التفوق العددي الساحق
فعمد منذ سنة ١٨٠٧ الى توسيع نطاق التعبئة فشملت الشبان الذين بلغوا
التاسعة عشرة والكهول الذين لم يتجاوزوا الخامسة والاربعين . وقد اقبل
الفرنسيون بادىء ذي بدء على حمل السلاح « ليكون لهم شرف المساهمة في

بناء مجد فرنسا» ، ولكن خصوم الامبراطور في الداخل وعمال اعدائه في الخارج استطاعوا ان يسموا الجو ، بتنيهم الافكار الى ان آلاف الفرنسيين يموتون في سبيل عروش تقام لاشقاء الكورسيكي واصهاره . فخدمت جذوة الحماسة في الصدور وراح الخاضعون للتجنيد يتهربون منه بشق الوسائل والاساليب . وقد بلغ عدد المتهربين والفراريين سنة ١٨١٠ خمسين الفاً ، وارتفع سنة ١٨١١ الى ستة وستين الفاً . وقد ذكر الامبراطور في مذكراته ان الجنود الذين اتعبتهم الحروب المتواصلة كانوا يعمدون الى طعن انفسهم ابان المعركة ليصير نقلهم الى المؤخرة اسوة بجرحي المعركة .

ازداد الجيش الامبراطوري رغم ذلك كله زيادة هائلة ، لان نابوليون عمد بعد موقعة « يننا » الى الاستعانة بالاجانب من اسرى ومرترقة . وقد ذكر المؤرخون المعاصرون ان الاجانب كانوا يشكلون الثلث في الجيش الذي خاض غمار موقعة « واغرام » . اما جيش الحملة الروسية فقد كان الاجانب يشكلون فيه اكثر من النصف .

يقول الجنرال دوغول في كتابه « فرنسا وجيشها » ان العناصر الاجنبية في الجيش الاعظم كانت في جملة العوامل الرئيسية التي ادت الى تفكك عرى ذلك الجيش . ووضح الجنرال ويغان في « تاريخ الجيش الفرنسي » ان الجيش الامبراطوري ضم سنة ١٨١٢ ثمانية عشر كرادوساً من الجنود المرتقة ، وعشرة كراديس كان ثلث رجالها من الاجانب الذين اعطوا لقب « مواطن في الامبراطورية » . يضاف اليها قطعات مساعدة قدمتها حكومات الممالك والامارات الخاضعة للحماية الفرنسية ، كنبولي ووسفاليا ودوقية فرسوفيا والنسيا وبروسيا وبافاريا وورتمبرغ .

وقد ادى الاكثار من الاستعانة بالمحاربين الاجانب الى افقاد الجيش

الاعظم تلك الميزة التي ضمنت له الفوز قبل ان يسمي مشرع الابواب لكل راغب في الانضمام اليه ، عنيت اللحمة التي تشد افواجه الواحد الى الآخر والانسجام الذي لا ندحة عن توفره في جيش اضطلع برسالة هي اسمي من الفتح والتوسع : حمل مبادئ الثورة الى اوروبا الرازحة تحت تقاليد القرون الوسطى . وقد رد معظم مؤرخي العصر اخفاق نابوليون في روسيا الى عوامل عدة ، في رأسها تخلف الفرق الاجنبية كلها اقضى الامر عملاً بطولياً ، وبطؤها في التنفيذ في الحالات العادية . ولم يشذ عن هذه القاعدة الا القطعات البولونية التي ضربت اروع الامثلة في التضحية ونكران الذات .

• - النهاية

جيش ١٨١٣ . - في كانون الثاني ١٨١٣ لم يكن باقياً من الجيش الاعظم الذي عبر نهر « نيمن » قبل ستة اشهر ، سوى فلول ضئيلة الشأن . فمن فلق المارشال « دافو » الذي كان يضم ٦٦٣٤٥ ضابطاً وجندياً لم يبق صالحاً للخدمة سوى ٢٢٨٠ رجلاً . وقس على هذا سائر الفيالق . وقد اعتبر نابوليون بالحوادث فقرر العمل على انهاض فرنسا المنهوكة ، ونهج خطة سلمية ازاء الدول الاوروبية كافة . ولكن انكسرت نفخت في بوق الثورة في كل مكان . وعرفت كيف تهيء الجو لحرب جديدة تجر اليها فرنسا قبل ان تجدد قواها وتشحذ همتها . واشتم الامبراطور رائحة الخطر فارتجل جيشاً جديداً في اربعة اشهر ، محملاً الامة تضحيات باهظة : دعوة طبقات ١٨١٣ - ١٨١٤ والذين لم يجندوا من طبقات السنوات السابقة ، سحب عدة افواج من جنود البحر لضمها الى الجيش البري ، ترقية مئات العرفاء الى ملازم ثانٍ ، ملء الفراغ الذي احدهته الحملة الروسية في صفوف الضباط .

وقد تبرم الفرنسيون بهذه التضحيات واعربوا عن نقيمتهم بالتهرب من

الخدمة فبلغ عدد المتخلفين في بعض الاقاليم خمسة واربعين بالمئة ، وهو جهم رجال الدرك في اقاليم اخرى وقتل مئات منهم برصاص المتمردين . فكان هذا نذيراً بعجز فرنسا عن مواجهة اعدائها بروح ١٨٠٦ وايمان اوسترليتز وواغرام .

ارتجل نابوليون الجيش الجديد ارتجالاً وامر بتدريب المشاة على تشكيل المربعات بسرعة ، ليتسنى لها ان تواجه حملات الخيالة المعادية ، بعد ان تعذر ارتجال هذا السلاح الذي كان العنصر الرئيسي في حروب الامبراطور السابقة . اما المدفعية فقد وجدت في جنود البحر مدفيعين مجربين . وعنى نابوليون بتعزيزها عناية خاصة على امل ان تسد ثغرة في الفراغ الكبير الذي احده انعدام الخيالة .

وقد تم بعث الجيش الاعظم في بضعة شهور ، فضم اثني عشر فيلقاً ، منها ثلاثة فيالق بولونية وساكسونية وبافارية . وفي ١٥ نيسان ١٨١٣ غادر الامبراطور باريس في طلب العدو بعد ان عين مجلس وصاية . وبعد اسبوعين ادرك الجيوش المتحالفة في « لوتزن » وهزما شر هزيمة ، ولكن الفوز كلفه غالباً مقتل من رجاله خلق كثير وفقد في المارشال « بيسيير » قائداً نابهاً . وفي موقعة « بوتزن » لاحظ نابوليون على جنوده امارات العياء وعلى معاونيه دلائل اليأس ، وسمع فريقاً منهم يقول على اثر مصرع المارشال « دورويك » : « يا لها حرباً جشعة ! انها ستبلعنا جميعاً ! » وما ان انصرم شهر ايار حتى كانت معنويات الجيش قد انهارت ، فتدارك الامبراطور الموقف بتوقيعه على هدنة موقوتة (هدنة بليسوتيز) وكان يرجو ان يتيح له وقف القتال التفاهم والنمسا ، وانشاء فيلق خيالة وتقوية الحرس الامبراطوري بعناصر يختارها من كراديس المشاة . وقد عارض وزير الحربية والقادة في تحميل الامة اعباء

اضافية عندما خطر لنابوليون دعوة طبقات جديدة . ولفت المارشال « ناي » مولاة الى ضرورة العناية بصحة الجنود وتوفير الغذاء لهم قبل التفكير بتعبئة جنود جدد .

وما استؤنف القتال حتى كان الجيش الامبراطوري قد عزز بثمانين الفاً من رجال الحرس وبفيلق خيالة . ولكن الحلفاء استطاعوا جر النمسا الى معسكرهم . وبدأ الفرنسيون القتال بداية حسنة فهزموا « بلوخر » ودفعوا به الى ما وراء حدود سيليزيا . وسحقوا جيش « شوارنبرغ » في درسدن حيث تميز القائدان « غوفيون سان سير » و « مورا » باعمال بطولية خارقة .

كانت هذه الانتصارات الحلقة الاخيرة في السلسلة التي كادت تنفرط في روسيا . وبعد ثلاثة ايام بدل الحظ معسكره ، فهزم الحلفاء جيش « فاندام » في كولم واسروا القائد ، ثم توالى الهزائم ، فتغلب العدو على « اودينو » في موقعة « غروس بيرين » وعلى مكدونالد في « كاتباخ » وناي في « دنويتز » . وقد لفت القائدان الامبراطور الى انهيار معنويات الجنود ونصحا له بطلب الصلح لان النظام صار معدوماً في الجيش .

وقبل موقعة لايبزيغ بيومين دعا نابوليون قادة الفيالق الى مؤتمر عسكري وعرض عليهم خطة جريئة للفت حول برلين ، فانتقدوها صراحة ، وكان المارشال انجيرو في رأس المعارضين ، فقال الامبراطور : « من يسمعك الان لا يصدق انه امام انجيرو معركة كاستليون » ، فاجاب المارشال : « اعود انجيرو كاستليونني اذا رددت الي جنود الحملة الايطالية . »

كان الجيش الامبراطوري في الساكس يضم ٥٥٠ الف رجل ثلثهم من الساكسونيين والباقيين وابناء امارات باد وورتمبرغ وهيس . وقد خاض نابوليون غمار « معركة الامم » في لايبزيغ مفتقراً الى العدد والعتاد والثقة .

وما ان دخل القتال في طور جدي حتى انتقل الساكسونيون الى المعسكر الآخر وحذا حذوهم كراديس اجنبية اخرى . فامر الامبراطور قواته بالتقهقر الى ضفة نهر « سال » ، تحمي تقهقرها قوات الحرس الجديد بقيادة المارشال « اودينو » . ولم يسلم من الجيش الاعظم سوى مئة الف رجل ترك نصفهم سلاحه في ساحة القتال .

معركة فرنسا . - عهد الامبراطور الى انشاء جيش جديد فور عودته الى باريس . فدعا في تشرين الاول ١٨١٣ مئة وستين الفاً من طبقة ١٨١٥ و ١٢٠ الفاً من طبقات السنوات السابقة . وفي اول كانون الاول كان عدد الذين شملتهم التعبئة تسعمئة الف رجل . ولكن التدريب لم يشمل سوى مئتي الف مجند لم يشترك منهم في معارك الميدان سوى النصف .

وفي ٣١ كانون الاول عبر الحلفاء نهر الرين بثلاثمئة وخمسين الف مقاتل اجتاحوا فرنسا بموجتين رئيسيتين ، اندفعت احدهما في وادي « المارن » والاخرى في وادي « الاوب » و « السين » . كان على نابوليون ان يواجه المجتاحين الاقوياء بوسائله الضعيفة ، فاستنجد عبقريته المبدعة . فاوحت اليه ان يحاول وقف احدى الدفعتين الحليفتين بقوى خفيفة ترتكز على مجاري الانهر ، على ان تهاجم قواته الرئيسية الموجة الاخرى . وقد افلحت خطته خلال ثلاثة اشهر في الحؤول دون اتصال الموجتين . وفي نهاية الشهر الثالث ادرك عقم المقاومة فامر قواته بالتقهقر حتى العاصمة .

وقد اجمع مؤرخو العصر على القول ان نابوليون جمد الحلفاء ثلاثة اشهر في اودية « المارن » و « الاوب » و « السين » بقوات فرنسية بحت ، خرجت الى لقاء العدو قبل ان تستكمل تدريبها ، فضربت في الميدان اروع الامثلة في الشجاعة والتضحية والاخلاص . وهو ما افتقر اليه الرؤساء الذين ارغموا

نابوليون على اعتزال العرش . ولكنه ظل عظيماً ، بل اعظمهم جميعاً ، بعد هزيمته واعتزاله .

حكم المئة اليوم . - قضى نابوليون عشرة شهور في جزيرة « البا » عاد بعدها الى فرنسا ، فاستقبلته بذراعين مفتوحتين ، ولكنه لم يتخذع بالمظاهر ، وسعى الى استالة الشعب ببعث الدستور ، وحرص في الوقت نفسه على اقناع الدول المتحالفة بنياته السلمية ، فكتب الى الملوك متودداً . فما تلقى منهم رداً على بادرتة الطيبة . ولم يطل بهم الامر حتى عقدوا الحناصر مجدداً على اذلاله . فلم يشعر الا وهو مسوق ، تحت ضغط الظروف ، الى انشاء جيش جديد ، يعاونه في مهمته المارشال « دافو » وزير الحربية و « كارنو » وزير الداخلية . وقد وجد تحت السلاح ١٨٣ الف رجل يصلح ربعمهم للقتال والمناورة وفقاً لقواعد الحرب الحديثة . وفي حزيران ١٨١٤ الفى اجازات الجنود المأذونين فتجمع لديه ستة وسبعون الف رجل . واستطاع بمساعدة كارنو ان يعيد تنظيم الحرس الوطني فتجمع لديه مئتا الف رجل عهد اليهم بالدفاع عن المدن المحصنة . واستطاع الامبراطور في غضون ثلاثة اشهر ان يعيى جيشاً من مئة واربعة وعشرين الف رجل بالاضافة الى الذين خلفهم العهد السابق تحت السلاح ، وان يهر الجيش بثلاثمئة وخمسين مدفعاً ويعززه باربعين الف فارس . وقد اشتمل الجيش الجديد على ستة فيالق بقيادة « درويه » و « ديرون » و « ريل » و « فاندام » و « جيرار » و « لوبو » ، يضاف اليها فيلق الحرس الامبراطوري الذي تألف من بقايا الحرس القديم وعناصر ضمت اليه حديثاً . وولي الجنرال « غروشي » قيادة هذا الفيلق .

تردد نابوليون طويلاً في الاستعانة بخبرة القادة الذين تخلوا عنه في فونتنبلو ، ولكنه قرر في اللحظة الاخيرة وضع فيالق درويه وارلون وريل تحت



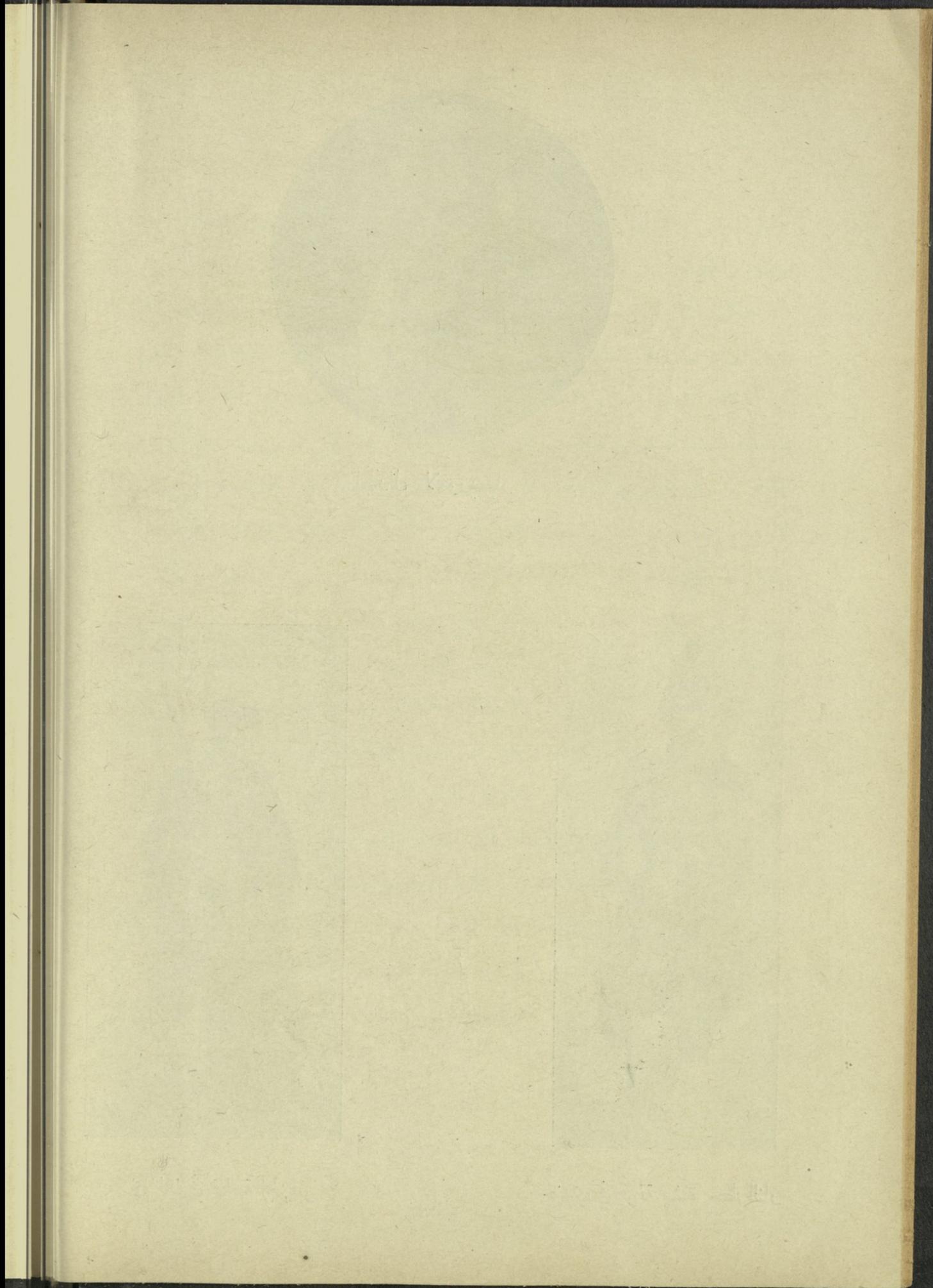
الجنرال لاموريسيار

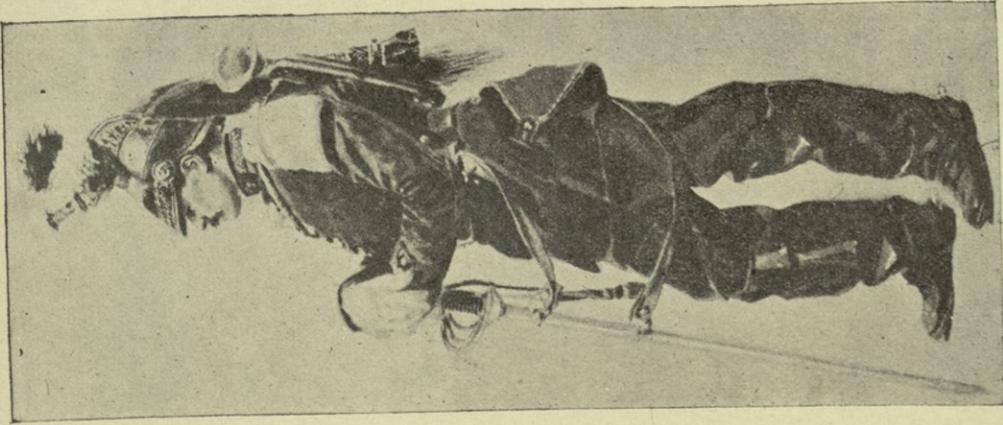


جندي في فرقة مشاة خط النار

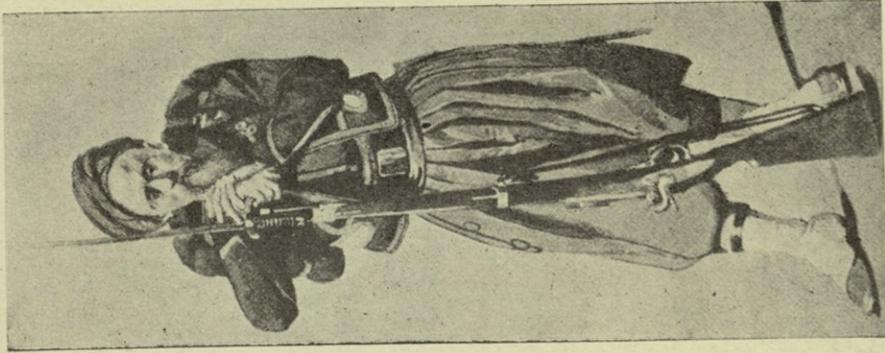


ملازم ثان في قناصة الجزائر

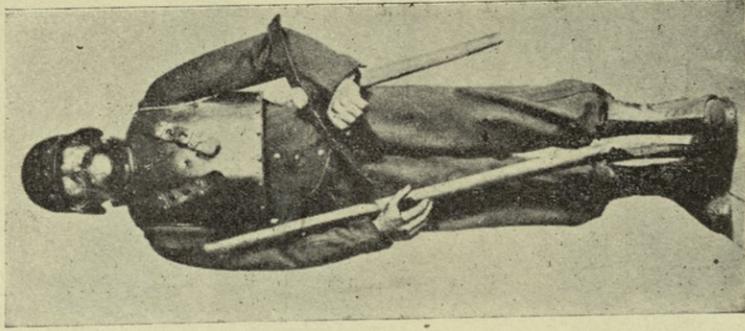




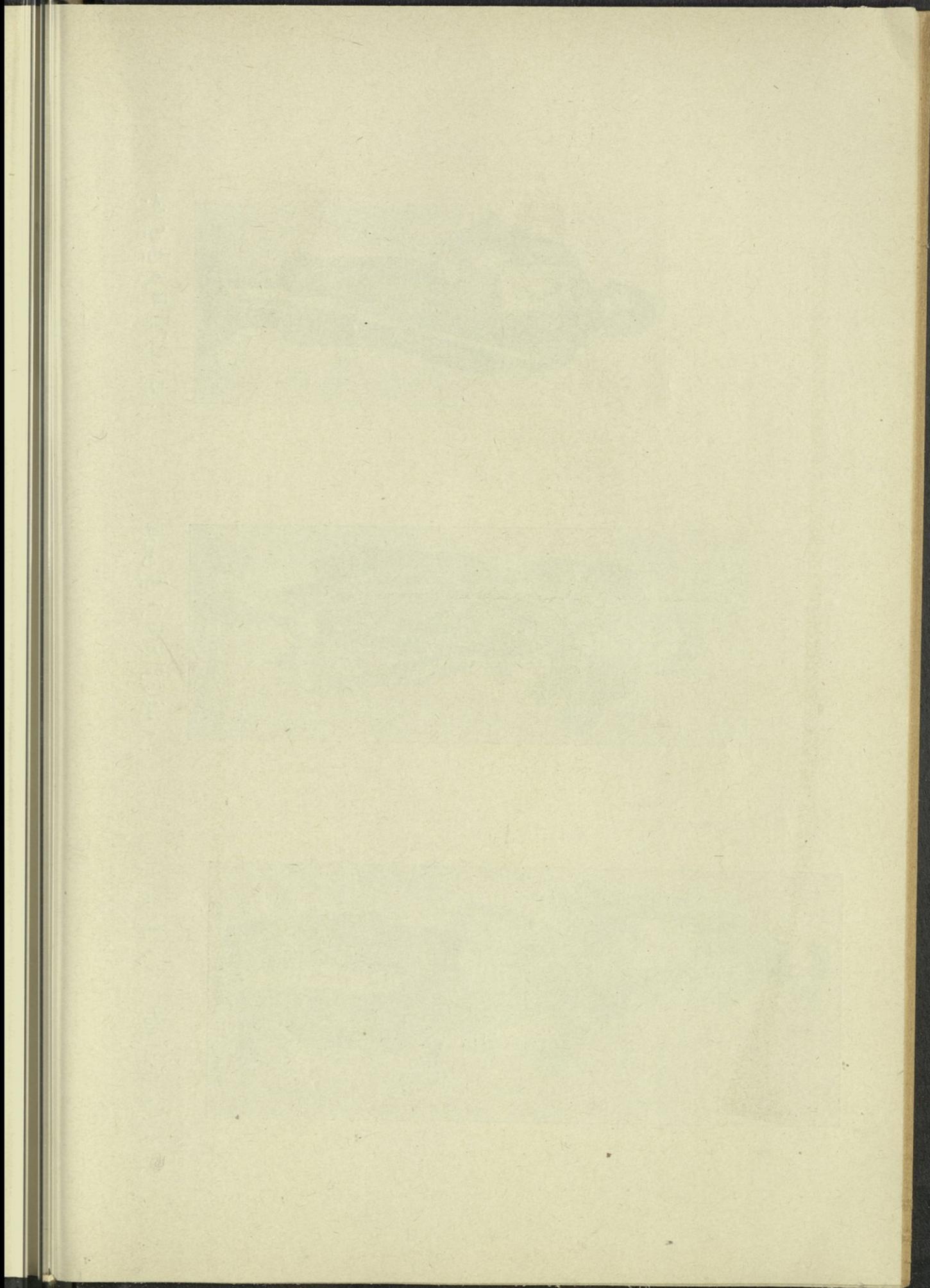
فارس في فرقة « الدراغون » .

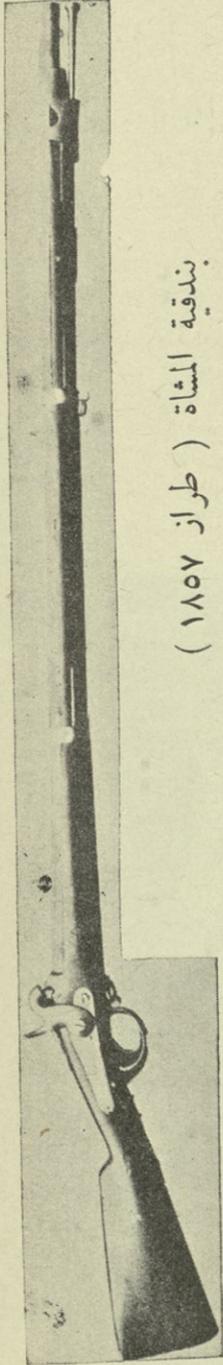


فارس في فرقة « الزواف » .



جندي في فرقة الانشاءات .

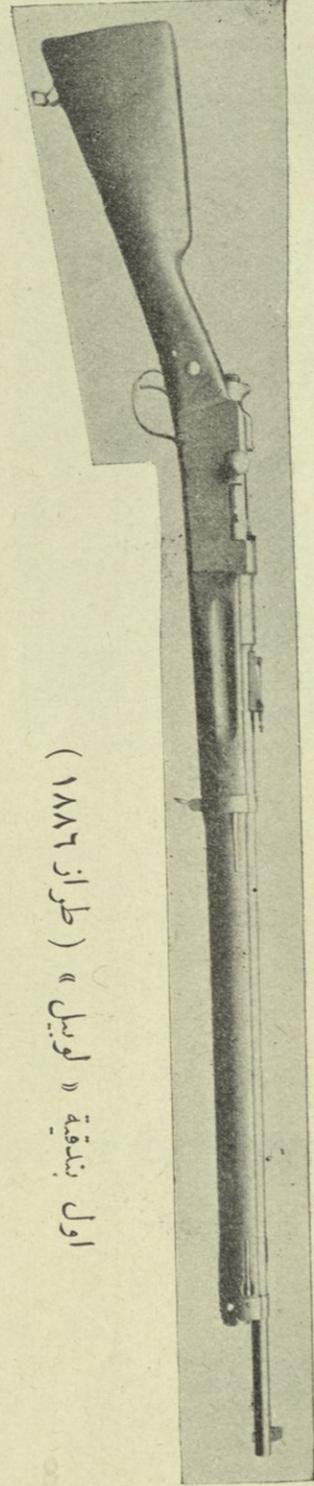




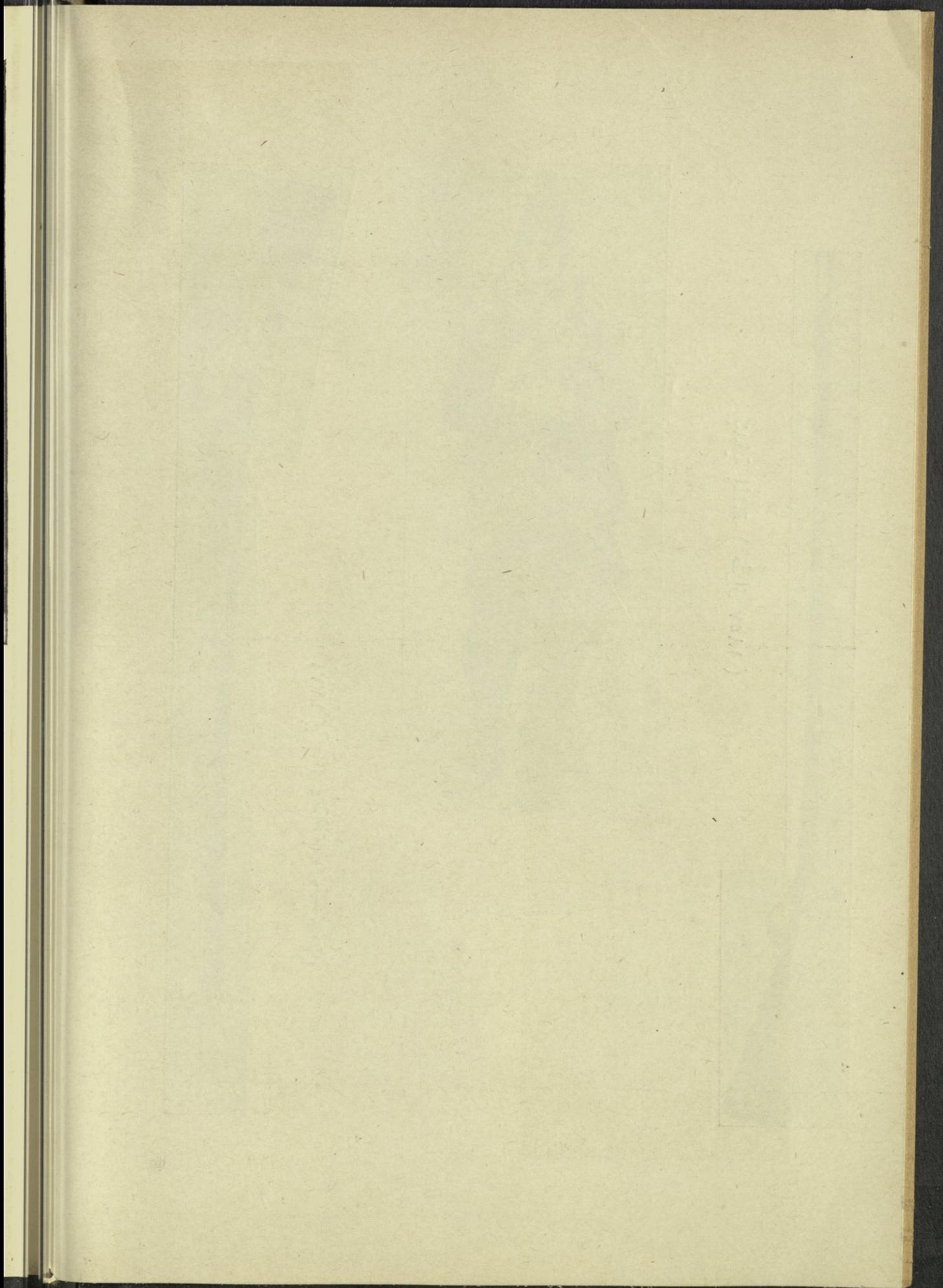
بنديقة المشاة (طراز ١٨٥٧)



جندي مشاة



اول بنديقة « لوبيل » (طراز ١٨٨٦)

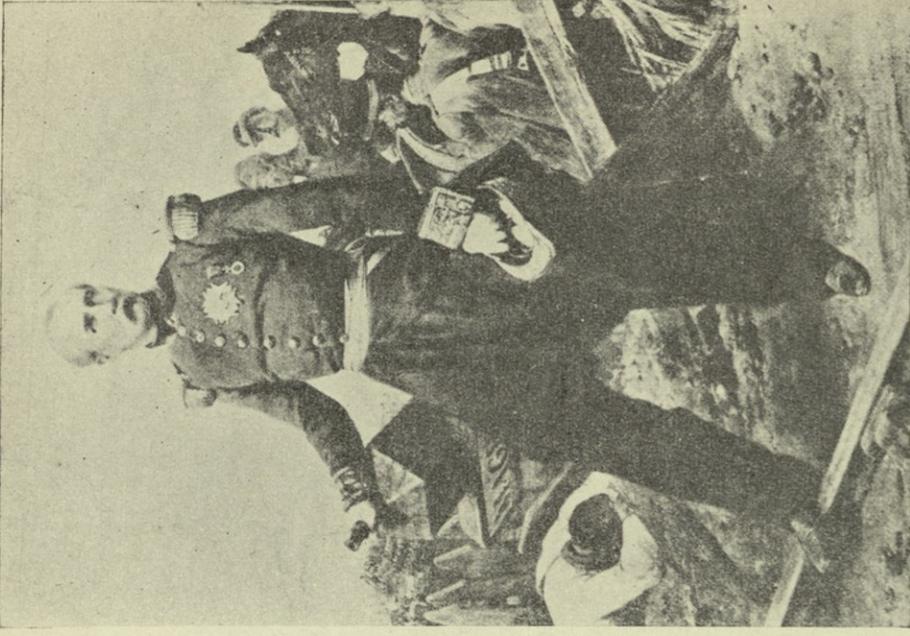


دوق دومال (بريشة ونترهالتر)



الامير عبد القادر الجزائري (بريشة تيسييه)

2000 1/2 (1000)



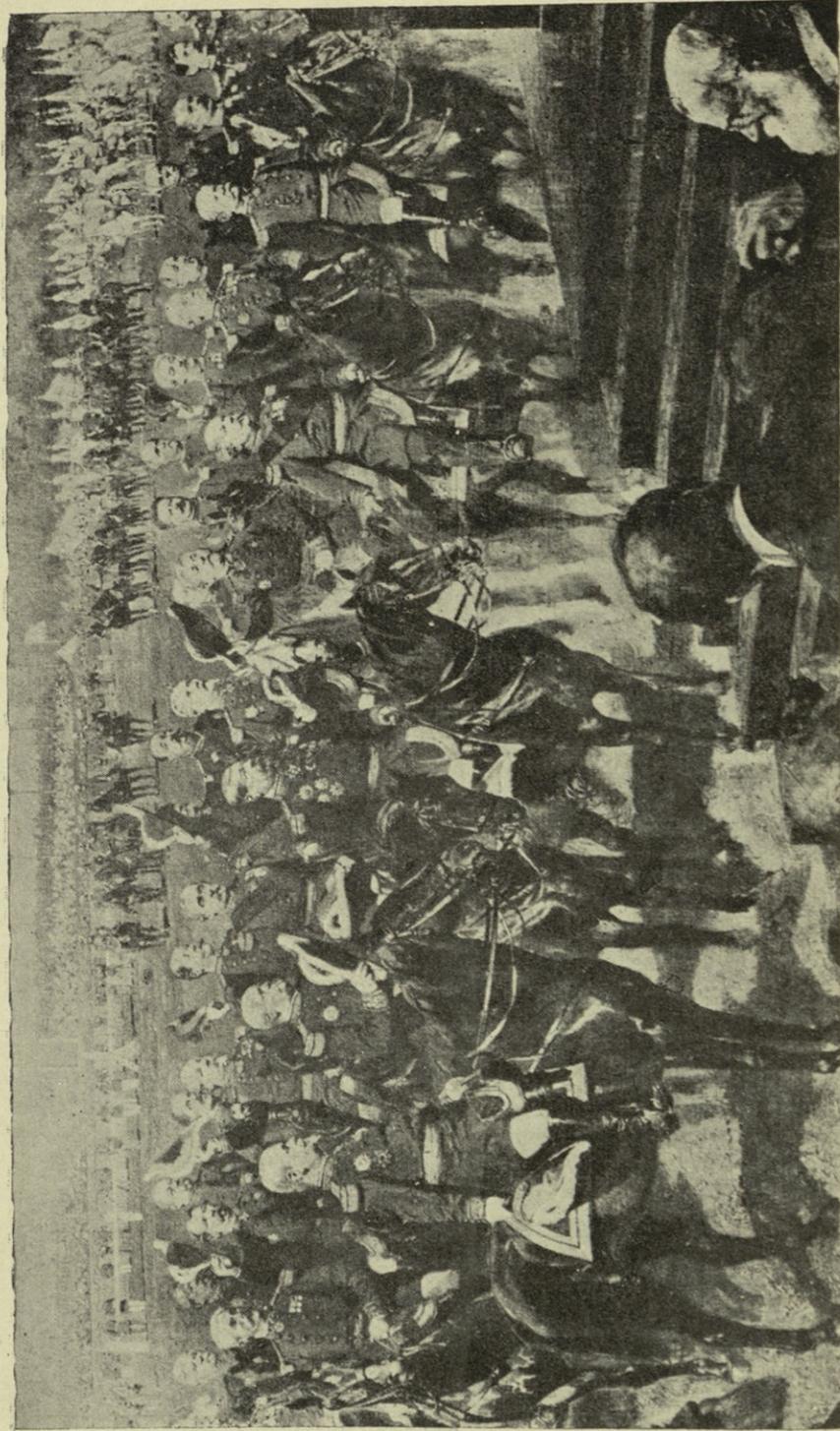
المرشال ماك ماهون (بويشة هورس فريه) .



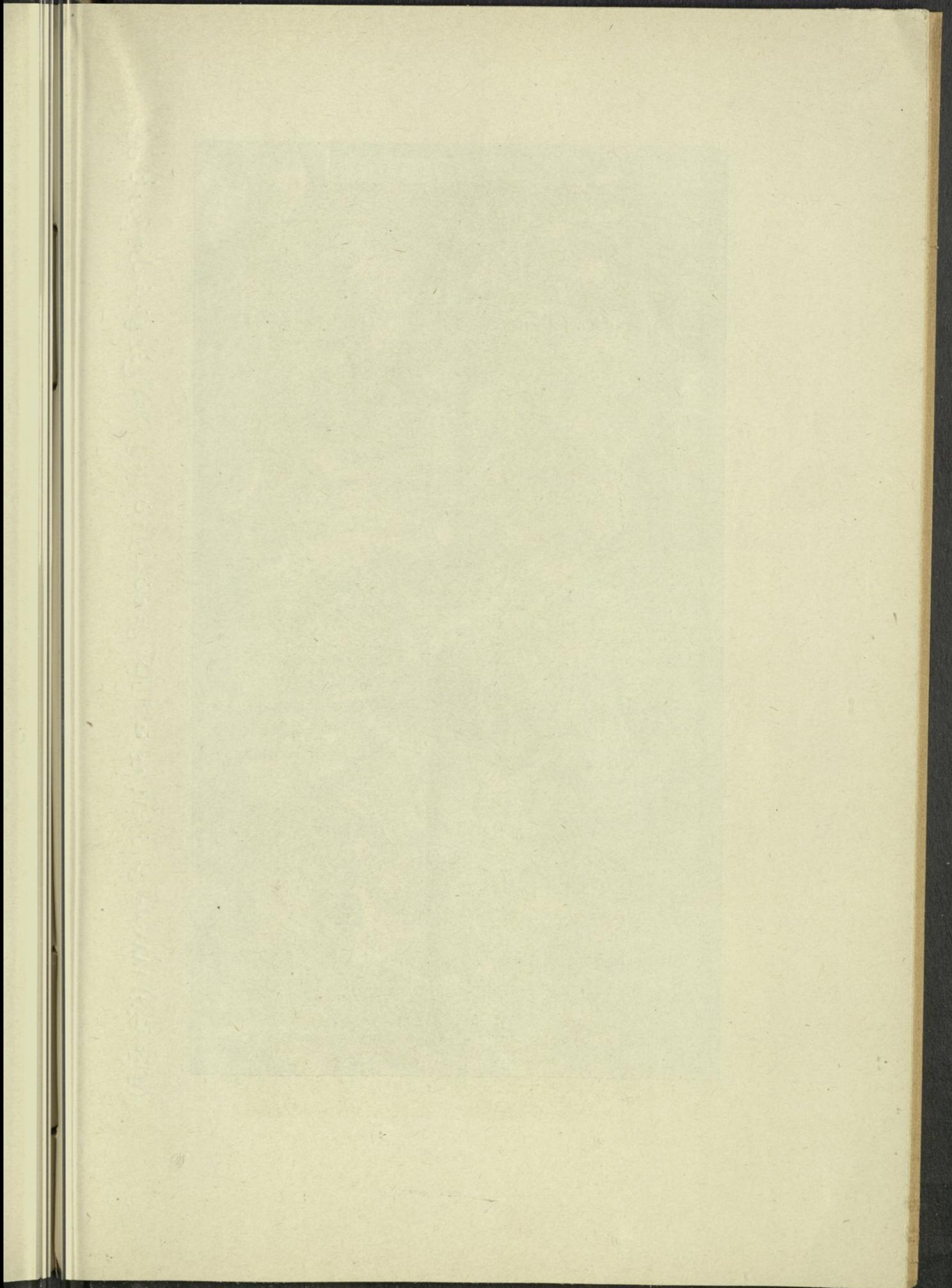
جنرال قائد فيلق في بڑته الرسمية .

1846-1847 (1846-1847)

1848-1849 (1848-1849)

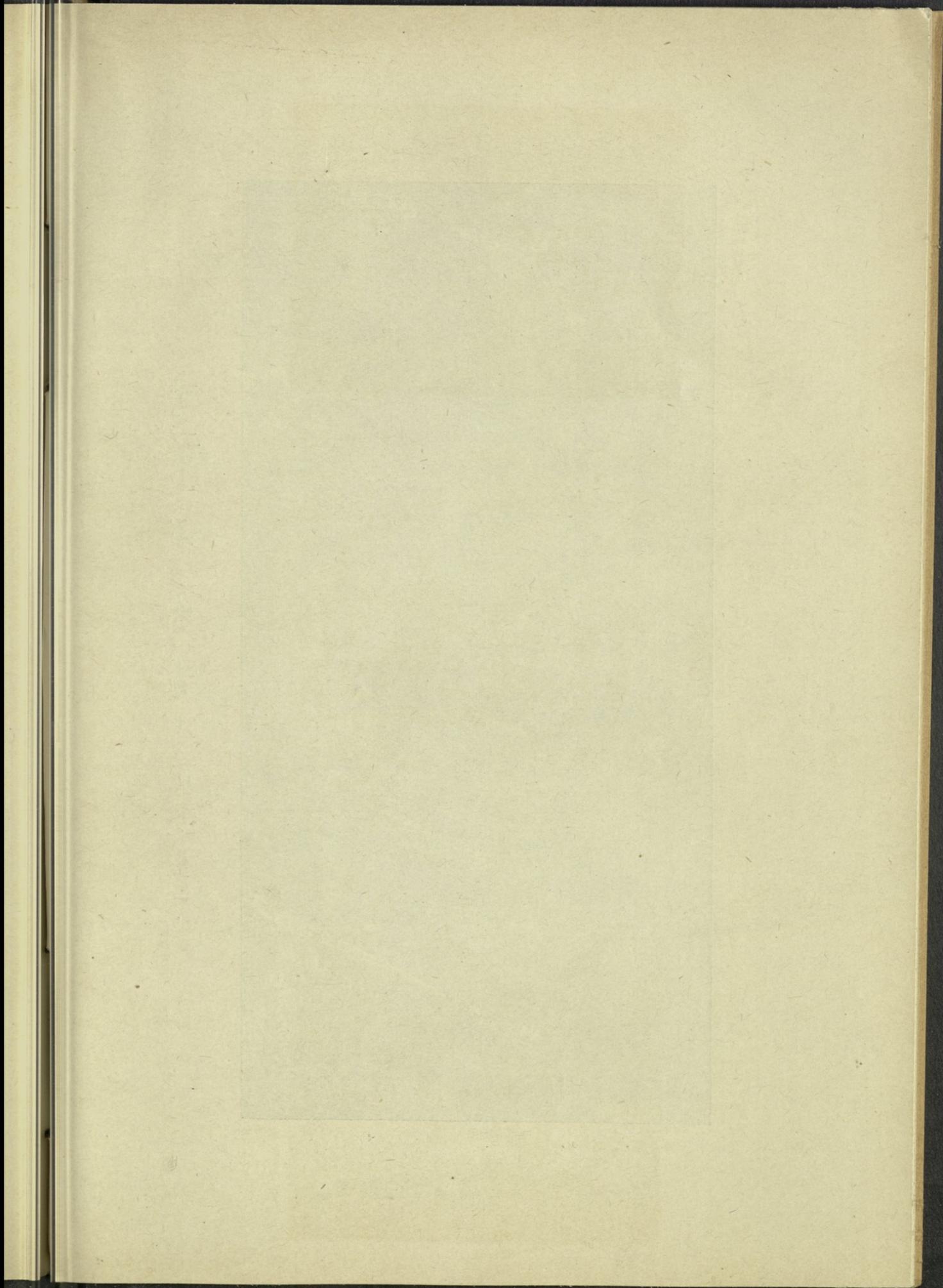


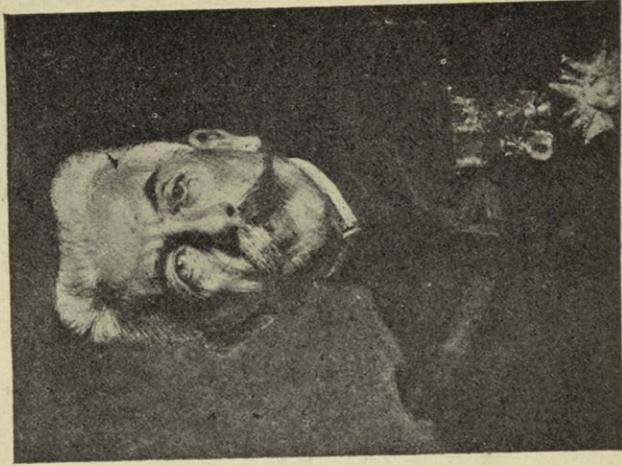
رئيس الجمهورية جول غريفي يوزع الاعلام في ميدان « لونشان » على كبار القادة يوم ١٤ تموز من العام ١٨٨٠ (بريشة ديتاي)





رئيس الجمهورية ريمون بوانكاره يشاهد مناورات العام ١٩١٣ .





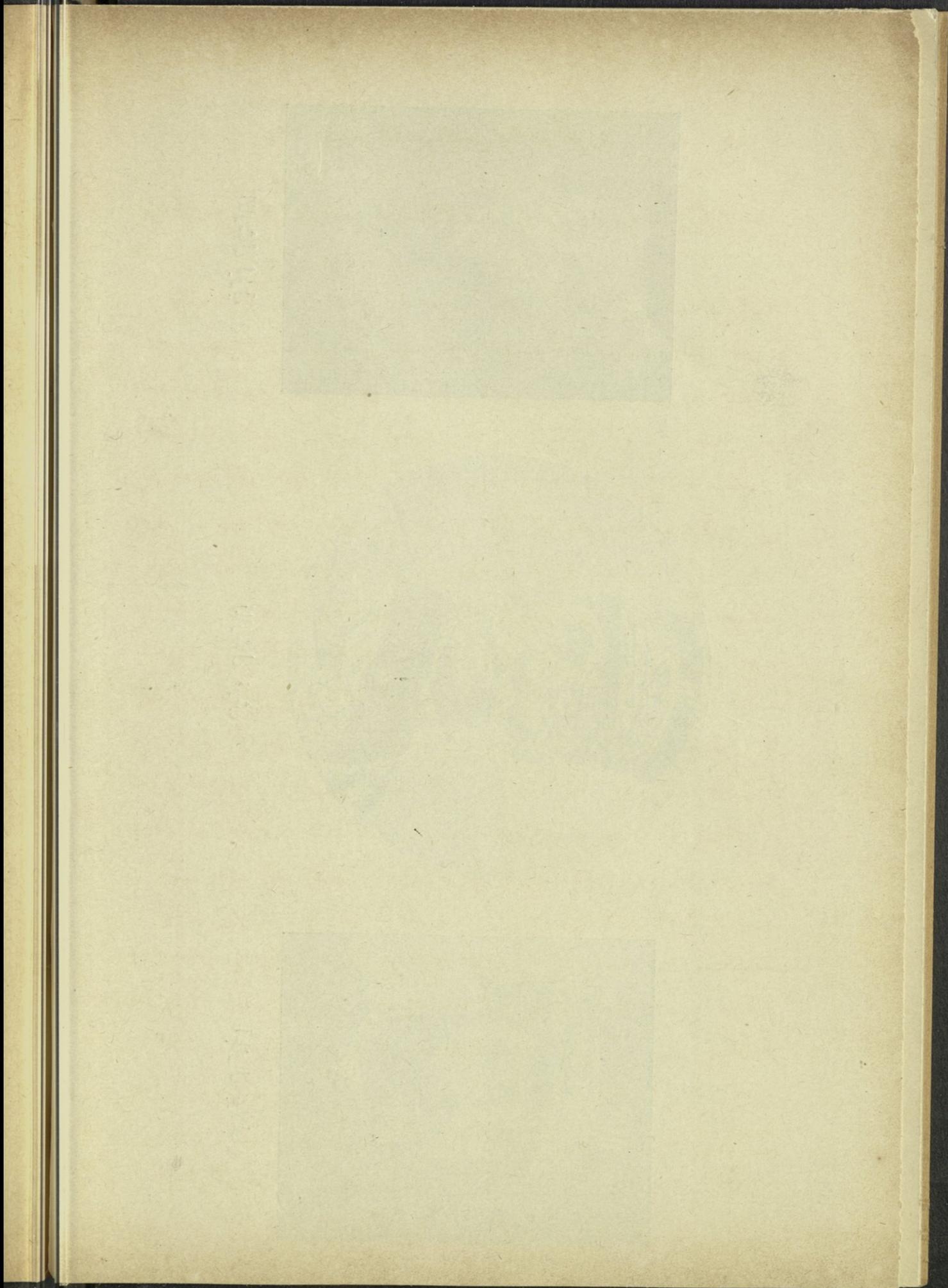
المارشال ليوني



المارشال فوش



الجنرال بولانجه



امرة المارشال « ناي » ووضع المارشال « صولت » على رأس هيئة اركان الحرب العامة .

وضع خطة جريئة تكفل له مباغته الحلفاء . فقد انتهى اليه ان القوات المعادية قسمت قسمين : الجيش الانكليزي بقيادة « ولنغتون » والجيش البروسي بقيادة « بلوخر » بانتظار وصول الجيش النمساوي ليؤلف القلب . وكان هذا الجيش يتقدم ببطء ، فقرر نابوليون مهاجمة الانكليز اولاً . ولكنه لاحظ عند وصوله الى الجهة ان الجيشين البروسي والانكليزي ما يزالان متباعدين ، فقرر ان ينشر جيشه بينهما . وما عم به الامر حتى هزم « بلوخر » في « ليني » بينما كان « ناي » يمشي الى النصر في موقعة « كاتربرا » . الا انه اضاع برده فرصة ثمينة . فقد عهد الى « غروشي » بمطاردة « بلوخر » وارتد هو على « ولنغتون » . ولكن « غروشي » فقد اثر البروسيين الذين قاموا بمناورة بارعة ردتهم الى ساحة القتال في اللحظة التي كان الانكليز يوشكون ان يلقوا فيها السلاح . فشدت المدد عزائمهم ومشى الجيشان المتحالفان يسحقان الجيش الامبراطوري تحت ثقل التفوق العددي . ورغم هذا صمد الفرنسيون واستبسلوا ، ولم يتبدد شملهم الا عندما خيم الظلام وقطعوا الامل من عودة « غروشي » وخيالته الى الميدان .

انهار مع نابوليون وجيشه في « واترلو » نظام سياسي اجمع المؤرخون على انه تداعى للسقوط بعد موقعة « موسكوبا » . ولكن الامبراطور استطاع دعمه بما حباه الله من مواهب الى اليوم الذي اختل فيه التوازن بين عقله وعبقريته ، فافتت من يده زمام الامر ، وخيل اليه وهو يتخبط في بحران من المشاكل ان الانتصارات العسكرية قيمة بانقاذ الموقف . فكان كمن ينشد سراباً او يحاول المستحيل .

الفصل التاسع

الجيش الفرنسي بين ١٨١٥ - ١٨٧٠

١ - جيش الملكية الدستورية

كان على فرنسا ان تؤدي ثمن الهزيمة ، فحرمتها عهدة فيينا من المعازل التي تغطي حدودها الشمالية الشرقية ، واخضعها للاحتلال الاجنبي . وقد اقتضت مصلحة الملك وسلامة اوروبا ازالة الجيش الامبراطوري من الوجود . فحلت وحدات الجيش العامل ، وانشئ في كل مقاطعة من المقاطعات الفرنسية فرقة من المتطوعة تضم ثلاثة افواج ، وحصر حق الانخراط فيها بابناء المقاطعة دون سواهم . واستثنى من الحصر المتطوعون في فرق المدفعية والحباله والهندسة . اما التجنيد الاجباري فقد الغي تماماً ..

كان الغرض من هذه التدابير بعثرة ابطال ملحمة مجيدة وشهودها ، وازالة اللحمة من جيش كانت الملكية توجس منه شراً ولا تطمئن الى اخلاصه لها . ولم يكتف العهد الجديد بتسريح الفرق الامبراطورية لتحل محلها الفرق الاقليمية بل الغي ملاكات الضباط ، ورض على الذين اقدمتهم السن او المرض او العاهة بمرتب تقاعدي كامل ، فاعطاهم نصف ما يستحقون بحجة التوفير .

ولم يوفر « آل بوربون » كبار القادة في الجيش الامبراطوري ، فاحيل ثمانية عشر قائداً الى المجلس الحربي بتهمة « الخيانة » ، وكان في رأس المتهمين « ناي »

«غروشي» و«كلوزل» و«برتران» و«كامبرون». وفرضت رقابة دقيقة على القادة «فاندام» و«موتون» و«ماريو» و«اليكس» وغيرهم. وقد استغرق النظر في القضايا العسكرية العام ١٨١٦ بكامله، وقضى المجلس الحربي باعدام كثير من القادة اللامعين وبتجريد مئات الضباط من رتبهم.

قانون ١٨١٨. - انضمت فرنسا الى «الحلف المقدس» سنة ١٨١٨ وما لبثت ان لمست اقتقارها الى جيش قوي. فعهد الملك الى المارشال «غوفيون سان سير» بمهمة تنظيم الجيش تحت اشراف لجنة عسكرية متحالفة، لان جيوش العدو لم تجل عن الاراضي الفرنسية الا في اواخر صيف ١٨١٨.

وفي ١٨ آذار من العام المذكور عرض المارشال على اللجنة المتحالفة نظاماً عسكرياً كاملاً، يتناول التجنيد وعدد الوحدات والاحتياط والملاك والترقية. ولما كان نظام التطوع الاختياري لا يفي بالمراد فقد وضع «غوفيون سان سير» نظام الدعوة الى حمل السلاح، وهو يقضي بتجنيد اربعين الف فرنسي في السنة يؤخذون بالقرعة من بين الذكور الذين اتموا العشرين من سنهم، ليخدموا ست سنوات في المقاطعة التي ينتمون اليها.

وقد اجاز النظام الجديد حلول رجل محل آخر. وجعل قوام جيش السلم ٢٤٠ الف رجل. اما الاحتياط فيتألف من المحاربين القدماء والجنود المسرحين الذين يوضعون تحت تصرف وزارة الحربية مدة خمس سنوات.

ونظم «غوفيون سان سير» ملاك الضباط، فاخضع الترقية لشروط معينة، منها ان رتبة ملازم ثان لا تمنح الا للمتخرج من مدرسة عسكرية او لضابط صف خدم بهذه الرتبة مدة اربع سنوات. ومنها ان الضابط لا يستحق الترقية الا بعد قضائه مدة معينة في الرتبة التي يتطلع الى ارفع منها.

وانشأ المارشال دائرة الميرة (الانتدانس) وهيئة اركان حرب لا تختلف وظائفها عن الهيئة التي انشأها نابوليون . كما انشأ « مجلس الحرب الاعلى » واختار اعضاءه بين المارشالية وقادة الفيالق المشهود لهم بالكفاءة والخبرة . تنظيم المدفعية . - طراً على المدفعية بعد عودة الملكية تحول ما يتفك اسماً لتنظيم هذا السلاح في ايامنا هذه . ففي العهد الامبراطوري كان لسرية المدفعية الراجلة سرية نقل خاصة بها ، فدعمت لجنة التنظيم في العهد الملكي هاتين السريتين جاعلة منها بطارية مدفعية . وتوسع الجنرال « فاله » رئيس اللجنة في عمله الانشائي ، فناط بالبطاريات الراجلة المهام التي توكل الى المدفعية في حرب الحصار وفي الدفاع عن السواحل والمدن المحصنة . وانشأ بطاريات نقالة لمعارك الميدان .

قانون ١٨٣٢ . - بدأت حكومة لويس فيليب دورليان عهدها بتطهير الجيش من العناصر الموالية لآل بوربون ، فحلت الحرس الملكي وعزلت عشرات القادة لتحل محلهم زملاء لهم ابعدهم حكومات لويس الثامن عشر وشارل العاشر لانهم لم يتحمسوا للعهد الجديد .

وقد ولي وزارة الحربية في عهد لويس فيليب ثلاثة عشر رجلاً منهم المارشال « صولت » الذي تبنى قانون ١٨٣٢ ودافع عنه في المجلس وفي الاوساط العسكرية .

لم يدخل القانون الجديد تعديلات جوهرية على قانون ١٨١٨ ، ولكنه جعل احكامه اكثر مرونة . من ذلك ان القانون السابق نص على تجنيد اربعين الف فرنسي في السنة ، فزال قانون ١٨٣٢ هذا النص ، وترك تقدير العدد المطلوب تجنيده للسلطة التنفيذية على ان يحدد بموجب قرار تشريعي . وجعلت مدة الخدمة سبع سنوات وكانت في القانون السابق ستاً .

ولم يعن القانون الجديد بالاحتياط ، ولكنه عالج مسألة الحرس الوطني الذي حل سنة ١٨٢٧ ، لانه ظاهر النبلاء ضد العرش . وكان لويس فيليب قد استهل عهده بوضع نظام جديد للحرس . وفي آذار سنة ١٨٣١ وافق ممثلو الامة على انشاء « الحرس الوطني ليتولى حماية الملكية الدستورية والدستور ويحافظ على النظام العام ويساعد الجيش النظامي في الدفاع عن الحدود والسواحل . » وقد اعاد قانون ١٨٣٢ النظر في نظام الحرس وادخل عليه تعديلات يسيرة ، يقضي اهمها بتأليف الحرس الدائم من الطبقات التي تؤلف الاحتياط ، على ان يصار الى دعوة الشبان الذين لم تشملهم التعبئة الى تأليف الحرس المتحرك في حال اضطرار فرنسا لحوض غمار معارك دفاعية على ارضها . الا ان الحرس المتحرك ظل في ضمير الذين اوصوا بانشائه . اما الحرس الدائم الذي ارادته الملكية حامياً لها ، فقد كانت له في ثورة ١٨٤٨ اليد الطولى في القضاء عليها .

ولكن اذا كانت السياسة قد افسدت الحرس الوطني فقد ظل الجيش النظامي بعيداً عن تياراتها ومؤثراتها ، بفضل التدابير والتسويات العادلة التي تمت في عهد « غوفيون سان سير » والمارشال « صولت » بين ١٨١٨ و ١٨٣٩ ، ذلك ان القوانين الاصلاحية التي وضعت ونفذت خلال هذه الفترة من الزمن ادت الى انصاف الضباط الذين غمطت حقوقهم ، وقضت على بواعث التذمر بتأمينها حقوق ذوي الرتب ، فانصرف هؤلاء الى واجباتهم غير ملتفتين الى ما يجري خارج الثكنة . وقد جنت فرنسا اطيب الثمار من ابتعاد الجيش عن السياسة خلال قرن كامل تخللته حوادث جسام وانقلابات عظيمة .

وفي اوائل العام ١٨٣٩ حدد عدد المارشالية وقادة الفيالق بقانون خاص . وبعد عامين نظم جيش السلم على اساس الكرديوس كوحدة سلاح ، واشتمل

على مئة كردوس مشاة وعشرة افواج من القناصة و ٥٤ كردوس خيالة
واربعة عشر كردوس مدفعية وثلاثة كراديس هندسية واربع سرايا
للتنقل .

الحياة العسكرية . - يقول الجنرال « ويغان » في « تاريخ الجيش الفرنسي »
ان فرنسا عرفت الجيش المحترف في عهد لويس فيليب ، فقد كان نظام
الثكنة يعزل الجندي عن ذويه ، كما كانت صعوبة المواصلات وطول مدة
الخدمة يعزلانه عن سائر العالم .

كان الجندي يقضي في الثكنة مدة طويلة قبل ان يأذن له الرؤساء
بالخروج الى المدينة او باداء مهمة ما بعيداً عن كردوسه . ويذكر المؤرخون
المعاصرون ان كردوساً ثار على رؤسائه لانهم اذنوا لجندي بالخروج من الثكنة
والظهور في احدى المدن ، مع علمهم ان مشيته ومظهره لا يشرفان الكردوس
الذي ينتمي اليه .

كان الجنود يجيئون في الثكنة حياة رهبانية ، ولم يكن ثمة سيارات
سياسية تتدافعهم وتصرفهم عن مشاغلهم الاساسية . وكان يسود الثكنة جو من
الثقة والاحترام المتبادلين ، لان التدابير الاصلاحية قضت على بواعث التدمير
وانصفت الجميع دون ما استثناء .

وشهدت الثكنات تنافساً محموداً بين مختلف الكراديس في ميادين الخدمة
والطاعة والنظام . وشجع دوق اورليان على انشاء سرية من جنود النخبة
يناط بها تجربة الاسلحة الجديدة ، فكانت هذه السرية نواة لفوج القناصة
الراجلة الذي اضيف اليه فيما بعد ثمانية افواج مثلت في ازمة ١٨٤٠ دوراً
تجلت فيه فضائلها العسكرية .

امنت انظمة المارشالين « غوفيون سان سير » و « صولت » لفرنسا جيشاً منظماً

ومتحلياً بالفضائل العسكرية ، ولكنها لم تضع في متناول البلاد القوة التي تستطيع مواجهة ازمة اوربية . اما القادة الذين ولوا مهام التدريب والتنشئة في الثكنات ، فقد حصروا اهتمامهم بالقشور دون الباب ، اي انهم عنوا بهندام الجنود وبتقوية روح الرفاقة في نفوسهم ، الا انهم اهملوا تنشئتهم التنشئة العسكرية التي تجعل منهم قوة يحسب حسابها اذا ما قضت السياسة باسماع صوت فرنسا في ميدان لا تجدي فيه لغة الاقناع .

على ان مرونة الانظمة التي وضعها المارشال « صولت » سمحت بمهر فرنسا في السلم بجيش قوامه ثلاثمئة الف رجل . وفي الحرب يرتفع هذا الرقم الى خمسة الف ، بحيث يتاح للبلاد ان تدعم سياستها الخارجية ذات الاهداف المحدودة باداة حرية لا بأس بها . وقد ادى الجيش سنة ١٨٢٣ المهمة التي وكلت اليه في اسبانيا بنجاح تام . فقد كان عليه ان يعيد الى العرش الاسباني الملك فردينان السابع الذي اقتلعت منه ثورة جاحمة . واثبت كفاءته في الحملة اليونانية وفي الدفاع عن استقلال البلجيك ضد محاولة اعتدائية قامت بها هولندا . ولكنه اخفق في دعم سياسة الحكومة في مصر عندما هب لدعم مطامع محمد علي باشا متحدياً انكلترا .

٢ - جيش افريقيا

حملة الجزائر . - انبتق من حملة الجزائر ، بما بذل فيها من جهد وتضحيات وفن ، جيش فرنسي جديد ، هو الجيش الافريقي ، الذي تميز منذ نشأته بطابع خاص ، وسط مجموعة القوات الفرنسية ، وما يزال له هذا الطابع المميز في عصرنا هذا .

فكر نابوليون بفتح الجزائر سنة ١٨٠٨ ، وعهد الى الضابط « بوتان » بان يرسم خطة الهجوم لان « بوتان » هذا اقام مدة طويلة على الارض الجزائرية .

وقد افادت حكومة شارل العاشر من اختبارات الرجل ، فاستعانت في شباط ١٨٣٠ بالتصاميم التي وضعها وجهزت حملة قوامها سبعة وثلاثون الف رجل وثلاثة وثمانون مدفعا . وفي ١٢ ايار ركبت هذه القوات البحر وعلى رأسها قائدان هما المارشال «دوبورمون» والاميرال «دوبيره» . وقبل قيام الحملة دعي القائدان الى وزارة الحربية وافها ان نجاحها يتوقف على تفاهمها . فاذا قام بينها خلاف حول ادارة العمليات فالمارشال «دوبورمون» يتولى القيادة العامة ويكون الاميرال واحداً من معاونيه .

لم تطأ الحملة ارض الجزائر الا في الرابع عشر من حزيران لان الاحوال الجوية لم تكن موآتية لها . وقد تمت عملية النزول دون مشقة لانها لم تصادف مقاومة . واتخذت الحملة معسكراً لها في شبه جزيرة «سيدي فروخ» . وفي ١٩ حزيران ربح الفرنسيون معركة «ستولي» واندفعوا شطر مدينة الجزائر (الجه) فاحتلوا «حصن الامبراطور» في الرابع من تموز . وفي اليوم التالي سقطت المدينة .

وقد دفع المشاة الفرنسيون غالباً ثمن هذا الفوز ، فقتل منهم خلق كثير برصاص العدو المتحرك بسرعة ، لانهم مشوا الى لقائه صفوفاً مترامة حتى خيل الى فرسانه انهم امام مقاتلين يخرجون للزوال وقد شدوا بسلاسل بعضهم الى بعض .

ولكن سقوط الجزائر الذي حسبه في باريس المرحلة الحاسمة في الحملة لم يكن في الواقع سوى البداية . وسرعان ما تبخرت حماسة الجنود وهم يرون الى حيرة القادة وترددهم امام معضلة التموين والمشاكل الناجمة عن الجهل بطبيعة الارض واخلاق السكان . وزاد في الطين بلة وطأة القيظ وتفشي الاوبئة فحاولت القيادة رفع الروح المعنوي باستثمار النجاح المبدي ، فاحتلت القوات

الفرنسية مينائي غنابة ووهران ، وانصرف المارشال « دوپورمون » الى خلق نواة القوات المساعدة وتنظيم الجهاز الاداري في المناطق المحتلة ، ولكن ثورة تموز ١٨٣٠ التي اطاحت بعرش شارل العاشر واقامت على انقاضه عرش لويس فيليب ، لم تدع له مجالاً لتنفيذ مشروعاته . فعينت الحكومة الجديدة الجنرال « كلوزيل » خلفاً له . وقد ولي القيادة خلال عشر سنين ، اي بين ١٨٣٠ و ١٨٤٠ ، ثمانية رجال ، فكان معظمهم يشخص الى الجزائر مطلق التصرف دون ان تكون لديه معلومات صحيحة عن البلاد واحوال سكانها .

كان « كلوزيل » قائداً زكي الفؤاد ، شجاعاً ، وكان عيبه الوحيد تسرعه . فهو يرسم الخطة استناداً الى معلومات كثيراً ما تكون غير موثوق بها ، ويضع موضع التنفيذ قبل ان تتوفر لديه عناصر النجاح . وقد استبدل منه الرؤساء الجنرال « برتيزين » وهو من ضباط الجيش الامبراطوري المجريين ، ولكنه لم يكن ذا شخصية قوية فتهيب المصاعب التي اعترضت مهمته وما لبث ان وضع نفسه تحت تصرف الرؤساء في باريس .

اما الجنرال « سافاري » الذي خلفه فقد كان نشيطاً ومقداماً . ولكن لم يتخلل عهده القصير اي حدث عسكري ، لانه صرف جل اهتمامه الى القوات المساعدة فوسع نطاقها واعاد تنظيمها . وحل محله سنة ١٨٣٣ الجنرال « فوارول » الذي وضع نصب عينيه احتلال الجزائر كلها ، متحدياً باريس التي كانت تميل الى الاكتفاء بما حصل لثلا يثير التوسع الفرنسي قلق انكلترا . وفي عهد « فوارول » انشئ « المكتب العربي » ولكن مشاريع القائد اصطدمت باعتراض الرؤساء من جهة وبحركات الامير عبد القادر من جهة اخرى . وكان الرأي العام الفرنسي قد بدأ يتبرم بالحملة ويطالب بانهاؤها كيفما اتفق ، فعينت الحكومة الجنرال « ديرلون » خلفاً لـ « فوارول » واوعزت اليه بالاتفاق وعبد القادر . ولكن

الامير الجزائري حمل تودد الفرنسيين اليه على حمل الضعف فوسع منطقة نفوذه ودعا شيوخ القبائل الى موازرتة في حرب الجهاد . فاوجس الجنرال «ديولون» شراً من جانب الامير وساق ضده حملة ضعيفة ، فهزما الجزائريون في «ماكنا» . ووصل النبا الى باريس مجسماً . فقام خصوم التوسع وقعدوا وطلبوا سحب القوات الفرنسية حالا ، لان استمرار الحملة يضعف مركز فرنسا في اوروبا . فالفت الحكومة لجنة عليا لدرس « اسباب الاخفاق الذي مني به المحاربون الفرنسيون في الجزائر » ، فقدمت اللجنة تقريراً بالاسباب ، وفي رأسها ضعف الحملة والجهل باحوال البلاد ، ونصحت باحتلال ساحل افريقيا الشمالي « لان الانسحاب من الجزائر يصيب هيبة فرنسا في الصميم . » وقد تبنت الحكومة وجهة نظر اللجنة وعينت الجنرال « كلوزيل » حاكماً للجزائر وقائداً للحملة لانه « لا يحجم امام الصعاب وقد وعد بان يكون اكثر تروياً في اعماله . » (من تصريح لوزير الحربية في مجلس النواب وكان بعض ممثلي الامة قد انتقد عودة كلوزيل الى الجزائر بعد ان اخفق في اداء مهمته فيها العام ١٨٣٠) .

استطاع « كلوزيل » ان يجمل الحكومة على تعزيز الحملة ، فتجمع لديه اثنان وثلاثون الف رجل . فاحتل « مسكرا » و « تلمسان » في غضون بضعة اسابيع ثم قرر احتلال قسنطينة ، فكتب الى وزير الحربية يطلب قوات اضافية فعارض المجلس النيابي في « تحميل فرنسا اعباء جديدة . » وكانت قوات « كلوزيل » قد شرعت تهاجم قسنطينة ، ولكن الهجوم لم يصادف نجاحاً ، فعزل القائد « المتسرع » كما وصفته صحف ذلك العهد وعين الجنرال « دامريمون » بدلا عنه ، فهاجم المدينة نفسها باربعين الف رجل واحتلها عنوة . ورأت باريس ان تقنع بالنتائج الحاصلة فاوعزت الى « دامريمون »

بأن يكتفي باحتلال مدن ثلاث هي الجزائر وعنابة وهران والاقليم الملحقة بها . اما سائر المناطق فتترك للزعماء المحليين .

وقد سبق احتلال قسنطينة اتفاق عقده الجنرال « بوجو » قائد موقع « وهران » مع عبد القادر الذي اغضى عن احتلال الفرنسيين للمدينة مقابل اعترافهم بسلطته المطلقة على منطقة وهران وعلى القسم غير الفرنسي من اقليم الجزائر . وعرف الزعيم الجزائري كيف يخدع المارشال « فاله » حاكم المناطق الفرنسية ، فظاهر بالاختلاص الى السكينة ، وراح يتودد سراً الى القبائل ليحملها على الانضواء تحت لوائه . واوفد رسولا الى سلطان مراکش يستعديه على الاجنبي . وفي الوقت نفسه كان الانكليز يدونه بالاسلحة ، تنقلها سفنهم الى جزيرة « راغون » التي تنازل له عنها الجنرال « بوجو » . وكان الاتراك يشجعونه على المقاومة ويرسلون اليه ضباطاً يدربون جيشه ويرسمون له الخطط .

اخلد عبد القادر الى السكينة زهاء عامين قضاها في الاستعداد لحرب نظامية ، ولاخرى تعرف اليوم بحرب العصابات . وقد حصن المدن والقرى الساحلية ولكنه كان يعتمد على اتقانه فن المناورة وعلى الخدع الحربية في بلاد لا يعرف منه الفرنسيون سوى المناطق التي يحتلونها . وعبد القادر هو القائل :
« عندما يقف المرء على الشاطئ ويرى الى الاسماك تتحرك في البحر بحرية يخيل له انه يستطيع التقاطها بسهولة ، مع ان صيدها يتطلب مجهوداً خاصاً وعناء كبيراً . ونحن العرب لسنا اسهل منلا من اسماك البحر . »

هذا هو الرجل الذي وصفه الجنرال « بوجو » بأنه اذكى رجال العصر واشجعهم واوسعهم نفوذاً .

الجنرال بوجو . - اما « بوجو » فيصفه الكولونيل « ريفول » في « تاريخ

الجيش الفرنسي « بانه اعظم شخصية عسكرية في القرن التاسع عشر بعد نابوليون . خدم في الجيش الامبراطوري وانصرف الى الزراعة في عهد لويس الثامن عشر وشارل العاشر . وانتخب نائباً بعد ثورة تموز وتربع لويس فيليب على العرش . وفي العام ١٨٣٦ عاد الى الخدمة برتبة لواء (جنرال دو بريغاد) وعين قائداً لموقع وهران في الجزائر .

قال فيه النقاد المشهور « سانت بوف » : « للجنرال بوجو عيوب بارزة . فهو يتحدث عن نفسه بخيلاء ويحتقر منافسيه ولا يداري عواطفهم . قضى بضعة عشر عاماً في الريف بين اناس ادنى منه فاضحت اللهجة الجافة ملكة فيه . وهو ، الى هذا ، قليل العناية بهندامه ، يجمل ابسط قواعد اللياقة . ولكنه رجل عظيم رغم هذه المظاهر ، رجل متفوق مؤمن بعظمة وطنه . كان زملاؤه في مجلس الامة يتهامون اذ يرونه مقبلاً : في فرنسا رجل واحد يؤمن بالمجد ، وهذا الرجل هو الجنرال بوجو . كانوا يقولونها في لهجة ساخرة .

كان « بوجو » على حق في ايمانه بالمجد ، وقد دلل في افريقيا على انه لم يكن رجلاً هوائياً يجري وراء الاوهام . نعم ، كان قبل تعيينه في وهران من انصار الجلاء عن الجزائر ولكنه كان يفعل هذا لاسباب سياسية . فما ان وطئت قدماه ارض افريقيا حتى رمى بالسياسة في البحر ووقف نشاطه على خدمة فرنسا .

جمع ضباط اركان حربه يوم وصوله بالذات وقال يشرح لهم تكتيكه : « اتم هنا منذ بضعة اعوام واعتقد انكم مقتنعون مثلي بان الطريقة التي اتبعتموها وما تزال متبعة في محاربة الجزائريين ليست بالطريقة المثمرة . لقد حاربت وحارب معظمكم في اسبانيا سنة ١٨١٢ ، ولا شك في انكم لاحظتم الشبه

العظيم بين الحربين ، ففي اسبانيا فوجنا بحرب العصابات وفي الجزائر ينحو
اعدائنا النحو نفسه . لهذا ارى ان نكف عن تسيير تجريدات كبيرة في اثر
العدو وان نتخلص من هذه المدفعية الثقيلة ومن كل ما يعوق سيرنا وبحول
دون لحاقنا بالجزائريين ومباغتتهم . »

وكتب الى وزير الحربية يقول : « ان الكراديس والافواج والسرايا
الفرنسية في افريقيا لفي حاجة الى قادة اقوياء بدنياً ومعنويًا ، وعندى ان
يسحب من الحملة آمو الكراديس والافواج والسرايا الذين لا يتوفر فيهم هذا
الشرط لان بقاءهم هذا يضر بالقضية التي نخدمها . ان احتلال افريقيا ليتطلب
اكثر من تضحية ، فانصاف التدابير التي تلجأ اليها الحكومة تكلف البلاد غالباً
وتذهب هباء . ففي افريقيا يجب ان نكون الفريق الاقوى والا فلنحل
قبل فوات الاوان . »

كانت مهمته محدودة . فقد ارسل الى وهران ليفاوض عبد القادر ، فلما
تم الاتفاق بينها عاد الى فرنسا حيث قضى ثلاث سنوات لم ينقطع خلالها
عن الاهتمام بالقضية الجزائرية ، وكان يقول للذين انتقدوا اتفاقه والامير الجزائري
« ان المعاهدات لا تلزم الامم الا اذا كانت متفقة ومصالحها . ولا شك في
ان الامير الجزائري سيخلق المناسبة التي تذرعه بها لنقض الاتفاق . »

واوجد عبد القادر هذه المناسبة سنة ١٨٣٩ فوقف « بوجو » في مجلس
الامة يبسط رأيه في الحالة . فسقه الرأي القائل بالجلء عن الجزائر بعد ان
ضحت فرنسا في خلال تسع سنوات بالرجال والاموال . وقال بوجوب
القضاء على نفوذ عبد القادر باي ثمن لانه العقبة الرئيسية في طريق التفاهم
الفرنسي الجزائري . وانتقل الى العمليات الحربية فقال ان الفرنسيين اذ يجاربون في
اوروپا انما يسعون الى سحق الجيوش والقضاء على مصالح العدو ويجتهدون في

وضع ايديهم على هذه المصالح كالمكوس (الجهارك) والمراكز التجارية والصناعية الخ... اما في افريقيا فالشعب ليس عدواً ، لهذا لا يجوز التعرض لمصلحه وفي رأسها الزراعة .

واقترح القائد المحرب ان يعهد الى التجريديات الفرنسية في الجزائر بمهمة مساعدة السكان في استثمار الارض . « اذا وليت القيادة هناك مرة اخرى اقول لقادة التجريديات انكم تضعون الوقت سدى في مطاردة العدو . فالقضاء عليه يصبح ممكناً متى عرفتم ان تحولوا بينه وبين المراعي ليستأثر بها السكان الموالون لنا . ان فريقاً من النواب يضح وقد سمعت بعضهم يصف هذه الطريقة بانها بربرية . فهل نسي هذا الفريق من الزملاء ان السكان الآمنين احق بها من الذين يحاربوننا وان الحطط الحربية لا يمكن ان تستوحى من المبادئ التي اشتملت عليها الكتب السماوية ؟ يجب ان نؤمن لتجريداتنا واصدقائنا اسباب المعيشة في تلك البلاد . »

وشرح « بوجو » خطته فقال ان اخضاع الجزائر كلها يتطلب جيشاً من ستين الف مقاتل موزعين على ست تجريدات تدرع البلاد طولاً وعرضاً ، وتكون كل واحدة منها قادرة على مواجهة العدو مهما تكن قوته . واكد ان خطته كفيلة باخضاع المناطق الرئيسية الثلاث وهي : « الجزائر » و « وهران » و « تيتري » فينفر الاعداء الى الصحراء حيث تندر المراعي والحبوب ولكنهم لن يلبثوا ان يسعوا الى مفاوضة الفرنسيين تدفعهم الحاجة الى الماء والكلاء والغذاء فيفرض الفاتحون شروطهم . اما اذا آثروا البقاء في الصحراء فالجمال يظل فسيحاً لاقطاع السكان الموالين اخصب الاراضي واوفرها انتاجاً .

وكرر القائد على مسامع النواب ما سبق له ان صرح به في وهران في حفل من الضباط فقال ان قوات عبد القادر تتقن حرب الكمين والعصابات

وتجتهد دائماً في استدراج التجريبات الفرنسية الى الممرات الضيقة والجبال وهذا ما يجعل مهمة الحملة في غاية الصعوبة لانها لم تدرب على حرب الحركات في مناطق تكثر فيها النواتى. ونصح «بوجو» بتترك المدفعية الثقيلة جانباً وبتسيير تجريبات صغيرة وخفيفة في اثر العدو .

اهتم الرأي العام الفرنسي ببيان القائد وهبت الصحف تطالب بتعيين الرجل قائداً للحملة وحاكماً للجزائر، فنزلت الحكومة على الطلب ، ووجد «بوجو» في المارشال «صولت» الذي ولي وزارة الحربية عضداً قوياً ، دعم مطالبه كلها ولم يبخل عليه بالرجال فزاد عددهم مئة بالمة بين ١٨٤١ و ١٨٤٦ .

شرع «بوجو» منذ وصوله يهاجم مدن الامير عبد القادر فاحتل «مسكرا» ودمر «تاغدامت» عاصمة الامير العسكرية كما دمر «بوغار» و«تازا» و«صيدا» ثم احتل «ميديا» و«ميليانا» . فلم يبق لعبد القادر من الموانىء سوى «تينيس» . وانفق الفرنسيون سنتين (١٨٤٢ و ١٨٤٣) في اخضاع القوات النظامية ومعاقلة القبائل فاحتلوا «تلسان» ودمروا «غوجلا» وتوغلوا في منطقتي «داهرا» و«اوران سينييس» ، فانهارت معاقلة عبد القادر الرئيسية الواحد تلو الآخر ، وسلمت قبائل «سمالا» . وعقب هذا انتزاع اقليم الجزائر كله من الامير ، وتحطيم قواته النظامية قرب «مسكرا» (تشرين الثاني ١٨٤٣) فلجأ الى مراكش واستعدى سلطان «فاس» على الفرنسيين ، فهزم «بوجو» جيش السلطان في موقعة «ايسلي» (١٤ آب ١٨٤٤) وانتزع منه اعترافاً بان عبد القادر ثائر خطر وتعهده باعتقاله اذا وقع بين ايدي القوات المراكشية .

ما ان انتهى خبر الاتفاق الى عبد القادر حتى غادر مخبأه فجأة وانقض على المراكز الفرنسية في خط «ماغرينيا نيمور» وابدأ تجريدة كاملة في «سيدي ابراهيم» (٢٣ ايلول ١٨٤٥) فاستؤنف القتال على طول حدود وهران ،

وحاول الامير ان ينفخ في بوق الثورة ، ولكن « التجريدات الفرنسية المتحركة ذات المدى البعيد » ، كما سماها مؤرخو العصر ، سدت دونه المنافذ وحالت بينه وبين الاتصال بالسكان . وفي غضون سنة واحدة اخضعت القبائل النائرة .

ولم ينتظر « بوجو » ختام الحملة كي يشرع في تنظيم الجزائر ، ولكن الحكومة والبرلمان لم يتحمسا لمشروعه ، فاعتزل منصبه قبل ان يسلم عبد القادر نفسه . وقد تم تسليم الامير في الثالث والعشرين من كانون الاول ١٨٤٧ فزال العقبة الرئيسية في طريق التعاون الفرنسي الجزائري ، على حد قول « بوجو » نفسه ، ولم يبق الا اخضاع مناطق الواحات وبعض المناطق الجبلية الوعرة ، فاستغرقت عملية اخضاعها عشر سنين اخرى .

الرؤساء والمرؤوسون . - اخرجت حملة الجزائر ضباطاً لامعين مثل معظمهم في حروب الامبراطورية الثانية دوراً رئيسياً . وقد لمع هؤلاء الضباط في المعارك كما لمعوا في الادارة وتنظيم القطعات المحلية . نفع فيهم الجنرال « بوجو » (المارشال بوجو فيما بعد) من روحه وانصفهم بعد اعتزال منصبه فكان اذا ذكرت الجزائر يبرز ما آتى الضباط « ماكاهون » والدوق « دومال » و « كاتروبير » و « سان ارنو » و « موريس » و « نيل » و « بيدو » و « لامورسيير » الذي سلم اليه الامير عبد القادر .

وتميز جنود الحملة الفرنسيون بالشجاعة والصر على المكاره ، وقد اعترف عبد القادر نفسه بان الجندي الفرنسي لا يجارى في المواقف الصعبة . وبعد تسليمه قال للكولونيل « لامورسيير » انه فخور بان يرى مواطنيه يقاتلون في الصفوف الفرنسية . وتميز من بين هؤلاء ، الجنود الذين عرفوا منذ ذلك باسم « الزواف » وجنود الفرقة الاجنبية التي انشئت في صيف ١٨٣١ .

الزواف . - اطلق الجنرال « بورمون » اسم « الزواف » على الجنود المرترقة الذين جعل منهم نواة القوات المساعدة في صيف ١٨٣٠ . وينتمي الزواف الى قبائل « زواوا » المشهورة بشدة البأس . وفي تشرين الاول من العام نفسه استصدرت الحكومة الفرنسية مرسوماً بانشاء فوج الزواف الاول وعهد بقيادته الى « لامورسيير » الذي اقترح بعد موقعة « مسكرا » انشاء افواج اضافية : « لان الزواف محاربون اشداء ، لم تق صعوبة في الهاب حماسهم لانهم خلقوا للكفاح . » وقد انشئ الفوج الثاني في اواخر العام ١٨٣٥ ، وكان « لامورسيير » قد رقي الى رتبة كولونيل فعين قائداً لكردوس الزواف الاول . وبعد موقعة قسنطينة انشئ الفوج الثالث كما انشئت سريتان من « القناصة الجزائرية » فكانتا نواة « كردوس القناصة الافريقية » الذي اجتذب المتطوعة بالئات في غضون ثماني سنوات ، فما انصرم العام ١٨٣٩ حتى كان الجيش الافريقي يضم اربعة كراديس مستقلة ، منها كردوسان ضمنا سرايا « القناصة الصباحية » التي كان رجالها يتجهزون على نفقتهم الخاصة .

الفرقة الاجنبية . - انشئت « الفرقة الاجنبية » في التاسع من آذار ١٨٣١ ، وجعل الانضمام اليها اختيارياً لمدة تراوح بين ثلاث وخمس سنوات للراغبين في التطوع من الرجال الذين بلغوا الثامنة عشرة ولم يتخطوا الاربعين . وفي اول نيسان من العام ١٨٣٢ كانت الفرقة تتألف من اربعة افواج قوامها ٢٧٠٠ رجل معظمهم من المان رينانيا ومن البولونيين والايطاليين والفرنسيين . وقد ارسلت الفرقة في العام ١٨٣٥ الى اسبانيا لتعمل في صفوف اعداء « دون كارلوس » فقاتلت على الارض الاسبانية باسم « الفرقة الفرنسية المساعدة » وسقط نصف رجالها في ميدان الشرف .

وبعد اخفاق الهجوم الفرنسي الاول على قسنطينة قررت الحكومة

الفرنسية انشاء فرقة اجنبية جديدة ، فوصل الفوج الاول منها الى الجزائر في نيسان ١٨٣٧ بقيادة المقدم بيدو . وبعد انتهاء الحرب الاسبانية انشئت ثلاثة افواج حديثة ضم احدها بقايا الفرقة الاصلية .

٣ - جيش الامبراطورية الثانية

خلفت الملكية للامبراطورية الثانية جيشاً منظماً ، مكتمل التدريب ومؤسسات عسكرية سليمة ومرنة ، لكن يعوزها الاحتياط المتعلم . وقد قبلت الامبراطورية التركية على علاقتها ولم تبذل أي جهد في سبيل تميتها وتحسينها . اجمع المؤرخون على ان حرب القرم (١٨٥٤) كانت حلقة في سلسلة ايجاد جيش الملكية الدستورية . وبلاضافة الى حملة القرم اثبت هذا الجيش اهليته في ميادين شتى ، في المشرق وايطاليا والصين والمكسيك والجزائر . ولكن كارثة ١٨٧٠ فتحت العيون على حقيقة كان البروسيون السابقين الى ادراكها والاخذ بها . فقد تعلم الفرنسيون على حسابهم ان التكتيك والعلم والتنظيم يتغلب في النهاية على الشجاعة والارتجال .

حملة القرم . - اكد لويس نابوليون يوم نودي به امبراطوراً « ان الامبراطورية هي السلم » ، وكان مخلصاً في قوله هذا . ولكن الحوادث جرت فرنسا في عهده الى اكثر من نزاع بالرغم من مساعيه السلمية . وعندما هدد الروس القسطنطينية بذل ممثلوه الدبلوماسيون مجهوداً جباراً في سبيل ابعاد شبح الحرب . ولما اعياهم السعي مد نابوليون يده الى انكارترا ، واتفق واياها على صون اراضي الامبراطورية العثمانية .

عباً الانكليز خمسة وعشرين الف رجل ووضعهم تحت امره لورد « راغلان » معاون لورد « ولنغتون » في « واترلو » . وتولى قيادة الحملة الفرنسية المارشال « دوسان ارنو » بطل الانقلاب الذي اوصل لويس نابوليون

الى الحكم ووزير الحربية في الحكومة الفرنسية . وقد تألفت الحملة من اربع فرق بقيادة « كلزوير » و « بوسكه » و « فوري » والامير نابوليون ابن عم الامبراطور ، ومن لواء خيالة واحد . اما التدابير التي اتخذت لتفسير الحملة فقد ارتجلت ارتجالاً ولم يشعر المسؤولون بتقصيرهم في هذا الباب الا عندما لمسوا عواقب تسرعهم .

التقت الحملتان الفرنسية والانكليزية في « غاليلوي » (بحر مرمر) وكانت معنوياتهما ممتازة والتفاهم تاماً بين « الزواف » و « الايكوسين » . وفي الثلاثين من ايار ١٨٥٤ اجتاز الجيش الروسي نهر الدانوب وضرب الحصار حول مدينة « سيلسترا » . فاقترح عمر باشا قائد الجيش العثماني على المارشال « دوسان ارنو » رفع الحصار عن المدينة . فعارض اركان حرب المارشال في القيام بالهجوم قبل وصول المؤن والعتاد . (شحنت من الموانئ الفرنسية والانكليزية بعد قيام الحملتين منها باربعة اسابيع) .

اخذ « سان ارنو » بوجهة نظر اركان حربه ، وكان هو بحاجة الى الراحة لانه كان ضعيف القلب والرئتين ، ولكنه عاد بعد ثلاثة اسابيع فقرر نجدة العثمانيين . وتحركت القوات المتحالفة باتجاه « فارنا » ، وقبل بلوغها اياها رفع الروس الحصار عن « سيلسترا » لانهم انسوا من النمسا ميلا للانضمام الى الحلفاء . وقبل ان يختار « سان ارنو » وجهة قواته انبرت الصحف الانكليزية تطالب باحتلال القرم وبتدمير قلعة « سيباستبول » الحصينة . فانساق الرأي العام الفرنسي مع التيار ، وتلقى قائد الحملة امرأً بمهاجمة القرم . فقرر احتلال « فارنا » اولاً ، ولكن الهواء الاصفر فتك بجنوده فتكاً ذريعاً ، فعدل عن مهاجمة المدينة بعد ان ترك في مستنقعات « دوپوجه » اربعة آلاف جثة . وفي السابع من ايلول اقتربت ثلاث عمارات متحالفة من « سيباستبول »

ولكن القائد الروسي «مانشيكوف» كان قد سد مداخل الميناء ببضع سفن اغرقها ، فنزل ٦٤ الف فرنسي وتركي وانكليزي في بلدة « اولدفورت » الواقعة على عشرة اميال من «سيباستبول» ، ولم ينتظر «مانشيكوف» اندفاع الغزاة نحو المدينة الحصينة ، فمشى الى لقاءهم على رأس اربعين الف مقاتل ، فتواجه الجيشان ليل ١٩ ايلول ١٨٥٤ بين «اوباتوريا» و«سيباستبول» وبدأ القتال صباح اليوم التالي .

غلطة استراتيجية . - احتشد الجيش الروسي على الهضبات المشرفة على مروج نهر « ايلما » ، فقرر الحلفاء ان تهاجم فرقة الجنرال «بوسكه» ميسرة العدو ، على ان تهاجم القلب فرقتا الجنرال «كانروبير» والامير نابوليون تعاونهما القوات الانكليزية . فانطلق الزواف يعبرون نهر « ايلما » وما عم الامر ان انتشر المشاة الفرنسيون وسط المروج والفياض في وجه نيران المدفعية الروسية . وارتكب «مانشيكوف» غلطة استراتيجية بردهه في استخدام قواته الرئيسية منذ اللحظة الاولى ، فساعد ترده الانكليزي والاتراك على اللحاق بالفرنسيين بعد ان ارغموا الجيش الروسي على الانكفاء . وفي هذه الاثناء كانت فرقتا نابوليون و«كانروبير» تهاجمان قلب الجيش المعادي . وبعد ساعتين من الزمن خفقت الراية الفرنسية على اول مرتفع كان الروس يحتلونه ، فامر «مانشيكوف» قواته بالتراجع ولم يتسن للحلفاء مطاردة المتراجعين لان عنصر الحيلة كان ضعيفاً جداً في الحملة .

ولم يفت القائد الروسي ان الحلفاء سيعمدون الى مهاجمة «سيباستبول» قبل ان تحتل قواته مراكزها الدفاعية ، فعمد الى اقامة المتاريس وحفر الخنادق بينما كان قواد الحملة المتحالفة يتشاورون ، فارتأى فريق مهاجمة المدينة الحصينة من الشمال واصر فريق على الزحف اليها من الجنوب ، فبنى «سان أرنو»

رأي هذا الفريق وزحفت قواته من ضفاف نهر « ايلما » مجتازة مناطق موحلة .
وفي ٢٦ ايلول اصيب المارشال بالهواء الاصفر فسلم القيادة الى الجنرال
« كانزويير » ، وبعد ايام قليلة توفي على ظهر الباخرة « برتوليت » .

حصار سياستبول . - كان « كانزويير » قائداً شجاعاً ، صريحاً ، شديد
الحذب على مرؤوسيه . ولكنه يتهرب من التبعات ويتردد في اتخاذ القرارات
الحاسمة . وعلى الجملة لم يكن الرئيس الذي يتطلبه الموقف .

لم يعد الحلفاء الى مهاجمة « سياستبول » فور وصولهم الى ضواحيها ، بل
قضوا اياماً في حفر الخنادق على ثلاثة كيلومترات الى الجنوب منها ، ثم شرعت
مدفعيتهم تضربها فردت المدافع الروسية بالمثل ، واستمر تبادل النيران اياماً
ثلاثة ادرك بعدها الحلفاء ان الحصار سيكون طويل الامد .

اما الحامية الروسية فقد كانت ترجو الخلاص على يد الجنرال
« مانشيكوف » الذي عسكر بجيشه شمالي « سياستبول » بانتظار وصول المدد .
فانجده القيصر بربع فرق . وفي ٢٥ تشرين الاول ١٨٥٤ انقض مئة الف روسي
على القوات الانكليزية والتركية في « بالاكلافا » واستطاع « القوزاق » تبديد
شمل الاتراك ولكنهم اصطدموا بالانكليز ، فتدخلت مدفعية « مانشيكوف »
وكادت الدائرة تدور على الفرقة الاسكوتلندية التي جابهت « القوزاق » لو لم
تنزل الى الساحة « قناصة افريقيا » وتتقد الموقف .

وفي الخامس من تشرين الثاني هاجم جيش « مانشيكوف » المواقع الانكليزية
في « انكرمان » ، فصدته المدفعية ، ولكنه اعاد الكرة مستخدماً الفرسان
« القوزاق » على نطاق واسع . فحذف الزواف الى نجدة الانكليز فاضطر الروس
الى التقهقر بعد ملحمة هائلة ، وقد شوهدوا يدخلون « سياستبول » بعد ان قتل
منهم عشرة آلاف رجل . اما نتائج المعركة فكانت صفراً من الوجهة

الاستراتيجية .

وجد قواد الحملة المتحالفة انفسهم امام معضلة جديدة بعد معركة « انكرمان » العظيمة . لقد ابحرت الحملة من اوروبا باللبسة الصيفية ولم تجهز باللبسة الشتاء لان الخبراء العسكريين في لندن وباريس توقعوا احتلال القرم بما فيها « سيباستبول » في بضعة اسابيع .

بدأ فصل الشتاء في اواخر تشرين الثاني وبدأت معه مضاعب التموين والسكنى والمداواة . وكان اثر الحرمان في القوات الانكليزية اكثر بروزاً منه في القوات الفرنسية التي اعتادت شطف العيش في حملة الجزائر . اما الامراض فقد تفشت منها الملاريا والزحار (الدوستاريا) . وكان الامير نابوليون ابن عم الامبراطور اول المصايين بالزحار فاستأذن ابن عمه بالعودة الى فرنسا فأذن له .

اما جبهة القتال فقد سادها هدوء كاد يكون تاماً لولا القنابل القليلة التي كان الفريقان يتبادلانها من وقت الى آخر . وقد تلقى الفرنسيون في اوائل كانون الثاني نجده مؤلفة من ثلاث فرق بقيادة الجنرال « بليسيه » ووصل معها الجنرال « نيل » ممثلاً الامبراطور في الجبهة .

تحسن الطقس في القرم حوالى اول آذار سنة ١٨٥٥ ، فاستؤنفت الاعمال الحربية وعهد « كانروبير » الى الجنرال « بوسكه » بادارة العمليات الموجهة ضد حصن « مالاكوف » . وكان الروس قد اتموا تحصين مدينتهم وموقع « الاكمة الخضراء » المعرض مباشرة لنيران مدفعية الحلفاء .

وفي صباح التاسع من نيسان بدأت خمسمئة مدفع تصب نيرانها على « سيباستبول » ، فرد الروس التحية باحسن منها ، واستمر هذا الصراع مدة عشرة ايام وادى الى تحطيم جهاز الدفاع الروسي . ولكن قيادة الحملة المتحالفة

احجمت عن دخول المدينة ، ولو انها فعلت لما استطاعت حاميتها ان تبدي مقاومة جديده .

وقد اسفر هذا الصراع العقيم عن سقوط ستة آلاف روسي والفي بريطاني وفرنسي . وكان بين القتلى الفرنسيين الجنرال « بيزو » فحل محله الجنرال « نيل » ولكن سرعان ما اصطدمت آراؤه المعربة عن وجهة نظر الامبراطور ولي نعمته ، بآراء « كانروبير » الذي كان دائم التذمر من « تدخل نابوليون الثالث في ما لا يعنيه » . وحوالي منتصف ايار استقال « كانروبير » فحل محله الجنرال « بليسيه » الذي كانت له صفات القائد الحقيقي .

كان لبليسيه خطة بسيطة وواضحة فوضع تنفيذها نصب عينيه ضارباً عرض الافق بآراء « نيل » وباصرار نابوليون الثالث على فتح جبهة ثانية في داخل بلاد القرم . كانت خطته تقضي بالعدول عن اخذ سياستبول بهجوم عام يبدأ وينتهي في يوم او يومين ، الى محاولة اخذها بالقضاء على حصونها الواحد تلو الاخر . وكان الجنرال « كانروبير » قد قام بمحاولة ضد شبه جزيرة « الكرج » للحوول دون تموين « سياستبول » فلم تصادف محاولته نجاحاً ، فقرر « بليسيه » اعادة الكرة وكان التوفيق حليفه . ولكن هذا النجاح لم يرض نابوليون فارسل بأمر « بليسيه » بعدم التعرض لسياستبول قبل احتلال داخلية القرم . فرفض القائد اطاعة اوامر الامبراطور واصر على مهاجمة الحصون الروسية وفاقاً للخطة التي رسمها .

بدأت المدافع تضرب المدينة في صباح السادس من حزيران فالحقت القنابل اضراراً بالغة بـ « الائمة الخضراء » و « الحصون البيضاء » . ومساء السابع منه بدأ الحلفاء مهاجمة المواقع الحصينة ، فاحتلوا اثنين منها في بضع

وعشرين دقيقة . واندفعوا مع حماسهم فهاجموا حصن « مالاكوف »
فردتهم مدفعيته مكابدين خسائر جسيمة . ومالبت الروس ان استردوا
« الاكمة الخضراء » ولكن الجنرال « بوسكه » انتزعها منهم بفضل قواته
الاحتياطية .

على اثر هذا النجاح النسبي ارسل الامبراطور يهنئ « بليسيه » ويأمره مجدداً
باحتلال داخلية القرم اولا ثم عزل « سيباستبول » قبل مهاجمتها . فاجاب القائد
انه لن يتردد في الاستقالة اذا واصل نابوليون التدخل في ما لا يعنيه . ولم
ينتظر الجواب بل امر باستئناف الهجوم . فمضى الانكليز في ١٨ حزيران
نحو حصن « ريدان » والفرنسيون نحو حصن « مالاكوف » ، ولكن المحاولتين
اخفقتا بالرغم من الشجاعة التي ابداهما المهاجمون . وقد اضطر الفريقان الى
اعلان يوم هدنة كامل انصرفوا خلاله الى دفن قتلاهم .

اغضب هذا الاخفاق نابوليون الثالث والرأي العام في فرنسا وانكثرت
فاصدر الامبراطور امراً بعزل « بليسيه » ، ولكن الوزيرين « بايان » و « فليري »
حالا دون نشر الامر في الجريدة الرسمية . فظل « بليسيه » على رأس
الحملة بالرغم من اختلافه والانكليز .

وفي اواخر حزيران ظهر وباء الهواء الاصفر مرة اخرى فتوفي لورد
« راغلان » في ٢٨ حزيران فحل محله الجنرال « سيمسون » . ورأت القيادة
الفرنسية ان العمل من شأنه ان يقوي معنويات الجنود فامرت بحفر خنادق
جديدة . اما الحالة في « سيباستبول » فلم تكن افضل منها في صفوف الحلفاء ،
فقد ضعفت روح المقاومة من جراء الخسائر الكبيرة التي منيت بها الحامية
ومن جراء انتشار الامراض وندرة المواد الغذائية . وحل الجنرال
« غورتشاكوف » محل الجنرال « مانشيكوف » في قيادة « جيش الخلاص » الذي

كان يحتشد شمال «سياستبول» ، فهاجم مراكز الحلفاء في «تشرنايا» ولكنه رد على اعقابه مكابداً خسائر فادحة .

اثرّت هذه الصدمة في اعصاب «غورتشاكوف» فكتب الى «بطرسبرج» يقول ان الاستمرار في الدفاع عن «سياستبول» عمل جنوني . وشعر «بليسيه» ان الروس اصبحوا اضعف من ان يواصلوا المقاومة فعقد اليوم الثامن من ايلول موعداً للقيام بهجوم عام يصفي حساب المدينة قبل حلول فصل الامطار . مهدت المدفعية للهجوم الكبير بصها القنابل على المواقع المحصنة فاندلعت حرائق هائلة وحدثت انفجارات في مخازن البارود . وحوالي الظهر زحفت فصائل «الزواف» بقيادة الجنرال «ماكاهون» على انغام الابواق . ووسط الهتاف بحياة الامبراطور تسلقوا اسوار حصن «مالاكوف» . وبعد معركة عنيفة خرسّت البطاريات الروسية وخفقت الراية المثلثة الالوان على الحصن . وفي هذه الاثناء كان الانكليز يحاولون الاستيلاء على حصن «ريدان» فحصلتهم الرشاشات حصداً ، وكر الروس على فرقة الجنرال «ديلاك» التي تمكنت من احتلال احد الحصون الصغيرة فأخرجوها منه . وجرت هذه المعارك الى ملاحم هائلة جرح فيها القواد : «كورتو» ، و «بروشو» ، و «بوسكه» ، و «بورباكي» ، اما «بليسيه» فكان يراقب الالتحامات من «الاكمة الخضراء» وهو مالك زمام اعصابه . وكان «مكاهون» في حصن «مالاكوف» يجابه كرات الروس اليائسة فبعث اليه القائد الانكليزي «سمبسون» يسأله : «علام عولت ؟» فأجاب «مكاهون» : «انا هنا وسأبقى .»

واخيراً ايقن «غورتشاكوف» انه خسر المعركة فأمر قواته بالتراجع معتزماً الجلاء عن «سياستبول» تحت جنح الظلام .

وقبل ان يغادر الروس مدينتهم دمروا كل ما يمكن ان يتفجع به الحلفاء

ونسفوا مستودعات الذخيرة وقذفوا بمدافعهم الى البحر، ثم اضمروا النار في المنازل ووقفوا هم شمال المدينة والحلفاء شرقها يتأملون « سياستبول » الجحرة الكبيرة التي احمر من وهجها وجه السماء .

اسباب الانحطاط . - لم تفتح المصاعب والمشاق التي عانتها الحملة الفرنسية في القرم ، اعين الرؤساء في باريس على النواقص التي لا ندحة عن سدها في جيش ، ارادوا ان يجعلوا منه اداة فتح وتخويف ، وان يدعموا به سياسة خارجية راحت تتحدى النمسا بتأييد الوحدة الايطالية ، وتثير قلق بروسيا وانكلترا بهذا التأييد . لقد كشفت حرب القرم عن نقص في التنظيم وتقصير فاضح في الاعداد والتجهيز ، وعن قصر نظر بدت عواقبه عندما دهم الشتاء الجنود وليس لديهم ألبسة شتوية .

وقد هزم الفرنسيون الجيش النمساوي في « ماجنتان » و « سولفرينو » في صيف ١٨٥٩ ، ولكن التعبئة البروسية ارغمت الامبراطور على عقد هدنة لثلاثا تقابا فرنسا بهجوم من الشرق وهي بعد متورطة في المسألة الايطالية . وبدلا من ان يعمد نابوليون الى تنظيم الجيش على اسس جديدة ، ترك كل شيء على حاله مكثفياً بتعزيز حاميات الحدود . وقد حمله المؤرخون المعاصرون تبعه الكارثة التي نزلت بفرنسا سنة ١٨٧٠ ، لانه لم يدع للوزراء المصلحين مجالاً للعمل منذ ان ارتقى العرش . كان يأخذ بآراء المستشارين المتزلفين لانها تتفق دائماً ونظرياته ، ويطرح نصائح الوزراء والقادة المجردين . وقد سلم مقدرات الجيش الى رجال اهلهم لهذه المهمة الدقيقة اخلاصهم لشخصه وتقانيهم في خدمته .

ولم يكن لفرنسا في عهد نابوليون الثالث هيئة اركان حرب عامة . اما مدرسة اركان الحرب فكان يدخلها الملازمون الثانون ويخرجون منها بعد عامين

ضباط اركان حرب ، فيصرفون الى العمل وراء المكاتب بعيدين عن الجيش « لا يعرفون شيئاً عن عيوبه وحاجاته وامانيه . وعندما فكر الامبراطور في الغاء نظام البدل الذي ورثه الامبراطورية الثانية عن لويس فيليب ، صاح الضابط « فوربان » ، وكان عضواً في اركان الحرب : « ألا يزال نظام البدل قائماً ؟ حقاً انها للطخة عار في جين هذا الجيل ! »

يقول الجنرال « ده غول » في كتابه « فرنسا وجيشها » ان نظام البدل الذي ظل معمولاً به رغم الغائه رسمياً ليحل محله نظام تشجيع التطوع ، حمل الى الجيش في مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر عناصر عديمة القيمة ، وقد قضى النظام الجديد بان يقدم الذين لا يرغبون في الخدمة مبلغاً من المال الى صندوق الجيش لينفق في دفع رواتب المتطوعة ، اي ان البدل اعطي اسماً آخر دون ان تجني المؤسسات العسكرية فائدة ما من هذا الاصلاح الاسمي . السلاح . - في العام ١٨٢٩ انتقد الحبير العسكري الفرنسي «موران» حمل اركان الحرب العامة وقال في حضرة الملك : « هزمتنا اوروبا لبضعة عشر عاماً مضت لان جيشنا كان اكثر مرونة من جيوش الاعداء ، تمكن قسمته بسهولة اذا ما دعت الحاجة الى المجازفة خارج ميدان القتال الرئيسي . وقد اخذ خصومنا عنا درساً مفيداً في هذا الباب ، اما نحن فنوشك ان نجعل ما لقتناه سوانا . » وبعد ثلاثين عاماً جاء الانذار من الخارج . فقد كتب قائد بلجيكي في العام ١٨٥٩ يعجب لمجود فرنسا « في الوقت الذي تخطو فيه الامم المحيطة بها خطى جبارة الى امام . »

وفي الواقع كان التقدم بطيئاً جداً في حقلي التسليح والتكتيك . جهز جيش المشاة بعد حرب القرم ببندقية مخططة Rayé تلقم من فوهتها . وقد جربت في موقعة « ماجنتا » فاعطت التجربة نتائج مشجعة . ولكن

التحصين الذي ادخل على سلاح المشاة لم يرافقه اي مجهود في سبيل جعل حركاتهم اكثر مرونة وانطلاقاً.

وجيز الجيش في العام ١٨٥٨ بمدافع مخططة تبصق مقذوفاتها الى مدى ثلاثة الاف متر وتلقم من فوهاتها . اما الصاروخ فلم يخضع انفجاره لاي ضابط . بينما كان البروسيون يجهزون جيشهم بمدافع بعيدة المدى ، تلقم من قاعدتها وينفجر صاروخها في الوقت المحدد لانفجاره .

وقد اغفل نابوليون الثالث شأن المدفعية مع ان عمه نابوليون الاول دون في مذكراته « ان المدفعية هي سيدة مصائر الشعوب والجيوش » . وعندما لفته الجنرال « بليسيه » الى ما قد يترب على هذا الاغفال من عواقب في وقت تكثر بروسيا من « افواه النار » (اي المدافع) هز الامبراطور كتفيه وقال : « هزمتنا الروس بمدفعية هزيلة وسحقنا النمسيين دون ان نكون في حاجة الى هذا السلاح الكثير التكاليف . »

ورفض نابوليون الثالث تعديل قانون التعبئة والحشد الذي وضعه « غوفيون سان سير » تحت اشراف الحلفاء في غضون ١٨١٨ ، كما رفض بعث الوحدات الكبيرة الدائمة كالفيلق والفرقة واللواء ، وقد ارتجلت هذه الوحدات ارتجالاً كما ارتجلت هيئات اركان حربها ونظام تمويلها في حملتي القرم وايطاليا . الم يكتب « سان ارنو » الى مولاه من « غاليبولي » : « تصوروا جيشاً يمشي الى لقاء العدو وحدات غير منظمة . بل تصوروا جيشاً يجتاز الفراسخ بالملات ليقاتل على ارض معادية وليس لديه من مقومات الحياة سوى مؤنة اسابيع معدودة . ان الحرب يا مولاي تحتاج الى اكثر من بندقية ومدفع وسيف . ان جنودكم لفي حاجة الى الحبز والاعذية والى القدور ملامى حساء ! »

وفي هذه الاثناء كان « مولتكه » يمهز المانيا بجيش عظيم ويضع مقدرات

هذا الجيش بين ايدي قادة تلهذوا على « غلوزويتز » وآمنوا بجذوى الهجوم المباغت بوسائل متفوقة . وقد امن نظام التعبئة لبروسيا النزاعة الى السيطرة جيشاً عاملاً قوامه نصف مليون رجل ، يعززهم اربعمئة وخمسون الفاً من جنود الاحتياط .

اصلاح متأخر . - ولي المارشال « نيبيل » وزارة الحربية في العام ١٨٦٧ فاقنع الامبراطور بوجود اصلاح نظام التعبئة ، والغى البدل ليحل محله نظام دعوة الطبقات ، على ان يكون المعاون فئتين : فئة تخدم خمس سنوات واخرى خمسة اشهر ، ويتم الاختيار بالقرعة . اما الرجال الذين لا تشملهم التعبئة فيتألف منهم « حرس وطني متحرك » تناط به في الحرب مهمة تعزيز الجيش العامل .

كان اصلاح « نيبيل » خطوة لا بأس بها نحو الخدمة الجبرية ونحو استخدام كل موارد الامة في الرجال . ولكن المشروع ظل حبراً على ورق لان صاحبه اقبل قبل ان يضعه موضع التنفيذ . وقد احجم الامبراطور عن العمل به لانه يحمل الامة الفرنسية اعباء باهظة ، في وقت كان الرأي العام شديد التبرم بسياسة البلاط ، غير راض عن نتائج حملة المكسيك التي كلفت البلاد غالياً على غير طائل .

الكارثة . - اعتمدت هيئة اركان الحرب الالمانية في القضاء على المقاومة الفرنسية خطة وضعها « غلوزويتز » وتبناها « بسمرك » و « مولتكه » . وهي تقضي باحراز نصر حاسم في موقعة او اكثر ثم بالاستيلاء على باريس ومطاردة الجيش الفرنسي الى ما وراء نهر « اللوار » . وقد تمت التعبئة الالمانية بدقة ونظام تامين . اما الوحدات الفرنسية العاملة فقد حشدت بعجلة في مناطق الحدود على ان يلحق بها الاحتياط والعتاد الاضافي .

قضت الخطة الاستراتيجية الالمانية بنشر عدة جيوش لكل واحد منها دور معين في العملية الهجومية المدروسة . ونشر الفرنسيون فيالقهم على جبهة طولها مئتان واربعون كيلومتراً ولم يؤلفوا منها مجموعتي جيوش ، اولاهما في « الالزاس » بقيادة « ماكاهون » والاخرى في « اللورين » بقيادة « بازين » الا تحت ضغط الحوادث وفي زحمتها . وقد اثبتت الاشتباكات الاولى في « سيكيرين » و « فورت » تفوق القيادة الالمانية في التصميم والتنفيذ وفي معالجة المواقف الطارئة . على ان خسارة الفرنسيين معركة الحدود لم تسدّ دونهم سبل المناورة ، وهذا ما املى على « مولتكه » القائد الالمانى النابه الحذر والحيطه في استثمار النجاح المبدي . وبسم الحظ للقيادة الفرنسية في « روزنفيل » حيث انقض الالمان صباح ١٧ آب ١٨٧٠ على جيش فرنسي لا يعرفون عنه شيئاً ، وكادت الدائرة تدور على المهاجمين لولا تردد المارشال « بازين » وسرعة خاطر الامير « فردريك شارل » والجنرال « الفنسليين » قائدي الجيش المهاجم . وفي مساء ذلك اليوم كتب « بازين » الى الامبراطور مؤكداً خروجه منتصراً من موقعة « روزنفيل » لان العدو اخفق في قطع مواصلاته مع مدينة « متز » . وفي الوقت نفسه كان القائدان الالمانيان يعدان نفسيهما منتصرين لانهما قطعاً طريق « فردون » ليرغما خصومها على الانسحاب الى « متز » .

وفي صبيحة ١٨ آب تراجع الفرنسيون في « سان بريفا » فطاردهم الالمان وظلوا يجدون في اثرهم حتى دخل هؤلاء « متز » فضربت القوات الالمانية حولها نطاقاً وما زالت بها حتى سلمت في السابع والعشرين من تشرين الاول . وبعد اسبوعين على معركة « سان بريفا » القت قوات « ماكاهون » السلاح في « سيدان » . وزالت قوات فرنسا النظامية من الوجود بعد مضي ثلاثة اشهر على

نشوب الحرب .

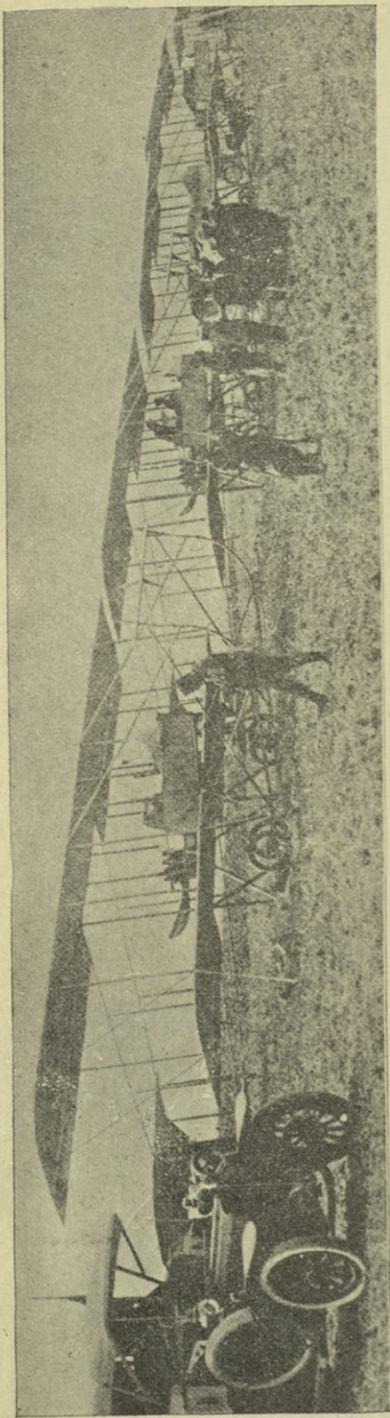
كان جيش « ما كاهون » يتألف من ثلاثة فيالق وفرقة مشاة سحبت من « تولوز » ومن ثلاثة ألوية تنتمي الى « الحرس المتحرك » . وقد ضم هذا الجيش ١٢٤ الف رجل منهم عشرة آلاف خيال . كان على القيادة بعد انسحاب « بازين » الى « متز » ان تعتمد مناورة من ثلاث كان القيام بها ممكناً . فاما ان تحاول وقف العدو مرتكزة على مرتفعات « الارغون » لتغطية الطرق المؤدية الى باريس ، واما ان تكفيء الى العاصمة وتكرس الجهود للدفاع عنها ، واما ان تندفع نحو « متز » لمساعدة « بازين » المحصور في داخلها .

لاقت الفكرة الاخيرة استحساناً في وزارة الحربية ، ووافق عليها مجلس الوصاية ومستشارو الامبراطورة « اوجيني » ، ولكن تنفيذها يحتاج الى جيش ملتهب حماسه والى قائد مقدم ، نافذ البصيرة ، سريع الخاطر ، فولاذي الاعصاب . وهي شروط لم تتوفر في « ما كاهون » ولا في جيشه . قرر المارشال في ٢١ آب الانسحاب من مواقعه في « شالون » والاعتصام في « ريمس » . وفي ٢٢ منه اتجه الجيش نحو « باريس » بالرغم من تعليمات الرؤساء القاضية بالاتجاه نحو « متز » . ولكنه بدل اتجاهه غروب اليوم نفسه لان « بازين » ابرق يقول انه سيحاول بلوغ الطريق المؤدي الى « سانت منهود » ومنها الى « شالون » . اما اذا كانت الطريق محمية فانه سيتابع سيره الى « سيدان » ومنها الى « ميزيير » و « شالون » . وما ان اخذ « ما كاهون » علماً بهذه البرقية حتى قرر الاسراع الى ملاقاته زميله سالكاً الطريق التي تمر شمال « الارغون » .

وفي ٢٣ آب ولى الجيش الفرنسي « باريس » ظهره وبلغ نهر « سيب » ولكنه

لم يجد في هذه المنطقة المؤن التي كان في حاجة اليها ، فاتجه شمالا ليمون بواسطة الخط الحديدي الذي يربط « ريمس » بـ « ميزير » . وفي ٢٥ آب استأنف الزحف شرقاً فبلغ نهر « الاين » بين مدينتي « ريتل » و « فوزيه » . وفي اليوم نفسه عرف « مولتكه » ان الفرنسيين يتجهون شمالا بشرق وانهم ينوون الاتصال بجيش المارشال « بازين » . وعلى الاثر ادخل القائد الالماني تعديلا على جبهته بتلاءم والوضع الجديد . وفي ٢٦ آب اتجه الجيش الفرنسي نحو « مونمدي » فاصطدمت ميمته في قرية « بوزانسي » بوحدات من الحياطة الالمانية . وبدلا من ان تتخطى هذا الحاجز قبع في مراكزها واسرع « ماكاهون » فحشد قواته الرئيسية في وجه الحياطة المعادية . وفي صباح ٢٧ آب عرف القائد الفرنسي ان تدابيريه لم تكن في محلها فأمر قواته بان تنسحب الى « ميزير » صارفاً النظر عن بلوغ « مونمدي » . ولكن الجيش لم يبت ليلته في « ميزير » فقد تلقى « ماكاهون » امراً من « باريس » بوجوب السعي الى الاتصال بـ « بازين » مهما كلف الامر ، فلم يسعه الا الاذعان . وفي ليل ٢٨ آب نشر قواته على النحو الآتي :

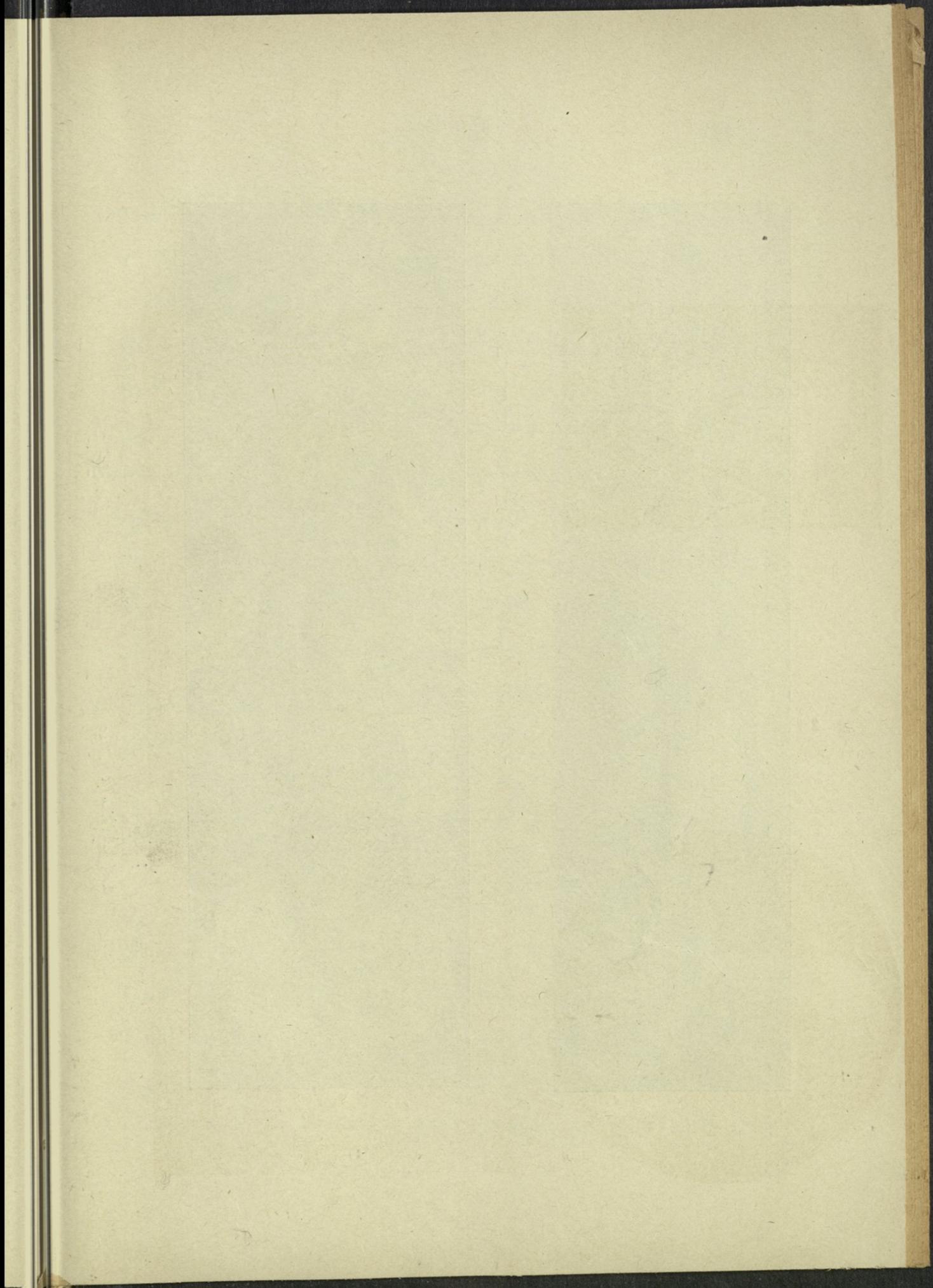
عسكر الفيلق الخامس في بلدة « بلفال » والفيلق السابع في « بو-أو-بوا » والفيلق الاول في بلدة « لوشين » والفيلق الثاني عشر في « بوزاس » . وفي اليوم التالي حاول « ماكاهون » عبور نهر « الموز » مستخدماً في هذه العملية جسر « ستيناي » فوجد الجيش الالماني الرابع قد سبقه الى احتلال الجسر . وجرب « مولتكه » استدراج خصمه الى القتال على الضفة اليسرى للنهر ، ولكن القائد الفرنسي تفادى المعركة وشرع جيشه يعبر « الموز » الى الضفة اليمنى . فعبره الفيلق الاول دون حادث ماراً فوق جسر « ريميلي » وعبره الفيلق السابع عند « فيليير » و « ريميلي » و « سيدان » ، تطارده الحياطة



سرب من طائرات « فارمن » من طراز العام ١٩١٢ .



جنود من سكان الامبراطورية الفرنسية (من الشمال الى اليمين : مراكشي ،
جزائري من اصل فرنسي ، هندي صيني ، سنغالي) .



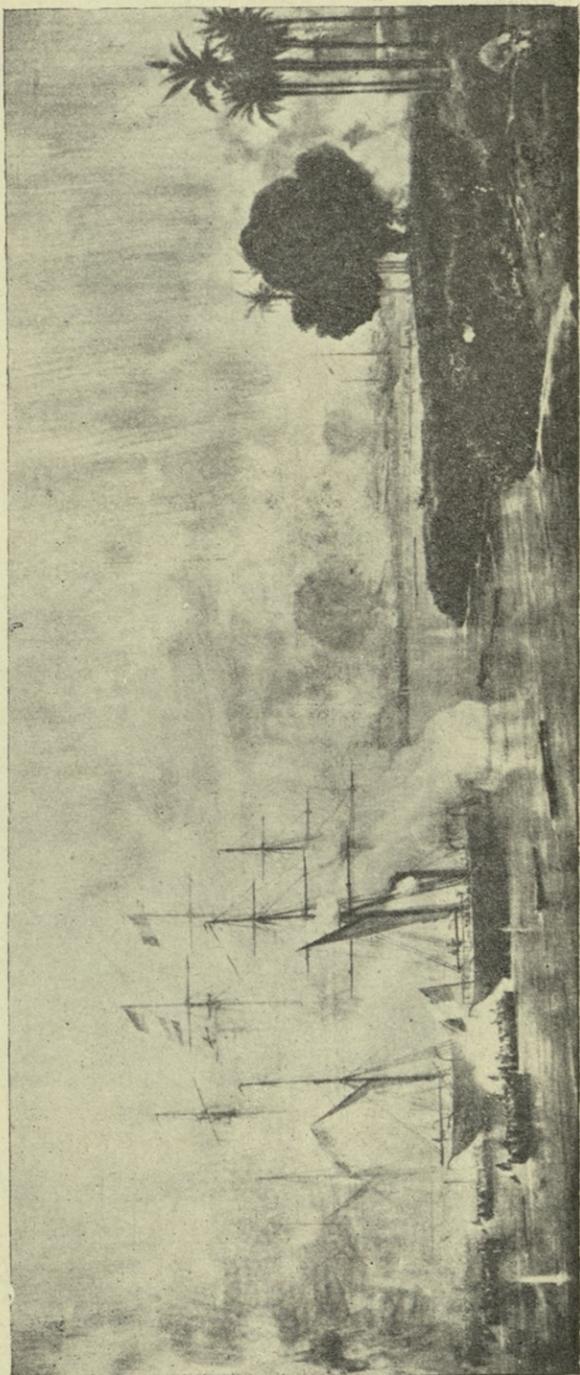
فرنسيس غارنيه

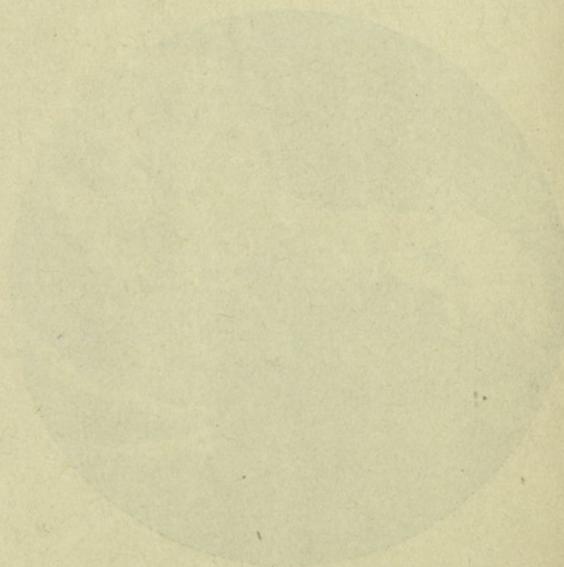
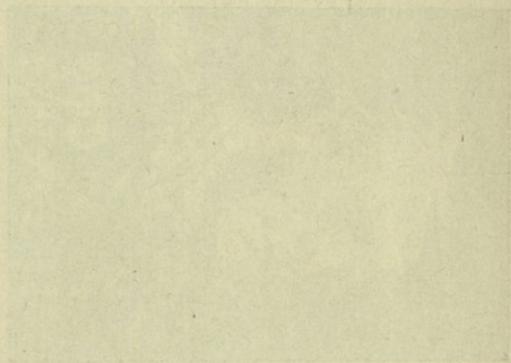
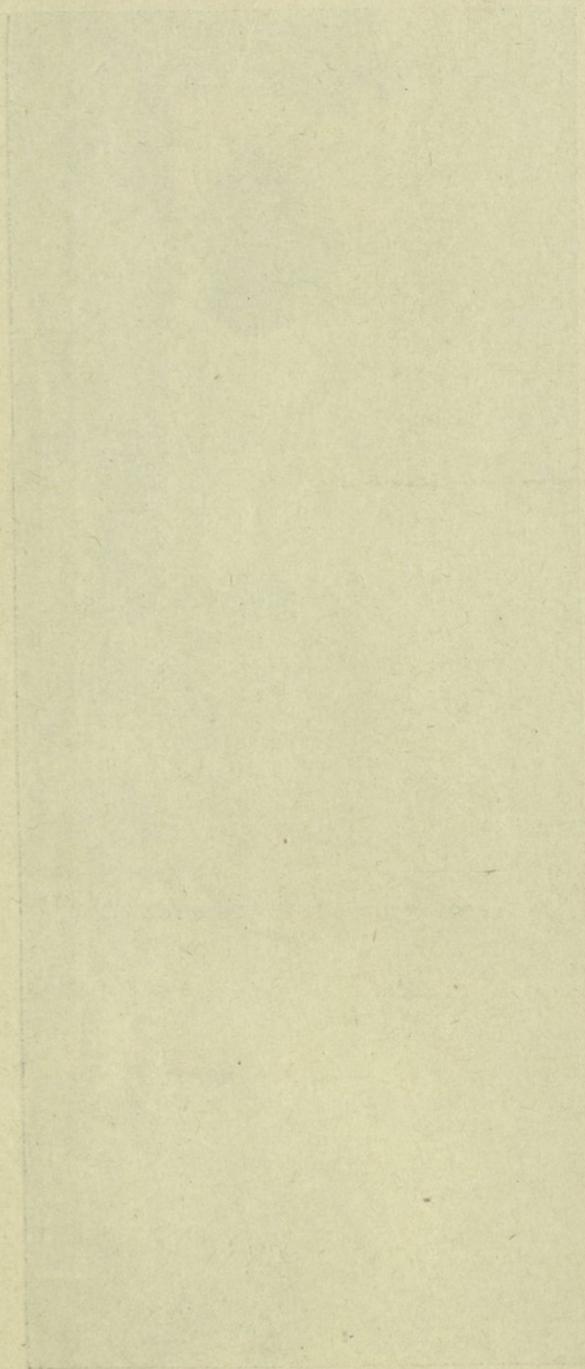


الاميرال رينودي جنوبي



استيلاء الاميرال
رينغو دي جنوبي على
مدينة « سيفون » عاصمة
الهند الصينية في اليوم
السادس عشر من شباط
١٨٥٩ (بريشة موريل
ماسيو) .



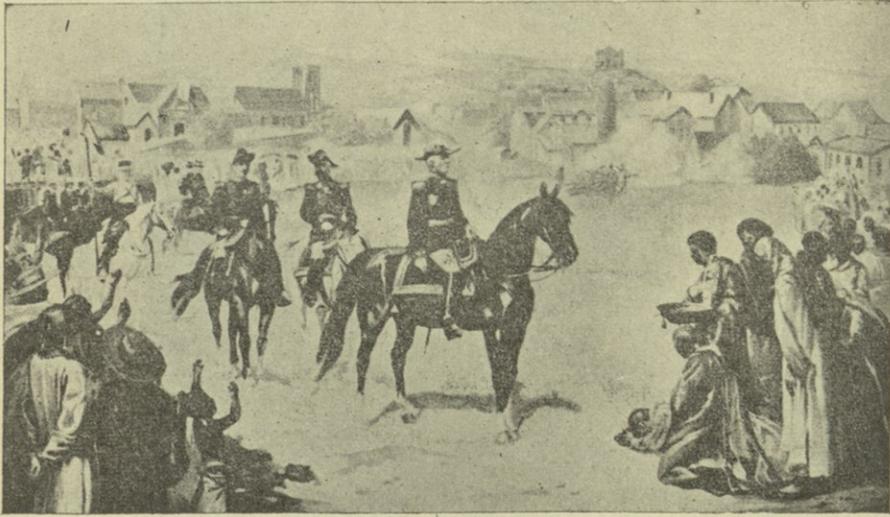




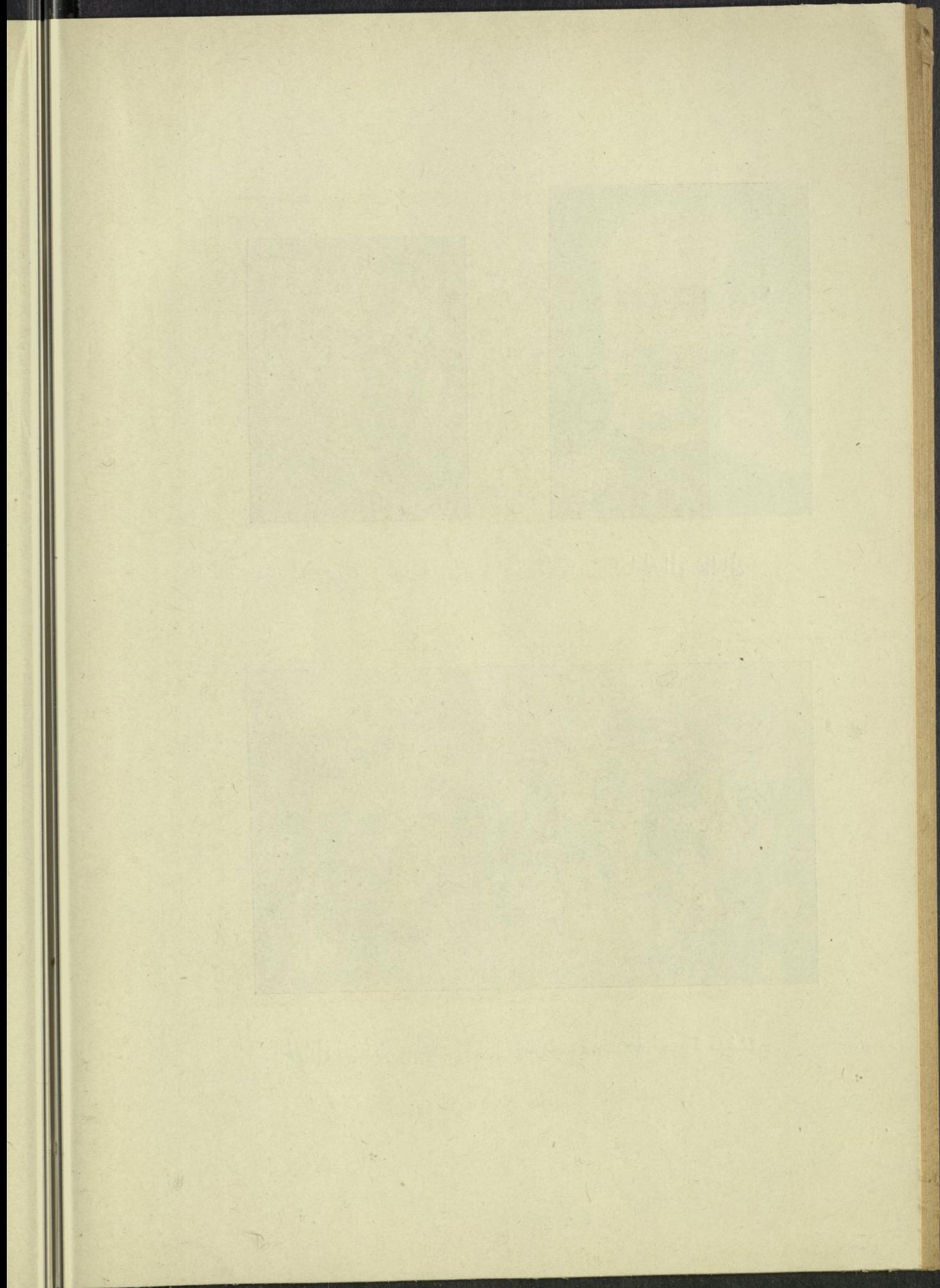
الجنرال غاليفاني



الاميرال كوربه



الجنرال دوشين يدخل الى « تاناناريف » عاصمة جزيرة مدغشقر .

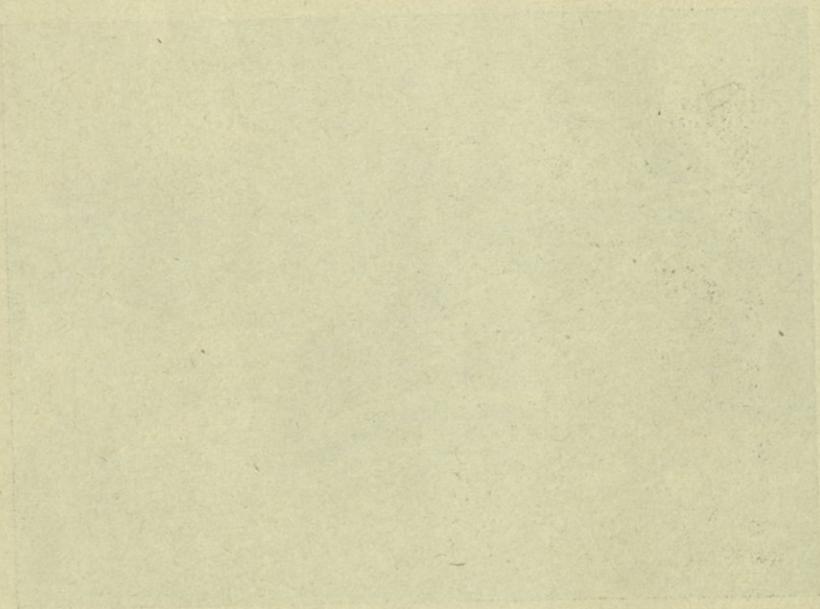
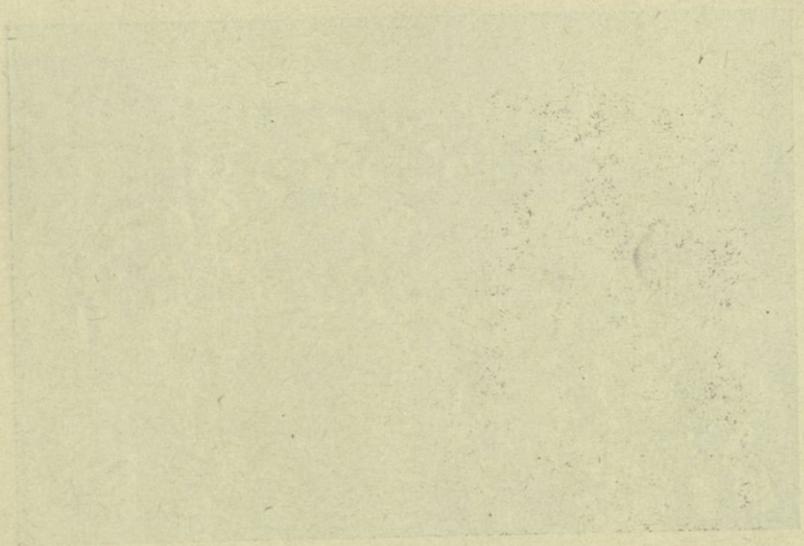




رماة من فرقة « القوم » في قفار مراکش

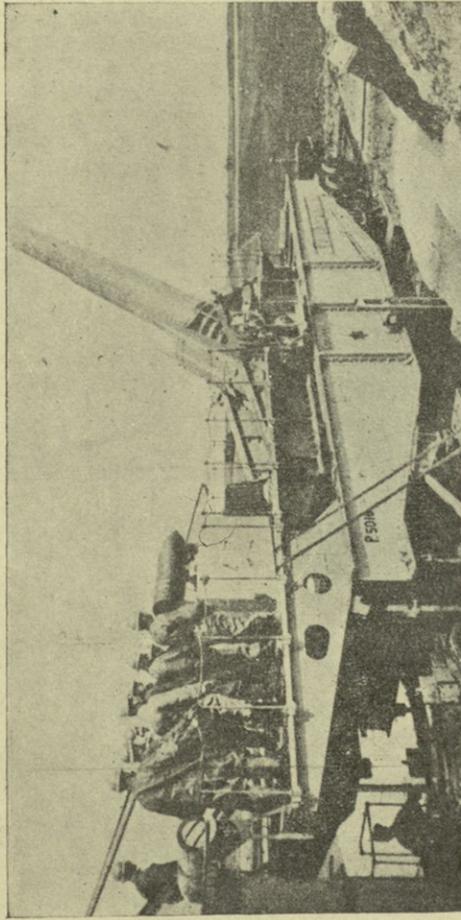


مدفع رشاش هوتشكنس (١٩١٦)

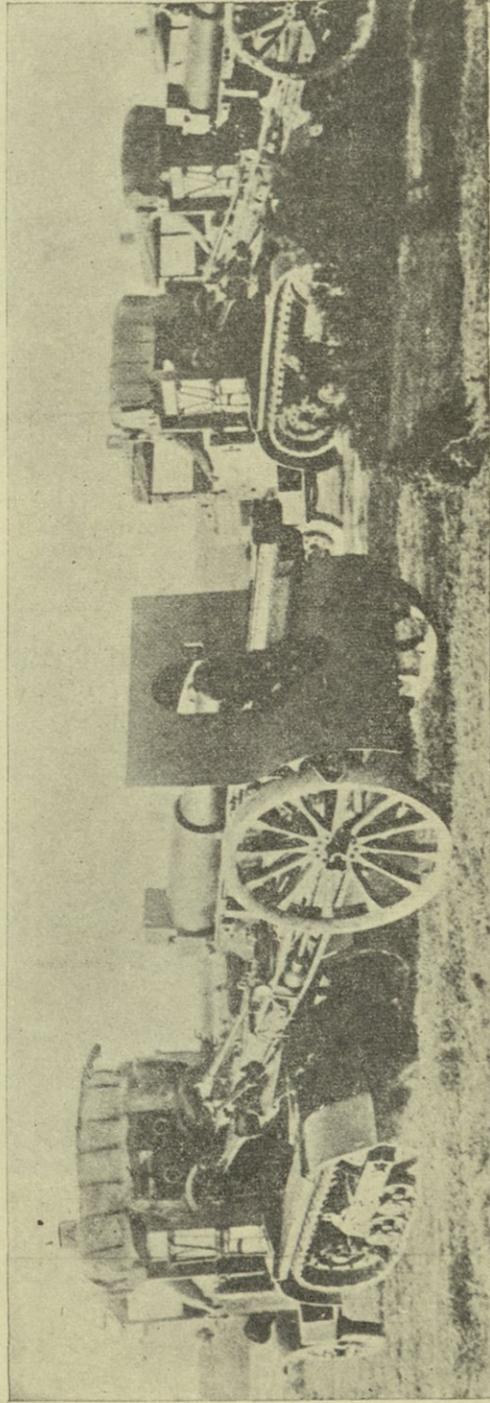


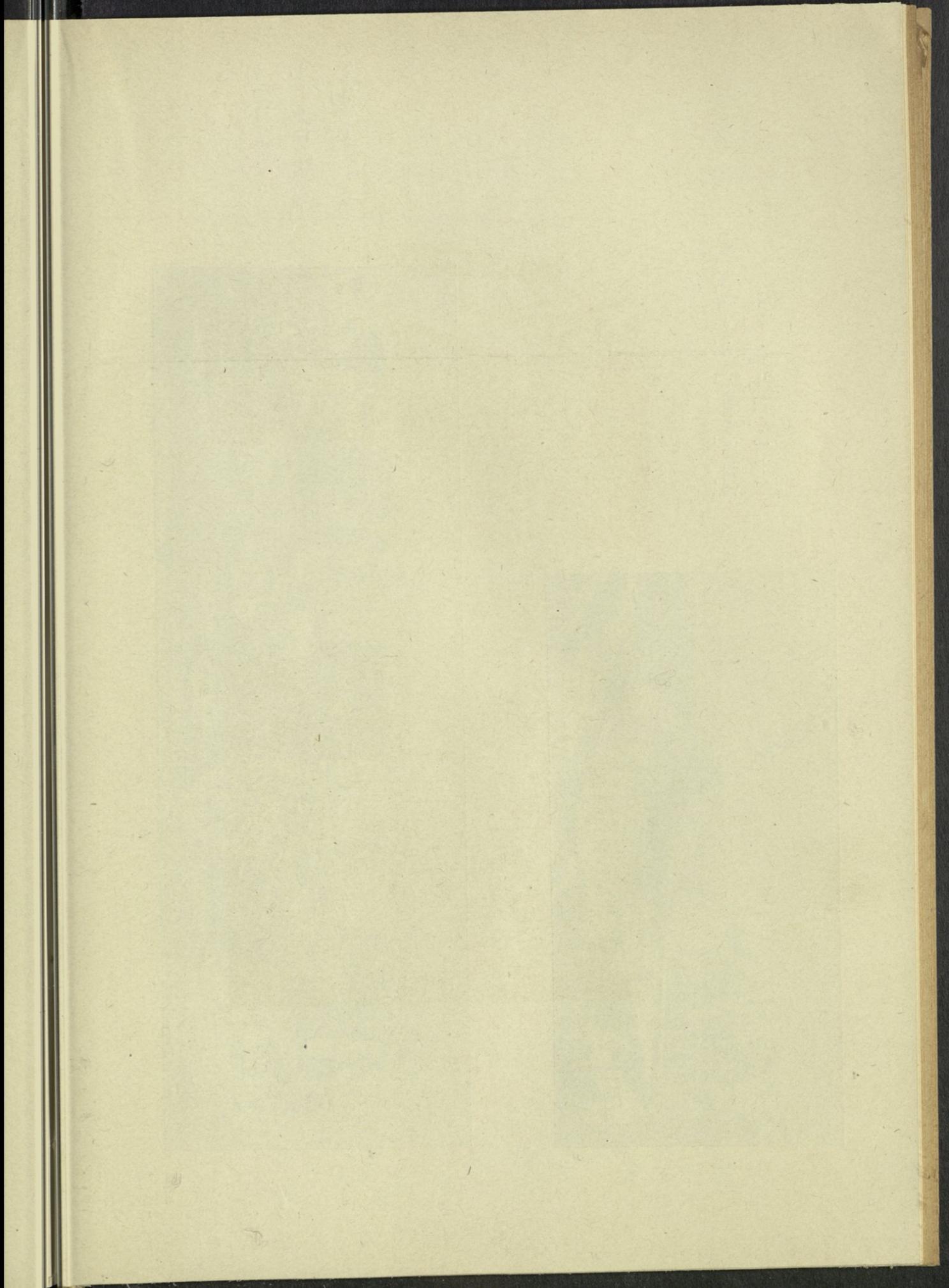
(111)

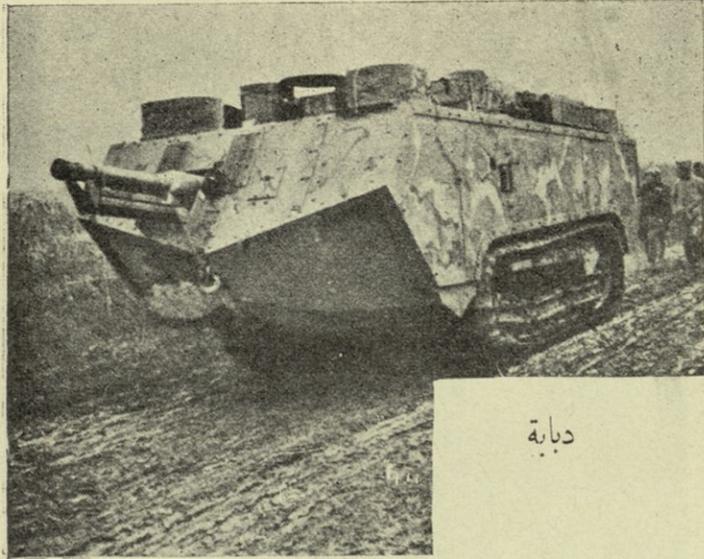
مدفع من عيار ٤٠٠
وهو طراز جديد من المدفعية الثقيلة



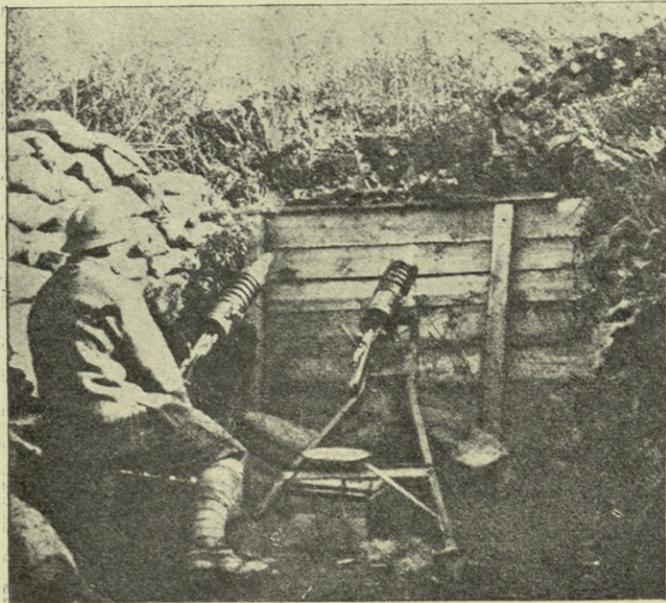
مدافع جديدة من
عيار ٢١٠ تقطرها
سيارات خاصة .



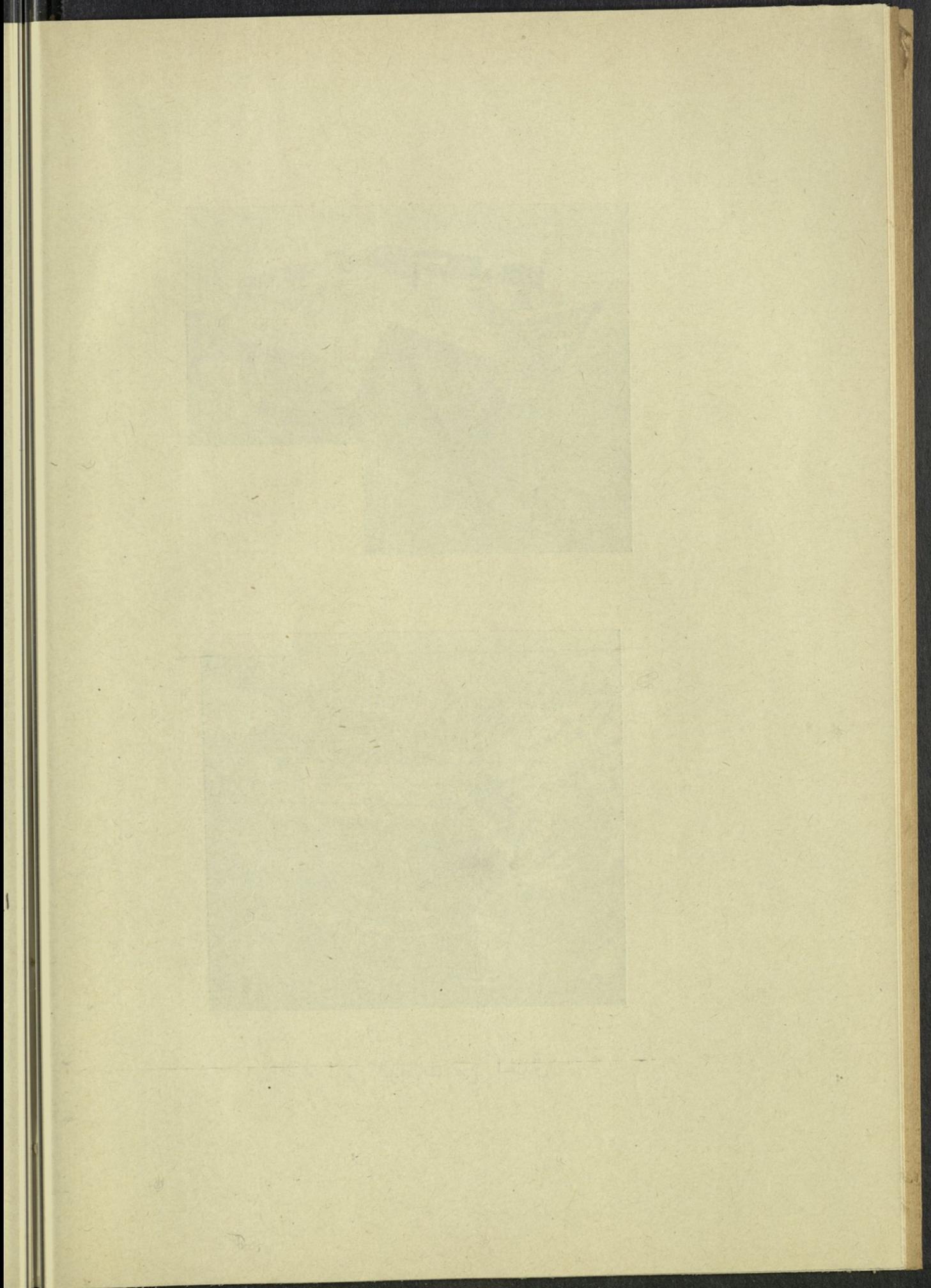




دبابة

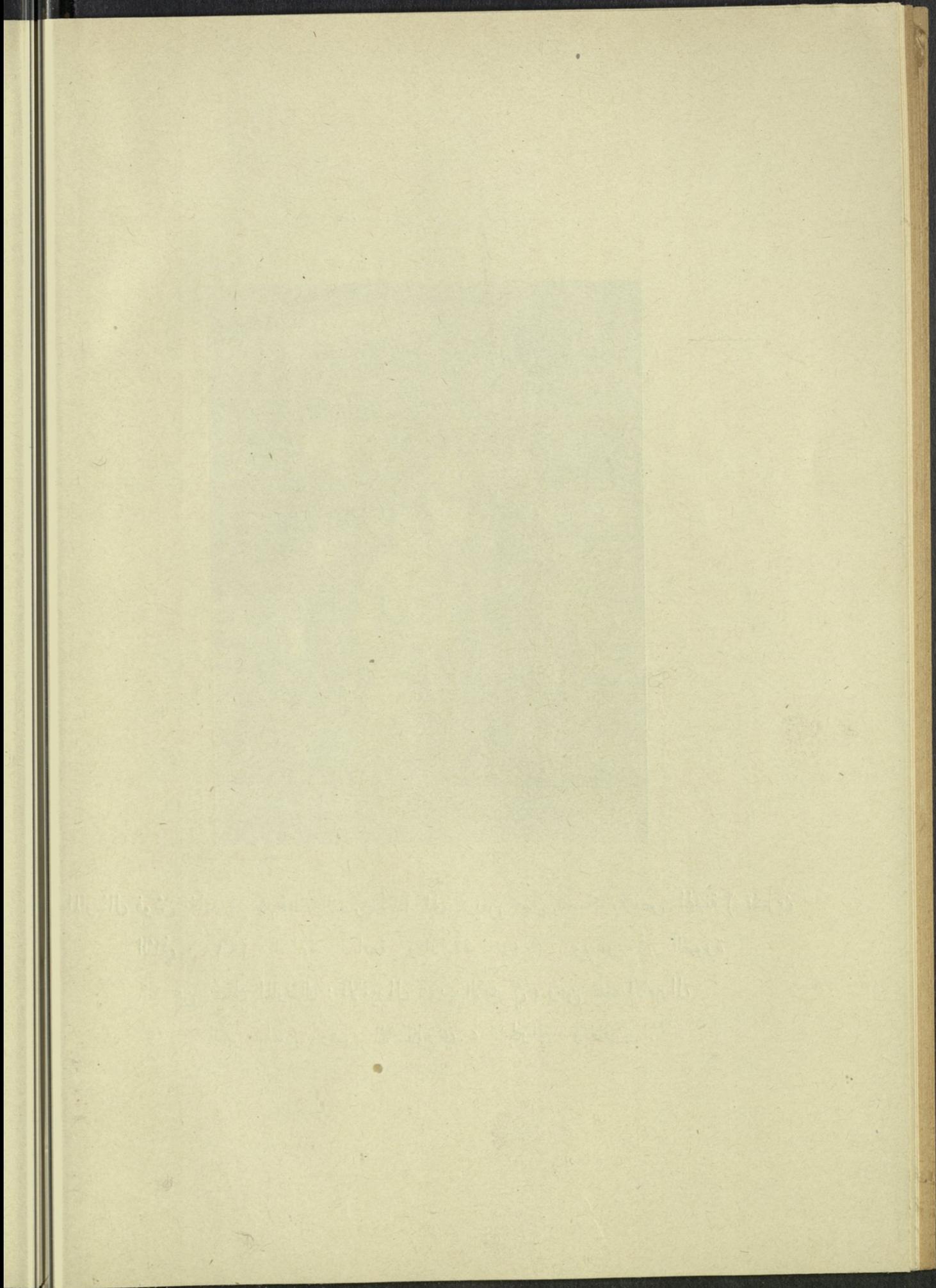


آلة لرمي الرمانات من الخندق



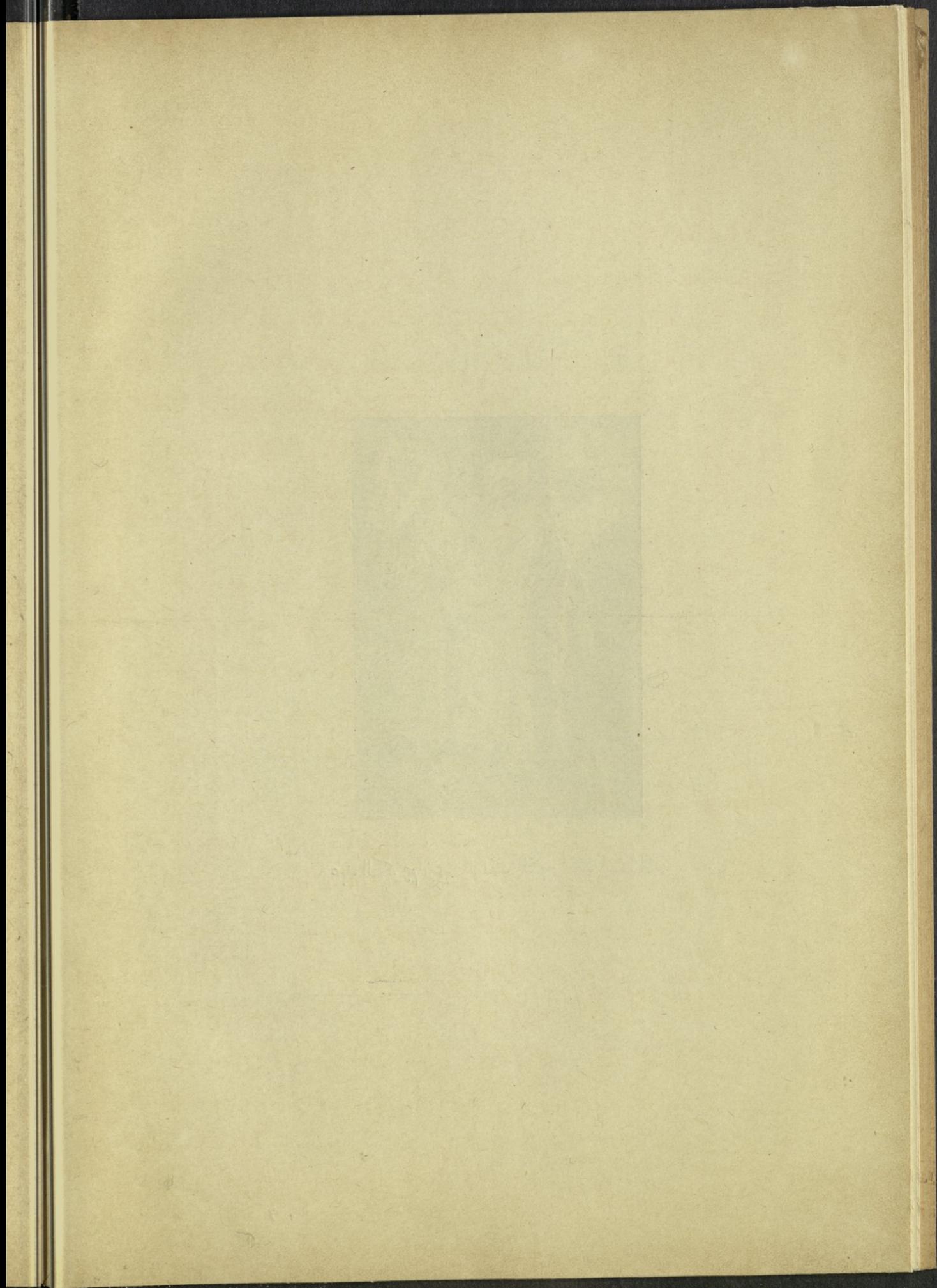


المارشال فوش يغادر مركبة قطار النصر عائداً الى باريس يحمل للحكومة نص الهدنة (تشرين الثاني ١٩١٨ الساعة السابعة والدقيقة ٤٥) . ويبدو في الصورة عن شمال المارشال : الاميرال هوب الاميركي ، وعن يمينه الاميرال السر نيلسن وبيس الانكليزي ، فالجنرال ويغان .





عبدالكريم زعيم الريف الشهير بعد استسلامه



الالمانية . ولاقى الفيلىق الخامس مشقة كبيرة في الانتقال الى الضفة الاخرى عبر جسر « موزون » . وتخلى في الطريق عن نصف مدافعه . وهكذا نجح « ماكاهون » في وضع النهر حاجزاً بينه وبين العدو ، فنصح له ضباط اركان حربه بالسير نحو « ميزيير » والاتجاه منها شمالاً بغرب ليتسنى له تفادي التطويق . ولكنه لم يفعل بل حشد جيشه على المسطح المثلث الزوايا الذي يشرف على « سيدان » واغفل احتلال مرتفعات « سان مانج » و « فاليزيت » التي تتيح له عند الاقتضاء القيام بحركة انكفاء ناجحة .

ورأى « مولتكه » ان يبدأ باحتلال قريتي « كارينيان » و « دوزي » ليقطع على الفرنسيين الطرق المؤدية الى الشرق . وقد قام بهذه المهمة الجيش الرابع . وفي الوقت نفسه كان الجيش الثالث يلقي جسوراً على نهر « الموزل » (دمر الفرنسيون الجسور بعد عبورهم النهر) ويعبره عند « ريميلي » و « دونشيري » الواقعتين جنوب « سيدان » .

وفي اول ايلول هاجم البافاريون والساكسونيون بلدي « بازيل » و « لامونسيل » ، فجرح « ماكاهون » امام هذه البلدة وسلم القيادة الى الجنرال « دو كرو » ، وكان من المتحمسين لفكرة الانسحاب الى « ميزيير » فما ان آلت اليه مقاليد الجيش حتى اصدر تعليماته بالانسحاب . وقبل ان توضع خطته موضع التنفيذ وصل من باريس الجنرال « ومبفن » وبرز مرسوماً بتعيينه قائداً عاماً . وكان اول تدابير الغاء اوامر « دو كرو » والاصرار على مواجهة العدو .

وفي صباح الثاني من ايلول شرع « مولتكه » ينفذ التطويق . فاحتل البافاريون « بازيل » والساكسونيون « لامونسيل » و « ديني » ، وابتعد الى الشمال كانت مدفعية الحرس البروسي تطلق على الفيلىق الفرنسي الاول نيرانها الكثيفة .

وكان الفيلقان الالمانيان الخامس والحادي عشر يهاجمان من مرتفعات « سان مانج » المواقع الفرنسية في « ايّلي » و « فلوان » . وما لبثت مدفعية سائر الفيالق الالمانية ان فتحت افواها لتمنع الحيالة الفرنسية من شن حملات تفسد خطة التطويق . وعند الظهر جلا الفيلق الفرنسي السابع عن « ايّلي » واطل العدو على « فلوان » فحملت عليه الحيالة محاولة صده ، ولكن جهودها تكسرت على صخرة عناده . وافلت الزمام من يد القيادة فراخت الوحدات الفرنسية تلجأ الى « سيدان » بعد ان اعيها اختراق النطاق الالمانى . وادرك نابوليون الثالث ان المقاومة في « سيدان » لن تجدي فتيلاً فامر قواته بالقاء السلاح .

الفصل العاشر

جيش الجمهورية الثالثة

١ - كيف ارتجل الدفاع الوطني

بعد ثورة الرابع من ايلول ١٨٧٠ لم تجد « حكومة الدفاع الوطني » من القوات النظامية سوى خمسة كراديس من المشاة وستة من الخيالة وعشر بطاريات . وكانت حكومة الامبراطورية قد ارتجلت في زحمة الحوادث ثلاثة وخمسين كرددوساً من المشاة والحقتها بالحرس الوطني « المتحرك » ، وفتحت باب التطوع الاختياري لقبول الذين لم تشملهم التعبئة ، ودعت طبقتي ١٨٧٠ و ١٨٦٩ فبلغ عدد المجندين من الطبقتين ٢٤٠ الف رجل . وشرعت وزارة الحربية منذ ٢٥ تموز ١٨٧٠ تنشئ الاستحكامات حول باريس وناطت الدفاع عن العاصمة بالحرس الوطني تعززه حامية المدينة وكانت تتألف من اربعين الف رجل . وفي الوقت نفسه شجعت وزارة الداخلية تأليف العصابات ووزعت الاصلحة عليها بسخاء .

وخطت الحكومة خطوة لا بأس بها نحو التعبئة العامة فاستصدرت مرسوماً بدعوة جميع المحاربين القدماء القادرين على حمل السلاح وجعلت الانخراط في « الحرس الوطني المتحرك » واجباً وطنياً يتحتم على من هم دون الثلاثين القيام به تحت طائلة العقوبات الشديدة . اما من هم فوق الثلاثين فقد دعوا الى التطوع

في الحرس، وفرض على الذين تخلفوا، التنازل عن اسلحتهم للدفاع الوطني .
ولكن الانتفاضة التي هزت الامبراطورية الثانية في ايامها الاخيرة ظلت
مقصورة على انصار العهد ولم تهز الشعب الا بعد زوال الامبراطورية
« المسؤولة عن الكارثة » . (من خطبة لغامبتا في ٤ ايلول ١٨٧٠) . وما
ان حصل انقلاب ٤ ايلول حتى اتسم مجهود الدفاع الوطني بطابع شعبي ،
وهبت فرنسا من اقصاها الى اقصاها تطالب بتعبئة القوى والموارد ووضعها في
كفة الميزان .

الدفاع عن باريس . - تألفت الحكومة الجديدة (حكومة الدفاع الوطني)
من عناصر باريسية بحت ، فكان طبيعياً ان يقرر الوزراء البقاء في العاصمة
المهددة ليشرفوا على الدفاع عنها . وأذاعوا في السادس من ايلول بياناً جاء
فيه : « قررت الحكومة البقاء في باريس لتشرف بنفسها على العمليات الدفاعية .
ولا غرو ، ففي باريس تتجمع آمال الوطن وامانيه . لقد اولانا سكان
المدينة ثقتهم الغالية ووضعوا مقدرات العاصمة بين يدي القائد المخلص « تروشو »
الذي اخذ على عاتقه تنظيم الدفاع . »

عين « تروشو » قائداً عاماً لحامية باريس في التاسع عشر من آب ١٨٧٠ .
وجاءت حكومة الدفاع الوطني فاختر القائد رئيساً لها واحتفظ بالقيادة العامة
« لانه أمن للعاصمة كميات لا بأس بها من الاطعمة والذخائر » . على ان
« تروشو » الذي اشرف على تحصين باريس لم يدخل على الحصون القائمة
التحسينات التي يتطلبها تقدم السلاح الهجومي . فالمعسكرات الحصينة التي
انشئت في عهد « فوبان » ظلت على حالها . وسار العمل ببطء في حفر
الختادق وانشاء الحصون المستقلة خارج الاسوار . وعند وصول الالمان لم
يكن ثمة حصن واحد مكتمل البناء .

يقول المؤرخ « ف . كانونج » في كتابه « الحرب الفرنسية الالمانية » :
 « ان « تروشو » لم يكن رجل الساعة . كان الموقف خطيراً لا يعالجه سوى
 رجل متفوق ولم يكن الجنرال « تروشو » هذا الرجل . »

انصرف القائد رئيس الحكومة الى السياسة فوقف عليها نشاطه مهملًا ما
 عداها . وقد خلت تدابيرها ابان الحصار من الحزم اللازم فكان الدفاع
 فوضى ، ولم يطل الامر بالحامية حتى دب الوهن الى عزميتها . وينصف بعض
 المؤرخين ، ومنهم الكولونيل « ريفول » ، القوات النظامية فيقول انها قاتلت
 بحماسة حتى اللحظة الاخيرة . كانت هذه القوات تتألف من اربعة عشر الف
 بحار وثمانين الفاً من الجيش العامل وخمسة آلاف خيال وثلثين بطارية عززت
 فيما بعد بتسعين بطارية ميدان .

اما الوحدات التي ارتجلت ارتجالاً فقد كانت تضم نصف مليون رجل
 منهم مئة الف ينتمون الى الحرس الوطني المتحرك جاء بهم « تروشو » من
 الاقاليم ، وقد انصرف هؤلاء في اثناء الحصار الى السكر والعريضة والسلب
 والنهب . وروى الجنرال « دو كرو » في مذكراته (وكان من قادة
 الحامية الباريسية ابان الحصار) ان « تروشو » عهد الى ١٥ الفاً من
 رجال الحرس بالدفاع عن حصن « مون فاليريان » فرفضوا لان الحصن
 كان عرضة ليران المدفعية الالمانية .

وضمت الوحدات المرتجلة ٣٥٠ الف رجل من المحاربين القدماء والمتطوعة
 فكان مسلك معظمهم غير مشرف بشهادة الجنرال « دو كرو » . اما الفيالق
 الحرة فقد تميز منها : « كشافة السين » و « فصائل الهندسة المساعدة » .
 وجنح بعض القطعات الحرة الى العمل على هواه غير ملتفت الى اوامر
 الرؤساء ونواهيهم .

ولئن يكن الارتجال قد اعطى نتائج مخيبة للامال من هذه الناحية ، فقد جاءت نتائجه مرضية في حقل الاعتدة .

كان في متناول الحامية منذ اللحظة الاولى نصف مليون بندقية و ١٢٢ مليون رصاصة . ولم تعوز الحامية المدافع والمقذوفات . اما المؤن فقد امتتها حكومة الامبراطورية بفضل التدابير التي اتخذها وزير التجارة بالاشتراك والمجلس البلدي . ولم تنقطع الصلة بين باريس والخارج بفضل المناطيد التي استخدمت للمرة الاولى في مطلع شهر تشرين الاول . وقد غادر منها العاصمة في اثناء الحصار خمسة وستون منطاداً ناقلة ١٦٤ مسافراً ومليونين ونصف مليون رسالة ، ولم يسقط منها ايدي الاعداء سوى ثلاثة مناطيد .

على ان ما سبب اخفاق الدفاع عن باريس لم يكن عاملاً مادياً بحتاً . فقد واجهت المدينة الحصار بثقة وايمان بمقدرتها على الصمود . ولكن هذا الايمان وتلك الثقة لم يعمر طويلاً لان الحكومة لم تعرف كيف تبقي على معنويات السكان سليمة فانهارت وانهارت معها المقاومة .

الحرب خارج العاصمة . - قلنا ان حكومة الدفاع الوطني اُبت براح باريس ولكنها سرعان ما ادركت خطأها . فالعاصمة من الواجهة العسكرية ذات اهمية ثانوية ، وبقاء « تروشو » وزملائه فيها يعني تخليهم عن المناطق المهددة بالاجتياح وايتارهم السياسة على ادارة الحرب .

وفي السادس عشر من ايلول ١٨٧٠ غادرت باريس الى « تور » بعثة حكومية عهد اليها بتنسيق الجهود الدفاعية في المناطق . فألفت البعثة الجو متلبداً بالغيوم . فالتاس غير راضين عن اغفال الحكومة الدفاع عن البلاد . والقوات النظامية متبرمة بضؤولة العتاد الذي ترك لها لان الحكومة عززت الدفاع عن باريس على حساب سائر المدن الفرنسية .

وفي التاسع من تشرين الاول نقل منطاد الوزير « غامبتا » من العاصمة الى مدينة « تور » بمهمة فوق العادة ، فتسلم فور وصوله مقدرات وزارتي الحرية والداخلية وبسط منهاجه في نداء وطني دعا فيه المواطنين الى الاتحاد وتكريس الجهود للحرب . ووضع « غامبتا » نصب عينيه تجهيز الحاميات بالاسلحة وتنظيم الصناعة الحربية ، ولكنه لم يجد العدد الكافي من الموظفين وارباب الاختصاص فقد استأثرت باريس بتسعين بالمئة من رجال الادارة والقادة العسكريين . وعلى الرغم من ذلك عبات وزارة الحرية وجهزت في غضون اربعة اشهر ستمئة الف جندي بين فارس وراجل . وتمكن فرع المدفعية خلال المدة نفسها من مهر الجيش بالف واربعمئة قطعة من مختلف العيارات .

وعالج « غامبتا » مشكلة الملاكات بثلاثة حلول :

١ - مضاعفة عدد الجنود في السرية الواحدة لان عدد الرؤساء (كابتن) لم يكن كافياً ، ٢ - وقف العمل بقوانين الترقية ليتسنى للحكومة ان تضع المقدمين (قومندان) على رأس الكراديس ، والزعماء (ليوتان كولونيل) على رأس الالوية ، وآمري الالوية على رأس الفرق والفيالق ، ٣ - تنظيم الجيش المساعد ، وقد قضى هذا التنظيم بان يتولى كل فوج من المتطوعة انتخاب قائده .

واهتم « غامبتا » بتوحيد القيادة في المناطق ووفق الى قائد لامع هو الجنرال « شانزي » فاستطاعت الجيوش الفرنسية المرتجلة ان تقاوم العدو اربعة اشهر وبضعة عشر يوماً . واعترف « مولتكه » في مذكراته بان اركان الحرب الالمانية دلت على قصر نظر عندما اسقطت من حسابها حيوية الشعب الفرنسي ووطنيته : « خيل لنا ان الحرب انتهت بعد « سيدان » و « متر »

ولكن القوات الفرنسية غير النظامية ارغمتنا على القتال خمسة اشهر واحبطت الكثير من خططنا .»

ويعتقد الكولونيل « ريفول » ان جيش الامبراطورية الثالثة المرتجل كان ، رغم عيوبه الكثيرة ، قادراً على احراز النصر لو قيض له قادة اكفاء ومواصلات منظمة واسلحة موازية للاسلحة الالمانية . يضاف الى هذا جهل اركان الحرب وتقايس المؤخرة عن سد حاجات الجيش وانعدام اللحمة بين القطعات المختلفة .

٢ - السلم المسلح

حرصت الحكومات التي تعاقبت في فرنسا بين ١٨٧٢ و ١٩١٣ ، على تنمية الجيش العامل على الرغم من تناقص عدد المواليد . كان عدد القوات العاملة سنة ١٨٧٥ ، ٤٤٠ الف رجل فبلغ سنة ١٨٨٢ نصف مليون . وقفز سنة ١٨٨٩ الى ستمئة الف بفضل القانون الذي جعل مدة الخدمة ثلاث سنوات . وحافظ على هذا المستوى حتى سنة ١٩٠١ فبدأ يتناقص . وهبط في اواخر سنة ١٩٠٤ الى نصف مليون ، لان الحكومة خفضت سنوات الخدمة فجعلتها اثنتين بدلا من ثلاث . ومنذ العام ١٩١٠ اخذ قادة الرأي يتجهون نحو الخدمة الطويلة الامد بعد ان سمعوا بجلاء قرعة السلاح عبر الرين . وفي العام ١٩١٣ اخضعت الطبقات لخدمة مدتها ثلاث سنوات ، فارتفع عدد الجيش العامل الى ٨١٩ الف رجل ، يعززه في الحرب ثمان وعشرون طبقة من قوات الاحتياط .

ولم تقصر حكومات الجمهورية الثالثة اهتمامها بالجيش العامل على زيادة عدد المجندين ، بل حرصت على رفع مستوى الجندي الفرنسي ، اي انها عنيت بالكمية والنوع في وقت معاً .

اكتشفت حكومة ١٨٧٢ أهمية النوع على ضوء الحرب السبعينية . وقد جاء قانون ١٨٧٢ نتيجة فوز انصار الجيش المحترف او جيش النخبة الذين طالبوا في المجلس الوطني بتقديم الجودة او النوع على العدد . غير ان القانون المذكور ابقى على نظام « الامة المسلحة » لان النواب العسكريين اصرروا على المساواة في التكاليف العسكرية .

وقد وفق القانون بين النزعتين بأن فرض الخدمة الجبرية على الفرنسيين المذكور والغى البدل والاستثناء فرضى بهذا انصار العدد او نظام « الامة المسلحة » . اما انصار الجودة او الجيش المحترف فقد ارضاهم بأن اخضع للخدمة الطويلة الامد (خمس سنوات) عدداً معيناً من المعايين . اما الباقون فيتطوعون لمدة ستة اشهر ويتألف منهم الاحتياط العام .

بدا هذا التدبير موفقاً للوهلة الاولى . ولكن العيوب التي خفيت على مجلس ١٨٧٢ اتضحت للمجلس الذي تلاه . فقد لاحظ ممثلو الامة ان المساواة في التكاليف العسكرية لا وجود لها الا بالاسم مادام جنود الكردوس الواحد يجندون آجالاً متفاوتة ، وان جيشاً يكون نصف قطعاته متعلماً ومدرباً اكمل تدريب والنصف الاخر ملماً بفن القتال الماماً سطحياً لا يمكن ان تشد بعضه الى البعض الآخر رفاقة السلاح واللحمة التي لا ندحة عنها في جيش نظامي .

وقد اقترح فريق من النواب في العام ١٨٧٦ جعل مدة الخدمة ثلاث سنوات والغاء التطوع والاستثناء ، واقترح فريق آخر جعل المدة سنتين للمشاة وخمساً للخيلة ، وانهايات الاقتراحات بين ١٨٧٧ و ١٨٨١ دون ان يعتمد المجلس واحداً منها . وفي العام ١٨٨٥ وافق النواب على قانون السنوات الثلاث ولكن الشيوخ ردوه . فطرح على بساط البحث مجدداً بعد اربع

سنوات (١٨٨٩) وكانت حجة انصار المشروع انه يؤمن المساواة في التكاليف العسكرية ، فاقرته اكثرية المجلسين « لانه يتيح تنشئة الامة عسكرياً » . (من خطاب النائب فريسينه في المجلس) .

بيد ان الاحتفاظ بالمجندين مدة ثلاث سنوات عبء ينوء به كاهل الحزينة ، فعادت الدولة الى نظام الاستثناء فاعفت رب العيلة التي لا معيل لها سواء واكبر الايتام سنأً ووحيد الارمل . وجعلت مدة الخدمة سنة واحدة لاصحاب المهن الحرة الذين لا يجوز انفكاكهم عن عملهم مدة طويلة كالاطباء مثلاً .

ولم يطل الامر بالرأي العام حتى هب يطالب بتقصير مدة الخدمة ، وتبنى كثير من النواب والسيوخ هذه الفكرة لان قانون ١٨٨٩ اضر بالبلاد اقتصادياً وعسكرياً . ففي الحقل الاقتصادي ابعث الفلاحين والصناع عن ميادين نشاطهم مدة طويلة ، فلما انتهت خدمتهم لم يعد كثير منهم الى ارضه ومصنعه ، فتأثر الجهاز الاقتصادي بهذا الاعراض الى حد كبير . وادى اعفاء اصحاب المهن الحرة من ثلثي المدة الى اقبال الشبان عليها ، فافقرت البيوت التجارية والمعامل .

وفي الحقل العسكري ادت كثرة الاستثناءات الى انعدام التضامن بين الخاضعين لقانون الثلاث السنوات وبين المجندين لسنة واحدة فكان هؤلاء في نظر اولئك فئة مدللة على حسابهم ، فطبيعي والحالة هذه ان تسوء العلاقات بين الفئتين . يضاف الى هذا ان الجيش ضم جنوداً درب فريق منهم في ثلاث سنوات التدريب الكافي وجاءت تنشئة فريق آخر غير مستوفية الشروط .

ظل قانون الثلاث السنوات معمولاً به حتى ربيع ١٩٠٥ فخفضت المدة سنة واحدة والغبي الاستثناء (قانون ٢١ آذار ١٩٠٥) . وامن القانون الجديد المساواة في التكاليف العسكرية ووضحى مدرسة الامة ، وانتقى محذور اقفار الريف والمصانع والمتاجر ، فزادت المحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية .

ما يقرب من الضعفين .

فرض قانون ١٩٠٥ الخدمة لمدة سنتين ، جاعلاً قوام الجيش الدائم ربع مليون رجل . اما الاحتياط فقد جعلت مدة خدمته سنة واحدة . وهكذا فازت نظرية الامة المسلحة كما فازت نظرية الجيش المحترف او جيش النخبة . على ان اغراق المانيا في الحشد والتسلح حمل الفرنعيين على السعي الى زيادة قوات السلم دون ان تؤدي هذه الزيادة الى المساس بالمبادئ التي يقوم عليها القانون الجديد . وبعد اخذ وردطويلين وافق ممثلو الامة في آب ١٩١٣ على العودة الى خدمة الثلاث سنوات . اما الاستثناء فقد ظل لاغياً . تنظيم الملاكات . - تعاظم دور الضباط وضباط الصف على الاخص في الجيوش الحديثة تبعاً لاتساع نطاق المعارك وتشتت القطعات في القتال . فقد صار على ضابط الصف ان يقود الحظيرة العاملة تحت امرته بعزل عن سائر قطعات الجيش .

ولم يكن النظام المتبع في المانيا ممكناً تطبيقه في فرنسا . كان ضباط الصف في الجيش البروسي يؤلفون فيلقاً محترفاً ، تخرج افراده من مدارس خاصة تعهدت تنشئهم عسكرياً منذ نعومة اظفارهم . وكان الالتحاق بهذه المدارس وقفاً على ابناء اسر معينة ، فلم يكن معقولا والحالة هذه ان تهضم فرنسا الديموقراطية هذا النوع من الايثار .

وافق ممثلو الامة بين ١٨٧٢ و ١٨٧٨ على سلسلة قوانين ترمي الى زيادة عدد ضباط الصف : مكافأة نقدية لمن يجدد تطوعه ، مرتب مضاعف ، مرتب تقاعدي ، الترقية الى رتبة معاون الخ . . . ولكن ضباط الصف الذين جددوا عقودهم لم يرب عدددهم على ثمانية آلاف من اصل خمسة وثلاثين الفاً . حدث هذا في الوقت الذي كان معمولاً بقانون خدمة

السنوات الخمس . فلما طرح قانون السنوات الثلاث خشي كثير من النواب والشيوخ ان يستمر تناقص عدد ضباط الصف رغم تقصير امد الخدمة ، فاصوا بالاكثر من المغريات . ولكن الميزات التي كفلتها قوانين ١٨٨٩ و ١٨٩٣ و ١٨٩٧ للذين يجددون عقود التطوع لم تأت بالنتيجة المنشودة ، فظل ضباط الصف دون العدد المطلوب .

وفي العام ١٩٠٥ كان عددهم في جيش السلم ٢٢ الفاً من اصل ٤١ الفاً ، فجاء قانون الخدمة القصيرة الامد (ستان) فحل المشكلة الى حد ما لان خدمة اربع سنوات متوالية ليست بالعبء الثقيل يتهرب منه مواطن تكفل له القوانين ميزات لا بأس بها .

وبعد العودة الى قانون الثلاث السنوات (١٩١٣) لم يطرأ تبدل على نسبة المتطوعين لان حمى الوطنية الهبت الصدور . وعند نشوب الحرب سنة ١٩١٤ كان لفرنسا اربعون الف ضابط مقابل مئة وعشرة آلاف في الجيش الالماني .

الضباط . - بعد الحرب السبعينية عملت حكومة الجمهورية على تشجيع الانتساب الى المدارس العسكرية بايثار الضباط المتخرجين منها على زملائهم الذين رقوا في الحرب مكافأة لهم على اعمال معينة . وفي العام ١٨٨٢ انشئت ثلاث مدارس جديدة في « سان ميكسان » و « سومور » و « فرساي » الى جانب « سان سير » و « بوليتكنيك » .

وفي اقل من عشر سنين تخرج من المدارس العسكرية ثلاثون الف ضابط . غير ان الاقبال على الرتب العسكرية من طريق المدارس اخذ يخف شيئاً فشيئاً لان القوانين التي صدرت في اواخر القرن التاسع عشر قيدت الترقية من رتبة الى اخرى بقيود ثقيلة ، منها ان الملازم الاول يظل في رتبته اثني عشرة سنة ،

والرئيس يسلم ست عشرة سنة في السعي الى رتبة مقدم . يضاف الى هذا العامل ان معظم الذين انتسبوا الى المدارس العسكرية ليتخرجوا منها ضباطاً محترفين يخدمون وطنهم في ميادين القتال ، وينشدون المغامرة ولو بين اشواق الموت ، وجدوا انفسهم في السلم مسوقين الى اداء مهام تتبرم بها ضمائرهم كابعاد الرهابين وقمع الاضطرابات الخ . . . وزادهم زهداً في السلك قانون ١٣ آذار ١٨٧٥ المكمل بقانوني ١٩٠٣ و ١٩٠٩ ، الذي نظم ملاكات ضباط الاحتياط ، وحتم دعوة هؤلاء الى ممارسة القيادة في الحرب ، ففقد ضباط السلك بهذا ميزة التفرد بالقيادة . وفي اقل من عشرين سنة تناقص عدد المنتسبين الى « سان سير » من ٣٤٠٠ الى ٨٠٠ ، واضطرت الحكومة سنة ١٩٢٢ لترقية خمسمئة معاون (اجدودان) الى رتبة ملازم ثان لتسد النقص الناجم عن الزهد في المدارس العسكرية .

التنظيم الاقليمي والقيادة . - عنت حكومات الجمهورية الثالثة بالتنظيم الاقليمي عنايتها بالملاكات . فقررت منذ ١٨٧٣ جعل فرنسا ثمانى عشرة منطقة عسكرية في كل منها يعسكر فيلق كامل العدة ، له قيادته الخاصة ودوائره واركان حربه . وقد انشئ في مطلع القرن العشرين منطقة اضافية في الجزائر وفيلقان لتغطية الحدود في « اللورين » و « الفوج » . اما حاكميتا باريس وليون العسكريتان فقد ظلنا خارج هذا التنظيم الاقليمي .

اقر ممثلو الامة التنظيم الاقليمي في ٢٤ تموز ١٨٧٣ . وفازت في اثناء المناقشات ، النظرية القائلة بابقاء الفيلق في منطقة معينة بالذات على النظرية القائلة باجراء حركة تبادل بين الفيالق مرة كل سنتين . ولكن الدوائر العسكرية تقدمت بجل يوفق بين النظريتين ، فاقترحت توزيع المجندين الجدد على المناطق كافة ، اما جنود الاحتياط فيظلون لاصقين بالفيلق المعسكر في

المنطقة التي ينتمون اليها :

وفي العام ١٨٧٨ تخلت وزارة الحربية عن هذا النظام المختلط « لانه يبعد جنود الاحتياط عن الرؤساء الذين تولوا تنشئتهم » . (الكولونيل ريفول : تاريخ الجيش الفرنسي) .

وفازت في الندوة النظرية القائلة بوضع المنطقة العسكرية والفيلق تحت امرة قائد واحد على النظرية التي اراتت جعل قيادة الفيلق مستقلة عن قيادة المنطقة العسكرية . واستثنى من التوحيد الادارات الخاصة المنوط بها الاهتمام بحاجات الدفاع الوطني ، فكان رؤساؤها يعودون في شؤونهم الى وزارة الحربية مباشرة ، ولكنهم اخضعوا مسلكياً لمراقبة قيادة الفيلق .

كان قائد الفيلق يلقب بـ « القائد العام » ولكن وظيفته كانت موقوتة ومثلها صفته . فاذا ترك القيادة جاز للرؤساء ان يعهدوا اليه بقيادة فرقة ، وهي دون الفيلق . الا ان قانون ١٨٩٥ الغى هذا الجواز وابقى لقيادة الفيالق رتبهم بعد تركهم الوظيفة ليحل سواهم محلهم .

ولم تفكر حكومات الجمهورية ، قبل نشوب الحرب العالمية ١٩١٤ - ١٩١٨ ، بانشاء رتبة قائد جيش . لهذا ظلت قيادة الفيلق ارفع رتبة عسكرية في جيش السلم . ولكن رؤي منذ ١٨٨٧ ضرورة انشاء قيادة عليا تشرف على تنسيق الجهود الرامية الى اعداد العدة للحرب . وكان يعاون وزير الحربية في مهمته اركان حرب خاصة اطلق عليها اسم « اركان حرب الوزارة » فاضحت منه العام ١٨٨٨ « هيئة اركان حرب الجيش » وجعل رئيسها مسؤولاً مباشرة تجاه الوزير . وفي بحر العام نفسه بعث مجلس الحرب الاعلى وهو المجلس الذي انشئ ١٨٧٢ ، ولكنه لم يأت عملاً نافعاً ، وانقطع عن العمل منذ ١٨٧٤ . فبعثه الوزير « فريسينه » سنة ١٨٨٨ وحتم على الاعضاء

عقد اجتماعات دورية برئاسة وزير الحربية ، او برئاسة نائبه الذي يعين لمدة سنة بين اعضاء المجلس ، ويكون في الوقت نفسه قائد المجموعة الرئيسية من مجموعات القوى المعبأة اي القائد الاعلى للجيش الفرنسية .

اما سائر اعضاء المجلس ، فقد انتدب معظمهم لقيادة العمليات في حالة نشوب حرب ، ونيط بكل واحد منهم قيادة جيش بكامله . اما في السلم فتعهد اليهم وزارة الحربية بمهام تكتيكية وباخرى استراتيجية ، وبالاشراف على مناورات الحريف . وفي العام ١٨٩٩ الحق بكل قائد جيش هيئة اركان حرب خاصة .

بقي ان يقوم حد فاصل بين صلاحيات اركان حرب الجيش ، وهي الجهاز الاعدادي ، وبين المجلس الاعلى وهو جهاز القيادة . وقد حاول قانون ١٩١١ ان يحدد هذه الصلاحيات . فطغى ما كان منها عائداً الى نائب رئيس المجلس الاعلى على صلاحيات رئيس اركان حرب الجيش . وفي كانون الثاني ١٩١٢ اصبح « جوفر » نائباً لرئيس المجلس الاعلى ورئيساً لهيئة اركان الحرب العامة والقيت رئاسة اركان حرب الجيش .

وما لبث هذا التنظيم ان آتى ثماره ، لان قانون ١٩١٢ اطلق يد رئيس هيئة الاركان العامة في تطهير الملاكات ، وتعيين الضباط الاكفاء في المناصب الرئيسية دون ان يكون للوزير حق التدخل . وقد انشئ لتخريج رؤساء الاركان « معهد الدراسات العسكرية العليا » فمهر البلاد بمجموعة طيبة من القادة اللامعين ، عاونوا « جوفر » في حمل العبء ابان الحرب العظمى الاولى . تنظيم الوسائل . — تحتاج القيادة في استخدام القوى التي وضعت تحت امرتها الى دوائر تكون صلة الوصل بينها وبين القوى المذكورة ، وهيئة اركان الحرب هي اكثر هذه الدوائر التصاقاً بالقيادة .

كان ل نابوليون بونابرت دوائر اركان حرب حشد فيها ضباطاً لم ينشأوا
تنشئة خاصة . وبعد عودة الملكية انشأ « غوفيون سان سير » وحدة خاصة
اطلق عليها اسم « وحدة اركان الحرب » ولكنه جعل الالتحاق بها مقصوراً
على فريق من الضباط دون الآخر . وابقى ضباط الاركان بعيدين عن الجيش .
ظهرت عيوب هذا التنظيم في الحروب التي خاضت فرنسا غمار معاركها
خلال القرن التاسع عشر ، وكان ابرزها جهل ضباط اركان الحرب حاجات
الجيش وعجزهم عن ممارسة القيادة الفعلية ، لانهم حشوا ادمغتهم بالنظريات . وفي
العام ١٨٧٧ فتحت « المدرسة العسكرية العليا » ابوابها لقبول الضباط الراغبين
في الالتحاق بدوائر اركان الحرب ، بقطع النظر عن الاسلحة التي ينتمون
اليها . وحتم قانون ١٨٨٠ على كل ضابط من هؤلاء ممارسة القيادة مدة معينة
خلال انتسابه الى المدرسة العسكرية العليا ليتمرس بهذا الفن ويتعرف
الى حاجات الجيش .

بعد ان تم للقيادة تنظيم نفسها ، انصرفت الى اكمال ما بدأته اولى
حكومات الجمهورية الثالثة في حقل تنظيم دوائر الارتباط ووسائل النقل .
فقد اكتشفت « حكومة الدفاع الوطني » بعد هزيمة ١٨٧١ ان بقاء البرق
والسكك الحديدية مصالح مدنية بحتاً لا يؤمن حاجات الدفاع في الحرب ،
وشرعت منذ ١٨٧٢ تسماها بطابع عسكري دون ان تلحقها بالجيش . ونص
قانون ١٨٧٥ على جعل نسبة الموظفين العسكريين في البرق والسكك الحديدية
اربعين بالمئة بين مجموع الموظفين ، على ان توضع هذه المصالح في الحرب تحت
اشراف السلطات العسكرية .

وبين ١٨٩٠ و ١٩١٢ انشئت في الجيش كراديس خاصة الحقت بفرق
الهندسة ودربت على العمل في ورش السكك الحديدية وفي انشاء مراكز

٢ - حرب الخنادق

معارك ١٩١٥ - قضت الخطة الاستراتيجية الحليفة ، بعد الاخفاق الذي منيت به المحاولات الفرنسية في مناطق الحدود ، بارغام العدو على القتال في الشرق دون ان يؤدي هذا التدبير الى تحميل روسيا فوق ما تستطيع . وقد كان تدخل الروس في الوقت المناسب عاملاً حاسماً في انقاذ باريس وفي ما احرزه الحلفاء من نجاح في موقعة نهر « المارن » . وعملاً بالخطة الاستراتيجية الآتفة الذكر ، انتقل الجيش الفرنسي الى الهجوم حالما شرع الالمان ينقلون فياتهم من الغرب الى الشرق لتواجه الزحف الروسي . وقد كان الغرض من الهجوم الفرنسي تجريد اكبر عدد ممكن من الفرق المعادية لئلا يبسط العبء كاهل الحليفة الشرقية (روسيا) .

شن الفرنسيون هجماتهم الاولى في اواخر ١٩١٤ واول ١٩١٥ . وكان مسرح العمليات الرئيسي سهول « شامبانيا » وحوض نهر « الاين » . ولكن ضعف الوسائل الهجومية جعل تضحيات الفرنسيين عقيمة . وفي شباط وآذار لجأ الفريقان المتحاربان الى الخنادق وحلت الهجمات الموضعية محل الهجمات الواسعة .

وفي ٢٢ نيسان ١٩١٥ استعمل الالمان الغازات السامة للمرة الاولى على جبهة نهر « الاير » فقوىء الحلفاء بهذا السلاح الذي احدث نقصاً عظيماً في صفوفهم . وفي ايار استأنف الفرنسيون النشاط الهجومي في قطاع « فيمي » واشرف الجنرال « بيتان » على هذه العملية ، فتراجع العدو امام حملة الفرسان المراكشين ولكنه استطاع سد الثغرة قبل ان يوسعها المهاجمون . وقام جيش « بيتان » في اواخر الصيف بمحاولة مماثلة في سهول « شامبانيا » واستطاع ان ينزع من العدو نقاطاً ارتكازية مهمة ولكنه لم ينجح في اختراق الجبهة الالمانية .

الجيش الفرنسي

وقد تخلل ١٩١٥ عمليات ذات طابع استراتيجي خارج اوروبا الغربية ،
 منها عملية بحرية ضد المضائق التركية ونزول حملة فرنسية بريطانية على الساحل
 الغربي لشبه جزيرة « غاليبولي » . وكان الغرض من هذه الحملة تخفيف الضغط
 عن الروس باجتذاب بضع فرق المانية الى البلقان . ووضع دخول بلغاريا
 الحرب الجيش الصربي بين نارين ، وجعل اليونان في مركز دقيق . وكانت الحملة
 الحليفة قد جلت عن « غاليبولي » فوجهت الى اليونان ، حيث اتخذت من
 « سالونيك » معسكراً حصيناً وقاعدة للعمليات في شبه الجزيرة البلقانية .

التكتيك والاعتدة . - ادرك « جوفر » على ضوء مواقع ١٩١٥ اسباب
 اخفاق محاولاته الهجومية . ادرك ان اختراق الجهة المعادية لا يمكن ان يكون
 نتيجة هجوم مرتجل ، فالمشاة لا يستطيعون احتلال ارض لم تضربها المدفعية
 بغية القضاء على اسلحة العدو وعلى الحواجز التي اقامها لعرقله زحف المهاجمين .
 وادرك القائد الفرنسي في الوقت نفسه ان الموجات الهجومية المتعاقبة لا
 تأتي بنتيجة اذا كان المدافع مالكا رباطة جأشه وهو قابض في خندق او معتصم
 في حصن . اما اذا مهد لهذا النوع من الهجوم بما يكفل اشاعة الفوضى والذعر
 في صفوف العدو ، كالضرب المدفعي الكثيف ، فان مهمة المشاة تسهل نسبياً .

ولم يغفل « جوفر » الناحية المادية فكرر مناشداته بالاكتثار من المدافع
 والقنابل والرمانات (Grenades) والمدافع الرشاشة . وقد تجمع لديه في اول
 كانون الثاني ١٩١٦ ثلاثة آلاف ومئتا مدفع تراوح عياراتها بين ٩٠ و ٢٧٠ ،
 وارتفع عدد المدافع الرشاشة من خمسة آلاف الى احد عشر الفاً .

معارك ١٩١٦ . - قرر الحلفاء سنة ١٩١٦ شن هجمات واسعة النطاق على
 مجمل الجبهة ، على ان يكون الغرض منها افساد استعدادات العدو وارغامه على
 استخدام الاحتياط . وقد تخلل الاشهر الاولى من السنة المذكورة معارك ضارية

وطويلة الامد اهمها معركة « فردون » التي اجمع النقاد العسكريون الالمان على انها كانت نقطة التحول في الحرب .

في ٢١ شباط تحرك المشاة الالمان من خنادقهم شمال « فردون » بدعمهم الف مدفع . وبعد ثلاثة ايام من الصراع العنيف شق العدو طريقه مهدداً المراكز الفرنسية الحيوية . فبادر « جوفر » الى اتخاذ التدابير القمينة بانقاذ الموقف وعهد الى القائدين « بيتان » و « كاستلنو » بمهمة الدفاع عن « فردون » ووقف العدو على الضفة اليمنى لنهر « الموز » .

وقد استمرت معركة « فردون » بضعة اشهر استنفد خلالها ما كان للجيش الفرنسي من احتياط في الرجال والعتاد ، وكلفت في الوقت نفسه الجيش الالمانى خسائر باهظة . ويقول الكولونيل « ريفول » في صدد « فردون » ان وطنية الفرنسيين تجلت باروع مظاهرها خلال المعركة . فقد ساهم في احباط المحاولات الالمانية جنود خط النار وحاميات القلاع وسرايا النقل وفرق الهندسة . كما ساهم في المهمة نفسها ، العمال الذين تطوعوا لبناء الحصون الاضافية وترميم الحصون المتهدمة وحفر الخنادق .

استطاع العدو ان ينتقل الى ضفة « الموز » اليسرى ولكن محاولاته ضد حصن « مورهوم » اصطدمت بمقاومة عنيدة واستطاعت حاميته الثبات حتى شهر ايار . وسقط حصن « فو » في السابع من حزيران . وقبل انصرام الشهر المذكور سقط حصن « دومون » و « فلوري » ولكن الالمان صدوا امام حصن « سوفيل » ، حيث بذلوا آخر مجهود هجومي كبير . ثم اضطرهم نفاذ الاحتياط للوقوف . وفي هذه الاثناء حل الجنرال « نيفل » محل « بيتان » في « فردون » وقررت القيادة العامة اعتماد خطة هجومية في قطاع نهر « السوم » على ان تلزم قوات « نيفل » موقف الدفاع الهجومي

على نهر « الموز » بانتظار الظروف المواتية للهجوم .
 بدأ هجوم « السوم » في اوائل تموز وساهمت فيه القوات البريطانية
 وتولى « فوش » الاشراف على سير العمليات وتنظيم التعاون بين الفرنسيين
 والبريطانيين . وكان شديد الحرص على ازالة العقبات والحواجز القائمة في
 طريق المشاة قبل قيام هؤلاء بمحاولاتهم الاختراقية . وقد تولت المدفعية
 العمليات التمهيديّة يعاونها الطيران كعنصر استطلاعي ثمين . ونجح الهجوم
 نجاحاً نسبياً ولكن التخريبات التي سببها القصف المدفعي حالت دون
 توغل المشاة توغلاً عميقاً في الجهاز المعادي ، لان الاخاديد التي حفرتها
 القذائف عاقت عمليات النقل وحركات المدفعية الثقيلة ذات العجلات ، وجاءت
 رداءة الاحوال الجوية في الخريف تزيد في مصاعب النقل والتموين .

وافادت جبهة « فردون » من هجوم « السوم » لان الضغط الحليف
 هنا ارغم العدو على استخدام فرقة الاحتياطية في مواجهة الخطر الجديد
 وكانت هذه الفرق معدة في الاصل للحلول محل العناصر المتعبة في جبهة
 « فردون » . وفي ٢٤ تشرين الاول انتقل الفرنسيون الى الهجوم واستردوا
 حصن « دومون » وبعد اسبوع طردوا العدو من حصن « فو » . ولم تتصرم
 سنة ١٩١٦ حتى كان الالمان قد خسروا معركة « فردون » نهائياً . وقد
 شجعت هذه النتيجة المارشال « جوفر » على اعداد العدة لهجوم عام يبدأ في
 اوائل ١٩١٧ ولكن السياسة قضت بابعاده عن القيادة الفعلية وبتعيين الجنرال
 « نيفل » قائداً عاماً لجيوش القطاعات الشمالية الشرقية . اما « جوفر » فقصد
 سمي قائداً عاماً للجيش الفرنسية ومستشاراً فنياً لوزارة الحربية ورئيساً
 لمجلس الدفاع ، فلم تخدعه هذه الالقاب وما لبث ان انسحب .
 قرر « نيفل » شن هجوم عام دون ان يعني باعداد العدة اللازمة له .

فقد خيل اليه، وهو يرى الى انهيار الجهاز الالماني في « فردون »، ان الوقت حان لتسديد الضربة القاصمة الى العدو . بدأ الهجوم في الاسبوع الاول من نيسان بداية حسنة واستطاع البريطانيون احتلال نقاط استراتيجية هامة . وفي الاسبوع التالي تقدم الفرنسيون بعمق سبعة كيلومترات واخذوا ستة عشر الف اسير ومئة وعشرين مدفعاً . الا ان الجهود الحليف قصر عن بلوغ الاهداف التي حددتها القيادة لان الجهاز الالماني كان عميقاً ومرناً بحيث لا يؤدي اختراقه في نقطة الى انهياره وزوال قيمته كخط دفاعي .

ومن العوامل التي سببت اخفاق هجوم « نيفل » اغفال القائد شأن الطقس في مرحلة من الحرب اضحى فيها الطيران العنصر الرئيسي في الاستطلاع . فقد بدأ الهجوم في احوال جوية رديئة حالت دون قيام الطائرات بمهمتها فكانت المدفعية تقذف بقنابلها دون ما تمييز ، فذهب معظم مجهودها هباء .

وفي الخامس عشر من ايار ١٩١٧ حل « بيتان » محل « نيفل » وسمي « فوش » رئيساً لاركان الحرب العامة . فاعتمد اولهما خطة الهجمات ذات الاهداف المحددة على ان تمهد لها المدفعية وتدعمها الى النهاية . ووضع نصب عينيه الاقتصاد بالقوى ريثما يتم حشد الوسائل التي تتيح للحلفاء شن هجوم حاسم .

وكانت تنتظر « بيتان » مهمة جد دقيقة ، وهي القضاء على الفوضى والتمرد اللذين شاعا في بعض القطعات على اثر اخفاق هجوم « نيفل » . وقد لجأ القائد الجديد بادية ذي بدء الى التدابير الزاجرة ، ثم اجتهد في تحري اسباب التدمر وعمل على ازالتها .

واهتم « بيتان » بالدبابات ، هذا السلاح الجديد الذي اعطى نتائج مشجعة

في موقعة « السوم » ، فطلب من وزارة الحربية الاكثار من استصناع الدبابات الخفيفة وايدته « فوش » في هذا . وعينت الحكومة بتعريض من القيادة بالاكثار من المدافع البعيدة المدى ومن قذائفها التي ارتفع عدد المصنوع منها في اليوم من ١٤ الفاً الى ٢٥٠ الفاً . ويقول الكولونيل « ريفول » في « تاريخ الجيش الفرنسي » ان الفرقة كانت مجهزة عند نشوب الحرب بتسع بطاريات عيار ٧٥ ، فعززت بعد معركة « فردون » بثلاث بطاريات عيار ١٥٥ . وانشئ في العام ١٩١٧ احتياط المدفعية وكان مؤلفاً من اثني عشر كردوساً من المدفعية الثقيلة تسير على الخطوط الحديدية او تجرها المركبات ومن ٢١ كردوساً عادياً تجرها المركبات و ٣٠ كردوساً تجرها الجياد و ١٥ كردوساً من مدفعية الخنادق وثمانى عشرة بطارية بحرية و ٣٧ كردوساً من المدفعية عيار ٧٥ . وقد اتاح توفر المدفعية للقيادة ان تتوسع في استعمالها . فحشدت في « الفلاندر » ٢٤٠ قطعة ميدان و ٣٧٣ مدفعاً ثقيلًا على جبهة لا تزيد على اربعة كيلومترات . وفي موقعة « مالميزون » حشدت على جبهة عرضها عشرة كيلومترات ٦٢٤ مدفع ميدان و ٩٨٦ مدفعاً ثقيلًا . واهتمت السلطات في الوقت نفسه بتحسين طرق الاطلاق مستعينة بالفن الطوبوغرافي وبالطيران كعنصر استطلاعي ممتاز .

وطراً تحسن ملموس على سلاح المشاة خلال ١٩١٧ . كان الكردوس مجهزة بستة مدافع رشاشة عند نشوب الحرب ، فاصبح لديه منها الضعفان في العام ١٩١٦ واربعة اضعاف في العام الذي تلاه . وظهرت في الوقت نفسه البندقية الرشاشة . وهي سلاح خفيف يمكن الجندي نقله كما ينقل البندقية وتطلق في الدقيقة ٨٠ - ١٠٠ طلقة . وقد احدث ظهور هذا للسلاح انقلاباً في السرية التي جهزت بثاني بندق رشاشة . واتاحت قوة النيران (عشرة

اضعاف البندقية العادية) تخفيض عدد جنود السرية الواحدة من ٢٥٠ رجلاً الى ١٧٥ .

وظهر في اواخر ١٩١٧ المدفع عيار ٣٧ فكمّل به سلاح الفوج واستخدم في اخراس الرشاشات المموهة .

وذكر الكاتب الفرنسي « هنري بيدو » في مذكراته عن الحرب العظمى ان الفوج في الجيش الفرنسي كان سنة ١٩١٤ يضم الف مقاتل مجهزين بالبنادق ذات الحراب وبالرمانات اليدوية . وكان الفوج يتألف من اربع سرايا . وفي اواخر ١٩١٧ ضم الفوج ٧٠٠ رجل يؤلفون سرية رشاشات وثلاث سرايا من الرماة بالبندقية . اما الكردوس فقد الحق به وحدات من سلاح الاشارات وجهاز بمدفعية خفيفة .

وجاءت الدبابة تدعم عمل المدفعية . ويقول الجنرال « ويغان » ان الجيش الفرنسي مدين باختراع هذا السلاح العظيم للجنرال « ايتيان » الذي عرض على « جوفر » اول تصاميمه في اواخر ١٩١٥ . فاعجب المارشال بالاختراع واوعز الى مصانع « شنيدر » و « سان شاتون » بصنع ثمانية دبابة . وقبل ان يتم صنعها انزل الانكليز اولى دباباتهم الى الساحة في معركة « السوم » فاحرزت نجاحاً لا بأس به . وعند نشوب معركة « الاين » سنة ١٩١٧ ظهرت الدبابات الفرنسية وكان عددها ١٦٠ ، فابلت بلاء حسناً ، ولكن الجنرال « ايتيان » لاحظ انها بطيئة وغير مرنة وسريعة العطب ، فوضع تصميم الدبابة الخفيفة من طراز « رينو » التي مثلت في معارك ١٩١٨ دوراً رئيسياً .

الطيران . - كان دور الطيران سنة ١٩١٤ مقصوراً على عمليات الاستطلاع وارشاد المدفعية الى الاهداف . وكان كل فيلق مجهزاً بنسب

من الطائرات وبمِنطاد واحد . وفي العام ١٩١٥ ظهر اول فوج من القاذفات وساهم في العمليات الهجومية مكملاً عمل المدفعية . ثم ظهرت طائرات الطراد فينيط بها حماية القاذفات الحليفة ومقاتلة الطائرات المعادية .

وما انتصف العام ١٩١٥ حتى كان سلاح الطيران في الجيش الفرنسي يضم ١٤٤٦ طائرة ، وشجع نجاحه في مواكبة المشاة ودعم نشاط المدفعية وفي الاغارة على الاهداف المعادية في المؤخرة ، شجع القيادة على انشاء قيادة جوية نيط بها الاشراف على انتاج هذا السلاح . وقد بدأت فرنسا معارك ١٩١٨ بـ ٢٧٥٠ طائرة منها ١٤٠٠ للاستطلاع ، و ٤٢٠ قاذفة ، و ٩٣٠ مقاتلة .

وعنيت السلطات العسكرية الفرنسية بوحدات الهندسة ووحدات النقل ، معتبرة بالمصاعب التي واجهت المدافعين عن « فردون » . وقد اتاحت هذه التحسينات للفرنسيين وحلفائهم ان يواجهوا حوادث ١٩١٨ بقاوب عامرة بالايامن بالرغم من انهيار الجيش الروسي ومن اخفاق معظم الخطط الحليفة في النمسا والبلقان . وجاء دخول اميركا الحرب ، يعوض خسارة الحليفة الشرقية ، وامن تسلم كلمنصو زمام فرنسا الاستقرار الحكومي المنشود .

٣ - معركة فرنسا

في آذار ١٩١٨ كان للامان في فرنسا مئة واثنتان وتسعون فرقة بما فيها فرق الاحتياط وطبقة ١٩١٩ . وكان للحلفاء تسع وتسعون فرقة فرنسية وست وخمسون بريطانية واثنتا عشرة فرقة بلجيكية وفرقتان بورتغاليتان وست فرق اميركية قيد التدريب . ولم تكن فرنسا قد استخدمت احتياطها الاستراتيجي لان طبيعة العمليات خلال السنوات السابقة لم تلجئها الى التوسع في استخدام مواردها في الرجال والاعتدة .

وادركت القيادة الالمانية ان التفوق العددي الذي تملكه لذو طابع موقوت ، لان الولايات المتحدة نشطت لتعبئة الطبقات وتدريبها ولان فرنسا لم تعبىء طبقة ١٩١٩ ، فقررت الافادة من هذا التفوق بشن هجوم بين نهري « اسكارب » و « الموز » الغرض منه اختراق الجبهة الحليفة بدق اسفين بين البريطانيين والفرنسيين ، ثم احتلال موانئ « المانش » وارغام الحلفاء على قبول الصلح الذي تقرضه برلين .

ولم تفت الحلفاء نيات الالمان فقرروا تلقي الدفعة المعادية ثم شن هجوم تعقبه عمليات اختراقية واسعة النطاق .

قيادة فوش . - في ٢١ آذار ١٩١٨ اندفعت ستون فرقة المانية نحو مراكز الجيشين الانكليزيين الثالث والخامس ، فصد اولهما وانكفاً الآخر كاشفاً المسيرة الفرنسية . وكاد العدو ينجح في دق اسفين كبير بين الجيشين المتحالفين لو لم يتدخل « فوش » في الوقت المناسب ويتخذ سلسلة تدابير جريئة ادت الى قلب الموقف رأساً على عقب .

القيت مقاليد الجيوش المتحالفة الى « فوش » مساء السادس والعشرين من آذار . وكان الموقف جد دقيق ، يتطلب بداهة جريئة واعصاباً فولاذية . فوضع القائد العام نصب عينيه منع العدو من الفصل بين الانكليز والفرنسيين على ان يراقق الصمود كرات عنيفة ريثما يحين الوقت المناسب للانتقال الى الهجوم .

استطاع الفرنسيون والانكليز وقف الدفعة الالمانية بين نهري « السوم » و « الواز » . ولئن يكن الهجوم المعادي قد قصر عن بلوغ هدفه الاساسي فقد احرز نتائج استراتيجية لا بأس بها ، اذ بلغت طلائعه نقاطاً لا تبعد عن « اميان » سوى اربعة عشر كيلومتراً وعن « ابفيل » خمسين كيلومتراً ،

وكانت هاتان المدينتان عقدي الاتصال بين الجيشين المتحالفين .
وفي التاسع من نيسان قام الالمان بمحاولة جديدة باتجاه موانئ ساحل
« الفلاندر » واستطاعوا فتح فجوة في الصفوف البورتغالية والبريطانية . فسارع
الاحتياط الفرنسي الى سد الفجوة وانفق في هذا السيل مجهداً جباراً وكابد
خسائر باهظة ، ولكن النقص الذي سببته معارك الفلاندر خلال شهر نيسان
في صفوف الفرنسيين وحلفائهم ، سدته الولايات المتحدة الاميركية ، فوصل
الى فرنسا نصف مليون جندي اميركي خلال شهري نوار وحزيران .
وفي اواخر ايار شن الالمان هجوماً كبيراً باتجاه نهر « المارن » فاحتلوا
مدينة « ريمس » واندفعوا غرباً شطر باريس فبلغوا ضفة المارن الشرقية بين
« دورمان » و « شاتوتيري » وقطعوا الحط الحديدي المؤدي الى « نانسي »
فباتت باريس على سبعين كيلومتراً من طلائعهم . ولكن « فوش » ظل
سيد اعصابه امام هذه المفاجأة فاعزز الى قوات القائدين « فايول » و « مانجان »
المرابطة امام العاصمة بان تشن على العدو هجوماً مضاداً فالفح الهجوم في وقف
الدفعة الالمانية الخطرة .

انتهى الى « فوش » في اوائل تموز ان القيادة الالمانية توي مهاجمة
المراكز الفرنسية بين « شاتوتيري » و « الارغون » . فقرر ان تلزم قواته
موقفاً دفاعياً في هذا القطاع ، على ان تنتقل الى الهجوم المضاد ضد
الناتئ الالمانى غرب الجهة . وقضت الخطة الدفاعية بنقل القوات الرئيسية الى
اماكن لا تطالها نيران العدو ، اما الحط الامامي فتنتشر فيه عناصر الطبيعة
لتعمل على عرقلة الزحف الالمانى . وعهد « فوش » الى الجنرال « غورو »
بمهمة تنظيم الدفاع عن المراكز الرئيسية وتنسيق عمل المدفعية التي دعيت
لمثيل الدور الرئيسي في احباط المحاولة المعادية . اما الهجوم المضاد فقد عهد

به الى اربع وعشرين فرقة بقيادة الجنرال «مانجان» يعاونه الجنرال «ديغوث» .

بدأ الهجوم الالماني صباح ١٥ تموز ١٩١٨ واستطاعت طلائع «لودندورف» ان تعبر «المارن» ولكنها اخفقت في التوغل ما وراء الضفة الغربية لان مدفعية «غورو» انبرت لها من مكائنها وقتحت عليها نيراناً كثيفة . فعدل القائد الالماني عن تهديد باريس من هذه الجهة وانتقل الى «الفلاندر» لينظم هجوماً جديداً . فسبقت الى العمل فرق «مانجان» و«ديغوث» وقتحت في الصفوف المعادية فجوة عرضها خمسون كيلومتراً بعمق عشرة كيلومترات وغنمت الوف الاسرى وعتاداً وافراً .

فقد «لودندورف» زمام المبادرة في معركة «الفلاندر» وعجز منذ ذلك عن استردادها ، لان «فوش» عرف ان يحتفظ بها لنفسه وان يستمر في موقفه الهجومي الى النهاية بالرغم من العقبات الطبيعية والمصطنعة التي قامت في طريق جيوشه . ذلك لان الوسائل التي وضعتها فرنسا وسائر الامم المتحالفة في متناول القائد العام شجعتة على المضي في خطته غير هياب ، فهو يملك من الدبابات والمدافع والطائرات اضعاف ما يملكه «لودندورف» ووضعت الولايات المتحدة تحت امرته سبعاً وعشرين فرقة توافدة الى القتال . اما العدو فقد استنفد احتياطه ونال التعب من جنوده .

وهكذا استطاعت الجيوش المتحالفة بين ١٨ تموز والسابع من تشرين الثاني ان تتخطى الحواجز القائمة في طريقها وان ترجع بالجيوش الالمانية في مأزق لا تحسد عليه ، وترغمها في النهاية على القاء السلاح .

وقد اجمع النقاد العسكريون على رد النصر الذي احرزه الحلفاء بعد اربع سنوات من النضال العنيف الى العوامل التالية :

١ - يقظة القائد «جوفر» بعد ان قام الالمان بعملية الاختراقية الناجحة على الحدود ونجاحه في ابقاء اللحمة تشد الصفوف الفرنسية والحليفة بعضها الى البعض الآخر فاحبط بهذا خطة القيادة الالمانية الرامية الى شطر الحلفاء شطرين .

٢ - تنبه الحلفاء في الوقت المناسب الى اهمية توسيع نطاق العمليات لارغام العدو على توزيع قواه ، فكانت حملة البلقان وانضمام ايطاليا الى الحلف الثلاثي . وقد سبق هذا اسراع روسيا بتعبئة قواتها وبمهاجمة بروسيا الشرقية بما الجأ العدو الى تخفيف الضغط عن الغرب لمواجهة الخطر المثل من الشرق .

٣ - تنبه الحلفاء الى اهمية التفوق في الرجال والعتاد . وقد تقادوا الاشبك والعدو في معارك حاسمة عندما كان التفوق له ، فما ان تجمع لديهم العدد الكافي من الفرق والاسلحة الآلية الجديدة حتى تركوا التحفظ والحذر جانباً .

٤ - مثلت شخصية « فوش » دوراً رئيسياً في الهجوم الحاسم . كان هذا القائد من القائلين بالدفاع مراقفاً بالكرات الموضعية عندما تكون كفة العدو راجحة على ان يعتمد الحلفاء خطة الهجوم المضاد حيث ترجح كفتهم ، وقد قال بالهجوم والهجوم الى النهاية حالما توفر لديه العدد الكافي من الدبابات والطائرات والمدافع .

وقد صرح المارشال « لودندورف » بعد الهدنة بان الحرب لم يربحها المارشال « فوش » انما ربحتها الدبابة لان الالمان فوجئوا بهذا السلاح الذي يدرج على سلاسل متحدياً الاسلاك الشائكة والمدفعية .

الفصل الثاني عشر

العود الى السلم المسلح

١ - دروس الحرب العظمى

ادرك الفرنسيون على ضوء معارك السنوات الاربع اهمية العتاد الحربي ولاسيما الاسلحة الآلية كالطائرة والدبابة ، ولم تقم اهمية الاحتياط الاستراتيجي كعنصر اساسي في نزاع طويل الامد كثير التكاليف . وكان ابرز النتائج التي اسفر عنها تطور الاسلحة وتعاضل شأنها انخفاض نسبة المحاربين خمسة وعشرين بالمئة لان انتاج الدبابات والمدافع والطائرات اقتضى التوسع في تعبئة ايدي العاملة وارباب الاختصاص . وقد اخذ معظم هؤلاء من الجهة حيث اتاحت كثافة النيران للقيادة ان تخفض عدد الجنود في كل سرية تخفيضاً محسوساً .

وتعلم الفرنسيون ، على حسابهم ، ان الدفاع عن بلادهم يجب ان يبدأ على الحدود لان توغل المحتاح يحرم فرنسا من مناطق غنية بالزراعة والصناعة . وهذا ما امل على المسؤولين بعد هدنة ١٩١٨ مشروعات دفاعية الغرض منها تأمين غطاء متين يتألف من جهاز متماسك وتعتم فيه قوات مختارة . قانون التعبئة لسنة ١٩٢٣ . - خرجت فرنسا من الحرب منهوكة القوى متقلبة بالديون . فكان طبيعياً ان يعنى المسؤولون بتخفيف الاعباء العسكرية

والمالية ، يشجعهم زوال الخطر الالمانى ووجود قوات فرنسية في رينانيا كرمز لانهايار العسكرية البروسية .

وقبل ان تصدر عن بعض الدول المنتصرة الدعوة الى تزع السلاح ، اعلنت حكومة باريس في العام ١٩٢٣ انها قررت خفض الانتاج الحربي الى الحد الادنى . وعرضت على البرلمان قانون الخدمة العسكرية لمدة ثمانية عشر شهراً وقانوناً آخر يجعل مدة الخدمة الشخصية ثمانية وعشرين عاماً منها عام ونصف عام في الاحتياط الاول وثمانية اعوام في الاحتياط الثاني . واعتبر القانون الجنود في الاستيداع رجالاتاً تابعين للجيش العامل وقد انفكوا عنه مؤقتاً ليقتضوا اجازاتهم بين ذويهم واجازوا لوزير الحربية ان يدعو منهم من يرى لزوماً لدعوته .

وبموجب قانون تعبئة ١٩٢٣ جعل قوام الجيش ٦٧٥ الف رجل منهم ٤٣٣ الفاً من الفرنسيين و ١٢ الفاً من الاجانب و ١١٣ الفاً من ابناء شمال افريقيا و ١١٥ الفاً من المستعمرات . وقد وزعت هذه القوات على النحو الآتي : ٦٥ الفاً في رينانيا و ٢٩٣ الفاً في فرنسا و ٢٤ الفاً في الجزائر وتونس و ١٨ الفاً في مراكش و ١٧ الفاً في بلدان الشرق و ١٤ الفاً في المستعمرات .

قانون ١٩٢٧ . - تناول قانون ١٩٢٣ بالتعديل نظام التعبئة دون سواه ، فجاء قانون ١٩٢٧ فنظم الجيش تنظيمياً عاماً ، جاعلاً اياه ثلاثة اقسام : القوات المرابطة في فرنسا وهي نواة الجيش العامل ، وقوات ما وراء البحار وهي مكلفة بحماية الممتلكات الفرنسية البعيدة ، والقوات المتحركة وقد اعدت للتدخل في الخارج اذا ما حدث ما يستدعي تدخلها .

وفي العام ١٩٢٨ وضع قانون خاص بملاك ضباط الصف المسلحين ،

فاتاح لصف الضابط العادي ان يبلغ مستوى زميله المسلكي ويتمتع بامتيازاته وذلك اذا اثبت كفاءته وجدارته خلال خدمة تراوح بين اربع سنوات وست . وخفض القانون مدة الخدمة فجعلها سنة واحدة . وكان القانون السابق يخضع للخدمة من بلغوا العشرين من سنهم فجعل القانون الجديد سن الخدمة الواحدة والعشرين والغي الاستثناءات الغاء تاماً .

وحدد القانون عدد الفرق بالجيش المرابط في فرنسا بعشرين فرقة مشاة وخمس فرق خيالة وثلاث فرق جوية . وجعل عدد الفرق في القوات المتحركة اربعاً يضاف اليها حضائر قوامها جنود فرنسيون وصينيون . واهتم القانون برفع مستوى ضباط الاحتياط ، فاخضعهم لتنشئة وتدريب خاصين .

غطاء الحدود . - جالت فكرة تحصين الحدود الفرنسية المقابلة للحدود الالمانية في رؤوس الفرنسيين والنزاع بعد في عامه الاول . وما ان وضعت الحرب اوزارها حتى انبرى الخبراء لدرس هذه الفكرة وتقدم فريق منهم بمقترحات وتضاميم الى وزارة الحربية فاحالتها الى اللجان المختصة . ولكن مجلس الدفاع الاعلى لم يعرها ما تستحقه من التفات .

وفي العام ١٩٢٨ استطاع الجنرال ماجينو وزير الحربية انتزاع موافقة البرلمان على انشاء جهاز دفاعي متماسك يقي فرنسا شر المفاجآت . وفي خمس سنوات تم انشاء الخط الذي حمل اسم الوزير الذي تبني فكرة بنائه وكلف الخزينة الفرنسية اموالاً طائلة .

وقد نص مشروع الجنرال ماجينو على تغطية الحدود من سويسرا حتى البحر ، ولكن الذين تعاقبوا في وزارة الحربية وفي مجلس الدفاع بعد سنة ١٩٢٨ ارتأوا الاكتفاء بتغطية المناطق الفرنسية المحاذية للحدود الالمانية مباشرة وتركوا المناطق الواقعة على محاذة الحدود البلجيكية مكشوفة اعتماداً منهم

على خط « قنائة البيرو » في البلجيك وعلى طبيعة الارض في منطقة « سيدان » .

سباق . - ولم يكتف الفرنسيون بتحسين حدودهم ، فقد عنوا منذ العام ١٩٣٢ بإنشاء فيلق مصفح ، واخذت وزارة الطيران تعنى بتسمية السلاح الجوي . وقام بين الضباط الشبان امثال « شارل ديغول » و « لارك » من يدعو الى انشاء جيش محترف يدرّب تدريباً خاصاً على الحرب الميكانيكية ويكون مجهزاً بوسائل آليّة تجعله قادراً على مصاولة العدو في ميدان حرب الحركات . ولكن القادة الذين كانت لهم الكلمة النافذة في الجيش ووزارة الحربية سفهوا هذه الفكرة وقالوا ان الجيش المحترف يحمل الامة الفرنسية عبئاً باهظاً ، وقد كفاهها ما تحملته في الحرب وفي انشاء خط ماجينو الحصين .

وبعد وصول المهر هتلر وحزبه الوطني الاشتراكي الى الحكم في المانيا تجدد في فرنسا الجدل حول الاسلحة الميكانيكية والجيش المحترف لان المانيا الجديدة وجهت الى الدبابات والطائرات عناية خاصة بعد نقضها معاهدة « فرساي » . وكانت حجة المطالبين بالاكثر من الدبابات والطائرات وبتحسين نوعها ان خط ماجينو لا يكون عنصر طمأنينة بحد ذاته ما لم تدعمه قوات متحركة . ولكن المسؤولين في هيئة اركان الحرب رفضوا اعطاء الاسلحة الميكانيكية « اهمية لا تستحقها » واستشهدوا بآراء المارشالين « بيتان » و « فرانشه ديسبره » للتدليل على ضؤولة الدور الذي يمكن الطائرة والدبابة ان تمثلاه في حرب عالمية ثانية تكون فيها فرنسا في حرز حريز بفضل خط « ماجينو » . وظل هذا الوهم مسيطراً على العقول بالرغم من كون خط « ماجينو » غير كامل ، وما اظهرته الاختبارات ابان الحرب الاهلية الاسبانية . على ان

اغراق المانيا في التسليح وتقننها في صنع الطائرات والدبابات والمدافع حملا
الفرنسيين على ايلاء الاسلحة الميكانيكية بعض العناية . ولكن انتاج
الطائرات والدبابات ظل بطيئاً لاسباب عدة ، اهمها جنوح العمال الى الاضراب
الفينة بعد الفينة تحقيقاً لمطالبهم ، وتردد البرلمان الفرنسي في الموافقة على
اعتمادات الدفاع الوطني « لثلا تثير ضخامتها مخاوف الجيران » .

وفاجأت الحوادث فرنسا وهي غير مستعدة لمواجهتها . فمن احتلال
الامان رينانيا ونقضهم احكام معاهدة « فرساي » الى قضائهم على استقلال
النمسا وتدخلهم علناً في الحرب الاسبانية . وقد تجلت قوتهم العسكرية
الآخذة بالنمو في هذه الحوادث جميعاً . وحاولت فرنسا ان تجاريمهم في هذا
المضار قبل فوات الاوان . ولكن ارتباك ماليتها وتعاقب الاضرابات في
المصانع ، وانقسام سياسيها شيعاً واحزاباً متضاربة النزعات والاهواء ، وتفسخ
الجيش الفرنسي الذي تسالت السياسة اليه من طريق قادته انفسهم ، هذه
العوامل كلها اتاحت لالمانيا ان تحتفظ بقصب السبق ، وشجعها في العام
١٩٣٨ على فرض مشيئتها في « مونيخ » .

وفي « مونيخ » ولت فرنسا جليفتها روسيا ظهرها ، فارتكبت بعمالها هذا
غلطة استراتيجية استغلها الالمان استغلالاً بارعاً ، فعملوا بعد احتلالهم
تشكوسلوفاكيا على التقرب من الاتحاد السوفياتي ، ليتسنى لهم ان يضربوا
ضربتهم في الغرب وهم مطمئنون الى نيات جارتهم الشرقية . وهذا ما حاول
غليوم الثاني تحقيقه سنة ١٩١٤ ، ولكن التوفيق لم يحالفه .

٢ - كارثة ١٩٤٠

كانت كارثة ١٩٤٠ نتيجة طبيعية للعوامل التي اسلفنا ذكرها . فقد
خاضت فرنسا غمرات حرب لم تكن مستعدة لها . وشجعها اعتمادها المبالغ
الجيش الفرنسي

فيه على غطاء الحدود، على القيام باخطر مغامرة في تاريخها، دون ان تكون واثقة من مقدرة حلفائها على مساعدتها .

وقد ذهب الخبراء العسكريون مذاهب شتى في الحكم على مسلك الجيش الفرنسي في الحرب العالمية الثانية . فمنهم من اعطى عنه صورة تظهره بمظهر الجيش المنفوخ المفكك الاوصال، وزعم انه رفض القتال لان الدعاية ادخلت في روعه انه مسوق الى الحرب للدفاع عن مصالح الرأسماليين . ومنهم من اطرى بطولة الجيش واندفاعه وحمل القادة والرؤساء تبعة الهزيمة لانهم ما احسنوا اعداد البلاد للحرب ولا عرفوا ان يتجنبوا النزاع .

معارك ال ٤٥ يوماً . - نشبت الحرب العالمية الثانية في اول ايلول ١٩٣٩ فحشدت فرنسا قواتها على الحدود في غضون النصف الثاني من الشهر المذكور، وارسلت بريطانيا حملة الى القارة بقيادة الجنرال « غورت » فاحتلت مراكزها عند ميسرة الفرنسيين .

تواجه الجيشان الفرنسي والاماني طيلة سبعة اشهر لم يتخللها سوى مناوشات بسيطة . وكان الاول يحتل مواقعها على طول الحدود الشمالية من البحر حتى الحدود السويسرية ، وكان الجناح الايمن ، من « لونغيون » حتى « بال » ، يعتمد على خط التحصينات المعروف عند العامة بخط « ماجينو » .

وفي العاشر من ايار سنة ١٩٤٠ كانت القوات الفرنسية المنتشرة على طول الحدود تتألف من ثلاثة جيوش : من البحر حتى « لونغي » كان يربط الجيش الاول بقيادة الجنرال « بيوت » ، ومن « لونغي » على طول ضفاف الرين حتى منطقة « سيلستا » كان يربط الجيش الثاني بقيادة الجنرال « بريتيلا » ، وابتداء من منطقة « سيلستا » حتى حدود سويسرا كان يربط الجيش الثالث بقيادة الجنرال « بيسون » .

كان الجنرال جيرو يقود الجيش السابع المتفرع من الجيش الاول الكبير . وكان يؤلف الجناح الاقصى للجيش المذكور ويرابط على طول الساحل ، استعداداً للاندفاع نحو البلجيك اذا ما قررت القيادة العامة ذلك .

والى يمين الجيش السابع كان يرابط الجيش البريطاني بقيادة الجنرال « غورت » ملتقاً حول المدن التالية : « ليل » ، « روبه » ، « توركوان » . وكان هذا الجيش يتألف من ثمان فرق . والى يمين الجيش البريطاني كان يرابط جيش الجنرال « بلانشار » المؤلف من ثلاث فرق افريقية ممتازة وفرقتين ميكانيكيتين خفيفتين وفرقة مشاة من الاحتياط الاول . وكان هذا الجيش يعتمد على منطقة « اوبوج » التي تشطر وادي نهر « سامبر » شطرين .

وبين نهري « سامبو » و « الموز » احتل الجيش التاسع بقيادة الجنرال « كوراب » منبسط « روكروا » وانتشر على ضفة نهر « الموز » حتى جنوب « ميزير » . وكان هذا الجيش يتألف من فرقتي خيالة وكتيبة من الصباحيين انتشرت شرق نهر « الموز » .

ووراء الجيش التاسع وجيش الجنرال « بلانشار » ، احتشدت القوات الاحتياطية التي احتفظت بها اركان الحرب العامة اذا ما دعت الحاجة للتدخل في البلجيك . وكانت هذه القوات تتألف من ثلاث فرق سيارة وفرقتين عاملتين تدعمها جميعاً ثلاث فرق مصفحة .

وكان الجيش الثاني بقيادة الجنرال « هونتريجر » يؤلف الجناح الايمن من الجيش الاول الكبير ، وكالجيش التي تقدم ذكرها ظل هو ايضاً خارج خط التحصينات ولكن جناحه الايمن كان يستند الى حصون « لونغيون » . وكان مركز الجيش الثاني يتيح له ان يؤلف نقطة الارتكاز اذا ما قررت اركان الحرب الاندفاع نحو البلجيك .

وكانت الكتلة الثانية بقيادة الجنرال « برتيلا » تتألف من ثلاثة جيوش فرعية هي التالية :

- ١ - الجيش الثالث بقيادة الجنرال « لونده » تمتد خطوطه من « لونغيون » حتى « سارلوي » ، والى يساره امام « اللوكسمبورغ » فرقة من الحياالة اعدت للاندفاع نحو الامارة الصغيرة اذا ما حاول الالمان مهاجمتها . ووراء الحياالة كانت ترابط فرقة مشاة وست فرق من الاحتياط الاول .
- ٢ - الجيش الرابع بقيادة الجنرال « ريسان » وكانت خطوطه تمتد من « سارلوي » .

كانت طليعة هذا الجيش مؤلفة من فرقتين من الجيش العامل تعززهما فرقتان احتياطيتان ، اما خطوطه فكانت تمتد من تجاه « سارلوي » حتى مرتفعات « سارغمين » اي انه كان يرابط في خط « ماجينو » .

٣ - الجيش الخامس بقيادة الجنرال « بوريت » . كان هذا الجيش يغطي الزاوية الشمالية الشرقية من فرنسا ، اي انه كان ضمن خط « ماجينو » ايضاً كالجيش الرابع . لذلك لم يكن معززاً بقوى مصفحة كبرى ولا بفرق الحياالة . وكان يتألف ، عدا الفرق التي كانت داخل الحصون ، من فرقتين عاملتين تعززهما فرقتان احتياطيتان على حدود تلال « بالاتينا » ومن فرقة احتياطية مرابطة امام غابة « هيغنو » . ووراء هذه القوى جميعا كان يمتد خط دفاعي آخر حشدت فيه ثلاث فرق احتياطية .

اما الكتلة الثالثة بقيادة الجنرال « بيسون » ، فكانت مؤلفة كما يلي :

الجيش الثامن بقيادة الجنرال « غارشيري » ، وكان يؤلف الجناح الايمن الاقصى للجيش الفرنسي كله ، وكان عليه ان يحول دون تسلل الالمان من ثغرة « بلفور » . لذلك امتدت خطوطه من شمال « سيلستا » حتى « مونيليه » ،

وكان يعززه فرقة من الصباحيين ترابط عن يمينه .
وكان الجيش الثامن يتألف من قوى مرابطة في الحصون ، ومن ثلاث فرق عاملة ، واربع فرق من الاحتياط الثاني .

وكان يرابط وراء جيوش « الازناس » و « اللورين » جيشان احتياطيان كبيران ، احدهما اعد للانذفاع نحو « سويسرا » اذا ما هاجمها العدو ، ويتألف من ثلاث فرق احتياطية ، والآخر مؤلف من ثلاث فرق عاملة احتفظ بها الجنرال « غاملان » لجهة « الالب » التي كانت جيوشها بقيادة الجنرال « اوري » .

خطة القيادة . - في العاشر من ايار ، بينما كان الالمان يجتاحون « هولندا » و « بلجيكا » و « اللوكسمبورغ » كانت جيوش شمال فرنسا ، من البحر حتى نهر « الموز » ، تندفع الى الامام بالشكل التالي :

عهد الى الجيش السابع المرابط على طول الساحل ، بان يتقدم حتى غرب « انفرس » في « بلجيكا » . وقد تقدم هذا الجيش واحتل المراكز التي عينت له ، اي انه اصبح على حدود « هولندا » التي تغلف مصب نهر « الايسكو » . وكان على الجيش السابع - في حال امتداد التدخل الفرنسي في « هولندا » - ان يحتل ضفة النهر .

ولم تعهد القيادة الفرنسية الى الجيش البريطاني بمهمة معينة ، لانه كان خاضعاً لامرة الجنرال « غاملان » بالاسم فقط ، لذلك تولى الجنرال « غورت » وضع خطة العمل لجيشه ، فقرر ان يحمي الجيش البريطاني رقبة جسر « غاند » حيث يلتقي نهر « الايسكو » و « ليس » على ان يشد في الوقت نفسه ازر حامية « انفرس » .

اما البلجيكيون فقد طلبوا ان يتروك هم الدفاع عن « لوفان » . وهذا

التحديد يعني ان خط « لوفان » - « فافر » كان الحد الاقصى المفروض
لزحف الجيش البريطاني .

وكان على الجيش الاول ان يحتشد في جبهة تمتد من « فافر » وتنتهي بعد
« نامور » ، ويجول دون تسلل العدو من ثغرة « غمبلو » . اما الجيش
التاسع فقد صدر اليه الامر بالتمركز على نهر « الموز » من « نامور »
حتى « جيفه » .

وعهد الى فرق الخيالة بان تنفصل عن الجيشين الاول والتاسع وتندفع نحو
الخطوط البلجيكية على الحدود حيث يكون الجيش البلجيكي منصرفاً الى
عرقلة تقدم العدو ومنعه من اجتياح الحدود بسرعة .

وفي الوقت نفسه يطلق الجيش الثاني خياله الى الامام في منطقة
« الاردن » البلجيكية حتى منطقة « ارلوت باستوني » على ان تكون
بلدة « سان هوير » نقطة الاتصال بين الجيشين الثاني والتاسع .

وهكذا يتبين لنا ان جيوش الحلفاء لم تدخل بلجيكا للقيام بعمل هجومي ،
بل كانت خطة القيادة ترمي الى تمركز الجيوش في جبهة دفاعية تمتد من
« انفرس » الى « لوفان » الى « فافر » الى « نامور » ، والى لمّ شعث
الجيش البلجيكي في حال تراجعه .

قوى الطرفين . - في العاشر من ايار كان الجيش الفرنسي يتألف من
مئة وخمسين فرقة مشاة (الفرقة ١٥ - ٢٠ الفاً) يتألف من مجموعها خمسة
وثلاثون فيلقاً .

وكانت القيادة العامة قد حشدت اربعة احماس هذا الجيش في الجبهة
الشالية الشرقية على حدود المانيا وبلجيكا . ففي هذه الجبهة حشدت
القيادة ٩١ فرقة وضعت تحت امرة الجنرال « جورج » الذي كان رئيساً

لاركان الحرب ومعاوناً للقائد العام الجنرال غاملان .
 اما استبقاء سائر الفرق خارج الجبهة الشمالية الشرقية فقد كان الغرض
 منه استخدامها في الجبهة الجنوبية الشرقية اذا ما تدخل الايطاليون في النزاع
 لمصلحة الالمان .

وفضلاً عن الفرق الفرنسية الواحدة والتسعين التي كانت محتشدة في الجبهة
 الشمالية الشرقية ، كان هناك ايضاً عشر فرق بريطانية وفرقة بولونية واحدة ،
 اي انه كان تحت امره الجنرال « جورج » مئة فرقة وفرقتان ، منها
 ثلاث عشرة فرقة اعدت للدفاع داخل خط « ماجينو » في « موبوج »
 و « الاردن » وفرق الخيالة المختلفة .

وعلى هذا لم يكن جيش الميدان الفرنسي يتألف من اكثر من سبع
 وستين فرقة مشاة منها ٣١ فرقة من الجيش للعامل ، وعشرون فرقة من
 الاحتياط الاول ، وست عشرة فرقة من الاحتياط الثاني .
 وكان لدى الفرنسيين فرق خيالة تضاف اليها خمس كتائب خيالة منها
 ثلاث كتائب صباحية .

اما الوحدات الميكانيكية الكبرى فكانت تتألف من ثلاث فرق خفيفة
 وثلاث مصفحة ، وامتازت هذه الاخيرة بالمتانة والقوة ، وقد قسمت الى
 كتيبتين من الدبابات احدهما ثقيلة ومعروفة باسم الدبابة « ب » والاخرى
 خفيفة من طراز « هو كيس » ، يضاف اليها شردمة من القناصة الذين يجاربون
 ممتطين سيارات مصفحة ، وفرقة مشاة ، وفرقة مدفعية ضد الدبابات ، وعناصر
 هندية مختلفة .

وقد تبين بعد الملحمة الكبرى ان كل فرقة مصفحة فرنسية كانت معززة
 بـ ١٥ دبابة ، والالمانية بخمسة . وتبين ايضاً ان الدبابات التي وضعت تحت

تصرف الفرق العاملة كانت حديثة الطراز . اما الدبابات التي وضعت تحت تصرف الجيوش الاحتياطية فقد كان معظمها قديم العهد يعود نصفه الى الحرب الماضية والنصف الآخر الى السنوات الاولى التي عقبته الهدنة .

ويجدر الاعتراف بان الالمان احسنوا استعمال دباباتهم الكثيرة لانهم تمرنوا على استعمالها مدة غير قصيرة . اما الفرنسيون فقد اخرج معظم دباباتهم الحديثة من المصانع في نيسان ، ولم يتسن للجنود والضباط ان يتمرنوا على استعمالها التمرين الكافي .

وكان من الطبيعي تجاه هذه الحالة ان يتفوق سلاح الدبابات الالماني تفوقاً ساحقاً ، فقد كان للفرنسيين دبابة مقابل عشر دبابات يملكها اعداؤهم . اكتشفت القيادة الالمانية خطة عسكرية جديدة بفضل الدبابات ، وكان لهذه الخطة اثر كبير في توجيه مجرى الحرب . فالمبادئ العسكرية كانت تقول انه لا يجوز للجيش المهاجم ان يغامر بنفسه في دفع جناحيه الى امام ليتوغلا في خطوط العدو اذ يتعرض الجناحان لخطر الهجوم من جهتين .

على هذا الاساس كانت تجري المهجمات الحربية منذ عدة قرون ، فلا تدفع القيادة بالجناحين الا اذا كان الصدر قوياً يتحرك ايضاً مع الجناحين . بيد ان القيادة الالمانية اكتشفت قبل الحرب ان الخطر الذي يتعرض له الجناحان اذا توغلا في خطوط العدو ليس اكبر من الخطر الذي يتعرض له خطوط العدو نفسها بسبب ذلك التوغل .

لهذا قررت القيادة الالمانية استعمال خطة دفع الجناحين الى الامام بدلا من كبح تقدمهما . وبدلا من ان يكون للجيش جناحان فقط يتوغلان في خطوط العدو ، جعلت له عشرات الاجنحة او الخطوط ، على ان يجري التوغل في كل مكان ممكن .

ثم ناطت القيادة تطبيق هذه الخطة بالدبابات، فهدت الى اسراب منها بمهمة التوغل بدلا من المشاة . وفعلاً رأينا الدبابات الالمانية في معارك الجبهة الغربية تهاجم خطوط العدو في كل مكان، فاذا استطاعت ان تخترقها وتتوغل فيها، تتابع تقدمها دون الاهتمام بالمؤخرة او بالخطر الذي يهددها من الجانبين، فلا تمر بضع ساعات على توغلها حتى تبلغ مؤخرة العدو وتشر فيها الفوضى . ويمكن القارىء ان يتصور الاثر الذي احدثته هذه الخطة، عندما يدرك ان مئات « الاجنحة » كانت تتوغل في الصفوف المجابهة فتخترقها وتعيث فساداً في المؤخرة، فتحول دون تأمين الاتصال بين المؤخرة والمقدمة، ثم تهاجم العدو من الخلف بينما يهاجمه المشاة من الامام والطيران من فوق، فيقع بين ثلاث نيران .

اما الخطة العامة التي اعتمدها القيادة الالمانية في اجتياح الاراضي الفرنسية فهي صورة طبق الاصل عن خطة « فون شليفن » المعدلة . وقد اعطت المصفحات والطائرات المعركة طابعاً متحرراً منذ اللحظة الاولى وسهلت للعناصر الاختراقية مهمتها الى حد كبير . وهي مهمة نيظت في الحرب العظمى الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) بالمدفعية الضخمة . اما حرب الحركات فقد تولاها في ذلك العهد فرق الحياالة . وفي الحرب العظمى الثانية اسند الالمان هذا الدور الى الدبابات تدعمها الطائرات، لان اختبارات المعارك الاخيرة في الحرب العظمى السابقة علمتهم ان الدبابة هي سلاح الهجوم الرئيسي . وهو ما اكتشفه الفرنسيون قبل سواهم ولكنهم اغفلوا العناية بهذا السلاح العظيم اتكلاً منهم على خط ماجينو من جهة وعلى مبدأ السلامة الاجماعية من جهة اخرى، هذا المبدأ الذي اخلصوا هم له حتى « مونيخ » بينما كان سواهم يعمل سراً على نفس المبادئ التي تستند اليه، اي الى المبدأ، لان بعضها

لا يتفق ومصالحه في القارة .

قلنا ان الدبابات والطائرات التي واجه بها الفرنسيون الهجوم الالماني في العاشر من ايار والايام التالية ، كانت اضعف من ان تقوى على صد العدو ، فقد كان للامان التفوق الساحق نوعاً وكمية وتكتيكاً . والغريب ان الفرق الفرنسية التي عهدت اليها القيادة العامة في ١١ و ١٢ ايار بان توقف دفعة العدو الخطرة كانت مجهزة بمئة وثمانين دبابة ، وبستين مدفعاً مضاداً . مع ان الطيران الاستطلاعي اخطر المقر العام بان العدو يهاجم في ذلك القطاع بثمانيئة دبابة تدعمها الف طائرة . وقد جربت القيادة ، امام عجزها عن مجاراة الالمان في استخدام الدبابات بكثرة ، جربت وقف الزحف المعادي بحملات تشنها الحياالة ، فكان نصيب التجربة الاخفاق التام . ومقابل الوف الطائرات الالمانية التي اخذت الفضاء منذ اللحظة الاولى للهجوم لم يستطع الحلفاء ان يطلقوا اكثر من الف وتسعمئة طائرة . فلا عجب والحالة هذه ان رأينا الجيش الالماني يضي حساب الجيش المتحالف في بضعة اسابيع ، بعد تسله من ثغرة سيدان ولفه حول خط ماجينو ، هذا الخط الذي لم يفد فرنسا شيئاً لانه ظل ناقصاً . ولم يكن عبور الالمان انهر « الموز » و « السوم » و « الالين » وتفكيكهم عرى الجبهة المتحالفة في « الفلاندر » نتيجة اخطاء ارتكبتها القيادة . انما كانا نتيجة طبيعية لتفوق الوسائل الالمانية ذلك التفوق العظيم . نعم اخذ بعض التقاد على الجنرال « غاملان » اخراجه الفرق الفرنسية من مراكزها الحصينة على الحدود ليدفع بها الى داخل البلجيك وهولندا ، ولكن غمل « غاملان » لا يشكل الغلطة الاستراتيجية التي يترتب عليها انهيار جبهة وهزيمة جيش . فقد خسرت فرنسا ، في تاريخها ، اكثر من معركة حدود ، ولكنها كانت دائماً تكبح

جماع العدو على ارضها . فهزيمة ١٩٤٠ ليست هزيمة عسكرية بالمعنى الصحيح لان الجيش الفرنسي ظل سليماً حتى اللحظة الاخيرة ، وقد كانت له مواقف بطولية على « السوم » شهد بها الالمان انفسهم واعترفوا بان افتقار خصومهم الى العناد الحديث عجل بالكارثة .

لقد كان لفرنسا في الحرب العالمية الثانية جيشها ، وكان لهذا الجيش قاداته ، اما اسباب الهزيمة فيجوز ان نتجراها على ضوء معركة ال ٤٥ يوماً دون ان تتسرع بالحكم على الجيش الفرنسي كمؤسسة وطنية لها تاريخها المجيد . فاسباب الهزيمة الظاهرة هي عجز الجيش عن الصمود في وجه اعظم آلة حربية في تاريخ الحروب الحديث . اما الاسباب الحقيقية فكامنة في عوامل ذات صلة وثيقة بنظام الحكم الفرنسي ، وبالانظمة العسكرية التي لم يدخل عليها ، بعد هدنة ١٩١٨ ، سوى تعديلات سطحية . وهي عوامل لم يلق عليها بعد نور كاف كي يجوز للمؤرخ ان يقف عندها ويتبسط بشرحها .

٣ - جيش فرنسا المحاربة

غلبت فرنسا ، كدولة عسكرية ، على امرها . الا ان روحها كامة حية لم تغلب . وكما حدث بعد كارثة ١٨٧٠ هب قادة وزعماء يستنهضون الهمم ويدعون الى مواصلة الكفاح في الوطن الام وفي الامبراطورية « لان فرنسا خسرت معركة ولكنها لم تخسر الحرب » على حد قول الجنرال شارل ده غول . ولئن يكن الزعماء الفرنسيون قد انقسموا احراراً لم يسلموا بالهزيمة النهائية ، وتعاونيين خرجوا من معركة ال ٤٥ يوماً مقتنعين بان بلادهم خسرت الحرب ، فقد ظل الشعب الفرنسي في صميم المعركة ، لان الهدنة التي كرس هزيمة فرنسا لم تقنعه بان الحرب انتهت بالنسبة اليه . فابى الا مواصلة الكفاح في السر والعلانية . وما ان ارتفع صوت الجنرال

ده غول بالدعوة الى حمل السلاح في الوطن الام والامبراطورية حتى لبي مواطنوه النداء . وتألقت في افريقيا الاستوائية نواة جيش فرنسا الحرة بقيادة ضباط يشاطرون زعيم هذه الحركة التحريرية رأيه في الحرب الميكانيكية ، وقد لمع من هؤلاء القادة الشباب : « لوكليير » و « كونيغ » و « دولارمينا » في مواقع الصحارى الافريقية ومعارك تونس . وفي الوقت نفسه كانت عناصر المقاومة في الوطن الام تتجمع وتقاوم الاحتلال وسياسة التعاون بوسائلها المحدودة .

نما جيش فرنسا المحاربة تبعاً لنمو الحركة التحريرية ، وحرص الجنرال ده غول منذ اللحظة الاولى على تجهيز قواته بالدبابات والطائرات لانه اول من اكتشف اهمية هذين السلاحين ودعا الى تعزيزهما منذ ١٩٣٣ . وبعد زول الحلفاء في شمال افريقيا سنة ١٩٤٢ خف القائد الفرنسي اليها من لندن حيث عني بتنظيم الجيش الفرنسي والجيش الافريقي على اسس جديدة وامن الاتصال بين الجزائر ومراكز المقاومة الداخلية في فرنسا ، وراح يغذي هذه المقاومة وينشطها . فلما دقت ساعة الخلاص ، ونزل الحلفاء في مقاطعة نورمندي الفرنسية في حزيران ١٩٤٤ ، وجدوا في قوات المقاومة هذه عضداً قوياً ومساعداً ثميناً .

وبعد تحرير فرنسا دعم « ده غول » قوات المقاومة في الجيش النظامي وسمح لها بان تحتفظ بشاراتها وراياتها وضباطها حتى نهاية الحرب في اوروبا وريثاً تضع الجمهورية الرابعة اسس التنظيم العسكري الجديد . هذه لمحة وجيزة عن جيش فرنسا المحاربة ، هذا الجيش الذي غسل عار الهزيمة وانقذ شرف فرنسا فاستعادت مكانتها كدولة عظمى واستأنفت السير قدماً في طريق المجد .

الفصل الرابع عشر

جيش المستعمرات

في الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ - ١٩١٨ وضعت المستعمرات والحميات الفرنسية تحت امرة القيادة العامة فحواً من سبعة الف مقاتل ، وقد مثلت هذه الممتلكات دورها في الحركة التحريرية التي تزعمها الجنرال ده غول . ولم تكن مساهمة الممتلكات في المجهود الحربي الفرنسي نتيجة تدير مرتجل انما كانت ثمره تنظيم موفق يرقى الى مطلع القرن العشرين . في السابع من تموز ١٩١٠ انشأت الحكومة الفرنسية جيشاً جديداً سمته « جيش المستعمرات » والحقته بوزارة الحربية ، الا انها وضعت له نظاماً خاصاً وجعلت ميزانيته مستقلة عن موازنة الدولة . وقد جعل قوام هذا الجيش ستة وعشرين كرادوساً (آلاي) منها تسعة عشر كرادوس مشاة وسبعة كراديس مدفعية . وضم قوات فرنسية واخرى عبئت في الممتلكات باستثناء افريقيا الشمالية .

١ - القوات السنغالية

تضم القوات السنغالية مقاتلين عبثوا في افريقيا الغربية وافريقيا الاستوائية ، وتضم الاولى خمس مستعمرات هي « السنغال » و « نيجريا » و « غينيا » و « الشاطيء العاجي » و « داهومي » . والسنغال هي اقدم مستعمرة فرنسية هبطها التجار

الفرنسيون في القرن الرابع عشر . وقد انشئ اول فوج من الرماة السنغاليين في العام ١٨٥٧ . ولكن استعمار البلاد لم يكن سهلاً فقد كلف الفرنسيين عناء كبيراً ولم يطمئئوا الى متانة الوضع الجديد الا قبل نشوب الحرب العالمية الاولى بوضع سنوات ، وبعد ان اخضعوا افريقيا الغربية كلها لحكومة مركزها دكار عاصمة « السنغال » .

افريقيا الاستوائية . - وضعت افريقيا الاستوائية تحت سلطة حاكم عام في العام ١٩٠٨ وهي تضم « غابون » و « الكونغو الاوسط » و « اوبانغي شاري » و « تشاد » . وبعد الحرب وضعت بلاد « كامرون » تحت الانتداب .

وكان نواة الامبراطورية الفرنسية في هذه البقاع قسم من منطقة مصب نهر « غابون » استولى عليه الفرنسيون سنة ١٨٣٩ واتخذوا منه قاعدة لتوسيعهم مستخدمين باديء ذي بدء القوات « السنغالية » ، ثم الفوا سنة ١٨٨٣ حملة خاصة عززتها كتائب من ابناء البلدان التي اخضعت قبل سواها .

اهمية القوات السوداء . - كان جيش المستعمرات عند نشوب الحرب العالمية الاولى يضم سبعة وثلاثين فوجاً ، وعشر بطاريات ، وثلاث سرايا خيالة ، وكتيبي هندسة . وفي العام ١٩١٧ ارتفع عدد الافواج السوداء الى واحد واربعين ، وفي العام التالي الى تسعين .

وفي الحرب العالمية الثانية كان عدد الفرق السوداء في فرنسا وافريقيا الشمالية اثنتي عشرة .

٢ - قوات الهند الصينية

استولى الفرنسيون على الهند الصينية في عهد الامبراطورية الثانية وساهم في احتلالها قوات جزائرية . وقد بدأ التوسع الفرنسي في تلك البلاد

الاسيوية سنة ١٨٥٨ باحتلال اراضي « كوشنشين » و « كامبودج » . وبعد عشر سنين على الاحتلال انشئت الميليشيا المحلية والحقت بجيش المستعمرات .

وبسطت فرنسا حمايتها على « انام » و « تونكان » سنة ١٨٨٥ بعد نضال طويل شاق .

وفي الحرب العالمية الاولى وضعت الهند الصينية ٤٣ الف مقاتل تحت امره القيادة الفرنسية العامة ، واستخدم من ابناءها في اعمال المؤخرة خمسون الف رجل ، فكان هؤلاء واولئك مثال الاخلاص والامانة . وهذا ما اهاب بوزارة الحربية الفرنسية خلال السنوات التي سبقت النزاع العالمي الثاني ان تشجع حركة التطوع في تلك البلاد ، حتى اذا دعت الحاجة الى اعلان التعبئة العامة توفر لديها قطعات مدربة ، تمرست على اساليب الحرب الحديثة .

٣- قوات المستعمرات الصغيرة

مدغشقر . - اهتم الفرنسيون بمدغشقر في عهد الكردينال « ريشيليو » الذي انشأ في جنوب الجزيرة قاعدة صغيرة « فوردوفين » . وفي الثلث الاول من القرن التاسع عشر ارسلت حملة فرنسية الى الجزيرة لان ملكتها باعت مواطناً فرنسياً في سوق النخاسة ، فاحتلت مدينة « تاماتاف » . وفي عهد لويس فيليب احتل الفرنسيون جزر « مايوت » و « نوسي - به » ، وسيطروا على ساحل مدغشقر الغربي . ولكن ملكة الجزيرة نفخت في بوق الثورة بتحريض من الاوروبيين الذين ساءم تركز الفرنسيين في تلك البقاع ، فقمعت حملة الاميرال « ميوت » الثورة واعلنت الجزيرة محمية فرنسية . الا ان الاحوال لم تستقر الا في مطلع القرن الحالي .

تطوع في الحرب العالمية الماضية اربعون الفاً من ابناء مدغشقر في جيش المستعمرات . فكانوا محاررين اشداء ولع معظمهم في معارك « فردون » و « السوم » و « المارن » . وفي الحرب العالمية الثانية بلغ عدد المجندين من « المالفاش » (الاسم الذي يعرف به ابناء مدغشقر) ستين الفاً وقد ساهموا في الحركة التحريرية التي تزعمها الجنرال شارل ده غول .

مجنودو الممتلكات الصغيرة . - جندت الممتلكات الفرنسية في المحيط الهادىء خلال الحرب العالمية الاولى فوجاً من الرماة ينتمي معظمهم الى قبائل « كاناك » . وجند الصومال الفرنسي (افريقيا الشرقية) فوجاً ساهم في معارك « فردون » و « الين » و « المالميزون » . وقدمت جزر « الرينيون » و « غوادلوب » و « المارتينيك » ستين الف مقاتل ، سقط منهم في ساحات القتال اكثر من الثلث .

قوات افريقيا الشمالية . - تقدم معنا في سياق الكلام عن الحملة الفرنسية في الجزائر ، ان قادة هذه الحملة فتحوا باب التطوع لقبول ابناء البلاد وانشأوا وحدات من « الزواف » .

وبعد ان ثبت الفرنسيون اقدمهم في تونس انشأوا سنة ١٨٨٤ كردوساً من الرماة التونسيين ، فكان نواة للفيلق التونسي الذي ابلى بلاء حسناً في الحملات التأديبية التي كانت الهند الصينية ومراكش مسرحاً لها . وفي الحرب العالمية الاولى وضعت الجزائر تحت امرة القيادة العامة ١٧٦ الف مقاتل ووضعت تونس خمسين الفاً ، وقد اشترك هؤلاء واولئك في معارك الحدود وكانت لهم مواقف رائعة .

اما مراكش فقد حالت الثورات التي نشبت فيها دون مساهمتها في جهود افريقيا الشمالية العسكري على نطاق واسع . وقد ساهمت افواج « القوم »

في الحملات التأديبية التي بدأت سنة ١٩٠٦ وانتهت سنة ١٩١٣
تحت اشراف « ليوتي » . وما ان نشبت الحرب العالمية الاولى حتى تألف اول
كردوس من الرماة المراكشين ، وانشئ الكردوس الثاني سنة ١٩١٧ ،
وفي العام التالي ظهر في الميدان اول لواء من الخيالة الصباحيين .

المراجع

المصادر العربية :

ابن خلدون	كتاب العبر	طبعة مصر
ابو الفراء	تاريخ ابي الفداء	طبعة مصر
ابن بطوطة	رحلته	
ابن جبير	رحلته	
محمد كرد علي	خطط الشام	
البياسي ابو سبكه	تاريخ نابوليون	صادر ، بيروت

المصادر الفرنسية :

Pierre Dauzet	GLORIA, <i>histoire illustrée de la guerre 1914-1918</i> , Hachette, 2 ^e éd. Paris.
Général J. Colin	LES GRANDES BATAILLES DE L'HISTOIRE, <i>de l'Antiquité à 1913</i> , Flammarion, Paris 1919.
Joseph Reinach	FRANCIA, <i>histoire illustrée de la France</i> , Hachette, Paris 1920.
Colonel J. Revol	HISTOIRE DE L'ARMÉE FRANÇAISE, Larousse, Paris 1929.
F. Funck-Brentano	L'ANCIEN REGIME, Fayard, Paris 1926.

- Jacques Bainville HISTOIRE DE FRANCE, (2 V.) *Plon, Paris* 1933.
- Général J. Colin LES TRANSFORMATIONS DE LA GUERRE, *Flammarion, Paris* 1937.
- Général Weygand HISTOIRE DE L'ARMÉE FRANÇAISE, *Flammarion, Paris* 1938.
- Charles de Gaulle LA FRANCE ET SON ARMÉE, *Plon, Paris* 1938.
- Louis Lévy VERITES SUR LA FRANCE, *Edition Pingouin, Londres* 1941.
- Charles de Gaulle VERS L'ARMÉE DE METIER, *Les Lettres Françaises, Beyrouth* 1942.
- André Maurois MEMOIRES (2 V.) *Editions de la Maison de France, New-York* 1942.
- Pertinax LES FOSSOYEURS, *Editions de la Maison de France, New-York* 1943.
- Pierre Cot LE PROCES DE LA REPUBLIQUE, *Editions de la Maison de France, New-York* 1944.

فضلاً عن عشرات المقالات والمباحث المنشورة في مجلات عربية وفرنسية خلال السنوات ١٩٤٠ - ١٩٤٥ ، تذكر منها « الحرب الجديدة المصورة » و « الشرق العسكري » الصادرتين في بيروت ، و « الجيش المصري » الصادرة في القاهرة ، و La France Libre الصادرة في لندن .

فهرس

٦	المقدمة
٨	توطئة
١٠	اقدام الجيوش الفرنسية
٣٣	جيوش العهود الاقطاعية
٥٧	حرب المئة السنة
٨٠	نشأة الجيش الملكي
١٠٣	جيوش العهد الذهبي
١٣٠	الجيش في القرن الثامن عشر
١٥٠	جيوش الثورة
١٦٥	جيوش العهدين القنصلي والامبراطوري
١٩٤	الجيش الفرنسي بين ١٨١٥ - ١٨٧٠
٢٢٥	جيش الجمهورية الثالثة
٢٤٧	الحرب الكبرى ١٩١٤ - ١٩١٨
٢٦٩	العود الى السلم المسلح
٢٨٥	جيش المستعمرات

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع الاتحاد، بيروت، في ٥ نيسان ١٩٤٥.

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00507883

